(رواية)

الإقالة من الحياة

إيرمانّو رِيا



ترجمة: د. ناصر إسماعيل

نبذة عن المترجم:

أستاذ من مصر يدرس اللغة والآداب العربية بجامعة جنوة في إيطاليا. نشر مجموعة من الأبحاث والدراسات باللغة الإيطالية.

نبذة عن المؤلف:

كاتب إيطالي من مواليد نابولي 1927. فاز بالعديد من الجوائز الأدبية في إيطاليا. عمل طويلاً في الصحافة. تكتسي أعماله الروائية بمسحة اجتماعية واقعية. من أعماله المنشورة: «الدرس الأخير» 1992، «عجائب نابولي» 1995، «نيران مضطرمة» 1998. تم اقتباس فيلم «النجمة الغائبة» 2006 عن روايته «الإقالة من الحياة».

إيرمانّو رِيا

الإقالة من الحياة

(رواية)

ترجمة: د. ناصر إسماعيل

الإقالة من الحياة

(رواية)

الطبعة الأولى 1433هـ 2012م
حقوق الطبع محفوظة

PQ4878.E17 D5712 2011
.Rea, Ermanno
[La dismissione]
الإقالة من الحياة: رواية / تأليف إيرمانّو ريا؛ ترجمة ناصر إسماعيل .- أبوظبي: هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، كلمة، 2011.
ص 478 : 13×21 سم.
ترجمة كتاب: La dismissione
تدمك: 978-9948-17-020-4
أ-إسماعيل، ناصر.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإيطالي:
La dismissione
Ermanno Rea

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 451 6515 2 971+ فاكس: 127 6433 2 971+

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

تقديم

يُعدّ الروائي، والصحافي إيرمانّو ريا أحد أهم الكتاب الإيطاليين المعاصرين الذين دأبوا في أعمالهم الروائية على تناول الواقع الاجتماعي، والسياسي المعقد لمدينة نابولي الشهيرة، الواقعة في إقليم كامبانيا في وسط إيطاليا. فإطلالة سريعة على عناوين الأعمال الروائية لإيرمانّو ريا كافية، بلا ريب، لإدراك المكانة المهمة التي تحظى بها تلك المدينة العريقة في كتابات ريا، وفكره، ووجدانه. ففي عام 1995 صدرت له رواية «عجائب نابولي»، وفي عام 2007 صدرت له رواية أخرى بعنوان «سكة حديد نابولي»، بينما أهم أعماله الأخرى مثل «نهر البو يحكي عن نفسه» (1990)، و«الدرس الأخير. عزلة فيديريكو كافي الذي فُقد ولم يُعثر عليه قط» (1995)، و«نيران مضطرمة في ساعة ليلية» لعام (1998)، وأخير الرواية التي نتناولها هنا «التسريح» التي صدرت في عام 2002، فتدور أحداثها في مدينة نابولي حيث يقوم الكاتب بسبر أغوار أوضاعها المتأزمة، وحياة أهلها، ومعاناتهم.

والمتابع لأعمال إيرمانّو ريا يلحظ أنه كثيراً ما عمد إلى تحويل رواياته الأدبية إلى ما يشبه التحقيق الصحفي الموثق، الذي يتناول فيه عرض قضايا مهمة من الواقع «النابوليتاني» مُلقياً الضوء على أوجاع مدينته التي رغم ماضيها العريق، وطبيعتها الخلابة، وقدرات أبنائها، كابدت دوماً أزمات اقتصادية وسياسية لا حصر لها، وتوطّنت بها، وتغلغلت عصابات الجريمة المنظّمة. وهذا الأسلوب الروائي، الذي يطلق عليه بعض النقاد اسم «الريبورتاج الروائي»، متأثر بلا شك بالدور الكبير

الذي اضطلع به إيرمانّو صحافياً في العديد من الصحف المهمة ذات المنزع اليساري، فضلاً عن نشاطه السياسي. وقد كانت ميوله السياسية دافعاً له أن يحمل على عاتقه رسالة الدفاع عن حقوق العمال، والتعبير عن همومهم وأحلامهم، وإبراز أهمية العمل، والصناعة في تحديث مدينة نابولي من جهة، والقضاء على البطالة، وعلى الجريمة المنظَّمة، والفساد السياسي، والإداري من جهة أخرى.

وقد نال إيرمانّو ريا العديد من الجوائز الأدبية مثل جائزة «Viareggio» في عام 1996 عن روايته «عجائب نابولي»، وجائزة «Campiello» لعام 1999 عن روايته «نيران مضطرمة». وقد أوحت رواية «التسريح» إلى المخرج الإيطالي جاني أميليو، الحائز على جائزة الأسد الذهبي في مهرجان البندقية لعام 1998، إنجاز فيلم سينمائي في عام 2006 يحمل اسم (النجمة الغائبة).

تعدّ رواية «التسريح» العمل الثاني في ثلاثية روائية بدأها إيرمانّو برواية «عجائب نابولي» واختتمها في 2007 برواية «سكة حديد نابولي»، وتمثل نابولي بتاريخها، وشوارعها، وأزقتها، وعمالها، وعصاباتها المحور الرئيسي لتلك الأعمال. وتتناول الرواية أحداثاً واقعية جرت خلال العقد الأخير من القرن الفائت استقاها الكاتب من أحد العمال الذين كانوا يعملون في مجمع إيلفا للحديد والصلب، الذي كان مقاماً في حي بانيولي في مدينة نابولي. فيستعرض إيرمانّو الأحداث التي سبقت وواكبت تصفية المجمع، الذي أُنشئ في بداية القرن العشرين، وازدهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية مما جعله يغدو رمزاً للتحديث الصناعي في منطقة من أشد المناطق فقراً في إيطاليا مقارنة بالشمال الإيطالي الذي

يتسم بنهضة صناعية عالية التقدم. بيد أن المجمع راح يعاني في أواخر الستينيات من صعوبات جمة جراء عدم تحديثه مما دفع الدولة الإيطالية لإجراء عملية تحديث شاملة به باهظة التكاليف في السبعينيات. ولكن الأزمة الاقتصادية العالمية، التي تسبب فيها ارتفاع أسعار النفط جراء حرب أكتوبر في الشرق الأوسط، زادت من تفاقم أزمات المجمع مما أدى إلى إغلاقه، وتصفية شركة إيلفا، وتسريح آلاف العمال الذين كانوا يعملون بالمجمع في أواخر الثمانينيات. ولمّا كان مجمع إيلفا يحتل مكاناً شاسعاً وخلاباً من أجمل مناطق نابولي، ذهبت آراء عديدة إلى أن السبب الرئيسي في إغلاق المصنع يكمن في أطماع المستثمرين، ورغبتهم في وضع أيديهم على أراضي المصنع دون مراعاة مستقبل العمال، فضلاً عن الفساد الإداري، والسياسي الذي أدى إلى أن يحقق المصنع خسائر فادحة. ولقد قوبل إغلاق المصنع بمعارضة شديدة من قبل النقابات، ونظّم عماله احتجاجات شديدة، وإضرابات عديدة، ولكن لم يَحُلْ كل هذا دون تصفية المصنع رسمياً في عام 1992، وبيع أغلب معدّاته، وتسريح عماله.

تنتمي الرواية إلى الأدب الواقعي أو ما يطلق عليه «الواقعية الجديدة»، وهو التيار الأدبي الذي ظهر في إيطاليا في العقد الثاني من القرن المنصرم، في أعقاب سيطرة الفاشيين على مقاليد الحكم ثم تعرض البلاد إلى هزيمة في الحرب العالمية الثانية. فكانت الواقعية الأدبية بمثابة علامة فارقة في الأدب الإيطالي لأنها دشنت مرحلة جديدة تخلى فيها الأدباء عن التقوقع داخل برجهم العاجي ليتناولوا في أعمالهم هموم تلك الحقبة المأساوية مندّدين ليس فقط بالهزيمة العسكرية، بل وبالتردي

الاجتماعي، والاستبداد السياسي بطريقة لعلها تشبه ردة فعل الأدباء والمثقفين العرب عقب هزيمة 67.

ولكننا يمكن أن نصنف الرواية أيضاً على أنها «رواية عمالية» أو «رواية المصنع» فالعامل والآلة هما بطلا الرواية دون منازع، بل إن العلاقة بين العامل وآلته هي المحور الذي تدور حوله الرواية. وهذا الصنف الروائي قد ظهر في مرحلة متأخرة في إيطاليا مقارنة بدول أوروبية أخرى مثل فرنسا (إميل زولا) أو إنجلترا (شارل ديكنز)، نظراً لأن المجتمع الايطالي قد ظل لفترة طويلة مجتمعاً زراعياً بالأساس. ولكن، عقب الحرب العالمية الثانية، ومع فترة الازدهار الصناعي في إيطاليا في الخمسينيات، والستينيات من القرن الماضي، شهد المجتمع حركات احتجاجية شديدة قادها العمال، والطلاب ولاسيما في نهاية الستينيات، مما أدى إلى أن يكتسب العمال بعض حقوقهم، فضلاً عن نمو الوعي الجمعي بأهمية تلك الطبقة، وبالحاجة الماسة إلى التعبير عنها.

وهذا الصنف الروائي لم ينل للأسف مكانة مهمة في أدبنا العربي كما حظي به أدب الفلاح مثلاً، وهذا ناتج بالطبع عن أن الصناعة لم تحتل إلى يومنا هذا دوراً محورياً في حياتنا الاقتصادية، أو الاجتماعية. وحتى البلاد العربية التي شهدت قدراً من النشاط الصناعي، فلم يتعرض أدباؤها إلى الطبقة العاملة في أعمالهم إلا نادراً، في الوقت الذي حظي الفلاح بحضور بارز في الرواية المصرية والعربية بدءاً من رواية «زينب» لمحمد حسين هيكل.

المترجم

ما من كتاب إلا ويتناول مشكلة مّا. في حالتنا هذه، فإن المشكلة تتعلق بتصفية مصنع «إيلفا» للصلب بمنطقة «بانيولي»، وهو المصنع الذي ظل شاهداً على قرن من الزمان من تاريخ مدينة «نابولي». على أي حال، فالصفحات التالية لا تبغي أن تكون إدانة، أو تحقيقاً، ولا حتى سرداً تاريخياً، أو سياسياً للحياة الشاقة للمصنع، إلى أن تمت إزالته بالكامل (على الرغم من غرابة ما حدث، وما يشوبه من شكوك وتناقضات). إن تلك الصفحات هي ببساطة إفضاء بما في صدري، إنها قصة لواقعة غبية ترتبط بمشاعري، وبإحساس بالندم، وبحنين كثيراً ما انتهى إلى صراع داخلي مرير. تتناول الصفحات لاسيما أحداث علاقة حب بين رجل وآلة (ويُقصد بالآلة هنا المصنع وما يحتويه من معدات)، لذا فهي مجرد حكاية لا أكثر.

وقد كتبت هذه الصفحات مع «فينشنسو بوونوكوري» (وهو اسم مستعار إن لم يؤسفكم هذا)، وهو عامل صيانة، وتقني سابق لآلة صب الصلب، ويعمل الآن مصمِّماً صناعياً، ولكن، دون أن يكون حاصلاً على أي درجة دراسية، أي يمكن أن ننعته بالمصمِّم العصاميّ. لا أدري في الحقيقة إن كانت هذه الصفحات تنتمي إليه أكثر مما تنتمي أليّ، فطيلة شهور جمعت كل ما أخبرني به: فقد كنّا نعقد جلسات للتحاور كل يوم لساعتين، أو ثلاث، وأحياناً، لأربع ساعات متواصلة، وقد أجبرته أيضاً على أن يرسل إليّ مجموعة كبيرة من الرسائل صارت، شيئاً فشيئاً، مع مرور الوقت، أكثر انفتاحاً، وارتباطاً بظروف حياته. إن هذه الخطابات هي من أوحت إليّ بتحويل الأمر برمته إلى عمل روائي ذي طابع تراسلي باستخدام ضمير المتكلّم، بحيث يقوم «بوونوكوري» بسرد أحداث

حياته إليّ خلال لقاءاتي معه.

لكن، هل من الأهمية بمكان تحديد المواقف التي تتحول عندها الأحداث الحقيقية إلى أخرى مُختلقة، أو بالعكس؟ فكلانا، في الحقيقة، حاضر بسنوات عمره، وبمآزقه الشخصية، بالقدر نفسه في هذه الصفحات: هو بنضوجه المضطرب، وأنا بشعري الأبيض، وبجسدي المتثاقل، وبحاجتي المُلِحّة إلى أن أخرج بنتائج شبيهة بالموازنات الختامية عن حياةٍ، وعن عصر، وثقافة، وآمال، وقلاقل كثيرة، ولكن دون أي مشروع حقيقي لدعمها. لذا فلم يكن اعتباطياً اختيار كلمة «التسريح» عنواناً للكتاب، فلسبب أو لآخر سيجد كل منّا نفسه داخل أحداث هذه الحكاية.

-1-

إن تعبيرات عينيك الحزينتين، وما يبدو عليك من استسلام، وشرود، وحركاتك المتراخية... تبدو لي نقطة بداية جيدة... ماذا يدور بداخلك في هذه البداية المتقدمة للألفية؟

يا له من سؤال جيد لأستهلّ به كتابي. إنها ساحة شاسعة خالية ومقفرة، فماذا يمكن أن يكون هناك أكثر من هذا؟ أما بالنسبة «إلى جيراني المباشرين» (يا له من تعبير غريب أشير به إلى زوجتي «روزاريا»)، فقد أحسنتَ صنعاً حينما تطرّقتَ إليهم في الأسئلة الأربعة الأولى التي طرحتَها عليّ حتى ندخل في صلب الموضوع. فمنذ أسبوع فقط، أخبرتني «روزاريا» بنيتها الوشيكة على الرحيل «لفترة تفكر فيها في الأمور» (دائماً ما يُقال هكذا عندما تبدأ العلاقة الزوجية في التعرض لبعض الهزات). لم تكن هذه المرة الأولى، فخلال فترة السنة والنصف السنة الأخيرة فقط رحلت «روزاريا» للتفكير ثلاث مرات كاملة (رحلت، ثم عادت، ولكنها ظلّت صامتة، وواصلت تجاهلها لي، كما كانت تفعل تماماً من قبل)، وهذه المرة ستكون الرابعة إذاً. وقد أخبرتني برحيلها بينما كانت متّكئة على الفراش، وتتظاهر بقراءة الجريدة، بينما كنت أتصفّح أنا بعض الأوراق، جالساً خلف منضدة على بضع خطوات منها، فغالباً ما أعمل هناك، أو في المطبخ: فالدار صغيرة، ولا مفرّ من أن نراقب بعضنا بعضاً. كانت تحدق فيّ، تساءلتُ بين نفسي عمّا كان يدور بخلْدها، لكني لم أتفوّه بشيء، فلا تعليق، ولا حتى سؤال. لا أحد يستطيع التزام الصمت كما أفعلُ أنا عندما أقرر الصمت، فصمتي ليس

متعمّداً، أي أن الصمت جزء مني، ومن طبيعتي.

أظن أنها ستذهب لبعض الوقت عند أختها التي تعيش بالقرب من روما، كما فعلت في المرات السابقة، حتى تكون في الوقت نفسه على مقربة من ابننا (الذي رحل إلى العاصمة حتى قبل أن يبلغ عامه العشرين). لقد التزمت بأن أقصّ عليك حياتي دون أدنى تردد، أو مضض؛ وأن أكشف عن نفسي، وأن أتجرد قبل كل شيء من كوني إنساناً، وزوجاً، وأباً، وعاشقاً، وأداة تنتج أفكاراً، وأحاسيس كأي إنسان آخر، وإني عاقد العزم على أن ألتزم بعهدي هذا إلى النهاية، ومنذ الآن.

لا أحسب أن هناك خطر حدوث انفصال، أو قطيعة، بيني وبين «روزاريا»، ولكن، إن حدث هذا فأؤكد لك أن الصدمة ربما ستفوق احتمالي أكثر مما أتخيله أنا نفسي. لا أدرك إن كان ما أشعر به نحو زوجتي هو حب أم لا، ولكني أعي جيداً أنه شعور يهيمن على شخصيتي بأكملها، ويجعل من زوجتي ضرورة لا غنى عنها في حياتي، حتى رائحتها التي تتلقاني في كل مساء عندما أرجع إلى الدار.

إنها امرأة ضئيلة البنية، ولكن ينبعث منها إحساس هائل بالقوة. لها هيئة امرأة شابة، ووجه ذو قسمات دقيقة، ومتناسقة. إذا أردنا أن نرسم صورة لها فلعل صورة الحكمة الدافئة تكون الأنسب للتعبير عنها: فهي ذكية، وماهرة، وثرثارة؛ ونهمة، ولكنها لا تهوى الطبخ (فكم من أمسيات ابتعنا فيها البيتزا بالحبّار، وجلبناها إلى دارنا ونحن سعداء: فكان عشاؤنا البيتزا، والجعة، ورقائق الحلوى، أو، بدلاً منها، قطع «البينيه»). إنها ليست متديّنة، ولا تؤمن بالخرافات (لم أرها أبداً تقوم بعمل تعويذات، أو حروز ضدّ الحسد، أو الشر، بل، على العكس،

كانت لتثور إن فعلت أنا شيئاً من هذا القبيل)، وقارئة شرهة للكتب، والجرائد، ولها ميول اجتماعية لا حصر لها: فحتى وقت قليل مضى كانت تساعد أخاها، في الصباح، في الشركة الصغيرة التي ورثاها عن أبيهما، بالإضافة إلى أنها كانت تتابع بانتظام نشاطات البلدية، وتساعد بودّ جيرانها، والمتقاعدين، والعجائز، والمعوقين.

في الماضي كنا نمثّل زوجين مثاليين: فكانت هي العقل، وكنت أنا الذراع. لم يحدث أبداً أن تشاجرنا، أو أن أثار أحد منا غيرة الآخر، أو تسبب في سوء فهم، حتى بضع سنوات مضت، حينما علمت «روزاريا» شيئاً عني لم تكن تعلمه من قبل، كنت قد أُخفيته عنها. أحستْ كأنّ جرحاً غائراً قد أصابها، وبخيبة أمل تجاهي، لم تستطع أبداً التغلب عليهما، أو تجاوزهما.

فمنذ عامين، وهي تتأرجح في ذاك المكان المعتم، والكئيب الذي يُسمّى التردد، دون أن تعي أن كل يوم يمر ثمة جزء من علاقتنا يتحطّم: فماذا سيتبقّى بعد ثلاثة أشهر، أو خمسة، أو، على أقصى تقدير، سنة؟ لكن لا يبدو أنها تدرك هذا. إنها امرأة قوية اكتشفت بداخلها فجأة هوة سحيقة من التردد، ولكنها ظلت جزعة منها. إنها امرأة قوية العزيمة فَقَدَت فجأة قدرتها على اتخاذ القرار.

إني أتحمّل بالطبع جزءاً من الذنب في هذا، فقد ارتكبت أخطاء، وسأحكي لك عنها بوضوح، حينما يحين الوقت الملائم لك. لكن، على كل حال، لم أرتكب أي خطأ فادح، ولم أرتكب أخطائي كلها دفعة واحدة، بل بشكل تدريجي تصاعدي، دون أن أدرك حجم الفوضى التي كنت أسير نحوها.

وها أنذا في المصنع، بل في الذي كان مصنعاً في السابق، فلم يتبق منه سوى جزء واحد، قطار التصفيح، ولكن، لحسن الحظ، فحتى هذا الجزء قد أوشك على الاختفاء أيضاً. أَجَل، ولحسن الحظ: فقد بات وجوده بمثابة كابوس للجميع. أيمكنك أن تتخيل صديقك «فينشينسو بوونوكوري» وهو يرى المشهد نفسه منذ عشر سنوات وكأنه يتحلل، ويتلاشى، ولكن، ببطء شديد، شظية شظية. إنه مصنع كبير للصلب، على الرغم من أنه محكوم عليه بالزوال بلا رجعة، إنه يكابد الاحتضار، وسكرات الموت. إن عشر سنوات لعمر كامل، وتريد مني أن أحكيها لك في سنة فقط: ينبغي أن أكون مجنوناً، لأني وافقتك على هذا.

ماذا عليّ أن أضيف؟ ففي الصباح، أصل إلى بوابات الساحة المتسخة، أجتازها، ثم أتوجه إلى مكتبي، وأجلس خلف حاسوب يظل في أغلب أوقات اليوم منطفئاً. إنني لا أبالغ مطلقاً، فمنذ أكثر من سنة، ما عدا في أوقات نادرة فقط، وأنا لا أفعل شيئاً سوى اقتلاع وريقات زهور المارغريتا (ففي إحدى المرات، مكثت أسبوعاً كاملاً دون أن أجد ما أعمله، وكاد يصيبني الجنون). ذات صباح قام زميلي في الغرفة «أرتورو»، لكي يجعلني أقلع عن هوس النظر من خلف النوافذ الكبيرة إلى «قطعة الخشب الشاسعة» التي نطفو فوقها، بتغيير وضع المكاتب، بحيث نولي ظهورنا لهذا المشهد. بيد أن المقاعد كانت دوارة، ولذا، ودون أن ندرك، فقد كنا ندور حول أنفسنا مجدداً.

«يا فينشينسو! ماذا تفعل؟ أتنظر؟»، فيفلح بهذه الطريقة في لفت انتباهي إليه، فهو، لحسن الحظ، إنسان طيب جداً، وظريف أيضاً، وهي ميزة مهمة في زميل العمل. ورغم ندرة حدوث هذا، فكثيراً ما أقوم أنا

بشكل تلقائي بالتنبيه على «أرتورو» قائلاً له: «للخلف... دُرْ»! ولكنه يلبي النداء بعد إلحاح مني قائلاً: «أمرُكَ سيدي...! ». سنكون بحاجة إلى فترة لن تقل عن السنة لإكمال تفكيك قطار التصفيح (سنستغرق عام 2002 بأكمله وربما أكثر)، فالقطار يمتد في مواجهة البحر كَسور طويل يبلغ حوالي الكيلومتر بلون أزرق شاحب كلون العسكر واليأس.

يوم يختفي قطار التصفيح لن يتبقى شيء آخر مطلقاً، بل، فقد انتهى أمر المصنع تقريباً، لكن ستبقى أطلال الفرن العالي رقم أربعة، والذي يشبه، في بعض أجزائه (إذا واتتك الشجاعة للصعود أعلاه) إلى حدّ كبير فوهة بركان «فيزوف» الخامد؛ وستبقى أيضاً هياكل بنايات المصنع، بأعمدتها المعدنية، وأروقتها الأربعة المتعامدة، التي يبلغ ارتفاع أعلاها سبعين متراً؛ إضافة إلى بعض الشموع، والمداخن، وبرج الإطفاء الذي يشبه بدوره التحصينات العسكرية (كان يقوم بتبريد فحم الكوك المشتعل قبل إرساله إلى التدوير)، والورشة الميكانيكية التي بنيت في عام 1929، وبعض البنايات، والأجهزة التي لا نعرف بعد على وجه الدقة هل سيتم نسفها بالديناميت، أو ستظل في مكانها، لتغدو شاهدة على ما كان (كالفرن العالي، وورشة الصلب) تحت مُسمى (عِلم الآثار الصناعية). ففي يوم من الأيام كان هنا مصنع، بل كان هنا المصنع...

كانت هنا مدينة مِدخنة ذات لون أحمر، وأسود (كانوا يطلقون عليها مدينة الحديد) تغطيها سماء ملتهبة يملؤها البرق: كانت تمتد لكيلومترات عديدة تتخللها هياكل عمودية، وأفقية، وساحات، وقضبان حديدية، ورافعات للنقل يبلغ طولها ثمانين متراً، ويزيد، وأكوام من النفايات المعدنية السوداء، وطرق تمتد إلى البحر، وجسور، وسفن، وأعمدة

إنارة، وسيارات للنقل، ورافعات حديدية باسقة كالأبراج. أما مساحتها فتصل إلى حوالي مليوني كيلومتر مربع من الأراضي، ويبلغ حجم مبانيها حوالي خمسة ملايين ونصف متر مكعب. كانت كشبح مظلم ضخم يتقيأ في البحر مليوني لتر من السموم في الساعة: ما بين كلور، وأمونيا، وسلفور، وفينول، وكربون. لعله أيضاً كان ينفث في السماء كمّا مماثلاً من الغازات المصحوبة بنوبات شنيعة من صريخ صفارات الإنذار.

كانت الصفارة الأولى تنطلق لتصفع الهواء في السادسة والنصف صباحاً، مما كان يجعل كل منطقة «بانيولي» تنتفض مذعورة من نومها.

وها أنا قد وصلت إلى السؤال الثاني، والأخير: عن المستقبل، ماذا أرى في ما وراء أنفي؟ يجب أن تعرف أن لديّ صديقاً صينياً اسمه «تشونغ فو»، وهو رجل غريب، ومثقف، ومن حين إلى آخر، يرسل إليّ بعض الخطابات عن بلده. لقد تعرف كل منا على الآخر في «بانيولي» في خريف عام 1994، عندما قامت الصين بإتمام عقد شراء ماكينات مصنعي، فقد كان عضواً في الوفدين اللذين أُرسلا على التوالي من «بكين». كان الوفد الأول مكوناً من خمسين متدرباً أتوا لتعلّم الاستخدام الصحيح للآلات التي ابتاعوها، أما الوفد الثاني فكان من الخبراء، والتقنيين المكلفين بمراقبة عملية تفكيك ونقل الآلات والمعدات إلى الصين عبر البحر بواسطة سفن تخزين ضخمة للغاية.

لـ«تشونغ فو» عمري نفسه (أربع وخمسون سنة كاملة)، وهو ضئيل الحجم، وقبيح الهيئة، ولكنه بالغ الذكاء: ولا يزال إلى الآن به رغبة أن أذهب إلى الصين لأتولّى مسؤولية إدارة آلتي القديمة التي تم تركيبها

في مصنع «ميشان» للصلب، على بعد ثلاثمائة كيلومتر من العاصمة «بكين». وقد باتت دعواته لي بمثابة توبيخ: سيد «بوونوكوري» لقد ارتكبت خطأً كبيراً، فقد كان بوسعك أن تخوض التجربة الأكثر أهمية في حياتك. في بعض الأحيان أقول لنفسي: لعل «تشونغ فو» كان محقاً؛ ربما لم يفت الوقت بعدُ، بل، على العكس، سأكون هناك أنا و«روزاريا». لكن، عليّ أن أحذر جيداً من سؤالها عن هذا الأمر، فأنا أعرف كيف تفكر في احتمال رحيلنا إلى الصين.

ولكن، بدلاً من الرحيل للعمل، فيمكننا أن نسافر في رحلة صلح لإعادة المياه إلى مجاريها: إلى الصين، ذهاباً فعودة، والإقامة هناك الفترة اللازمة فقط للاطمئنان على أن كل شيء في «ميشان» يسير على الوجه الأمثل: فالألواح ممتازة، والأسطوانات نظيفة، براقة، والطابعات مطيعة، والدفاتر مُراجَعة، والصيانة سريعة. أقصد أن أقول إن كل شيء هناك يسير وفق ما علّمته أنا لهم: العمال، ولاسيما المُعدات. فلا ينبغي المزاح مع آلات الصب المستمر للصلب، وحينما تكون البوتقة مليئة بالصلب السائل، ويبدأ العمل، فإن خلافاتكم تأتي بعد ذلك، بل إن أي شيء آخر يأتي بعد ذلك...

أما بالنسبة إلى السور العظيم؟ و«شنغهاي» التي يقولون عنها إنها مفعمة بالصحة؟ والمتحف الوطني لـ«بكين»؟ يبدو لي أني على وشك أن أسمعها، أسمع صوت «روزاريا» الغاضب. إنه محض خيال، كما هو واضح؛ ولكن كثير عليّ أن أراها، وأسمعها تتكلم على الأقل في مخيلتي، فهي لم تعد صامتة، بل إنها تحدثني، وتلمّح لي أن هذه الرحلة ممكنة، وفق شروط محددة. أما أنا فسأحاول أن أطمئنها قائلاً: أننا سوف

نذهب إلى تلك الأماكن، كيف لا... أتمزحين؟ إلى «شنغهاي»، والسور العظيم، ومتحف «بكين» الوطني... إني متأكد أنه إذا ما اقترحت هذا على «تشونغ فو» فإنه سيتولى الأمر، وسينظم لنا رحلة فاخرة، ليقدّم لنا أجمل ما في الصين على صينية من فضة. باختصار، إن هؤلاء الناس مدينون لي بأفضال، فأنا وحدي أعرف ما فعلته من أجلهم. كما ترى، إني لا أرى شيئاً في ما وراء أنفي: إنني فقط رجل يهذي، رجل غريب عن وطنه بين أغراب آخرين كثيرين، هناك الكثير منهم في «بانيولي».

-2-

يا «بوونوكوري» أسيصل الصينيون!

منذ وقت طويل يُقال هذا.

أتّفق معك، ولكن هذه المرة سيصلون حقاً. يبدو أنهم سيكونون هنا في شهر أكتوبر.

أخذ المهندس نفساً عميقاً، ومر عام 1994 بسرعة، من سيستطيع نسيان تنهد المهندس بعد ما حدث؟

يا «بوونوكوري» إننا نعتمد كثيراً على تعاونك معنا، إننا بحاجة إلى شروح، وإيضاحات لا حصر لها، وأنت الوحيد هنا الذي بوسعه الإجابة عن تساؤلاتنا.

كان المهندس «لوناردي» معتاداً على التحديق في العيون، ولكنه لم يكن صارماً، أو حتى كثير الثقة بالنفس، بل كان يبدو عليه هذا لأنه كان كثير الاعتناء بنفسه: أحسب أنني لم أرَ رجلاً أكثر أناقة منه. فلن أنسى أبداً، على سبيل المثال، معطفه الرمادي بياقته المصنوعة من الشعر. كان له وجه يبرز منه أنف مما يجعله يشبه القنفذ، وكانت له عينان لامعتان مُنقّطتان، وذقن مدببة. إضافةً إلى ياقة معطفه، كانت تخيفني أيضاً لهجته الجِنْوية (تعود أصوله إلى مدينة جنوة في شمال إيطاليا)، فالشمال هو الشمال، ولقد كانت إيقاعات تلك اللهجات الشمالية دائماً ما تترك فيّ أثراً.

من الناحية النظرية كان ينبغي عليّ أن أشعر بالتعاسة، ولعلي كنت حزيناً فعلاً، ولكن ظاهرياً فقط، لأن بداخلي كان ثمة إحساس خبيث

بالسعادة، وكانت بي لهفة منتشية، لأننا قد وصلنا إلى نقطة النهاية.

«أهناك ما يزعجكَ؟».

سألني «لوناردي» هذا السؤال فجأة، لكني اكتفيت بفتح ذراعيّ، وبهز رأسي، مبدياً تعجبي من السؤال. فكرت أن بوسع هذا الرجل ربما قراءة ما بداخل الإنسان، كل ما بداخله، حتى التناقضات. إني بطبعي لست إنسانا هدّاما كصديقي السابق «رايموندو لو بريستي»، رغم أنني أحمل على عاتقي مسؤولية الديناميت، والمطارق، والجرافات، والفؤوس، ولكن كل تلك الأشياء لم تترك أي أثر، أو سحر غامض بداخلي. بيد أن هذا لا يمنع أني كنت أتخيل نفسي في بعض الأوقات الصعبة المشحونة باليأس، والكآبة، وأنا على وشك أن أضع شحنة ضخمة من الديناميت المتفجر في مصنعي لأنسفه تماماً، مسبباً الهلع لكل حي «بانيولي»، إن لم يكن للمدينة بأسرها، من أقصاها إلى أدناها.

لكن كان هذا مجرد طريقة فقط لإعادة الهدوء إلى نفسي، ولكي أرجع إلى طبيعتي الحقيقية، وأعاود التفكير بتمعن في الطريقة العلمية المثلى لتفكيك أجزاء مصنعي، وهو الأمر الذي يحتاج إلى مجهود إنساني خارق في السيطرة على النفس. فلنفكك آلة صبّ المعدن: ها هو المسمار الأول، فالرابع... والثلاثون؛ وها هي الصامولة الثانية والثلاثون بعد المئة...

لقد وافقتَ أنت على أن لدي كل الحق في أن أقول إن هذا مصنعي أنا. قلتَ إنه بعدما عملتُ به لثلاثين عاماً، وبعدما فحصتُ كل أجزائه، وحركّتها بنفسي، وأدرتها، فقد صرتُ على وشك أن أكتسب الحق في أن أطلب انتقال ملكيته لي من شركة «ستيل ووركس»، وأن أقول لهم:

كيف تسمحون لأنفسكم بأن تبيعوه إلى الصينيين؟

إنك تعرف كيف تكون لاذعاً عندما يروق لك هذا. أذكر أنه منذ بضعة أيام، أو أكثر، بينما كنا نسير بطول الساحة المترِبة في المكان الذي كان مُقاماً عليه في يوم من الأيام هيكل فرن التكويك (فرن فحم الكوك)، حينها سألتني فجأة مقاطعاً حديثي المتحمس عن نتائج عملية الصيانة لأجهزة التسريب، وقلت لي: أليست كلمة «أجهزة» مؤنثة؟».

أجبتك ساعتها بامتعاض قائلاً: «لا يمكن مضاجعة الصلب ولاسيما عندما يكون ملتهبا».

حينها انفجرت ضحكاتك: «إن شهوتنا لا تكون جسدية دائماً، أو جسدية فقط. إنك بالنسبة إلي ذاك الرجل الذي يدلك برفق بطن الأجهزة المتعطلة مستلذاً ولو قليلاً بهذا. أيشعرك هذا بالإهانة؟».

أجبت بحزم: «لا أدري، سأفكر في هذا». كانت تلك الإجابة الأصدق: لو تعرف كم أغضبتني جملتك تلك، وكم من أفكار سعيدة، وبغيضة جلبتها إليّ. في عام 1994 كنت في السادسة والأربعين، إنه العمر الذي يقوم فيه عادةً الرجال الطموحون مثلي بمواجهة العالم دون خوف. فوفق خططي كان علي أن أترقى إلى درجة أعلى بكثير. ولكن... ولكن، ها أنا ذا هناك في مكتب ذاك المهندس المهذب، وكلانا قلق، ووجهتا نظرنا متفقتان تماماً على أن نرحب بالشكل الأمثل بأولئك الذين سيأخذون معهم جزءاً مهماً من مصنعنا القديم، ويحملونه معهم، قطعة وراء قطعة، إلى الصين. قبل أن أنصرف سألني «لوناردي» من جديد: «إذن! أيمكنني الاعتماد عليك تماماً يا سيد «بوونوكوري»؟ هل ستتعاون معهم إلى النهاية؟».

أجبت: «أيها المهندس، إنني أنتظر بفارغ الصبر أن تبدأ عملية تفكيك المعدات، فليكن هذا الأمر واضحاً، جلياً تماماً، إني أنتظر بفارغ الصبر أن يحدث هذا».

***

في تلك الليلة أخبرت «روزاريا» بصوت غير مبال: «سيصل الصينيون».

رفعت رأسها فجأة، وراحت تحملق فيّ. ابتسمت لها مُطمئِناً إياها. كنا قد انتهينا على التوّ من تناول العشاء، وكانت أدوات المائدة، والأطباق المتسخة، وقطع الخبز، والأكواب، وزجاجة النبيذ، وإبريق الماء لا تزال على المائدة. طفقت أضع على مفرش الطاولة بعض القطع البلاستيكية لأعطي لها فكرة عن المصنع، وهكذا صارت شوكة مطوية كالعمود المقوّس لآلة الصبّ، وتحول سكينان إلى حصيرتين تتحرك عليهما الألواح الملتهبة؛ وأصبحت المملحة كالبوتقة التي تنقل الصلب المنتج في ورشة الصلب.

قلت لها: «يا عزيزتي «روزاريا» ها هي اللعبة قد انتهت، وإني متلهف على البدء في تفكيك كل هذا، إني أتخيل أنه سيكون آخر موعد عمل لي: أعني، ينبغي عليّ أن أكون على مستوى المهمة الملقاة على عاتقي».
ثم أخذتُ أجمّع برفق كل القطع البلاستيكية التي بسطتها على المفرش.

في تلك الفترة لم يكن ثمة خلاف بيني وبينها؛ كنا شيئاً واحداً، وزوجاً رائعاً (كانت أواصر علاقتنا بحاجة فقط إلى تسريح من العمل، أو إلى كارثة لكي تتفكك).

كان كل منا يعيش ملتصقاً بظهر الآخر، وكأننا نتجسس على بعضنا

باستمرار. لم تستجب لطمأنتي لها بشكل كامل، فراحت تجمع أدوات المائدة، والأطباق من على الطاولة، وأخذت تروح وتجيء وكلما اقتربت من الطاولة حيث كنت جالساً كانت ترمقني بنظرة نارية، ثم قالت لي فجأة: «ولكنك تبدو غريباً. كأنك تخفي عني شيئاً».

«ماذا يمكنني أن أخفي عنك؟».

«لا أدري».

رحت أضحك، ثم قلت «حتى المهندس «لوناردي» يبدو عليه أنه لا يصدقني بشكل كامل عندما أقول له إني أنتظر بفارغ الصبر تفكيك أجهزة صب المعدن. لِمَ لا يصدقني أحد؟ لعلها يا «روزاريا» أثقل مهمة أُلقيت على كتفيّ».

ثم سألتْ «وفي ما بعد؟».

فأجبت بصوت واثق: «في مثل هذه الحالات لا ينبغي التفكير أبداً في ما سيحدث بعد، فلا شيء بعد».

لم يرد أحد أن يصدقني. حتى أنا نفسي في بعض الأحيان كنت أجد من الصعوبة بمكان أَخْذَ ما أقوله على محمل الجد. في الصباح التالي اتصل بي على الهاتف أحد ممثلينا النقابيين، شاب هادئ، وفطن، وقليل الكلام. كانت قد بلغت إلى مسامعه بعض الأخبار عن الصينيين، وكان يسألني إن كان لدي المزيد من المعلومات. أكدت له أنهم قد اتفقوا على الصفقة حتى وإن لم يكن الخبر رسمياً بعد، وأنهم سيصلون إلى «بانيولي» في القريب العاجل. سألني هو أيضاً عن حالتي النفسية، فأجبته «إني مُستثار للغاية».

«وكيف؟».

أبديت ضجري من الأمر، وأعدت له ترنيمتي المعتادة: بالنسبة إليّ ليس هناك أمر أفضل من تفكيك آلة الصب، وقد عقدت العزم أن أتعاون بإخلاص مع شركة «ستيل ووركس».

أذكر أنني في ذاك اليوم، عدت بعد العشاء، إلى المصنع وبصحبتي آلة تصوير فوتوغرافية، وبعض العدسات، وحامل التثبيت لالتقاط صور ذات زوايا خاصة. كان الربيع على وشك الحلول، ولكن كانت لا تزال هناك بعض النسمات الباردة: في الحقيقة كانت باردة، ولكن لطيفة، كان برداً يحمل عبق البحر.

قدتُ السيارة إلى مبنى في المصنع كان يقع به مكتبي. ما إن خرجت من مقصورة البوابة حتى داهمني الصمت وكأنه شيء حقيقي ملموس، كتلة من المادة تخضع لقوانين الفيزياء.

منذ اليوم الذي أُوقف فيه الإنتاج كانت تلك المرة الأولى التي أذهب فيها إلى المصنع بالليل، لذا فقد وجدت أمامي عالماً مختلفاً تماماً عن ذاك المألوف لي، بلا أدخنة، أو لهيب؛ بلا أصوات، أو نداءات، أو صفارات، أو فرقعات؛ ودون ذاك المزيج من الصخب الخاص بالمصنع، والذي لم يكن يوقفه شيء، ولا حتى الظلام، بل، على العكس، ففي ما يبدو كانت حدته تزداد ليلاً. في تلك الليلة كانت «السيدة العجوز» تبدو غير معروفة لي، وكانت تثير فيّ الشفقة مثلها مثل ملاكم منبطح على أرضية الحَلَبة.

اجتزتُ مهرولاً الممر القصير الذي كان يفصلني عن بوابة الدخول للمبنى؛ صعدت السلم بسرعة البرق، ودخلت إلى مكتبي الكريه الرائحة محدثاً الكثير من الجلبة. فتحت النافذة على مصراعيها دفعة

واحدة، وكان القمر قد بزغ من وراء أبنية المصنع منذ وقت قليل، التصقت بدرج النافذة مصعوقاً دون أن أقدر على الحركة.

أشعلت سيجارة. كانت بي رغبة أن يرتقي القمر عالياً في السماء حتى ينير أمام عينيّ بشكل أفضل أبنية المصنع، ومواقد الأفران، وأجهزة التسخين، ومناطق السطح المعمَّد لبرج الصيانة، والذي يرتفع عالياً فوق كتلة المصنع وكأنه عُرف ديك. التقطت أولى الصور من نافذة مكتبي.

وضعت آلة التصوير فوق حامل التثبيت، وضبطت عدستها باتجاه ورشة الصلب، والسقيفة المجاورة الخاصة بآلة الصب، وأعددتها لالتقاط صورة مطولة، ثم رحت أزيد من انفراج الزاوية في الصور اللاحقة. كانت لقطات ليلية، وكانت لديّ صور مطابقة لها اُلتقطت نهاراً (ولكن لم أكن أنا من قام بالتصوير): كنت أريد تصوير المكان تحت التأثير الليلي، وتأثير ضوء القمر. كنت قد أخبرت المهندس «لوناردي» أن في حال فشل الصفقة مع الصينيين في اللحظة الأخيرة فإنه سيكون بوسعنا وضع صوري في كتيب خاص، ومن ثَم توزيعه على كل الراغبين في شراء المصنع، فأجابني المهندس بأنها فكرة ممتازة، وطلب مني أن أبذل ما في وسعي. دلفتُ إلى سقيفة آلة الصب متبعاً طريقي المعتاد عبر مبنى الصيانة الذي لا يوجد الآن، كان بالطابق الأرضي للمبنى مكان لاستراحة العمال، وغرف لتبديل الملابس: كانت رائحة العفن والرطوبة تعمّ المكان. تابعت مسيري مباشرة إلى آلة الصب دون أن أنير الأضواء، وهناك توقفت، ونظرت حولي، ثم دخلت.

كنت قد اعتليت المصنع مرات عدة قبل أن يتم إغلاقه في أواخر

عام 1990، ولكني لم آتِ إلى هنا ليلاً، ومنفرداً من قبل. فقواعد السلامة تمنع أن يتجوّل أي شخص بمفرده داخل متاهات مصنع فولاذ مهجور، وينبغي، على الأقل، أن يكون برفقته أحد آخر، فعدد العمال الذين لقوا حتفهم هنا لا يُحصى، لأنهم لم يكونوا على مقربة من زميل آخر يمكنه إنقاذهم. لكن، كيف كان لي أن أحتمل وجود أحد آخر بجانبي في تلك الليلة؟ كانت النوافذ الواقعة مباشرة أسفل السقف، بين عمود وآخر، تبدو وكأنها مطلية بأكسيد الزنك بلونه الأبيض الشاحب، والذي بدلاً من أن يضفي بعض الإنارة على المكان، كان يُمدّد الأشياء الحقيقية الملموسة، ويضاعف عددها، مضيفاً إليها أشياء أخرى غير حقيقية. حينما أنرت الأضواء داهمني إحساس بالفراغ كالأشخاص، والأشياء التي تلوذ بالفرار.

ها هو مصنعي، إنه شاسع ككاتدرائية ضخمة ذات رواق واحد رمادي يميل إلى الزرقة بقبة عالية تزين جنباتها قطع خشبية وحديدية على هيئة أشكال هندسية كالأرابيسك تتخللها حزم من الأنابيب الشبيهة بالأوردة، وسلالم، وقضبان حديدية، وممرات معلقة في الهواء. كم ساعة من حياتي قضيتها في ذاك المكان؟ حاولت إحصاءها، ولكن دون جدوى، إنه على كل حال عدد مهول. فبينما كنتُ أضاجع آلة الصب خاصتي لم تكن توجد في «بانيولي» أية آلة أخرى مثلها، بل كانت توجد آلة صغيرة فقط لم تكن تنتج ألواحاً كبيرة، بل مجرد لويحات، أي إنها كانت ماكينة ضئيلة للغاية لا يمكن حتى مقارنتها بهذه العملاقة التي كانت تقف شامخة أمامي في ذلك المساء. كان قوسها يبلغ مداه عشرة أمتار ونصفا المتر؛ وكانت مزودة ببكرتين للحمل، وحوضين، وألواح

لا حدود تقريباً لطولها، يبدأ عرضها من 1350 ميليمتراً، وسمكها من 250. وينبغي مضاعفة كل الأرقام السابقة مرتين، لأن «بانيولي» كانت تمتلك آلتين لصب الصلب مُثبتتين على المحور نفسه، وتقطنان تحت السقيفة نفسها.

كانت الماكينة الثانية قد دخلت إلى الخدمة عقب مرور سنة واحدة فقط من بدء تشغيل الأولى في عامي 1984 و1985 على التوالي، وقد كان «فينشينسو بوونوكوري» هو من قام بتعْميدهما. يا لها من تجربة عمل طويلة! لقد ترقّيت مِن عامل يدوي بسيط إلى عامل متخصص، ثم إلى عامل صيانة، ثم رئيس وردية، ثم صرت المسؤول التقني للآلات. كان رئيس القسم، وهو رجل حاد اللسان والذكاء، اعتاد أن يطلق على الآلة لقب «سيد بوونوكوري»، بينما كان يناديني باسم «سيدة آلة»، وكان يقول لي: «أتدرين أنك صُنِعت بشكل سيئ حقاً؟ أتعرفين أن المهندس الذي صممك، وصنعك، يستحق السجن مدى الحياة؟».

كان معه كل الحق، فإن هذه الآلة كانت قد سببت لنا الكثير من المشاكل، ولاسيما حينما كانت الشفاطات تتوقف عن سَحْب الدخان المنبعث من الصلب بعد أن تقوم المضخات بنثر المياه فوقه لتبريده، وكان ذاك البخار يتسرب من الجدران التي تغطي الجانب الأعلى من الآلة، التي كانت تعزلها في ما يشبه علبة كبيرة حامية لها.

كان هذا البخار يسبب خطراً شديداً، لأنه كان يضرب الممر الأعلى الذي كان يعمل فوقه العمال، الذين كانوا مضطرين، باستمرار، إلى التنحي جانباً حتى لا تصيبهم سحابة البخار الملتهبة. في إحدى المرات قال لي رئيس القسم بصوت حانق: «يا سيدة آلة ينبغي عليك ألاّ تكوني

غير مبالية، ويجب عليك أن تصِلِي لاتفاق مع تلك الشفاطات، افعلي شيئاً! تصرفي! بل افعلي شيئاً حاسماً يضع حداً لهذه المشكلة إلى الأبد».

هل كان يهزأ مني كعادته دائماً؟ نظرت إليه مندهشاً دون أن أكون قادراً على الإجابة. حينها غيّر من لهجته، وابتسم لي، وهدّأ من حدة نظراته. فقال: «إني متأكد أنك إن قررت أن تقوِّم هذه الآلة بشكل نهائي فستنجح. إنك تتمتع بكل مقومات النجاح لعمل هذا. ادرس جيداً التعديلات اللازمة لها، ثم لتأتِ إلي!».

فبصرف النظر عن ميله للمزاح، وللمشاكسة أحياناً، فإنّه كان يقدرني كثيراً، وكان تقديره هذا لي يشبع غروري المتعطش للتقدير. في تلك الليلة لم أنم مفكراً في الإصلاحات التي كان يجب إدخالها على الآلة. ظللت أُصمّم رسومات تخطيطية حتى الفجر، حتى أن «روزاريا» عندما رأت في الصباح آثار السهر على عيني، وكم كنتُ أبدو مرهقاً، علقّتْ بكلمات قليلة قائلة: «أحسنتَ أيها الساذج! كم أود أن أتعرف على رئيس القسم!». ارتقيت فوق آلة الصب لألتقط بعض الصور من أعلى، كنت أبدو كلصّ، حتى أنني كنت أتلفت حولي بحذر كمن يخشى أن يُضبط متلبساً بارتكاب جريمة. كنت في الحقيقة أخجل من نفسي، ومما كنت أعمله: فلمَ كنت هناك في الأعلى؟ ولَم كنت أصور الجهاز؟ ولَم كنت أتحسس عليه كمن يتحسس على امرأة عارية من فتحة الباب. كنت قد وصلت إلى عربة يدوية قديمة لا أدري من أتى بها هناك بجانب قوالب الآلة، ومتى حدث ذلك، كدت أن أضع أدواتي بداخلها عندما أوقفتني بعض الجلبة. لم تكن أصواتاً شديدة، ولم يكن ممكناً التعرف عليها، وكان مصدرها مجهولاً، أهي آتية من أحد المكاتب؟

أو من السلم؟ أو من المنصة التي بالأعلى؟ أو من داخل البوتقة الهائلة المعلقة فوق خطافات ضخمة تشبه علامات الاستفهام المقلوبة؟ بغضّ النظر عن المكان الذي كانت تصدر منه الأصوات، فقد كانت تكشف عن قلق، وحرص، كان وقع خطوات، ولمسات بطيئة، حذرة.

«مَن هناك؟»، زعقت بشكل تلقائي، ولكن لم يُجب أحد، وضعت حقيبتي، وحامل آلة التصوير على العربة، واستدرت ناحية السلم. كان هناك بالتأكيد من يصعد إلى الأعلى بتؤدة، وكانت الجلبة ناتجة عن وقع أقدامه. مكثت منتظراً، ولكن بهدوء؛ كان يبدو عليّ بعض الدهشة على الأكثر. مَن ولمَ؟ وسرعان ما أتتني الإجابة. كانا مُراقبَين يقومان بجولة تفتيشية، وأصابتهما رؤية الإنارة المفاجئة داخل آلة الصب بالدهشة. لم يخبرهما أحد بزيارتي، فظنّا أن ثمة لصوصاً قد تسللوا إلى المكان، كما كان يحدث كثيراً في تلك الفترة. برزا من السلم وفي أيديهما أسلحة نارية مصوبة نحوي، مما أصابني بالهلع. قلتُ «تمهلا! إنني بوونوكوري».

كنا نعرف بعضنا بعضاً، ولكنهما لم يخفضا سلاحهما، وكانا يحدقان فيّ بريبة، وبتركيز شديد حتى أنهما لم يكونا ينصتان إلى ما يُقال لهما. كانا يرتديان البزة الرسمية الزرقاء الداكنة، والسترة ذات الحزام الأسود الكبير، وخوذة الرأس ذات القناع، مما كان يجعلهما شبيهين ببعض أبطال الأفلام الذين نشاهدهم في التلفاز، والذين لفرط غبائهم، وخطورتهم بوسعهم إخافة أكثر الناس شراً. صرخت: «اللعنة! إنني «بوونوكوري»، ألا تريدان أن تنحيا هذا السلاح جانباً؟». أخيراً صدّقاني، فقد كان من الواضح أنه أنا. همس أحدهم قائلاً وبصوته

بعض الريبة، أو، بالأصح، بعض التعجب: «إنه أنت إذن!».

عند انصرافهما قالا لي إنهما سيرجعان ثانية ليجلبا لي خوذة. قالا لي هذا بطريقة مهذبة، ولكن كان من الواضح أنه كان نوعاً من التوبيخ. أجبتُ بأن بوسعهما أن يجلبا لي الخوذة إن كان هذا ضرورياً لهما، ولكني على كل حال لن أستعملها. حاولت أن أشرح لهما برقة قائلاً: «فلتفهماني! هذه ليلة خاصة لي بعض الشيء، أيكلفكما الكثير إن تجاهلتما هذا الأمر؟». انصرفا، وهكذا كان بوسعي تصوير كل ما أريد. كنت أود أولاً تصوير كل المساحة الشاسعة الموجودة في الأسفل مع الرصيف الحديدي المزدوج، والمحورين الدائريين اللذين يشبهان الذراعين الممدودتين. في لحظة ما أدركت بأني كنت متعباً قليلاً حتى أني كنت ألهث.

كانت حركاتي كلها متعجلة كما يفعل لص عليه أن يفتح خزانة في وقت وجيز للغاية. كنت أُغير باستمرار عدسات آلة التصوير لألتقط صورا ذات زوايا كبيرة، أو عادية ذات خمسين ميليمتراً (إني مصور هاو كأولئك الذين يعيشون التصوير وكأنه نوع من الإدمان). حين دنوت من العربة اليدوية لأركّب شريط تصوير جديداً في الكاميرا سألت نفسي إن كان باستطاعتي أن أغطّ في النوم بسرعة داخل البطن المجوفة الكبيرة لآلة الصب. كان هذا الأمر في الحقيقة يُذكّرني بشيء ما بالتحديد.

لم يحدث أبداً أنني نمت في المصنع سوى مرة واحدة. كنت قد عُينت في المصنع منذ أسبوع واحد فقط، أو أكثر قليلاً، عندما أُعلن عن إضراب عن العمل لمدة دوام واحد فقط. في تلك الفترة كانت الإضرابات تحدث لأي سبب، كان أي أمر تافه كافياً لتغذية حالة من

الصراع لا هدف لها، ولا مشروع. سألتُ رئيس القسم أن يسدي لي النصح، وقلت له بصراحة: «إن هذا الأمر لا يروق لي»، فأخذ يضحك قائلاً: «ولا يروق لي أيضاً».

في النهاية لم أشارك في الإضراب، وقلت بشكل واضح، وبحسم: «إنه هراء... وأنا لن أشترك فيه». كانت النتيجة أني مكثت وحدي بالليل فوق آلة الصب. كنت وحيداً كالكلب دون أن أجد ما أفعله، بل كنت مذعوراً، ولكن كان عليّ ألا أترك القسم.

لكني لم أفقد الشجاعة. ماذا كان على شاب في الثانية والعشرين من العمر أن يفعل في موقف مثل هذا؟ وجد عربة يدوية، وملأها بورق الكارتون صانعاً منه فراشاً، وألقى بنفسه فوقه، وراح سريعاً في النوم، فلتغِثْني أنت أيها الفراش! نمت حتى السابعة صباحاً، إلى أن وصل رجال الدوام الآخر. أحد الأغبياء منهم رفع العربة عالياً ملقياً بي على الأرض، فأيقظني الاصطدام وضحكاته البلهاء.

***

أعدتُ وضع آلة التصوير في الحقيبة، وهذه بدورها والحامل في العربة اليدوية، وقررت أن ما عملته كان كافياً، لكني لم أستطع أن أقاوم رغبتي في الصعود إلى منصة القيادة هناك في الأعلى، على الرغم من أنه لم يكن على كل حال المكان الذي أشعر بالحنين نحوه، فأنا وُلدت، وسأموت عامل صيانة، ولم أكن، أبداً، ولو للحظة واحدة، عامل قيادة، مثل أولئك الذين يراقبون بصبر شديد خط ملاحة السفينة. إن العمل الرتيب لا ينتمي إليّ، وإلى خبراتي، ولا حتى إلى طبيعتي، فأنا رجل الحالات الطارئة، الرجل الذي يسد الثغرات، «الرجل الذي يدلُّك

برفق بطن الأجهزة المتعطلة متلذذاً، ولو قليلاً، بهذا».

لكني من فوق منصة القيادة كنت سأتمكن من رؤية ما لم يكن ليتيحه لي أي جزء آخر في المصنع، وأن أتفحص عن قرب لاسيما الشيء الذي طالما أشعل ذاك القدر الضئيل، أو الكثير، من الحس الفني الكامن بداخلي، البوتقة الأضخم في العالم، والذي يسع جوفها المُبطن بمادة واقية حوالي مئتي طن من الصلب السائل. يا له من مشهد حينما تقترب البوتقة قادمة من آلة صب الصلب المجاورة، والمعلقة فوق الرافعة، مصحوبة بصفارة إنذار قصيرة. كان لهذه البوتقة الضخمة الهائلة جمال طاغ لا أستطيع أن أصفه، إنه جمال يتمتع به كل شيء هائل يفوق حجمه كل ما ألفناه، واعتدنا عليه من أبعاد، واضعاً نفسه أمام أعيننا لغزاً غامضاً يدلّ على قدرة الإنسان، ورغبته المجنونة في بلوغ القوة الخارقة.

جلست أمام شرفة المنصة لفترة لا أعرف مقدارها محدّقاً في الأجزاء المستقيمة، والضرورية للغاية للبوتقة الهائلة. كانت البوتقة، لارتفاعها، وقربها من الشرفات، أكثر الأشياء التي كان ضوء القمر يضربها بأشعته المتقطعة، وكانت خيوط من الظلال المعتمة تتخلل الضوء جاعلة منه أقل حركة، وحيوية، وأكثر استكانة. سألت نفسي إن كنت متأهباً لأن أحيا ما هو آتٍ، وما إذا كنت قادراً لاسيما على أن أقطع أواصر كل ما يربطني بالماضي. ليس هيناً أبداً لرجل مثلي وُلد في أحد أزقة «نابولي» أن يُقنع نفسه بأن ينظر إلى ما هو أمامه، وليس إلى الوراء. هل كنت متأهباً؟ لقد دُعيت منذ عام 1990 لكي أفكك آلة صب الصلب، ومنذ ذاك الحين وأنا أؤدي عملي دون مشاكل. كانت تصميماتي كلها تتركز على فرضية

واحدة، نظرية، مجردة، ألا وهي بيع الجهاز، ونقله إلى مكان آخر، ولم يكن أحد منا آنذاك يحسب هذا ممكناً.

من بين المخاوف العديدة التي كانت تحيط بنا، كان ثمة أمر واحد فقط لم يكن يقض مضاجعنا، ألا وهي فكرة نقل المصنع بأكمله، لنجد أنفسنا في ما بعد في مواجهة خلاء موحش، بدلاً من هذا الازدحام الكثيف الذي تعايشنا معه حتى تلك الفترة.

كل ما كنا نشاهده آنذاك كان يؤكد على أن ما يحدث كان لا رجعة فيه، لكن كل هذا لم يفلح في أن يقضي على إيماننا الداخلي بأبدية مصنع «إيلفا». كان أغلبنا يؤمن بأن «إيلفا» لن يموت، أجل، لقد أغلقوه، وقد أوصدوا أبوابه، ولكنه سيُبعث من جديد. لعلنا لم نكن نقدر على أن نبوح بهذا، ولا حتى أن نفكر فيه بصورة واضحة، وقاطعة، بيد أن داخل روح كل منا، وفي ظلمات أغوارها، ظلت فكرة أبدية «إيلفا» حاضرة بلا شك، مما كان يعيننا على مواصلة حياتنا. سألتُ البوتقة الكبيرة إن كانت ستتعلم اللغة الصينية، هل ستتعلمينها؟ انتبهي فهي ليست لغة سهلة. لكن القمر سيظل هو نفسه، ولن يتغير، فالقمر في إيطاليا هو ذاته في الصين بضوئه الأبيض الشاحب الذي يُذكرنا بأوكسيد الزنك.

وفقا لحساباتي، كان عليّ أن أبدأ بتفكيك قلب الآلة أولاً، ثم أتبعه بالقوس الكبير، وجهاز تثبيت القطع. كان ينبغي تفكيك الآلة بحرص عبر اتجاهين مزدوجين، من الأسفل إلى الأعلى طولياً، مما كان من شأنه أن يؤدي إلى اختفاء الآلة جراء تفككها. إنه بمثابة موت رحيم وصامت لها عبر خلع أجزائها، قطعة وراء قطعة، فأُفكك هنا، وأُفكك هناك، حتى لا يتبقى شيء منها.

أُصرّ على أن هذا حدث في عام 1994.

في نهاية شهر مارس دعاني مجدداً المهندس «لوناردي» على عجل ليبلغني شيئاً مهماً كما فعل في المرة الأولى. كان قد أقلع منذ فترة عن أن يرتدي معطفه ذا الياقة المصنوعة من الشعر، وكان يضع بدلاً منه معطفاً غير منفذ للماء ذا لون فاتح، ومبطّناً بالصوف الأسكتلندي. أجلسني على مقعد في مواجهته، وطلب من السكرتيرة أن تحضر لنا القهوة. كان بي بعض الخوف، ففي المرة السابقة لم يقدم لي القهوة، كانت خبرتي تنبئني بأني على وشك أن أعرف أموراً مهمة للغاية. سألني أولاً إن كنت مستعداً أن أتابع دورة دراسية قصيرة في اللغة الإنجليزية بصحبة معلم إنجليزي: «أراهن على أنك تتقنها ولو قليلاً...».

كان ذاك صحيحاً، حسبت أنه قد تحصل على بعض المعلومات عني. كان سيشارك معي في الدورة التقنيون الثلاثة السابقون لقسم آلة الصب، والذين كانوا لا يزالون في الخدمة آنذاك: تقني الأجهزة الكهربائية، وتقني السوائل، وتقني أعمال النجارة والرافعات الحديدية. شرح لنا المهندس أن التدريب الذي سنتلقاه سيكون لمجاراة الأحداث القادمة، فبمجرد التوصل إلى اتفاق نهائي، سيُحدد الصينيون فوراً موعد وصولهم إلى «بانيولي» بعد العطلة الصيفية مباشرة (فإدارة «ستيل ووركس»، التي كان المهندس «لوناردي» يمثلها كمسؤول تنفيذي، كان لها مندوبون في العاصمة «روما»، وكانوا ينسقون الأمور مع الحكومة، ولاسيما مع وزارة التجارة الخارجية، التي كانت تتولى

بدورها الاتصال ببكين).

حيث إننا وصلنا إلى هذه النقطة فعليّ أن أوضح لك أمراً. لقد نشأت شركة «ستيل ووركس» في عام 1990 بعدما استولت عبر عملية بيع وشراء (في الواقع وهْمية وظاهرية) على مجموعة من المصانع التابعة لـ«إيلفا» في «بانيولي» بهدف بيع تلك المصانع مرة أخرى إلى أطراف خارجية. كان المدير العام لكل مصانع «إيلفا» الإيطالية يرغب شخصياً في إتمام هذه العملية لينزع بهذا من «بانيولي» كل الأصول التي كانت تمتلكها، وحتى الأراضي فقد خُصصت إلى شركة أخرى اسمها «تشيمونتوبي» عبر عملية بيع وشراء وهْمية أيضاً.

إذن، فآلات الصب كانت تنتمي إلى شركة «ستيل ووركس»، وحتى أنا أيضاً، أو على الأقل، طالما لبثتُ أتبع تلك لآلة. كنت في الحقيقة مخلوقاً مملوكاً لـ«ستيل ووركس»، ولذا لم تصبني الدهشة مطلقاً حينما اقترح عليّ المهندس «لوناردي» أن أنتقل لتبعيتهم عبر عملية استعارة مؤقتة من شركة «بانيولي» الخاضعة للتصفية (كان اسم الشركة قد تغير رسمياً ليصبح «شركة بانيولي الخاضعة للتصفية»). وافقت على الأمر دون أدنى تفكير. عندما وصل الصينيون كانت بي رغبة وحيدة فقط وهي أن أكون في قلب الأحداث حتى يكون بوسعي مراقبة الأمور، واحتلال موقع بارز طوال فترة تنفيذ العملية. لقد كانت بانتظارنا أيام صعبة للغاية، وكان يدرك هذا أيضاً المهندس «لوناردي»، الذي كان به ميل شديد إلى الترحيب، والحميمية ممزوج بقدر ليس بالقليل من التعالي، والترفع. قال لي دون أدنى حذر: «إن أياماً صعبة تنتظرنا». وحيث إني رحتُ أرقبه بنظرات حائرة متسائلة أسرّ لي بأن «ستيل ووركس» كانت

قد أعدت العدة لترتيب استقبال فخم للصينيين، استقبال يجعل أسارير المتجهم تنفرج، وقلوب الآخرين تبتهج.

«أيها المهندس أينبغي علينا أن نلتمس مغفرتهم لخطأ مّا ارتكبناه؟»

«لا مطلقاً، أنت تعرف قدر الهدية التي نقدمها لهم، لكننا نود فقط أن يسير كل شيء على ما يرام، فنحن الإيطاليين لدينا الميزة أو العيب، لا أدري، في أن نلتمس بكل الطرق إعجاب الآخرين، وتصفيقهم لنا. إن مهمتنا هي أن نفتنهم، أتفهم؟ أن نستبق رغباتهم، وأن نتساهل مع أي زلة لهم، وأن نلبي كل طلباتهم. إنك يا سيد «بوونوكوري» مهذب للغاية، وإني فضولي جداً لرؤيتك حينما يحين وقت العمل».

ثم! حاولت أن أهدئ من روعي، فهو لم يكن يقصد أن يسخر مني، بل إنه كان يحاول فقط أن يجعلني أدرك حقيقة الموقف.أما في ما يخص مراسم استقبال الضيوف، فقد شرح لي أنهم كانوا على وشك تحويل بعض الغرف السابقة التجهيز، التي كانت تستخدم كمكاتب إلى شقق صغيرة مريحة جداً، ومزودة بالمياه الساخنة والباردة، وبحوض استحمام، وبأجهزة تكييف الهواء، وبالهاتف، وبالمذياع، وبالتلفاز، وبكل الأجهزة المنزلية التي من شأنها أن تجعل الإقامة لفترة طويلة خارج المنزل مريحة للغاية. كان سيتم توفير قاعات للاجتماعات، ومكاتب، وحاسبات، وطاولات للعب كرة الطاولة، وصالة ألعاب رياضية، وصالة للكرة الطائرة للضيوف الصينيين ملاصقة لأماكن إقامتهم.

أما نحن، فكان علينا أن نكوّن فريقاً حقيقياً من المضيفين، والمترجمين، والمرشدين لاستقبال الضيوف، وخدمتهم. عاد المهندس «لوناردي» من جديد ليقول لي ثانية ما قاله منذ أسابيع مضت: يا

«بوونوكوري» نحن ننتظر الكثير منك، فالجزء الأكبر من العمل سيقع على عاتقك؛ سيكون عليك أن تجيب عن كل أسئلتهم (وأؤكد لك أنهم سيوجهون لك الكثير منها، ولن يتركوك تنعم بالهدوء، سيكون هناك اجتماع في كل صباح، وستشهد اعتراضات، ومضايقات، واحتجاجات)؛ سيكون عليك أن تزودهم بالمستندات التي يطلبونها، وأن تراقب أن عملية التفكيك تتم بالمطابقة لما خططناه، وأن تتأكد من عدم حدوث أي خطأ.

كنت حذراً جداً على ألا يبدو عليّ أي شعور بالرضا (لا أدرك إن كانت كلمة «رضا» هي الكلمة المناسبة هنا، فلتقرر أنت هذا)، ولكن لم تكن خافية عني النظرات الثاقبة المنتبهة التي كان يرقبني بها طوال الاجتماع. اتفقنا في نهاية الأمر على أن أرجع أولاً إلى تصميماتي القديمة الخاصة بتفكيك المصنع التي نفذتها في عام 1991 حتى أقوم بمراجعتها، واستكمالها.

أمضيت جزءاً كبيراً من يومي ذاك، والأيام التالية له متأثراً بهذا الاجتماع دون أن أستطيع أن أكف عن التفكير فيه. كان يبدو وكأنه قد فتح أفقاً جديداً في حياتي، ومنحها هدفاً. الآن كنت أعي أن لديّ عملاً أقوم به، وأن لدي شيئاً حاسماً، ولعلها الفرصة الأخيرة أمامي لكي أبرز كفاءتي، وذكائي، وتشبثي بالعمل. كانت تلك المهمة لتثير أيضاً حسد الآخرين، واحتجاجهم الصريح، أو المستتر نحوي، والافتراء عليّ، أو حتى مقاطعتي. لن أخجل أن أعترف أني استعرضت أسماء كل العمال الذين كانوا على درجتي المهنية نفسها، ولذا كان عليّ أن أستعد ربما لمواجهة عدائهم.

كان التقنيون المتخصصون بآلات صب المعدن في «بانيولي» في عام 1994 أربعة فقط، وأنا واحد من بينهم. نظرياً، لم يكن من الصعب عزل «التفاحة العفنة»، أو بمعنى آخر، «العدو»، ولكن هل كان هناك «عدو» حقاً؟ فلو وضعت أعدائي الثلاثة تحت أي مجهر فلن يكون باستطاعتي أن أحدد فرداً بعينه من بينهم يمكنني أن أرتاب منه. كان الثلاثة جميعهم طيبين للغاية، علاوة على أننا لم نكن يوماً متنافسين في التخصص الميكانيكي، لأن كلاً منهم كان يعمل في مجال آخر مختلف؛ في السوائل، والكهرباء، وأشغال النجارة، والحدادة، والرافعات. بيد أني، لأيام وأيام، لم أفعل شيئاً آخر سوى زيادة معاناتي من المزاج السيئ، بينما أفكر في افتراضات كانت تزداد دوماً غرابة.

لم تكُ تلك أياماً عادية لأحد. فقد ساد شعور عام بأن المصنع يسير حقاً نحو زواله، وأن بين لحظة وأخرى كانت ستنفرج ثغور في البناء القديم المُحصن، والمُغطى بالقطران. أذكر أنه كان ربيعاً عاصفاً، لياليه رطبة معتمة. في أحيان كثيرة بعد أن كنت أُوقف سيارتي أسفل منزلي، وبدلاً من أن ألقي بنفسي سريعاً داخل البوابة، كنتُ أتسلل بين أزقة الحي. كان من النادر أن ألتقي وجوهاً مجهولة، كنا جميعاً نعرف بعضنا بعضاً. لعلنا كنا نتعرف فقط على وجوه بعضنا دون حتى أن نعرف الاسم. كان الشباب فقط هم من يمتلكون عالماً حقيقياً منفصلاً، وخاصاً بهم، كانوا غرباء عنا من كل النواحي. حينما كنت أمرّ أمامهم كانوا إما يتجاهلونني، أو يرمقونني بسخرية، وعداء. كان المصنع هو ما يفصل كلاً منا عن الآخر، بل والتسريح أيضاً، وكأن كل خيوط التواصل بيننا، وبينهم قد انقطعت.

في مساء أحد الأيام أراد أحد أولئك الشباب أن يتحداني، وسألني بينما كان جالساً على متن دراجته النارية الصغيرة: «أنت يا هذا! هل أنت جبان، أو شجاع؟». نظرت إلى وجهه طويلاً، لم أكن أعرفه مطلقاً، ولم أكن أعرف أحداً من أصحابه، رغم أنه كان يبدو لي مستحيلاً أن يكونوا قد أتوا من منطقة أخرى، فلم يحدث أمر مثل هذا أبداً من قبل في «بانيولي».

سألته: «شجاع... لِمَ؟».

«ليست بي حاجة إلى أسباب مقنعة، أو غير مقنعة، لأظهر شجاعتي».

أجبته بهدوء وأنا أتقدم في طريقي: «أما أنا فأحتاج لأسباب». كان على أحد مّا أن يقول شيئاً في أُذن ذاك الشاب الذي أراد استثارة غضبي، ثم سمعت الجميع يضحكون في ما بينهم. كان نادراً ما يحدث شيء مثل هذا في تلك الفترة. كانت الطرقات في أغلب الأحوال يعمها الهدوء، والصمت، وكان الناس منهمكين في أمورهم الخاصة، بل إن مشكلتنا الحقيقية كانت الانتظار. كان هناك صراع مرير بداخلنا تنطق به نظراتنا المتسائلة إلى ما حولنا، بينما كانت أجسادنا تنتفض مستفهمة: وماذا بعد؟ ماذا سيحدث؟ كانت أعين الجميع معلقة بساعاتهم: باق من الزمن ثمانية أيام... سبعة... ستة...

كانت أخبار تصفية المصنع وبيعه تنتشر كالنار في الهشيم. فآلات الصب تُفكك لبيعها للصينيين، والفرن العالي رقم خمسة للهنود، وأفران الجير لماليزيا، وقطار التصفيح لتايلندا، وثمة قطارات للرفع من مختلف الأحجام، والقدرات، وكان معروضاً للبيع أيضاً لأفضل مشتر عربات

قطار، وقضبان للسكك الحديدية، ورافعتان هائلتان لتفريغ شحنات المعادن من السفن (ربما سيبيعونهما لماليزيا)، ومحركات كهربائية لأغراض مختلفة ذات قوة تتراوح من 500 إلى 5000 واط (كان الناس جميعهم يرددون أن مصنع «إيلفا» نافع كالخنزير، فحينما تذبحه لا تلقي منه شيئاً)، حتى الإسمنت المتهشم كان سيتحول إلى ذهب بفضل ما يحتويه من قطع حديدية (قمنا ببيعها إلى مصانع صلب أخرى)، أما الإسمنت نفسه فكان سيُباع كمادة صالحة للاستخدام في رصف الطرق، وكانت معروضة للبيع أيضاً مجموعة من التحف، والأرفف، وأثاث المكاتب...

عندما كانت تحين ساعة تناول وجبة الطعام في المصنع كان موضوع تصفية المصنع وبيعه بخساً سبباً دائماً للتشاجر بين الطاولات، فكل عامل كانت له وجهة نظر مختلفة في الأمر، وكل منهم كان يعيش اقتراب انعقاد «المزاد» بإحساسه، وبعاطفته الشخصيين. في ذاك العام، على ما أذكر، لم تحدث حالات انتحار، ولكن أُصيب عمال كثيرون بأمراض نفسية، وعصبية. كانت «روزاريا» أول من حذرتني من الهواجس، والوساوس قائلةً: «إن بدأتَ هكذا فستنتهي بلا شك عند الطبيب. أتعرف كم فرداً في «بانيولي» يعيش فقط بفضل تعاطيه لدواء «سيرينازي»؟[1] إنهم يطلقون عليه الاكتئاب المضطرب».

كنّا وكأننا نقف على حافة هوة –أريد أن يكون هذا واضحاً لك– فلم نكن لا في هذه الناحية ولا في تلك. كان المصنع لا يزال قائماً كما هو على حاله، أجل، صحيح، إنه لم يكن يتنفس، ولكن كان يكفي

(1) أحد العقاقير المهدئة للأعصاب ويستعمل لعلاج بعض الأمراض العقلية. (المترجم)

القليل لإعادة الحياة إلى أوردته، ولضخ الهواء من جديد داخل رئتيه.

كانت آخر مرة قمنا فيها بصب الصلب منذ أربعة أعوام في أكتوبر لعام 1990، إنني أذكرها وكأنها حدثت بالأمس. كنت قد استيقظت عند الفجر كعادتي، وكان خليج «بوتسوولي» يتراءى بين أدخنة الليل، ويكسوه لون وردي بهي كالمرجان، دليل لا تخطئه العين على صفاء الطقس. لا أظن إني مخطئ إن قلت إنني ألقيت نظرات طويلة، ومتأنية إلى المصنع، وإلى ألسنته النارية، لأني أقطن في منطقة كانت ولا تزال من بين المناطق الأكثر ارتفاعاً في «بانيولي»: فشقتي تقع على ارتفاع يزيد على عشرين متراً فوق سطح البحر (في الطابق السادس) وبها شرفتان إحداهما تطل مباشرة على تل «بوسيليبو»، ومن ثَم على «إيلفا»، وعلى منطقة «نيسيدا». ثُم، ألم تكن تلك النيران، وذاك المرجان على وشك الاختفاء إلى الأبد؟ (كثيراً ما أتذكر مع «روزاريا» فجر ذاك اليوم، وهي دائماً ما تؤكد لي قائلة: «كان الطقس صافياً بالتأكيد، وبالتأكيد أيضاً كانت تُزين السماء خطوط وردية فاقعة، مرجانية، ضاربة إلى الحمرة»).

لقد شهدت في حياتي لحظات سيئة نادرة مثل تلك اللحظات. عندما سقطت آخر قطرة من المعدن إلى أسفل الآلة قام العامل المسؤول عن القالب بغلق أنبوب التفريغ بينما كان مدير الدوام يعطي إشارة نهاية عملية الصب. لا أعرف من الذي كتب أن أحد الحاضرين غطى وجهه بيديه، أقسم أنه لم أكن أنا من فعل هذا، فلم تكن داخل قلبي أية مشاعر، بل كان هناك صمت شديد. أذكر أنني طللت من درج المنصة، ورحت أحدّق بلا وعي إلى الجزء الأسفل من الآلة، كان غطاء القالب بجواري

لا يزال يلهث، ويشهق متباطئاً، وبشكل متقطع كمن على وشك أن يُسلم الروح إلى بارئها. مرّ وقت طويل منذ ذلك اليوم المشؤوم، وتلك الشهور المشحونة المضطربة التي سبقته، حينما كنا في هوة مُعلَّقين بخيط رفيع من الأمل.

كنت أنا «الرجل الخارق» الذي يوجد في كل مكان، أتسلق كالقرد فوق السلالم التي كان الحدادون يركِّبونها بدءاً من قاعدة الجهاز إلى أعلى المنصة عند القمة، تتجاذبني أصوات العمال الذين كانوا ينادونني باستمرار لإصلاح شيء ما: يا «طرزان» فلتهرع! إن دخاناً كثيفاً يتسرب من هنا، يا للفوضى! يا «طرزان» لقد عَلِق صمام اللوح؛ يا «طرزان» توجد هنا اسطوانة تهتز... للأسف كانوا يطلقون عليّ «طرزان»، أو «الرجل الخارق»، على سبيل السخرية مني بالتأكيد، أو على الأقل جزئياً. لقد مر وقت طويل؛ عشر سنوات إن لم يكن أكثر. أُغلِق قطاع التبريد في العام التالي. في عام 1992 أتى الصينيون، وأبدوا رغبتهم في شراء آلة الصب فقط (لا أذكر أنهم كانوا مهتمين بشيء آخر، على عكس الهنود الذين كانوا يتنقلون باستمرار بين أقسام المصنع المختلفة، ويبدو أنهم كانوا يرغبون في شراء المصنع بأكمله حتى آخِر قطعة حديد).

كان عليّ آنذاك أن أرحب بالجميع. للحقيقة، في تلك الفترة، لم أشعر بأنهم كانوا مهتمين فعلاً بشراء المصنع، لعله بسبب الرقابة التي كانت مفروضة على تصرفات أعضاء الوفد، أو ربما نتيجة للتعبيرات المحايدة، وغير المبالية البادية على وجوهم الحريصة على ألا تكشف عما بداخلهم من أفكار، أو مشاعر، وكأنهم لاعبو بوكر متمرسون.

بيد أن المفاوضات استمرت، فعادوا إلى «بانيولي» في العام التالي بينما كنتُ في رحلة عمل في «تارنتو»، ثم توجهت بعثة إيطالية إلى «ميشان»، ولكنني لم أكن من بين أعضائها، لأني كنت أعمل في الخارج أيضاً هذه المرة. لكن، في النهاية، ها هم على وشك العودة من جديد بعد إتمام الصفقة لمراقبة مراحل تفكيك المصنع، وتعبئته، وتحميله على متن السفن.

في الحقيقة، ليس لديّ ما أحكيه لك أكثر من هذا، وأرجو ألا أكون قد خيبت ظنك. فحياتي في أغلبها تبدأ، وتنتهي مع آلة الصب، هكذا كانت حياتي. لكن أيكفيك مجرد سرد بسيط لأحداث عملية التفكيك؟ إنها ليست سوى أحداث بسيطة، رغم أني عايشتها بطريقة مختلفة، وبمشاعر قوية، وإن سمحت لي فسأقول أيضاً إني عايشتها بوعي شديد بأن عملية التفكيك كانت فرصتي الكبيرة، والويل كل الويل لي إن تركتها تفر من يدي. أخشى أن تكون تلك الملاحظة الوحيدة المهمة في سيرة حياتي الرمادية. فلتفكر جيداً! فهل من شيء آخر أحكيه لأحفادي سوى الإرهاق الناتج عن عملية تفكيك هائلة كانت في اللحظة ذاتها تمثل لي وداعاً مضنياً، ومؤلماً للماضي؟ من ناحية أخرى، تلك هي طبيعتي، ليس بوسعي أن أشاهد ما يحدث كمتفرج فقط، يجب أن أكون في قلب الأحداث، وأن أشارك في صنعها، بل وأن أقبض على صولجان القيادة إن استطعت لهذا سبيلاً.

لكن لا ينبغي عليك أن تظن أن التجربة كلها كانت موجعة، فهناك دائماً وجه آخر سعيد، ومثير للأحداث الإنسانية، فحتى الأكثر منها عتمة وتعاسة تشهد دوماً لحظات يتلاشى فيها القلق، وتنفرج الأزمة،

لترتدي ما يشبه لباس العيد. فقد تبادلنا الأنخاب مع الصينيين، وأمضينا معهم أمسيات في مجملها سعيدة، وأسرَّ كل منا إلى الآخر. أذكر وكأنه حدث بالأمس فقط اليوم الذي قال لي فيه «تشونغ فو» بكلمات إنجليزية ممزوجة بأخرى إيطالية وعلى وجهه الحذر، والحرص الشديدين، بينما كنا نروِّح عن أنفسنا معاً في هدوء تام بجوار آلة الصب: «لِمَ لا تأتي لتعمل معنا في الصين؟ فلتطلب المبلغ الذي تريده، ونتفاوض».

كنت على وشك أن أُصاب بالصدمة، «ولكني...».

كان قد أدرك تماماً كم يكلفني الابتعاد عن آلتي، ولكن ما كان علي أن أسيء فهمه: إنه يقدم لي عرضاً نيابة عن «الصين»، فلم أكن أنا بحاجة إلى بلده، بل إن بلده هي التي كانت بحاجة إليّ، إليّ أنا؟ بالتأكيد، فقد أكد لي هذا مبتسماً بسمته الغامضة.

-4-

ذات يوم طرقتُ باب مكتب المهندس منادياً إياه بصوت متحمس مما أثار ربما بعض القلق لديه حتى أنه راح يحدق فيّ بتمعن ويداه متشابكتان أسفل ذقنه، وذراعاه متكئان على المكتب، وعيناه قد صارتا صغيرتين للغاية، وجاحظتين باتجاهي، «أيها المهندس، إن سمحت لي فإني اقترح عمل شيء يفوق مجرد التجميع البسيط لتصميمات التفكيك التي نفذتها أنا وزملائي الآخرون في السنوات الماضية. إن أردت فبوسعي أن أجمع أرشيفاً كاملاً من المستندات عن آلات صب الصلب مما سيصيب الصينيين بدهشة، وإعجاب لا حدّ لهما».

«أتعني هذا حقاً؟».

«أترغب في أن أواصل عملي هذا؟».

«بالتأكيد عليك أن تواصل، ولكن، فلتشرح لي الأمر جيداً».

شعرت بنفسي يغمرها إحساس بالرضا ممتزج بالعرفان. قلت له: «إني أفكر في كل التصميمات الأصلية للشركة المصنّعة لآلات الصب، وفي جميع ملفات الصيانة الدورية لكل الماكينات، وأنوي جمع كل الكتب التوضيحية الأصلية لكافة القطع المكوّنة للآلات المختلفة؛ كالاسطوانات، والوسادات، والأسلاك المرنة، والمحركات، وأفكر أيضاً في كتيّبات التشغيل. أتدرك أيها المهندس هذا الكم الهائل كالطود من المستندات، والوثائق التي هي بحوزتنا؟».

«ولكن...».

«لا داعي للقلق! إن كل شيء مسجل لدينا، ومحفوظ وفق نظام مثالي،

كل تلك الوثائق موضوعة في قوائم، ومحفوظة على اسطوانة مدمجة، ومقسمة وفق موضوعاتها، والموجز الخاص بكل منها، ومسجلة في كتاب أعددته أنا، ويمكن اعتباره بمثابة فهرس متكامل للأرشيف بأكمله».

«أتمنى هذا!» كانت إجابة «لوناردي» على القدر نفسه من الغموض، رغم أني أعترف بأن ردّه في تلك اللحظة لم يؤسفني، وبدا لي أنه ينطوي على إطراء أكثر منه ريبة، ثم أضاف قائلاً: «أتمنى يوماً أن أستطيع أن أفهم بالضبط من تكون يا سيد «بوونوكوري»، أأنت عبقري؟ وسيكون هذا من دواعي سروري، أم إنك مجنون؟ وإلى الآن ليس بوسعي استبعاد هذا الاحتمال. أما بالنسبة إلى جبل المستندات فبوسعك أن تحضرها إلى هنا، وسنجد مكاناً لحفظها، ثم نقرر في ما بعد ماذا نفعل بها».

لحسن الحظ، فإن «روزاريا» لديها حاسة كالرادار تُمكنها من معرفة الحقيقة، وكأن للحقيقة، وللكذب رائحتين مميزتين تنبعثان منهما، طمأنتني بأن ليس لي منافسون ينبغي خشيتهم، بل إن العدو الوحيد الذي كان يمكنه أن يلحق بي الأذى كنت أنا نفسي، وهذا إن لم أتوخَّ الحذر، ولم أنأَ بنفسي، ولو قليلاً، عن الأحداث.

أفلحت كلماتها حينئذ في أن تمنحني بعض السكينة. أذكر أنه في المساء كانت تجبرني على ممارسة الجنس العلاجي لوقت طويل وبجرعات مكثفة؛ كانت تقول إن المضاجعة مفيدة أيضاً لإعادة النضارة إلى زواج كان قد أصابه الذبول، لكنني أعتقد أن هدفها كان شيئاً آخر: إنهاكي، وتحريري من التوتر. أخشى أن أحداً ما نصحها أن تفعل هذا حتى

تبقيني منشغلاً بعيداً عن أفكاري المعتادة. أدركت هذا بوضوح في أحد الأيام بينما كنت أنا وهي معاً في «بروشيدا» نقوم بعمل شيء فريد، وغير معتاد في حياتنا الزوجية: نحن الإثنان فقط في نزهة خلوية دون أن يصحبنا أقارب، أو أصدقاء.

بينما كان جسدانا يتمددان فوق منشفة من الأسفنج بجوار البحر، وقد تسلل إلينا البرد تحت الشمس الشاحبة، وجدتُ أخيراً الفرصة لأُبدي اعتراضي. «لم أشعر بنفسي مثيراً للسخرية من قبل مثل هذه اللحظة». كانت هي مَن أصرت على أن أوافق على تلك النزهة. فكلانا يعرف أنه حينما يستحكم الخلاف بيننا فعليّ دائماً، بشكل أو بآخر، أن أرفع الراية البيضاء. وكانت هي قد اعتادت على هذا، حتى أنها لم تكن تفكر أبداً أن الأمور يمكن أن تأخذ منحى آخر، فكانت دائماً ما تلجأ لترديد الجملة نفسها: «يا بوونوكوري لَمَ نضيع كل هذا الوقت؟ فليس بوسعك إلا أن تفعل شيئاً واحداً: الاستسلام». كنت أستسلم دائماً في كل مرة بلا استثناء. كان بالأحرى عليّ التسليم في تلك المرة أيضاً، ولَمَ لا وقد كانت النزهة قد رُتبت بغرض إدخال البهجة إلى قلبي.

أبصرت عينيها، وقد اغرورقتا بالدمع. إنها امرأة قوية صلبة، رغم ملامحها الطفولية، وعندما تبكي يكون بكاؤها سببه الغضب بنسبة 98٪. قالت لي: «يا بوونوكوري إنك ناكر للجميل، بل إنك ابن مومس رغم أن أمك امرأة طيبة كالقديسين».

نَهَضَتْ، وتوجهتْ نحو طرف الشاطئ، حيث كان يوجد مقهى. حينما رجعتْ كانت قد أصلحت من زينتها، وكان الصفاء قد عاد إلى نظراتها. جلستُ بجوارها، وأحطت ركبتيها بذراعي، فقالت «أحياناً

مّا تخيفني. لا أفهم ماذا تريد. فحياتي، في مجملها، لم تكن قاسية هكذا معك... كنتَ ترغب في أن تغدو رجلاً ذا شأن، وقد أصبحت».

«أحقّاً؟».

خشيت أن تسبب سخريتي الإهانة إليها من جديد، ولكنها داعبتني بحنان، وتحسست جبهتي بطرف أصبعها، وكأنها تحاول أن تلملم ما بداخل رأسي «ماذا تريد يا بوونوكوري؟ قل لي، أخبرني به بوضوح».

نظرت إليها مندهشاً، لكني لا أريد شيئاً غير عادي، أرغب فقط في أن أواصل عملي في هدوء، «أنا لا أطلب شيئاً سوى أن أفكك آلة الصب كما طُلب مني، بطريقتي، بشكل مثالي. إن ما يشغلني فقط هو أن أختتم مسيرة عملي بشكل لائق. فأنا أيضاً لي الحق في أن يكون لي تحفتي الفنية».

***

في الأيام الأولى لشهر مايو –كنت قد أنهيت دورة اللغة الإنجليزية منذ فترة وجيزة– بدأتْ عملية إعادة هيكلة الغرف السابقة التجهيز. فالحكومة التي كانت ترغب في أن تظهر للصينيين ترحيبها بهم، أوصت شركة «ستيل ووركس» أن تجتهد في أداء دورها كمُضيف كريم، وأن تعد العدة لتجهيز استقبال من الدرجة الأولى للضيوف، وأرسلت لنا مترجمة شابة، ولكنها على درجة عالية من الذكاء، والحيوية، جاءت إلى «بانيولي» من شمال إيطاليا. أما أنا وزملائي في المجموعة التقنية فأخذنا أماكننا في المبنى الملاصق لورشة الصلب في الطابق نفسه الذي كان يوجد فيه مكتب «لوناردي»، وكان بجوارنا فتاتان، وفتَيان، كان عليهم تولّي مسؤولية العلاقات العامة، ومساعدتنا في أداء عملنا.

في الصباح كانت الجلبة تعم المكان. تولّت سيدةٌ جميلةٌ ذات عينين سوداوين، وناعستين، وشعر أسود، في الثلاثينيات من العمر، مهمة السكرتارية بكفاءة كبيرة لم نكن لنتخيلها في مستهل الأمر. يا سيدة «بياتريتشي» إنك لست فقط امرأة جميلة، ولكنك ماهرة أيضاً... كانت تعقب بإجابة واحدة: كيف...؟ ألم تكونوا تدركون هذا من قبل؟

قلتُ للجميع دون لبس، أو غموض، إنني المسؤول الوحيد الذي ينبغي الرجوع إليه في حال حدوث أية مشكلة. كان بوسعها الاتصال بي في أي مكان، في البيت، أو في المكتب، وكان عليّ أن أكون متاحاً للاتصالات حتى أثناء الليل.

لم يصرح لي أحد أن أنطق بكلمات مثل تلك، على الأقل، ليس بهذه الصراحة. كان هناك اتفاق عام بيني، وبين المهندس «لوناردي» على أن أتحمل القدر الأكبر من المسؤولية بين أفراد المجموعة، بيد أني مع مرور الوقت بدأت أفقد السيطرة تدريجياً على نفسي، وعلى انفعالاتي.

في المساء كانت «روزاريا» تحاول، دون جدوى، أن تحثّني على الهدوء، وعلى الكف عن التفكير. أي هدوء؟ وأي كف عن التفكير؟ إن مغامرة جديدة كانت على وشك أن تبدأ. لقد دعتني الحياة لأقوم بمهمة شاقة للغاية للوصول إلى الكمال الذي كنت أتوق إليه دوماً. كثيراً ما كنت أتظاهر بأني أستمع إليها محدقاً في عينيها، ولكن كانت أفكاري تحلق في مكان آخر، كانت حينذاك تقول لي متأسفة: «ها أنت قد انغلقت على نفسك، الوداع يا بوونوكوري»، أما أنا فكنت أبتسم لها وعلى وجهي تعبيرات بلهاء. لكن، لم يكن صحيحاً أني انغلقت على

نفسي، بل، على العكس، فلم أشعر بأني منفتح على الخارج هكذا من قبل، ولم أك أبد مستعداً مثل اليوم لأن أسرّ إلى الآخرين، ولأن أستمع إليهم. أذكر أنه في تلك الأيام توطدت صداقتي مع العجوز «كارلو مارتينيز»، والذي كانت حِكْمته في «بانيولي» تُعد كنزاً للجميع. في مساء أحد الأيام أخبرته بما يؤرق نفسي، فراح يشجعني قائلاً: «إنك لا تتخيل كم تتعلق الأنظار بك، فحتى هذه اللحظة نحن لم نفعل شيئاً سوى الكلام فقط، فقد كان التسريح مجرد افتراض لا أكثر. وها نحن الآن نشهد خطر تحول الافتراض إلى واقع. إننا جميعاً نطل من الشرفات لنشهد تحركاتك بترقب شديد».

كنا نتنزه بين طرقات «بانيولي» بين زحام الفتيات ذوات النهود البضة النافرة، وفتيان ذوي شعور مصبوغة، ومنحوتة؛ ولكن كان هناك أيضاً رجال لهم عمري نفسه يحدقون في الواجهات المضاءة لبعض المحال الفخمة التي اُفتتحت منذ فترة قليلة، وكأن الحظ السعيد قد حط فجأة على «بانيولي». كانت «روزاريا» في «ميلانو» منذ بضعة أيام. كانت قد ذهبت هناك لتزور خالة لها، شقيقة لأمها، أُجريت لها عملية جراحية، ولن ترجع قبل أسبوع. ماذا كان بوسعي عمله لأقضي وقتي سوى أن أخرج في المساء لأتجول؟ فبدون «روزاريا»، ودون شكواها المستمرة مني، وتحذيراتها، ونصائحها، وتوبيخها لي كنت رجلاً ضائعاً. لم يكن بوسعي سوى أن أدافع عن نفسي أمامها ما إن تطأ قدماها من جديد عتبة باب البيت.

أقنعت «مارتنيز» بأن يصحبني حتى ميدان «بانيولي» رغم أنه لم يكن بي أي شوق لرؤية ذاك المكان الذي حولته الأحداث إلى مثلث ميت في

الضاحية. كان هذا الميدان مسرحاً لليال بلا نوم سهرناها عند أطراف المصنع: حينما كنا نعود مجدداً إلى العالم بعد ثماني ساعات من العمل بصحبة آلة الصب، والفرن العالي، متلهفين على احتساء فنجان من القهوة الساخنة؛ أو حينما كانت تجذبنا قبل الدوام رؤية الباعة الجائلين، وجيوبهم المعبأة بساعات الروليكس الزائفة؛ وكنا نستغرق في الثرثرة، والنكات، والضحكات، والمزاح؛ أو عندما كانت تخطف أبصارنا أضواء الحانات التي لم تكن تُغلق أبداً، ومحال اللحوم المملحة التي كانت تعمل طوال الأربع والعشرين ساعة؛ أو حينما كانت تشدنا رائحة الخبز الطازج الخارج للتو من فرن المخبز القريب من المصنع.

ثم داهم التغير المفاجئ كل شيء... مفاجئ؟ هناك من يقول إن الأمر حدث فجأة بين عشية وضحاها، في اليوم التالي لإغلاق قسم التبريد في عام 1991، والبعض الآخر يزعم أن الأمر حدث تدريجياً كالنزيف المتواصل الذي يعقبه الموت. فقد اختفى في أول الأمر الباعة المتجولون، ثم العمال، وبعدهم الموظفون، ثم العاطلون، ومن بعدهم المومسات، ثم بعد ذلك بدأت بعض أنوار المحال تنطفئ رويداً رويداً، على فترات غير منتظمة.

لم أذهب منذ وقت طويل إلى ميدان «بانيولي» ليلاً. بعدما قطعنا جزءاً من الطريق، كنت أنا و«مارتينيز» على وشك الرجوع من حيث أتينا، ولكننا واصلنا المسير. لعلنا كنا نريد أن نراقب في هدوء تلك الليلة الشاحبة في أحد أكثر الأماكن اضطراباً، وأوضحها دلالةً على حال المنطقة بأسرها، على الأقل حتى سنوات قليلة مضت، أو لعل الحنين هو ما قادنا إلى هناك. أوينا إلى الحانة الوحيدة المفتوحة، وكان بها فقط

شابان يشبهان «الفُتوات»، وامرأة شابة في العشرين من عمرها كانت تتفحّص باهتمام شديد يديها، وأظافرها المطلية باللون البنفسجي المائل للسواد. كانت ترتدي بنطلون جينز من القطيفة، وصدرية ضيقة للغاية بياقة على هيئة الرقم سبعة تكشف من تحتها عن صدر الفتاة العاري بكافة تفاصيله المثيرة. أعترف بأني ظللت أحملق فيها طويلاً بينما هي تطلق نحوي نظرات من السخرية من الأسفل إلى الأعلى. همس «مارتينيز» في أذني بشيء لينبهني، ثم انصرفنا سريعا.

في تلك الليلة رأيت حلماً: كان سقف آلة الصب قد اختفى، وكانت هناك نجوم تنذر، وتتوعد في سماء مكتظة، أما أنا فكنت جالساً فوق المنصة، وأنظر حولي بقلق، واضطراب. فلم يتبق شيء تقريباً من الآلة سوى شريط في قوس الجهاز بغطائه اللامع المصنوع من نيكل الكروم. سألت نفسي لِمَ تركوه في متناول اللصوص. هبطتُ من المنصة، وبلغت الطابق الأرضي، وقعدت القرفصاء بجواره، ودققت النظر فيه، كان يحمل رقم 47,2115 /ب. يا إلهي! إننا نعرف بعضنا! ففي الماضي كنت قد أسديت لهذا الشريط المتمرد نصائح لا حصر لها. كان قد أُصلح، وأُعيد إلى العمل مجدداً لثلاث مرات تفصِلُ بين كل منها ستة، أو ثمانية أشهر.

يوجد في القوس الكبير عدد كبير من الشرائط لا يمكن أن يجهلها أي خبير صيانة جدير بالاحترام. كنت أعرفها شريطاً شريطاً، فمنها المتقابلة، والمزودة بمحرك، والثابتة، والخاصة بالنقل، وحتى تلك التي تعمل فوق اسطوانة في القسم الخاص بالقَطْع، وذاك الخاص بالتفريغ، كنت أعرفها جيداً، فهي مزوّدة بمحرك، ولكن دون غطاء واقٍ من

النيكل كروم. فينبغي على كل خبير صيانة جدير بالاحترام أن يحتفظ ببطاقة فنية، وتعريفية بكل قطعة، مسجل فيها كل البيانات المختلفة عن الآلة، مثل سنة الصنع، وسنة دخولها الخدمة، والأعطال التي أصابتها، وتاريخ رجوعها إلى العمل.. وإلخ. وقد كان لديّ فعلاً عدد هائل من السجلات بعدد القطع المكوِنة للشرائط، أي أنه كان أرشيفاً ضخماً أفخر به كثيراً. لم يكن لديّ أي شكوك في الحلم، فقد تركوه هناك لإثارة غضبي.

عادت إلى مخيّلتي عينا سلفي المعاديتان حينما رُقّيت إلى درجة خبير صيانة القسم، ودُعيت لكي أخذ مكانه في العمل. في أحد الأيام سألته عن مكان حفظ سجلات الصيانة، فأجابني بنبرة شديدة العداء: «عن أي سجلات تتحدث؟ إن المحاسبين فقط والسكرتارية من هم في حاجة إلى السجلات، فما شأني أنا بهذا؟»، ثم ابتعد مكيلاً اللعنات.

فرأيتني هكذا مضطراً لطلب عقد اجتماع مع رئيس القسم: «لا يوجد في مكتب آلة الصب ولا حتى قطعة واحدة بالية من الورق، لا أتحدث عن السجلات، فليس هناك ولا حتى دفتر ملاحظات واحد، والنتيجة هي أن لا أحد يعرف شيئاً عن الآلة التي يعمل عليها. فالشريط رقم 47,2115 /ب مثلاً كم إصلاحاً أجري عليه؟».

«ولِمَ تظن أننا استبدلنا السيد «ج» بك؟ فلتجتهد يا سيد «بوونوكوري»، وسترى أنك ستكتشف لما فعلنا هذا».

رحت أتصبب عرقاً في الحلم. هل صادفك يوماً أن تحلم بأنك تتصبب عرقاً؟ أن تحلم بعرقك، وتراه واضحاً كالشمس حتى أنك لا تدرك في الغد إن كان عرقك هذا حقيقياً، أو مجرد حلم فقط؟ إلى اليوم

ما زلت أذكر نفسي جالساً القرفصاء بجوار الشريط 47,2115 /ب وأنا أجفف عرقي، وأتساءل في يأس ممزوج بالخوف عمّن استطاع أن يسرق المصنع بأكمله، وأن يأخذه بعيداً وكأنه لعبة.

سرعان ما تكشّفت أهمية الخبرة المهنية لـ«مارتينيز»، وحنكته في إعادة مراجعة برنامج تفكيك آلة الصب الذي كنت قد أعددته في عام 1991 بناءً على طلب رئيس القسم، مما دفعني إلى أن أُدخل عدداً ليس بالقليل من التعديلات على تصميماتي القديمة. كانت طريقته في العمل تثير إعجابي، وكذلك تأنيه المُثمر الذي لم يكن يدع، ولو أمراً بسيطاً، ولا نتيجة واحدة لعملية حسابية مّا، تمر دون مراجعة. كنا نجد في كل تصميم يمر من بين أيدينا عالما متكاملاً من التركيز، والمنطقية يتحقق أمام أعيننا، عالم لا أتردد في أن أصفه بأنه يتسم بجمال خارق، مثلما كان يحدث في كل مرة يتشتت فيها عدد هائل كالسيل من الأجزاء المتناهية الصغر (أو ربما تتجمع مجدداً بعد تشتتها تبعا لاتجاه الحركة) في أنظمة أخرى صغرى (أو في أنظمة كبرى)، ولكن تظل تلك لأجزاء كلها متسقة معاً، ويظل كل جزء منها ضروري، ولا غنى عنه للأجزاء الأخرى دوماً.

لكن ماذا يعني برنامج تفكيك؟ يبدو هذا التساؤل المفاجئ ضرباً من البلاهة، ولكن يُقصد به تقييم تكلفة العمل الضروري لتنفيذ التفكيك باستثناء عمليات التعبئة، والتخزين التي ينبغي تقييمها بشكل منفصل. يبدأ الأمر بتفكيك الآلة كلها حتى نصل بها إلى قطع غير قابلة للتجزئة، حينئذ يتم إعداد بطاقة لكل قطعة كبيرة كانت أو صغيرة، مع الإشارة أولاً إلى الوقت اللازم لتفكيكها، وعدد العمال الضروريين لتنفيذ عملية التفكيك، وتخصصاتهم المختلفة. بعدئذ، إذا ما حسبنا الأشياء

الإضافية الأخرى فسيمكننا الوصول في نهاية المطاف إلى توقّع صحيح للتكلفة الإجمالية، التي تمثل جزءاً ليس ثانوياً من القيمة السوقية للمصنع ككل.

رغم أنه قد يبدو غريباً، أو مخالفاً للقواعد، وربما أيضاً ماسوشياً ولكن، ينبغي عليّ القول إنه لم يؤسفني أبداً الاشتراك في تقييمات تقنية، واقتصادية من هذا النوع. إنها مهمة تعزز من ثقتي في نفسي، وتمنحني شعوراً بالحميمية مع آلاتي، وثقة كبيرة على المستوى المهني، والشخصي، وكأنني لست إنساناً قليل القيمة، ولكنني رجل صاحب دور مهم، ومسؤول. أذكر عندما حكيت لـ«مارتينيز» عن شعوري هذا، وسألته إن كان، حسب رأيه، يخفي شيئاً خاطئاً مّا، أو يكشف عن اعوجاج ما في عقليتي، أو لعله مرض، ولكنه راح يطمئنني بشكل ودود للغاية: «يا بوونوكوري ماذا تقول؟ فلتفكر قليلاً ماذا كان يمكن أن يحدث لو كانوا كلفوا أحداً آخر بهذا العمل، خبراء من خارج المصنع مثلاً، كنتم جننتم أنت والعمال، والتقنيون الآخرون، من الغضب. في تلك الحالات أعرف جيداً من ستتملكه الغيرة. أخال أن من المستحيل تخيل وجود مصنع كهذا بدون الغيرة، ودون لهيبها الأحمر كلهيب آلة الصب. كلانا يعرف جيداً أنه يمكن لشتى أنواع المنافسة أن تشتعل، وتنفجر بسبب آلة مثلما يحدث تقريباً من أجل امرأة».

منذ فترة بعيدة ونحن نطلق عليه «شجرة بلوط بانيولي»، رغم أن طوله لا يتجاوز المتر وخمسة وستين سنتيمتراً على أكثر تقدير، ورغم نحافته الشديدة. ولكن ما المانع؟ فلا أحد بيننا بوسعه أن يمثل كل ما هو صلب، وطويل العمر، ويُعتمد عليه في هذا العالم مثله. على جانب

آخر، ألم يمت أبو «مارتينيز» وكان هو أيضاً أحد عمال مصنع «إيلفا» وقد ناهز عمره المديد المئة عام وواحد؟ ومنذ أن بلغ عامه الخامس والتسعين كان نادي المصنع ينظّم له سنوياً حفلاً للاحتفال بعيد ميلاده وكان يشارك فيه أحياناً ممثلون عن الإدارة.

يقطن «مارتينيز» (بأعوامه السبعين؟ أو الخمسة والسبعين؟ أو الثمانين؟ لا أعرف جيداً) مع زوجة حانية في عمارة هادئة في شارع «أكاتي». شقته رحبة بها أريكة، ومقاعد، ولوحات على الحائط. أما مكتبه فللأسف صغير جداً، ولذا كنت دائماً أواجه صعوبة في أن أبسط فوقه تصميماتي لأعرضها عليه.

كنا نلتقي بعد العشاء، كنت أتصل به على الهاتف، وكان يقول لي بصوت عميق ومتلهف: فلتأت... فلتأت. بعد أن انتهينا من تصميمات التفكيك، بدأت أعرض عليه أجزاء كبيرة من الأرشيف الخاص بآلات الصب، ولاسيما المستندات الخاصة بالتعديلات التي أدخلتها في ذاك الوقت على تلك المعدات التي كان كثيراً ما يصيبها العطل أو صعوبة الحركة. كان الجميع يعرف أنني قمت بإجراء بعض الإصلاحات على تلك المعدات، حتى أنه في إحدى المرات نُشر الخبر على صفحات جريدة المصنع التي تشرف عليها الإدارة، وإن لم تخُنّي الذاكرة فقد حدث هذا في عام 1986، عندما أُعيد تجديد المصنع الذي أخذ بعدها في استعادة ازدهاره بين دهشة، بل عدم تصديق جميع منافسينا، البعيد منهم والقريب، المحلي منهم والأجنبي. في تلك الحادثة قمت بتعديل الختّامات، التي تعد من الآلات المهمة للغاية لأنها تقوم بختم علامتنا المميزة على الألواح مما يتيح التعرف على

خواصها وجودتها أثناء عملية التصفيح.

كانت تلك الختّامات (كان هناك أربع منها: ختامتان لكل آلة صب من الاثنتين المملوكتين لمصنع «بانيولي») تسبب المشاكل منذ سنوات دون أن يفلح أحد في التعرف على مكان العطل. أذكر أنني آنذاك كنت رئيس الدوام ورحت ألفّ حولها كالنحلة بإلحاح شديد، حتى إنني كنت أخشى أن أقع في شرك هذا اللغز، وأظل مفتوناً به، فقد كان عليّ أن أقوم بأعمال أخرى لا يمكنني تجاهلها كمسؤول عن الدوام. لكن في اللحظة ذاتها كان ذلك اللغز يمثل لي تحدياً مغرياً لا يمكن مقاومته. على حين غرة كانت الختامات، تتوقف ولم تكن تفلح محاولات إعادة تشغيلها، أكانت تلك ألاعيب منها؟ لا أحد يدري! بعد فترة ما كان يحدث أن تعاود الختامات العمل مجدداً من تلقاء نفسها وسط دهشة الجميع، ثم تعود لتتوقف بعد قليل.

رحت أطوف حولها، وأتحسسها كما يفعل الأطباء عندما يطلبون منك أن تتأوه وأن تسعل. لم تكن الختامات، كما كان واضحاً، تصدر أي صوت، وكان يلفها صمت القبور، بيْد أني انكفأت على كتب الصيانة لأكتشف كيف صُنعت تلك الآلات، وكيف كان هيكلها الداخلي ومكوناته. رحت هكذا أحبو خطواتي الأولى في المتاهة التكنولوجية لتلك الآلات، وباتت خطواتي رويداً رويداً أكثر عدداً، ولكنها ظلت غير كافية، بل أن في لحظة ما داهمني إحساس بأن الهوة التي تفصلني عن قلب اللغز قد اتسعت بقدر الجهد الكبير الذي بذلته على المستوى النظري. فكلما كنت أدرس كانت الأمور تزداد تعقيداً في رأسي.

في ما بعد صرتُ التقني المسؤول عن القسم وأُلقيت المسؤولية على

عاتقي رسمياً. استدعاني رئيس القطاع مع التقني الخاص بالكهرباء لمناقشة الأمر، وقال لنا وكانت على وجهه صرامة شديدة لم أرها عليه من قبل: «ينبغي إيجاد حل لهذه المشكلة، إنكم لا تتخيلون كم المشاكل التي تسببها لنا هذه الختامات اللعينة، إنها على وشك أن تؤثر بالسلب على حجم الإنتاج، وعلى نتائج عمليات التجديد بالكامل. أقول لكم بإيجاز: إذا أردتم أن تنقذوا المصنع فيجب عليكم إصلاح الختامات». نظرتُ أنا وتقني الكهرباء كل منا في عين الآخر. بيد أن رئيس القطاع لم يعطنا فرصة للتعليق على كلامه. قال لنا إن الإدارة ستمنحنا مكافأة مالية قيّمة إن أفلحنا في السيطرة على ألاعيب تلك الختامات. وعلاوة على المكافأة المالية كانت ستُنشر كلمة تكريم بحقنا على صفحات جريدة المصنع: «أسيكون هذا كافياً لجعل النوم يجفو أعينكم، أليس هكذا؟».

كان يودّ طرد النوم من أعيننا. ما العمل إذن مع تلك الختامات التي باتت مشكلتنا اليومية؟ كان متأكداً من أننا تحت تلك الظروف كنا سننجح في أن نجد حلاً لها. أدركت سريعاً أنني كنت هدفه الأساسي، فقد كان يعرفني جيداً ليتوقع بأنني سأبتلع الطعم دون لحظة تردد واحدة. وفعلاً وقبل أي شيء فارقني النوم، حتى أني أذكر أن «روزاريا» في كل مرة كانت تستيقظ فيها من النوم في قلب الليل بسببي، كان فمها يطلق السُباب ذاته: اللعنة على تلك الختامات!

لكنني في النهاية بلغت هدفي، وجدت حلاً للعقدة ولاسيما عبر التفكير المنطقي. فلم يكن ليتسبب في العطل إلا الحرارة الشديدة. أجل، كانت التوصيلات الكهربائية الخاصة بكل ختامة تقع داخل كابينة على

مسافة معينة من النقطة التي تمر عندها الألواح الملتهبة. لكن لم يكن هذا كل شيء. كانت أجهزة الاستشعار، التي لا أدري لِمَ كانوا يحسبونها في مأمن عن الحرارة، توجد على مقربة من الحصيرة المتحركة، ولذا لم يكن ثمة مصدر آخر لكل تلك الأعطال.

حاولت أولاً أن أعزل الأسلاك الكهربائية، ثم اخترعت نظاماً للتبريد لكل الختامة، ولاسيما بجوار أجهزة الاستشعار، وفي النهاية أدخلت تعديلات على الجهاز المطاطي ذي الهواء المضغوط، وإصلاحات أخرى أقل أهمية. ينتابك شعور شديد بالرضا يصعب وصفه حينما تفلح في أن تفرض طاعتك على الآلة، فالآلة لا تخضع لأي قوة مهما كانت، فهي تكافئ دوماً ذكاءك فقط. كنت على وشك البكاء حينما رأيت الحياة تعود إليها من جديد لتفيقها من سباتها الذي كانت قد هوت فيه. لقد نجحتُ أخيراً، ونهائياً في شفائها. كنت قد أحضرت لـ«مارتينيز» أيضاً تصميمات التعديلات التي نفذتها على الختامات مقتنعا بضرورة إعطائها للصينيين، «فهل أنا مخطئ في هذا؟ أرجوك أن تنصحني، فأنا بطبعي أميل إلى المبالغة، وأحسب أن هذا ليس بالشيء الصحيح».

عن أي خطأ تتحدث! لِمَ ينبغي عليك ألا تشرح للصينيين الحقيقة كلها، ألن يكونوا عرضة للخطر إن لم يقوموا بحماية أجهزة استشعار الختامات من الحرارة؟ كنت قد عرضت عليه أيضاً قطعة صغيرة من الصلب المرن الخاص بقوس آلة الصب وببرج تدوير البوتقة كنت قد صنعتها منذ سنين مضت بغرض التسلية، أو اللعب فقط، ولكني في الحقيقة لم أُرِها لأحد قط إلاّ لـ«روزاريا» وابني. ما إن رآها «مارتينيز» حتى استولت عليه الحماسةُ الشديدة وطلب مني أن أعطيها له هدية:

«أتعرف ما الشيء الذي يعجبني فيك؟ إنه إحساسك بالمسؤولية».

بدت لي تلك الجملة دون معنى، فتمتمت قائلاً: «لا أفهم». كان قد حدث آنذاك شيء غير عادي، وراح «مارتينيز» يضحك من قلبه مشيراً إليّ بسبابته: إني لست عجوزاً أبله مطلقاً، ولا أقول أبداً الترهات، «إذا استعملت كلمة «مسؤولية» فإني أستعملها لأسباب حقيقية صحيحة، فرأسي لا يزال قادراً على التفكير». كان قد أشار بحركة غامضة من يديه نحو تصميماتي المتراكمة فوق مكتبه، ثم ضحك وقال: «يمكن أن يظن أحد ما أنك مجنون يا «بوونوكوري»، أحد ما، أتفهم، بلا عقل في رأسه، وبلا رقة في روحه، وقليل الخبرة بالحياة، ولكنه يمكن أن يظن هذا».

«إذن، لعلّي بهذه الطريقة أمنحه ذريعة ما...».

«بالضبط، ذريعة: كل هذه الأوراق، والتصميمات، وكل هذا التوتر...».

«أهذا اتهام؟».

«كلا يا «بوونوكوري» إنه إطراء، بل إطراء كبير. إن لديك إحساساً شديداً بالمسؤولية، وهذا أمر غريب في وقتنا هذا مما يجعلك تبدو أخرق قليلاً. لكننا لا نستطيع أن نتخلى عن طبيعتنا، وأن نكون شيئاً آخر غير أنفسنا، وألا نظل متشبثين بقيمنا التي لا يمكننا التنازل عنها لأننا نؤمن بأنها على وشك التواري والاندثار».

***

تقطن العائلتان «مارتينيز»، و«بوونوكوري» في منطقتين متجاورتين، لا تفصلنا سوى خمس دقائق سيراً على الأقدام. لكنني محظوظ في

أن شقتي تقع في الأعلى وكأنها عشّ نسر، وتطل على مشهد رائع. لقد أتيت لأسكن في «بانيولي» بضع سنين عقب تعييني في المصنع. كانت الشقة مملوكة لحَميّ الذي وُلد وعاش في «بانيولي» ومثله أيضاً زوجتي «روزاريا». حينما كان المصنع يعمل كنت أستيقظ عادة مع الفجر (إلا في المرات التي كان يحل عليّ الدور للعمل في الدوام الليلي) قبل انطلاق صفارة السادسة والنصف بدقائق قليلة. كنت أنهض من فراشي، ثم أنظر أولاً من خلف زجاج المطبخ، بل وحتى القهوة كنت أشربها شاخصاً إلى المشهد.

أينبغي عليّ أن أعتبر نفسي محظوظا لهذا؟ يتوقف هذا كالعادة على وجهة نظر كل منا. أما الآن، وقد اختفى المصنع عن الأنظار، بوسعي أن أقول إنني أسكن في الجنة، حيث كنت أردد في الماضي بأني أقطن على بعد خطوة من الجحيم، أجثم فوق فوهات المداخن، وانبعاثاتها الصلبة، والغازية التي كانت تقتحم سريعاً البيت متسللة إلى كل مكان: في الأدراج، وبين الملاءات النظيفة والمكوية المحفوظة في أكياس بلاستيكية (التي لم تكن تفيد كثيراً لأن التراب -لا أدري كيف- كان يتسلل حتى إلى داخلها)، وفي الفراش، وحتى داخل الثلاجة عبر سبل غامضة. في بعض الأيام، في الصباح، عندما كانت الريح تهبّ صوب اتجاه البيت كان غبار أسود يتراكم فوق أرضية الشرفة مكوناً غطاء سميكاً يمكن لإصبعك أن ينغمس فيه لعمق لا يقل عن سنتيمتر ونصف سنتمتر، ولو لمسته لوجدت ملمسه خشناً حبيبياً وليس ناعماً على الإطلاق.

سواء أكان جحيماً، أو جنة فقد عشت ببيتي أياماً على كل حال سعيدة مع زوجتي وابني «أندريا» (حتى رحل إلى روما). تبدو

«روزاريا» جسمانياً فتاة صغيرة يعجز الزمن عن اللحاق بها، وإلى يومنا هذا لم يستطع أن يترك ولو حتى تجعيدة واحدة على وجهها الأملس الناعم كوجه فتاة في الخامسة عشرة من عمرها، رغم أن عمرها يقل ست سنوات عن عمري البالغ اثنين وخمسين عاماً فقط. إننا زوجان عجوزان، على الأقل معنوياً.

عندما تعرفت عليها كنت في الثانية والعشرين وكنت قد عُينت منذ فترة وجيزة في المصنع، أما «روزاريا» فكانت بالكاد قد أتمت السادسة عشرة. كانت قد أحضرتها صديقة لها كانت على موعد مع صديق لي، فقام هو بدوره بدعوتي لأُحدث نوعاً من التوازن. تقابلنا عند محطة الترام في ميدان «كافور»، ولن يفيد قولي إنه كان حباً من النظرة الأولى.

بما أني أفترض أن كتابنا هذا ينبغي أن يتخذ مساراً متعرجاً نتيجة أشياء كثيرة، كبندول الساعة الذي يتأرجح إلى الأبد بين الماضي والحاضر، فإني أرغب في أن أحكي لك عن نقطة البداية الخاصة بي. لقد وُلدت في قلب مدينة «نابولي» القديمة على مقربة من الكاتدرائية الرئيسية. أعرف أن أمي عانت كثيراً من آلام الوضع أثناء وصولي إلى هذا العالم حتى أن دويّ صرخاتها ظل يتردد طويلاً في زقاقنا المزدحم. كنا نقطن شقة تحت الأرض بلا نوافذ، وكان يدخلها الهواء فقط من الباب الذي كان ينبغي أن يظل مفتوحاً دائماً على مصراعيه، أو على الأقل لأطول فترة ممكنة. لا أخجل أبداً، بل، على العكس، إني أفخر بفقر عائلتي، فلمَ تحمر وجوهنا خجلاً إن كنا نحيا الفاقة ونحن نعتز بكرامتنا؟ ثمة من يحاول أيضاً أن يجعل من الفقر فخراً ونبراساً له، أما أنا فلست من هذا

النوع، فقد كابدت طفولة مضطربة بين جمعيات الأطفال، والمدارس الداخلية، ثم صرت أنأى بنفسي بعيداً عن عائلتي معتقداً بأني وإخواني الخمسة كنا نمثل، أولاً، همّاً، وعبئاً على والديّ، وثانياً ازدحاماً مزعجاً (في ما بعد اكتشفت أن الأمور لم تكن هكذا، وأن والديّ قد تألما كثيراً هما أيضاً لابتعادهما عنا، ولكن، كان وقت طويل قد مرّ، وكانت قد تراكمت فوق شخصيتي طبقة من التراب يصعب تبديدها في الهواء بنفخة واحدة).

سأجيب دون أي تردد عن من يسألني عن الفترة الأسوأ في حياتي بأنها كانت مرحلة الطفولة حتى بلوغي الخامسة عشرة من العمر. حينها ذهبت لأعيش مع جديّ لأمي. كان أبي ينحت الخشب، كان فناناً يضفي جمالاً على الآخِرة ناحتاً على جانبي التوابيت وروداً، وملائكة مجنحة ومحلقة من شجر البلوط. كان رجلاً صامتاً للغاية، ومهذباً إلى درجة الجنون، وكان به عادة إخفاء يديه البيضاويتين، والمسطحتين قليلاً، والبارزتي التكوين. كان يروق لي في تينك اليدين فقرات الأصابع، ومفاصلهما البارزة المستديرة كمفاصل بعض الأدوات الحديدية. في طفولتي كنت أحسب أن تلك المفاصل هي مصدر قدرته الفنية، وكنت أتخيل أن ثمة نقطة مخفية بين العقلة الكبرى والصغرى، في تجويف ذهبي، تنبعث منها نبضات تصل إلى الأزميل الذي كان أبي يقبض عليه بقوة بيده اليسرى.

كان بيت جديّ في الطابق السابع لمبنى قديم على مقربة من الميناء. كان يبدو كبرج شرقي، وكان سطح المبنى رحباً جداً. كنت أحب مراقبة السفن المبحرة في ذهابها وإيابها، التي لو مددت يدي لكنت قادراً على

تحريكها كما أحرك قطع الشطرنج. عقب شهر فقط كنت أعرف أسماء عدد كبير لا أذكره من السفن المترددة باستمرار على مينائنا، كنت أعرف خط إبحارها، وحمولتها، وسرعتها وقوة محركاتها. كان السطح ذا مساحة شاسعة، ولم تكن جدتي تزرع فوقه سوى الطماطم، والخس، والكوسة، وتربي الدجاج، والأرانب فقط ليس لضآلة مساحته بل لقلة مجهودها. في أحيان كثيرة كانت تقول واضعة يديها على رِدفيها، ومثنية خصرها تأففاً من الألم: «إن السعادة التي تدخلها الزراعة على قلبها في عمرها هذا ثمنها غال جداً».

كان يعيش معنا في البيت أخ أعزب لأمي، الخال «سالفاتوري». كان يظن أنني ينقصني فقط القليل لأغدو عبقرياً. إنني أدين إليه بالكثير، فقد أراد أن يرعاني، وأن يتولى مسؤولية تربيتي، ومعاونتي في اختيار حياتي دون أن يمارس علي أي سلطة، وكان يتعامل معي برقة شديدة حتى أن قلبي يمتلئ بالعرفان له إلى الآن. كان خالي «سالفاتوري» يعمل آنذاك في مصنع «إيلفا» ولكن في القسم الإداري، كان محاسباً، وكان يقول لي: «عندما يحين الوقت سأُدخلك أنت أيضاً في المصنع، فالصناعة تسري في عروقنا كالدم».

ذات يوم عرضت عليّ إحدى الصور، وقال لي: «انظر جيداً!». تطلعت إليها، فقد كانت الصورة مُلصقة على بطاقة من الكارتون مطبوع فوقها عنوان المصور الفوتوغرافي: «ج. دافيد»، شارع «دو كورسيل» رقم: 90 في «ليفلوا – باريس». كان يظهر في الصورة أربعون رجلاً واقفين، ولكل منهم شارب، ويرتدون فوق رؤوسهم قبعات، ويلتفون جميعاً حول رجل يفوقهم سنّاً له شارب، ويضع فوق

رأسه قبعة أيضاً، ويرتدي معطفاً أسود قصيراً مقفولاً عند بطنه البارز. «لست متأكدا تماماً، ولكني أخال أن هذه الصورة قد اُلتقطت في باريس بمناسبة المعرض العالمي. إن الرجل العجوز الذي في المنتصف هو والد أبي، أي أبو جدك لأمك، وقد كان رئيساً لقسم بناء السفن. أتدرك الجذر الذي انحدرنا منه؟ أتدرك أي دماء تسري في عروقنا؟ وقدر الهيبة الراسخة التي تنبعث من تلك النظرة النبيلة، الشفافة، الزرقاء رغم أن حال الصورة كما هو عليه؟».

لكني كنت أعرفها مسبقاً، فقد كان خالي «سالفاتوري» يحتفظ بها معلقة فوق الحائط مع صور أخرى للعائلة كلها محفوظة في إطار مغطى بالزجاج، وكانت قد سنحت لي الفرصة للاطلاع عليها، ودراستها بعد أن أخبرتني جدتي عن هوية الرجال الموجودين في الصور. أعدتها إليه في الحال تقريباً قائلاً له: «أتعرف أن هناك تاريخاً مسجلاً خلف إحدى القطع الخشبية للإطار؟». رمقني مطبقاً شفتيه، ومبرزاً إياهما. كان مندهشاً لأنني بشكل أو بآخر كنت قد رأيت الصورة، ولكنني لم أدرها بتاتاً على ظهرها.

«لم أنتبه أبداً إلى هذا».

بينما كان يتطلع إلى الصورة كان في غاية التأثر وكأنه على وشك التحليق في الهواء، ثم فجأة صاح: «إنه حقيقي... حقيقي فعلاً، إنه شيء يدعو إلى الجنون، إنه حقيقي فعلاً...».

عندما كان عليّ أن أقرر المصنع الذي سأتوظف به، قام خالي «سالفاتوري» بعقد ما يشبه الندوة ليشرح لي المزايا الأخلاقية، والمادية للعمل في مصنع «إيلفا»، وأعترف أن اهتمامي الأكبر كان منصباً على

المال: «إن الراتب الذي يمكنك أن تربحه في «إيلفا» لن تجده في مكان آخر»، عقّبتُ سائلاً خالي: «أأنت واثق من هذا؟»».

في تلك الفترة كان بوسعنا محاولة إيجاد فرصة عمل في اتجاهات مختلفة. لا يعني هذا أن في ذاك العصر السحيق في السبعينيات كانت «نابولي» جسداً سليماً خالياً من الجراح، فالرخاء لم يكن، ولعله لن يكون أبداً خليلاً لهذه المدينة. لكن كان مجمع «آلفاً» الصناعي يخرج آنذاك للنور معلناً عن رغبته في النمو الكبير، وكان هناك حديث في أماكن أخرى عن النمو وفرص العمل المتاحة.

كانت أوراقي والحمد لله كلها سليمة، فبعد أن نلت شهادة التأهيل المهني، اجتزت دورة في الكهرباء الميكانيكية، وحصلت على شهادة دراسية قيمة. فضلاً عن أني كنت قد درست لأصبح مُصلحاً ميكانيكياً تحديداً، وكان ترتيبي الأول بعد سنتين من الدراسة، مما جعلهم يمنحونني جائزة نقدية صغيرة خلال احتفال عام بهذه المناسبة. في الصيف السابق على تعييني كنت قد اتخذت قراري بالعمل في «إيلفا»، وليس في مصنع «آلفا» الجنوبي، ولكن بشرط واحد محدد وهو ألا أعمل في فرن التكويك. كان شعري طويلاً حتى كتفيّ، وناعما كالحرير، كنت أفخر به كثيراً، وكنت مقتنعاً بأن شعري يضفي رجولة أكثر على ملامح وجهي الدقيقة والوسيمة وكأنها منحوتة بقلم رصاص، وكان الدخان والتراب المتصاعد من ورشة الفحم سيقضي بلا ريب وبلا رجعة على شعري.

دخلت في «إيلفا» في عام 1969. ككل صيف منذ بداية السبعينيات كان خالي «سالفاتوري» قد استأجر شقة في مبنى ملاصق تقريباً للمصنع

كان يقطنه عمال كانوا يقومون بدورهم في الصيف بتأجير تلك الشقق من الباطن إلى النابوليتانيين. أما أولئك العمال فكانوا ينتشرون ليقيموا عند الأقارب، والأصدقاء وقد احتلوا كل مكان ممكن، حتى الأكواخ، وحظائر الدجاج، وأسفل السلالم.

في الربيع كانت جدتي تقول: «أنتظر بفارغ الصبر الذهاب إلى المصيف»، وإحقاقاً للحق كنت أنا أيضاً أتوق إلى هذا خلال شهري مايو ويوليو. كنت قد تعرفت على أصدقاء كثيرين كنت ألتقيهم مساء في ميدان «بانيولي» تحت البريق الأحمر للنيران المنبعثة من المصنع، التي كانت المداخن تطلقها في اتجاه السماء لتهبط ثانية فوقنا على هيئة ضوء مشتت مغبر. في أحيان كثيرة لم نكن نتحرك من ميدان «بانيولي»، وفي أحيان أخرى كان يصيبنا الملل جراء الصخب الشديد، فكنا نذهب لنتنزه في شارع «بانيولي» على مقربة من صخور شاطئي «لا بييترا»، و«جيرولوميني» وأيادينا في جيوبنا، أو ممدودة إلى جانبي أجسادنا بانتظار أن يحدث شيء ما جدير بجذب انتباهنا. ولم يكن أمراً نادر الحدوث أن ينتهي بنا الحال في الماء لننعش أجسادنا، أو لنظهر للفتيات عضلاتنا، وجرأتنا في الغوص، مُصرّين على ألا نطفو ثانية إلا بعد أن نسمع تصفيقهن لنا، أو صراخهن من الجزع على مصيرنا.

كنا نرتدي لباس السباحة دائماً أسفل البنطلون بدلاً من السروال الداخلي، وكانت أجسادنا تتقافز في مياه البحر الأحمر اللون كالسماء، وكأنها تنثر غباراً من الجحيم. كان أصدقائي أولئك هم من زرعوا بداخلي شعوراً بالرعب من فرن التكويك، كانوا يحذرونني ولاسيما أخوين من بينهم قائلين: «سترى كيف سينتهي الأمر بشعرك إن ألقوا

بك في فرن التكويك». كانا يسكنان بجوار السور الخارجي المحيط بالمصنع، وكانا يعرفان عن ظهر قلب كل ما كان يجري وراء ذاك السور: من تعبئة ركام الحفر إلى طحنه، ثم خلطه، ثم نقله في البطاريات لتقطيره، وأخيراً خروج الفحم من جهة، والغاز من جهة أخرى. لم يكن لشعري الطويل أن يتنفس ليصبح ضحية لاختناق مؤكد، وبطيء، وكان ليمتلئ بحبيبات من رماد كان ليتحول إلى طين أو مطاط جراء الرطوبة عند مرور الفحم المشتعل تحت الأبراج التي تقوم بترطيبه، وتبريده بواسطة نافورات مياه قوية. وأي طين! وأي مطاط! فلم يكن لصابون، أو لسائل تنظيف على الأرض أن يقدر على إزالة لِزُوجة ذاك الطين من شعري..

لا أتذكر عدد المرات التي رددت فيها على خالي قولي: «فليكن اتفاقنا واضحاً، لا فرن تكويك لي»، وما من مرة أعطاني خالي فيها إجابة غير أكيدة. فقد كان لخالي «سالفاتوري» وزنه في المصنع وإن قال كلمة كان يمكنه الوفاء بوعده: «أعدك بأنك لن تذهب إلى فرن التكويك أبداً أبداً». وهكذا صرت عضواً على أول درجة في «العائلة» ذات «الخوذة الصفراء»، ولكن، كان لا يزال عليّ أن أقطع شوطاً طويلاً.

في مساء أحد الأيام استدعاني «لوناردي» إلى مكتبه. استهل كلامه قائلاً لي: «يا «بوونوكوري» لقد حانت اللحظة لكي نتحدث عن نصبك التذكاري...».

«نصبي التذكاري؟».

«لا تتظاهر بعدم الفهم، عن نصبك التذكاري. لقد واتتك الشجاعة بأن تلقي على كتفيّ الواهنتين عشرة آلاف مستند، إضافة إلى نسخ

عديدة لها. لقد أفلحت في أن تملأ غرفتين، وأكثر من عشرين دولاباً عن آخرها بالسجلات: ولكي أكون صادقاً فكلها مستندات منظمة تماماً، بل بشكل مفرط يا «بوونوكوري»... مفرط». شعرت فجأة بأني حقير جداً، قلت وعلى وجهي خيبة الأمل «أعرف هذا، لعلي أفرطت في الترتيب...». كنت قد بذلت مجهوداً مهولاً لأصل إلى هذه النتيجة: إن كل هذا كان نتيجة عملي أنا «بوونوكوري»، خبير بيانات وحاسوب ذاتي التعليم. فبعدما قمت أنا والتقنيون الثلاثة الآخرون لقسم آلات الصب بجمع هذه الغابة من الأوراق وترتيبها، أنشأتُ قوائم لكل منها على حدة على الحاسوب مكوناً ما يشبه الأرشيف المرتب.

حكّ «لوناردي» شفتيه، وكانت عيناه تحدّقان بنهم فيّ. كان يرقبني بفضول شديد، ثم ردد بطريقة تلقائية: «لحظة واحدة»، وربما لأنني لم أجرؤ على أن أرد عليه فقرر هو أخيراً أن ينتشلني من البئر الذي كنت قد غرقت فيه. قال: «لقد تحدثت عن هذا مع رئيس «ستيل ووركس»، والذي لم يكتفِ بإبداء اهتمامه فقط بهذه المستندات، ولكنه طلب مني أن أبلغك رسمياً تحياته، وتهنئته لك، وقال أيضاً إنه سيحاول في أحد الأيام القادمة أن يتعرف عليك شخصياً».

في البداية أطلّت رقبتي كالدجاجة، ثم احمرّ وجهي. حينئذ أضاف هو مردداً أسخف شيء كان يمكن أن يقوله في تلك اللحظة: «يا بوونوكوري ألاحظ أنني أصبتك بالدهشة»، ثم راح يضحك مما زاد حالتي ارتباكاً. عقب يومين من هذا الاجتماع تسلمت أولى الرسائل الثلاث التي كانت تحمل لي تهديداً إذا ما واصلت تعاوني مع «ستيل ووركس». لعله ليس من الدقيق أن نتحدث عن تهديد بمعنى الكلمة،

فلعلها كانت ردة فعل متسرعة، أو رغبة كامنة فقط في التهديد سرعان ما تتلاشى عند ملامستها للسطح. إنني متأكد من أن هذه الرسائل قد أرسلها إنسان حانق، ولكنه وحيد دون أتباع له، على الرغم من أن أفكاره تلك كانت تتوافق مع الشعور السائد بين الكثير من الناس داخل وخارج أسوار المصنع في تلك الأيام. وللغرابة، فأنا شخصياً أتفق مع كثير من تلك الأفكار التي ذكرها من يتهمني، بل كان يمكنني أن أضيف عليها أسباباً، ودوافع أخرى، ولكني لم أكن أتفق على النتائج الكارثية التي خلُص إليها: فلا للتخلص من المصنع لأي سبب كان؛ ولا للتعاون مطلقاً مع من يبيع «ما ينتمي إلينا فقط».

انطلاقاً من هذه النقطة بالتحديد، انطوت الرسالة الأولى، حتى وإن كان هذا بطريقة غامضة ومتناقضة، على التهديد بوجود خطر يتربص بي. كان المتهِّم يسألني إن كنت أدرك ماذا يعني للعاملين بـ«إيلفا» تعاوني المتحمس مع رجال «ستيل ووركس». كان يسألني هذا بطريقة بدت لي متألمة، ومتوسلة، كمن يحاول أن يوقفك للحظة قبل أن تقوم بعمل لا يمكن العدول عنه بعد فوات الأوان. بدت لي وأنا أقرأها وكأنني أسمع صوت كاتبها، بل أراه شخصياً مرتدياً البزة الرسمية الزرقاء، طويل القامة، وظهره منحن، وقد خطّ الشيب مفرقه، بوجه أسمر، ولحية قصيرة. إنه واحد من كثيرين: أود القول إنه واحد من كثيرين مثله ليس لهم مستقبل مُرضٍ، وغير قادر على الاستسلام إزاء ما يحدث، لعله قد أُحيل إلى صندوق البطالة، ولذا فإنه كان يتعلق بأمل وحيد وهو أن يعود سريعاً إلى العمل مع المجموعة التابع لها ليحلوا محل مجموعة أخرى قد انتهى دوامها.

كانوا يتوافدون بشكل خاص في الصباح، ويحتشدون أمام بوابات المصنع. كانوا هم أول من يأتون رافعين في بعض الأحيان لافتات تحمل اتهاماً عنيفة ضد مَن طردهم من العمل وكانوا يحدثون جلبة لينفسوا عمّا بصدورهم طالما لم يكن هناك أحد لينصت إليهم. في أحيان أخرى كانوا يلتزمون الصمت منقسمين إلى مجموعات صغيرة يبدو عليهم التردد والإرهاق. حين كنت أصل بالسيارة كان عليّ دوماً أن أتوقف بسبب البوابة المغلقة. كانوا حينها يحيطون بي ويقومون بحركات تلقائية كالدُمى، دون وعْي تقريباً، بينما أنظارهم مُعلقة باستمرار إلى المقصورة وشفاههم نصف مفتوحة عليها تعبيرات تميل إلى التشكك أكثر منها إلى الضغينة: فلمَ نحن فقط وأنت لا؟ فمن أكون أنا حتى لا يتعرض لي ذاك المرسوم المدمر بالطرد؟ فلو كان بوسعي أن أتجنب الخمس دقائق تلك من العذاب الصباحي، ولو كان بوسعي أن أبلغ مكتبي عبر ممر سري، أو نفق تحت الأرض، أو شيء شبيه آخر ما كنت لأتردد لحظة في سلوكه. أعرف أني أعترف بشيء لا يشرفني كثيراً، ولكني أقول الحقيقة، وهي نفسها حقيقة الحرج الذي أعيش به دائماً لكوني موظفاً مفيداً جداً للمصنع، إلى درجة أنه لا يمكنهم طردي خارج بواباته أثناء فترات توقفه عن الإنتاج.

كان سيروق لي مناقشة الأمر معه شخصياً، أقصد الرجل الغامض، ولكن كيف لي أن أدعو إلى نزهة معي، وإلى حوار هادئ –أو حتى حاد إن كان هذا ضرورياً– كاتب رسالة مجهولة لم يستطع أن يقاوم إغراء تهديد متلقي الرسالة جاعلاً منها تحمل في طياتها، ولو بطريقة غير مباشرة، وملتوية، تهديداً بالإيذاء الجسدي له؟ من ناحية أخرى حتى

لو استطعت أن أتحدث إليه فماذا كان بوسعي أن أقول له؟ إنني كنت أعمل جاهداً فقط حتى لا تتعرض آلة الصب إلى المعاناة الشديدة جراء نقلها من «بانيولي» إلى «ميشان» في الصين؟ لم يكن ليفهمني أبداً. إن ذاك الرجل الغامض كان عالقاً في مشاكل نفسية أخرى معقدة، كان واحداً من أولئك الذين كانوا يظنون أن هناك أملاً في إنقاذ شيء مّا، بينما في رأيي أنا فإن الشيء الوحيد الذي كان يمكن إنقاذه هو وحدة الآلة وسلامتها. فعلى سبيل المثال، كان عليّ أن أمنع الرجال القائمين على التفكيك من اللجوء إلى استخدام شعلة الأكسجين لكي يحِلّوا مشاكلهم مع الآلة، بدلاً من أن يتحلوا بالصبر والفطنة -فعلى كل حال من سيهتم إن قطعت هذا، أو فككت ذاك، فسيكون على الصينيين فقط إصلاح الأمر برمته في ما بعد...

لم يكن ليفهم أن لرجل مثلي، بماضيه وبنقاط ضعفه، فإن الآلة تأتي قبل أي شيء آخر: مثل البوتقة، والحوض، والشرائط الداخلية، والختامات، واللوح الزائف، وأنابيب القطع، وهلم جرا..، كل المعدات الأخرى قطعة وراء قطعة. فالآلة شيء مقدس، إنها كل شيء. إنها النظام والمنظومة. إنها المنطق. وأخيراً، إنها الشيء الوحيد النظيف، والجدير بالاحترام الباقي في هذا العالم الذي تعمه الفوضى.

لعله كان سيضحك لرغبتي الشديدة في أن أرى آلة الصب مفككة بعد عمل يغلب عليه الود والصبر؛ ولعله ببساطة كان سيحسب ضرباً من الجنون رغبتي في المراقبة أن لا أحد يهين آلتي ناظراً إليها نظرة من يرغب في هدمها، وأن لا أحد يتعامل معها دون صبر كمن يريد أن ينجز عمله في أسرع وقت، وبأي طريقة. كان سيقول لي: «إنك مجنون

يا بوونوكوري، بل إنك على درجة خطيرة من الجنون. إنك لم تفهم بعد إننا يجب أن نَحول بأي ثمن دون اختفاء المصنع. إنها مسألة حياة أو موت لنا».

لا أريد القول إن هذه الرسالة لم تصبني بالخوف، ولكني أريد فقط أن أقول إنها لم تجعلني أرضخ لأي رد فعل عاطفي، ورغم أني قرأتها مرات عديدة لا أذكر عددها، ولكن كان يزداد فيّ دوماً الأسى والتعجب. ولمّا كانت توجد آلة نسخ على مقربة من غرفتي فقد قمت بعمل نسخ كثيرة منها، واحتفظت بالرسالة الأصلية، وبالنسخ في ملف خاص. لحسن الحظ في ذاك الصباح كنت وحيداً في المكتب جالساً خلف مكتبي أتصبب عرقاً، لأني أيضاً لم أكن أعرف كيف أتصرف حيالها. من ناحية أخرى لم تكن الرسالة تنبئ عن أي عمل فوري: فقد منحني وقتاً للتفكير. بيْد أني قررت ألا أتكلم مع أحد عنها سوى مع «مارتينيز» حتى أتجنب تحويل حادثة، قد تكون فردية لرجل غير مؤذ كان يمر غالباً بلحظة غضب شديد، إلى حالة من الصدمة الجماعية. فلو كان خبر التهديد قد وصل إلى مسمع المهندس «لوناردي» مثلاً لكان لزاماً عليه أن ينقل النبأ إلى رؤسائه الذين كانوا سيضطرون بدورهم لإبلاغ الشرطة، وما يترتب على هذا من نتائج يمكن تخيلها.

وافق «مارتينيز» تماماً على قراري بأن ألتزم الصمت حتى تتضح الأمور بصورة أفضل. لكنه قال فلتأخذ حذرك باستمرار، ولتتجنب أن تتعرض لأي خطر اعتداء محتمل (التوصية الأولى: لا تتردد على أماكن معزولة نائية؛ التوصية الثانية: أن تحاول دائماً أن تكون بصحبة أحد مّا؛ التوصية الثالثة: ألا تستلم، أو تفتح أي طرود أو مظروفات كبيرة، أو

أي شيء آخر مصدره مجهول).

تحدثنا عن الأمر بينما كنا نسير بالطريق في شارع «كامبي فليغريي» في وسط الزحام الذي رويدا رويدا تقل كثافته كلما صعدنا في اتجاه الترام الذي تقطع قضبانه الحديدية المنطقة السكنية بشكل مفاجئ بواسطة جسر مرتفع. أعطيته مظروف الرسالة هناك وسط الناس الذين يروحون ويجيئون تحت أحد أعمدة الإنارة، الذي كان يلفنا ضوءه الخافت الشاحب. قال «مارتينيز» بعدما قرأ حرفاً حرفاً وجه الرسالة وظهرها حتى الكلمة الأخيرة: «لقد رآنا الجميع. إن كان هذا ما كنت تريده فقد حققت غايتك تماماً».

لم أفلح في أن أتخيل ذاك الرجل الذي استطاع أن يرسل لي هذه الصفحات الغريبة، التي كتبها ذاك الساذج بخط يده، أو لعله كان يقصد هذا، من يدري! شرح لي «مارتينيز» أن لرجل من جيله، فإن أغلب شعب المصنع الآن مكون من رجال مجهولين له ما عدا أولئك القادمين من «بانيولي» فهم أبناء، وأحفاد لعمال من هنا، ولكنهم لم يمثّلوا أبداً الأكثرية في المصنع. فمصنع «إيلفا» كان دائماً ما يقوم بتوظيف عماله من محيط جغرافي أوسع بكثير من منطقة «بانيولي»، ويضم هذا المحيط كل البلاد المجاورة لنا، بالإضافة إلى المركز القديم لمدينة «نابولي»، ولهذا فمنذ الخمسينيات والعمال يفدون إلى المصنع من بلاد مثل «مونتي كالفاريو»، و«أريناتشا»، و«ميرجيلّينا»، و«كوارتييري سبانيولي»، ومن شوارع «ستيلا بولاري»، و«بورغو لوريتو»، و«فيرّوفيا».

قال «مارتينيز»: «إننا نغلق المصنع الأهم لـ«نابولي... والويل لمن يتناسى هذا الأمر!»

«أتظن أنني نسيته؟»

«لم أفكر في هذا مطلقاً يا «بوونوكوري». إنني معك وأنت تعرف هذا، لكن ثمة رؤوساً أخرى في هذا العالم بخلاف رؤوسنا، وطرق أخرى للشعور بما يحدث، ولمعاناته. فمن يدري مثلاً أن هذه الرسالة قد أرسلها أستاذ عجوز ربما علم بالأمر عن طريق جار شاب له يعرفك جيداً، ويراقبك، وله موقف منك، ومما يحدث يوماً بعد يوم في «بانيولي» وفي «إيلفا»؟»

لم أردّ. لم أعطِ في ذاك الوقت أي قيمة إلى هذه الكلمات، ولكن بعدها بفترة، حينما كنت بمفردي راقداً على الفراش مع أفكاري ودون أن يكون بوسعي أن أفصح لـ«روزاريا» عن كل شيء كما كان ليروق لي، بات هذا الأستاذ فجأة بمثابة محاوري الأوحد. كان له رأس مستطيل به القليل من الشعر الأبيض، الطويل، والناعم، ونظارة بعدسات سميكة لونها أخضر داكن، ونظرة بنية اللون معتمة، وضخمة من أثر العدسات. كنت قد رأيته من قبل، ولكن أين؟ أتعرف تلك الأشياء التي تقف على طرف لسانك موشكة على الخروج، ولكنها لا تخرج مهما أجهدت عقلك؟ كان نحيفاً طويلاً بما يكفي وأنيقاً. كان فمه يقبض على طاقم أسنان غير مريح، وذي حجم كبير للغاية، مما كان يجعل تعبيراته شبيهة بتعبيرات الخيل. كان هذا الرجل يوجد بالفعل وأعيننا قد التقت من قبل، ربما منذ وقت ليس ببعيد. قال: «إن الله وحده من يعلم إن كانت هذه المدينة تستحق فعلاً أن تفقد مصنعها بهذه الطريقة».

لقد شعرتُ كأنني تجمدتُ في مكاني وكأنه صدَرَ بحقي حكم إدانة من المحكمة: إنك مذنب يا «بوونوكوري»، «لن أقول إن في نابولي لم

تكن هناك منذ وقت طويل مشكلة تتعلق بـ«إيلفا»، ولكن أكانت هذه هي الطريقة لحلها؟»

«يا أستاذ...»

أسكتني بإشارة حازمة من يده.

كانت هذه الإشارة هي التي أضاءت فجأة ألف مصباح في رأسي. لقد رأيته من سنوات مضت في إحدى مكتبات المركز القديم لـ«نابولي»، في «بورتالبا»، إن لم تخني الذاكرة، حيث كنت قد ذهبت أنا و«روزاريا» للاستماع إلى إحدى ندواته. لقد كان الأستاذ رجلاً مشهوراً جداً، وكان سيتناول في حديثه موضوع مصنع «إيلفا»، بل «العلاقة بين «نابولي» ومصنعها»، لقد كان هذا بالضبط عنوان الندوة.

كانت هناك مشاجرة في المكتبة، فقد كان يتوافد عليها الكثير من الناس من مختلف الأعمار فرادى أو جماعات دون توقف. سرعان ما امتلأت القاعة عن آخرها، وعندما وصلت أنا و«روزاريا» كانت الأماكن قد نفذت. وقفنا بجوار أحد الأعمدة القريبة من الطاولة التي كان سيتكلم منها صاحب الندوة، وأخذت «روزاريا» مكانها أمامي مستندة على جسدي. كنت أحس بشعرها وكانت قمة رأسها تلامس فمي. كنا نحدق في الحاضرين وفي الكتب المتراصة فوق الأرفف الكبيرة للمكتبة. كان جسد زوجتي يتكئ عليّ بقوة ساحقاً جسدي حتى أنها راحت تسبب لي القليل من فقدان التركيز والإثارة. ظلت القاعة تكتظ بالناس. كان الجميع يعرفون بعضهم تقريباً، وكان الكثير منهم يتصافحون، ويتعانقون، ويتبادلون حتى القبلات. رأيت أيضاً عدداً من زملائي في العمل، لم يكونوا وفداً بالمعنى الحقيقي للكلمة،

ولكنهم كادوا أن يكونوا كذلك. رحنا نحن أيضاً نتبادل التحية في ما بيننا رافعين ذقوننا.

حينما دلف الأستاذ إلى القاعة ثم إلى خلف الطاولة استقبله الحاضرون بتصفيق حار رد عليه بإيماءات متواصلة تنم عن رضاه. بينما كان يضحك كان فمه الشبيه بفم الخيل يضفي على وجهه تعبيرات لها عذوبة خاصة، كان يغمض عينيه، ويفتحها ويبدو إنساناً أعزل تماماً. استهل حديثه مؤكداً على أن كل تاريخ مدينة «نابولي» حافل بنفس الرغبة الشديدة، الرغبة في مصنع يكون أداة تحديث للمدينة. كان هذا مغزى واقعنا التاريخي المؤلم، إنه هاجس المصنع الذي دائماً ما منعوه عنا. فمنذ لا يقل عن ثلاثمئة سنة، بل ربما أربعمئة، ونحن نطلب أن يكون لنا مصنع لكيلا يكثر في الأزقة الغوغائيون المتغطرسون والأنذال فقط، ولكن ليخرج منها أيضاً رجال وسيدات موهوبون، وبهم رغبة للعمل لا حدود لها. فمَن حاول يوماً وصف هذه الإنسانية المتوارية، التي تكاد تكون أمراً سرياً غير مسموح لنا البوح به؟

كان يتحدث بحمية مبتسماً على فترات متكررة بفمه الشبيه بفم الخيل مما كان يجعل من كلماته أكثر إقناعاً، ووصولاً إلى المتلقين. كانت ذراعاي ملفوفتين حول خصر زوجتي فزدت تلقائياً من قوة قبضتي عليها مما جعلها تعترض برقة قائلة:

«إنك تؤلمني».

روى الأستاذ أنه في عام 1863م دخل الجنود البيمونتيون[2] مدججين بالبنادق في ورش «بيترارسا» المكتظة بالعمال العزل، الذين كانوا

(2) مقاطعة في الشمال الغربي لايطاليا. (المترجم)

يُضربون عن العمل دفاعاً عن أجورهم، وأماكن عملهم فقتلوا عدداً غير معروف، كانت مذبحة لا يعرف أحد عنها شيئاً حتى كادت ذكراها تضيع. من ناحية أخرى كان من المفروض أن يشحذ أولئك الموتى هِمَم الشعراء، والكتاب، والرسامين، والسياسيين، والصحافيين، والمؤرخين. ألاَ تجدون أنه من غير المعقول أن حدثاً مثل هذا كاد أن يتلاشى من الذاكرة الجماعية للمدينة، وأنه على وشك أن يبتلعه بئر النسيان العام؟ يمكننا أن نصفها بأنها مدينة كبيرة بلا ماض وبلا تاريخ. إن خليطاً من البشر يصعب تمييز عناصره المختلفة يعيش بين الأزقة، والبنايات الأكثر تردياً، وإن الدأب على العمل الذي يتميز بها بعض الأفراد، والجماعات بات وكأنه قد أُبتلع ومُحي أثره داخل ذاك النسيج الاجتماعي الغامض الذي نطلق عليه «العامة».

إن الثلاثين، أو الأربعين ألف عامل، حسب بعض الإحصاءات المتفرقة لتلك الفترة، ليس لهم أي وزن اجتماعي يوائم وزنهم العددي. أي أنهم بلا أية قيمة حقيقية ولا اعتراف بدورهم.

بل إن الأعمال الأدبية تأبى حتى أن تكشف النقاب عنهم. فـ«ماستورياني»، و«سيراو»، و«دي جاكومو»[3] وآخرون يمكننا أن نعددهم، لا يعرفون المدينة بكافة أطيافها، المدينة عديمة الإنسانية، الفاسدة، الحقيرة، المتألمة، والموجوعة بشكل أو بآخر، ولكنها، ورغم

(3) يعد ماستورياني (1819–1891م) أحد أهم الروائيين والكتاب المسرحيين الإيطاليين في القرن التاسع عشر، وقد ولد وترعرع في مدينة نابولي وتتناول كتاباته واقع مدينته. أما ماتيلدي سيراو (1856–1927م) فهي روائية، وصحفية بارزة أسست في مدينة نابولي جريدة «إل ماتينو» في عام1891. ويعد دي جاكومو (1860–1934م) أحد أبرز الشعراء الغنائيين الشعبيين في نابولي في النصف الأول من القرن العشرين، فضلاً عن كونه كاتباً مسرحياً أيضاً. (المترجم)

هذا، فقد ظلت دوماً، وبإصرار شديد مجهولة الاسم، وتقليدية.

كان يبدو لي أنني أحتضن بين ذراعي «روزاريا» وأحاسيسها، فقد كنت متوتراً مثلها أيضاً. كانت المرة الأولى التي أسمع فيها حديثاً مثل هذا، كنت أرى أبي مسحوقاً داخل ذاك المجهول الكريه الرائحة، رغم أن يديه اللتين تنتميان لفنان لم تعرفا يوماً لحظة راحة واحدة ورغم أنهما ظلتا تصنعان دون توقف أزهاراً وملائكة، وملائكة وأزهاراً.

ولكن ها هو طفق يتحدث عن شيء آخر؛ فقد راح يتناول أحداثاً تعود إلى نهاية القرن الثامن عشر عندما أفلحت التحقيقات الصحفية لشباب جريدة «بروباغندا»، زهرة الشباب الاشتراكي في «نابولي» آنذاك، في الإيقاع بالنائب البرلماني «كازالي» الذي كان يحكم المدينة بالتآمر مع العمدة «سومونتي»، و«سكارافوليو»، رئيس تحرير جريدة «إل ماتينو» مدعوماً من عصابة «كامورّا»[4]. كانت اتهاماتٍ نارية. لكن كيف تصرف النائب البرلماني الفاسد حيالها؟ تصاعد التوتر في «نابولي» بقدر كبير فجأة، مما جعل «كازالي» مرغماً على اللجوء إلى القضاء رغم تأكده من أنه كان سيربح القضية بفضل مساندة رئيس تحرير جريدة «إل ماتينو» له. هيمن على المدينة آنذاك جدل مرير بين مؤيدي خطط النمو، والتطور الصناعي الرامية إلى دفع المدينة أخيراً نحو الحداثة الأوروبية، وبين من يرون مستقبلاً آخر للمدينة يرتبط أساساً بالزراعة والسياحة.

لم يكن «سكارافوليو» منحازاً فقط لـ«كازالي»، و«سومونتي» موفّراً

(4) تعد عصابات «كامورا» و«المافيا» و«اندرانغيتا» الأذرع الثلاث الأشد سطوة وخطورة وتغلغلا للجريمة المنظمة في إيطاليا. وتتركز عصابة «كامورا» في إقليم «كامبانيا» وفي عاصمته مدينة «نابولي». (المترجم)

لهما الحماية عبر جريدته، ولكنه كان يقود حملة شرسة ضد الحلم الصناعي معبراً هكذا، وبحماسة شديدة، عن الأيديولوجية الفاسدة لتلك الطبقة البرجوازية التي كان يمثلها النائب والعمدة.

نظرياً، كان النزاع القضائي مع المحررين الشباب في جريدة «بروباغندا» لينتهي بانتصار النائب «كازالي»، وذلك لخطورة الاتهامات التي كانوا قد وجهوها له، ولأن النائب البرلماني كان له من النفوذ ما يكفي لحمايته من هزيمة كانت ستحدث صدى كبيراً في إيطاليا كلها، من أقصاها إلى أدناها (فبلدية «نابولي» تخضع لسيطرة عصابات الجريمة المنظمة، وكان النائب «أنييلّو كازالي» هو الطرف السياسي الأقل نفوذاً في هرم السلطة). لكن حدث عكس ما كان متوقعاً نتيجةً لبعض الوقائع التي أحدثت اختلالاً في التوازن الاجتماعي والسياسي السائد وقتها. أدان القضاء النائب «كازالي» الذي أُجبر على الاستقالة من البرلمان، وتعرض إلى عقوبات، وإهانات من كل حدب وصوب. علق الأستاذ قائلاً: «في أوقات كثيرة يعرف التاريخ كيف يكون لعوباً، ماكراً، وغير متوقع، إنه نادراً ما يكون هكذا، ولكن يحدث أحياناً هذا».

وجدت الحكومة نفسها حينذاك مضطرة لأن تُجري تحقيقاً حول «نابولي» يحمل اسم تحقيق «ساريدو»، الذي يمكن اعتباره رسمياً، ولو حتى بصورة مجازية، أولى الإجراءات التأسيسية لمصنع «إيلفا». كان التحقيق بمثابة الخطوة الأولى التي كانت ستقود في ما بعد إلى إنشاء مصنع الصلب. كان يُنظر إلى مصنع الصلب، ولو بصورة جزئية، على أنه لقاح واق ضد التردي الاجتماعي المحلي، أي كان مصنعاً وترياقاً في الوقت ذاته: كان شيئاً لم يُرَ مثله من قبل! وقد صمم المشروع مهندس

معماري جنوبي كبير، إنه «فرانشيسكو سافيريو نيتّي».

داخل القاعة المكتظة عن آخرها في المكتبة كان وقع الأنفاس المتسارعة للزحام يكاد يسمع. كنا نتلقى جميعاً كل ما كان يقوله الأستاذ، فكم من أشياء لم نكن نعلمها! قال قارئاً ما كان يدور بخلد الحاضرين: «كم من أشياء أبقيت طي الكتمان».

سألت روزاريا متمتماً في أذنها: «أأنت متعبة؟»، أومأت برأسها نافيةً. لم تكن لتتحرك من مكانها ولو أعطوها كل ذهب العالم. كان الأستاذ من وقت لآخر يخرج عن سياق الموضوع، ويتنقل بين موضوعات مختلفة محولاً الكلمات المعتدلة، الهادئة، والرقيقة إلى نصل حاد مصقول. مَن كان ليقول إن فماً متهدماً يشبه فم الخيل يمكن أن ينطق بتلك العذوبة، والجمال؟ في أحيان كثيرة كانت نظرات الأستاذ تحدق في الفراغ، أي في الأرفف المكتظة بالكتب. في لحظة ما قال: «أشعر بأن هنا بالداخل ثمة عوالم لا محدودة. لا عالم آخر بعد الموت: توجد كتب فقط. إن الكتب هي البعث، واليوم الآخِر، وهي ذاكرة كل شيء».

لجأ الأستاذ إلى علم التحليل النفسي في محاولة منه لإدراك طبيعة العلاقة بين «نابولي» والمصنع: فأين كان بوسعنا ممارسة رذائلنا؟ حين كان شاباً كان يذهب بين الفينة والأخرى مع خطيبته إلى حديقة «ريميمبرانزي» لمطارحتها الغرام، فالليل هناك كان ينيره لهيب نيران المصنع المنبعث من مداخنه المضطرمة. كان مزيج من الروائح الحامضة تتصاعد من «بانيولي» إلى أعلى التل جاعلة الأفئدة تخفق، وكأنها مثير جنسي. لم يكونا هما وحدهما فقط هناك في الأعلى يستمتعان برؤية

مدينة الحديد الحمراء، وحينما كانت تسنح الفرصة كانا يتطارحان الغرام. كانت أصوات، وتأوهات كثيرة تُسمع هناك، وكأن كل شجيرة باتت مأوى للعاشقين، ناهيك عن السيارات الكثيرة التي كانت ترتعش مصدرة صريراً مدوياً يكشف عن هزات جماع، ونشوة غير معهودة.

«أيها الأصدقاء إنني لا أمزح، إننا كنا نحب «بانيولي» لأنها كانت تمثل لنا أشياء لا حصر لها ولاسيما أنها كانت تجسد صورة صحية مخالفة للمدينة السياحية. كانت صورة مغايرة تحول السكون إلى حركة، وكل ما هو تقديري إلى شيء محدد، وواضح، واللامعقول إلى منطقي، والفوضى إلى نظام، والتراخي إلى انضباط. كنا نحبها لأنها أدخلت في أعقاب الحرب الباردة إلى مدينة ملوثة كـ«نابولي»، مدينة العشوائية الشديدة والتهريب، قيماً لم تكن معتادة هنا، مثل التضامن، والاعتزاز بمن يكسب قوت يومه، معرضاً نفسه كل يوم إلى حرارة الفرن العالي، وقيمة العمل والحس بالشرعية...».

ثم أضاف: «كثيرون لا يصدقونني حين أقول إن هذه المدينة كانت مدينة عمال بالأساس. اليوم يبدو لي أن هذه الخاصية بالذات وهذا القلب القديم للمدينة في طريقهما إلى الزوال الطوعي».

اختتم حديثه مؤكداً على أن هناك مرحلة في العمر نتّجه فيها إلى أن ندرك المعاني المتوارية للأحداث، ووجهها الرمزي، والمجازي. قال: «أأمْسى التخلص من المصنع طقساً من طقوس الانتحار الجماعي أكثر منه ضرورة فردية، أو سرقة بسيطة ينبغي إتمامها في هدوء وسكينة؟ أريد أن أقول إن كلمة «تسريح» قبل أن تكون كلمة بشعة فهي تصيبني بالهلع لما تخلفه من أفواه مفتوحة، وللعنف الذي ينتج عن فحيحها المتواصل

دون انقطاع، ولرغبتها في التهام كل شيء، ولقدرتها على أن تعبّر عما يجري بالعالم بأسره، أو على الأقل عن عالمي الشخصي، وعن عالم كل من له عمري نفسه، وعاش تجربتي نفسها، وكانت له آمالي وطموحاتي نفسيهما».

كانت أمسية لا تنسى، لم تشهد مصادمات، أو صراخ، أو اتهامات، أو لعنات كما كان يحدث عادة في هذه الفترة في كل مرة كان يُطرح فيها للنقاش هذا الموضوع. كانت أمسية مليئة بالظلال، وأشباح الماضي، يهيمن عليها أستاذ ذو ابتسامة تبدو ودودة، ولكنها قادرة على الأخذ بلبّ أكثر المستمعين قلقاً، وتوتراً.

-7-

وصلتني الرسالة الثانية بعد أسبوع من وصول الأولى، وتبعتها الثالثة بعد فترة مماثلة، لذا فلم يكن الأمر مجرد مصادفة. لعله كان يعكس الطبيعة المنظمة، والمنهجية لكاتب تلك الرسائل، لعلها كانت ثمرة لحساب مّا أو لضرورة، من الصعب تقرير هذا. احتوت الرسالة الثانية، والثالثة كالأولى على إشارات بالتهديد، رغم أنها كانت غامضة، وافتراضية. كانتا كالسابقة مكتوبتين بالقلم وبخط صغير ودقيق، ولكن به بعض التردد مثلما يحدث حينما تحاول اليد بصعوبة المحافظة على الكتابة على خط مستقيم، حتى إن كتابته راحت، عند نقطة معينة تميل، وتأخذ طريقها نحو الأسفل.

اختتم الرسائل الثلاث بتوقيعه بكلمة «صديق»، وكأنه كان يريد أن يضفي على تهديده لي بعض التهذيب، والاحترام. سألت نفسي مرات لا تعد ولا تحصى كيف خطر بباله أن يصف نفسه بـ«صديق». سألت نفسي أيضاً إن كان عليّ أن أبحث عنه بين الأشخاص الذين يعرفونني جيداً. لعله ليس صديقاً حقيقياً، ولكنني اشتركت معه في عمل شيء مّا، ربما منذ وقت بعيد مضى. سأكذب إن أنكرت أن تلك الرسائل كانت تنطوي على جمال غامض منطقي، وقادر كالحامض على إذابة تناقضات كثيرة: فعلى سبيل المثال للمرة الأولى أجد في الرسائل شرحاً مقبولاً يوضح لم تم التعجيل بإغلاق المصنع عقب إصلاحه، وإعادة هيكلته بتكلفة تفوق الألف مليار ليرة (فبهذه الطريقة وُضع مصنع «إيلفا» في موقف لا يمكن الدفاع عنه نهائياً جراء مديونياته الهائلة

للبنوك علاوة على الفوائد الباهظة للديون).

كان «مارتينيز» منذ فترة مقتنعاً بأن الكاتب المجهول كان على درجة عالية من الثقافة (إن لم يكن أستاذاً، فلعله نقابي ذو توجهات فوضوية؟ أو سياسي نأى بنفسه عن السياسة؟) وطلب مني أن أعدّ له في كل مساء تقريراً وافياً عما مر بي من أحداث في كل يوم: مَن اتصل بي، ومع مَن تبادلت الحديث، وما الرسائل التي وصلتني من «راديو المصنع»، وهل رأيت حولي أناساً اختلفت معهم من قبل، حتى ولو كان هذا منذ وقت بعيد مضى. لم يكن يفوته أبداً أن يسألني إن كنت قد شعرت بأن هناك من كان يتجسس علي، أو يتعقبني. في اليوم الثالث أجبته بـ«أجل»، ولكن على غير رغبة مني، وكأنني فعلت هذا فقط لكيلا أخذله.

حكيت له أن في ذاك الصباح كنت قد ذهبت إلى الجسر الجنوبي بناءً على طلب المهندس «لوناردي» لأفحص مستودع سفينة تجارية كانت راسية بالمرفأ لأنها كانت من بين السفن المخصصة لنقل جزء من آلة الصب إلى الصين حينما تحين اللحظة المناسبة. وبعد أن أوقفت السيارة لأتوجه نحو السفينة أبصرت سيارة تقف على مسافة عشرة أمتار مني يستقلها رجلان جالسان بجوار بعضهما. كان الرجل القابع أمام عجلة القيادة يحدق فيّ بلا شك. كان هناك بلا حركة يرنو إليّ صامتاً مسنداً ذراعه على نافذة السيارة المفتوحة. كان وجهه مستديراً، وعريضاً، وجبهته تتوارى أمام بقعة كبيرة من الصلع المبكر تفترش الجزء الأوسط للرأس. كان شعره على جانبي رأسه قصيراً، ومجعداً، وذا لون رمادي، وأنفه ممتلئاً، ومستقيماً: كان وجهاً ذا تعبيرات حادة لم أكن لأرغب يوماً في ملاقاته لأي سبب كان.

عند خروجي من السفينة كانت السيارة قد اختفت. فتشت بعيني في كل المنطقة المحيطة، كان ذانك الاثنان قد اختفيا مما جعلني أنتقد، وأوبخ نفسي كثيراً: يا «بوونوكوري» فلتهدئ من روعك، والويل لك إن تركت الخوف يهيمن عليك...

لقد كان وهما إذاً؟ ظللت مقتنعاً بهذا إلى أن قررت العودة إلى البيت في الساعة السادسة مساء. في ساحة انتظار السيارات على مقربة من مبنى ورشة الصلب تعرفت فوراً على السيارة التي كان يستقلها الرجل الأصلع الذي لم يكن على متنها آنذاك، ولكن كان يجلس في المقعد المجاور لقائد السيارة رفيقه الآخر (هذا إن سلّمت بأنه كان الرجل نفسه الذي رأيته في الصباح): على كل حال لم يبدُ لي أنه يهتم لأمري. أعرب «مارتينيز» عن دهشته من هذه الحكاية. راح يتقلب متوتراً فوق مقعده كمن يحاول بشتى الطرق أن يكظم غيظه بينما كان يتحسس بسبابته، وبإبهامه تجاعيده الممتدة من أنفه إلى ذقنه. قال لي إنه إذا تصادف، والتقيت الرجل الأصلع ثانية ينبغي عليّ أن أتخذ إجراء في الحال، لعله سيكون عليّ أن أطلب الحماية من «لوناردي».

«أتمزح يا مارتينيز؟».

«أعرف ماذا تريد أن تقول، لكنك لا تستطيع أن تجازف بنفسك».

«إني مقتنع بأننا نواجه إنساناً غير مؤذ».

«أنا أيضاً مقتنع بهذا، على الأقل حتى أتأكد من أنه يتعقبك فعلاً. إن إنساناً غير مؤذ يمكن أن يصل به الأمر لأن يكتب رسائل مجهولة. لكن، إن راح يتعقب ضحيته فسيعْني هذا أنه غير ما نظن». كنا في بيتي

وكان «مارتينيز» قد اعتاد على زيارتنا كل مساء. كانت زياراته قصيرة، وعصبية وفي أحيان كثيرة عابسة رغم محاولاته، عندما كان يتذكر هذا، بأن يبدو هادئاً، ومطمئناً ومجاملاً (يا عزيزتي «روزاريا» ما أجملك هذا المساء؛ إن «أديلي» ترسل لك قبلاتها؛ إنك تدللين هذا الرجل؛ آه لو لم أكن أكبرك بخمسين عاماً..)

لم يكن الأمر ليدوم طويلاً هكذا. عقب الزيارة المعتادة، والمتكررة التي كان يقوم بها «مارتينيز» إلى بيتنا بعد العشاء، وبمجرد أن يهم بالخروج، أو فور خروجه مباشرة، كانت «روزرايا» تركض نحوي وهي في غاية التوتر قائلة: «ماذا يجري يا بوونوكوري».

كنت على وشك أن أعترف لها بالحقيقة كلها، لكنني استطعت أن أمنع نفسي، وأن أخترع لها كذبة ما. رويت لها أن الأسبوع الفائت كنت قد تشاجرت مع المهندس «لوناردي»، ولكن لحسن الحظ سرعان ما عادت الأمور إلى طبيعتها. لم تعلق «روزاريا» بأي كلمة، ولم توجه لي أي سؤال آخر، ابتعدتْ في صمت، أدركتُ أنها لم تصدق أي كلمة مما قلته لها.

***

أريد أن أكون واضحاً معك، إن عقدة الرسائل المجهولة التي لم أستطع أن أصل إلى حل حاسم لها لم يكن لها أي أهمية في هذا الأمر. خلال السنوات الأخيرة أُهدرت رسائل مجهولة كثيرة في «بانيولي»، فليس صحيحاً على الإطلاق أن الهزائم تجمع الشمل بل إنها تزرع الضغائن، والأحقاد، وتنشر عدم الثقة. سأعترف لك بأمر: فطوال الوقت الذي استغرقته في تفكيك آلة الصب شعرت بوطأة النظرات

الخبيثة. فلتفكر قليلاً! حينما لم يكن هناك أحد مطلقاً بجواري، حتى عندما كنت فوق سقف يفوق ارتفاعه الأربعة والثلاثين متراً. هناك في الأعلى، على ارتفاع أربعة وثلاثين مترا أحسست بقشعريرة غريبة في مؤخرة رأسي، كأنها وخزة دبوس خفيفة كنت أعرف مصدرها.

إني أعرف على الأقل اثنين تلقيا خلال تلك السنوات رسائل مجهولة مثل التي تلقيتها. إن أردت فبوسعي أن أعطيك أسماءهما؛ لعلك تجد طريقة لتضيف حكايتهما إلى حكايتي: فالتكرار يفيد دائماً كما يُقال. من ناحية أخرى –رغم أن كل هذا حدث في بداية الألفية، ورغم أن آلة الصب ليست الوحيدة التي اختفت، بل إن المصنع بأكمله لقي مصيراً مماثلاً– فما زلنا إلى الآن لم نفقد بعد عادتنا السيئة في الريبة المتبادلة. لو تعرف أنت نفسك الطريقة الملتوية، والمثيرة للريبة التي تتحرك، وتتفحص بها كل ما يحيطك، ولو تعرف كم تبدو متألماً حينما تكون هنا. أرجو ألا أُغضبك إن اعترفت لك بأنني أتفحصك كثيراً بفضول لأفهم أكثر عما تبحث. ذات يوم رأيتك سراً تمشي في إحدى طرق مصنع «إيلفا» بعدما تم تفكيكه على مقربة من ورشة آلة الصب «ل.د». أذكر أنك توقفت فجأة، وكان يبدو عليك القلق الشديد، أو كأن بك حرجاً كبيراً. كان الطقس حاراً جداً وكان جسدك المتقدم بعض الشيء في العمر يترنح قليلاً. ثم رفعت رأسك إلى الأعلى، وشعرتُ أنا بحسرة شديدة لأني كنتُ بعيداً جداً عنك حتى أستطيع أن أتفحص ملياً وجهك. لم أكن بمفردي، كان معي بجانبي زميلي في المكتب «أرتورو سكوديري» الذي كان يراقبك بفضول لا يقل عن فضولي. تمتم «أرتورو» قائلاً من يدري في ما يفكر، وأومأت برأسي أكثر من مرة

متفقاً معه، ولأُفهمه أنني أيضاً كنت أتساءل عن الشيء نفسه.

في ما كنت تفكر؟ أراهن أنك كنت تفكر في شبابك. فقد اعترفت أنت نفسك لي بهذا: «إنني هنا لكي أُكمل رحلتي في الماضي الذي يعد المصنع جزءاً منه. ففي نهاية الأمر كان المصنع هو أول من يشغل بالنا».

لا ينبغي أن تغضب، فكما قلت لك فنحن في «بانيولي» قد تعلمنا أولاً أن نكون فضوليين مرتابين.

فلم يكن وجودك هنا بيننا مُرحباً به بالقدر نفسه من الجميع قبل أن يصبح منتظماً، بل يومياً (من قاعة الطعام إلى الأرشيف، ومن مكاتب الإدارة إلى المسؤولين عن الهدم). ففي تلك الحالات هناك دائماً مَن يتذمر مرتاباً، فماذا يريد ذاك الرجل الذي يضع أنفه في كل شيء، ويسود دفاتره بالملاحظات، أسينقل إلينا تشاؤمه، وحنينه؟ حتى اختيارك لي لكي أقص عليك روايتي أثار الكثير من الإزعاج.

«من تظن نفسك يا بوونوكوري؟» وجّه إليّ هذا السؤال دون أدنى مواربة زميل لا أريد أن أذكر لك اسمه يعمل في مكتب في الطابق نفسه الذي أعمل به عقب أسابيع من مجيئك عندي كل يوم، وبقائك معي لساعتين، أو لثلاث، وأحياناً، لأربع ساعات متواصلة، وأنت تلاحقني بأسئلتك، وتحثني على أن أحكي لك عن حياتي الغبية بينما أنت تدوّن كل كلمة كنت أقولها. «من تظن نفسك يا بوونوكوري؟ أنت لا شيء... أنت صفر».

لم أرد عليه، فأي إجابة مني كانت ستؤدي بلا شك إلى شجار حقيقي. لو تعرف كم مرة سمعت فيها هذا الكلام! ففي كل مرة ترقيت درجة أعلى في تقييم مديري المصنع لي، أو تلقيت شكراً، أو تهنئة، أو

اخترِتُ لأداء مهمة دقيقة، كان هناك دائماً مَن يهمس في إحدى أذنيّ ويردد على مسامعي دون أن يكون هدفه المزاح فقط في كل مرة: «من تظن نفسك يا بوونوكوري؟ إنك لا شيء.. أنت أقل من الصفر». إننا لسنا ضعفاء هنا بالداخل، لم نكن كذلك قبل إغلاقه، فما بالك الآن. لا أحد هنا يمتنع عن إطلاق الجمل الجارحة، حتى أنا في بعض المرات أقع في هذا الفخ، ولكني بعدها بقليل أُعرب عن ندمي ملقياً بالذنب على خجلي المتأصل في طبيعتي، فهو سبب كل ما أرتكبه من أخطاء. لعلي أكون أسداً كما وصفني ذات مرة المهندس «لوناردي»، ولكني للأسف أسد خجول على الدوام.

لقد تركت نفسي لتسترسل كاشفة عما بداخلها. أينبغي عليَّ أن أعتذر لأحد مّا؟ على كل حال أفترض أنه لا ينبغي على أي كتاب أن يلتزم بحسابات معينة، فليس من المفترض أن يبدأ عند نقطة ما وينتهي عند نقطة أخرى محددة. إن الكتاب -كما كنت تقول أنت- يمكن أن يشبه جيداً شخبطة عشوائية، وكلما ازدادت عشوائيتها كان ذاك أفضل. كنت أنتظر الرسالة الرابعة، وكنت أتفحص دائماً صندوقي البريدي، وكان قلبي يقفز في صدري حين رؤيتي فقط لظرف مظروف مّا. لأيام وأيام كنت أتحاشى الوقوف، والمناقشة مع أي كان خارج أو داخل المصنع. كان ثمة إحساس بالذنب يتملكني ويقين بأني لست مسؤولاً عن أي تراجع، أو تحول في موقفي. لكن أكانت الأمور هكذا فعلاً؟ أكنت فعلاً فوق مستوى الشبهات؟ حتى إن كانت إجابتي بنعم، ولكن كيف كان لي أن أُنكر على الآخرين حقهم في أن يرتابوا في براءتي، رغم أن كل الظروف المحيطة لم تكن ظاهرياً تدعم موقفي؟ (كعلاقتي الحميمة مع «لوناردي» وتعاوني معه).

بعد الأسبوع الثالث من صمت الرجل الذي كان يلاحقني أخذ التوتر والخوف يتعدان عني، شعرت بنفسي أُولد من جديد. عقب شهر فقط بدا لي أني استعدت صفاء بالي حتى أنهم سمعوني في صباح أحد الأيام وأنا أُغني في بيتي، حتى أن «روزاريا» وابني «أندريا» (الذي لا يزال يجد صعوبة في النظر مباشرة إلى عيني إلى الآن، ولكنه مرتبط بي بطريقة مَرَضية، ويضعني في مصاف الآلهة) تجمدا في مكانهما وكأنني

بُعثت فجأة من غيبوبة عميقة طويلة.

هدّأ اختفاء الرجل الأصلع من روعي، فحسب المعلومات التي توصلت إليها كان عاملاً شريفاً يعمل لحساب شركة خارجية مسؤولة عن إصلاح أسلاكنا النحاسية الكهربائية الكبيرة الموجودة تحت الأرض، لقد كان بمثابة رجل من تحت الأرض. قررت أن أحكي لـ«روزاريا» عن كل شيء. استمعتْ في صمت، وبعدما أفرغتُ كل ما في جعبتي اعترفتْ لي بأنها كانت تعلم كل شيء، كانت قد استرقت السمع لحديث دار بيني وبين «مارتينيز» في مساء أحد الأيام بينما كنا نثرثر في شرفة المطبخ. أرادت أن تقرأ الرسائل، درستها طويلاً منفردةً، وحينما عادت كانت تبتسم، ولم تكن قلقة على الإطلاق، تنهدتْ قائلة: «إنها لتسبب الكآبة وليس الخوف».

تطلعت إليها بتعبيرات تنم عن عرفان حقيقي، فقد فهمتْ من بين السطور شيئاً لم ننتبه إليه أنا و«مارتينيز» حتى تلك اللحظة. شددت على يديها، وشكرتها، رغم إني لم أكن أعرف ماذا أقول لها. كنت أشكرها ربما للسيطرة الشديدة على النفس التي أظهرتها في الأيام السابقة، ولأنها أرادت في تلك اللحظات شديدة الصعوبة أن تُوفر عليّ وطأة توترها وقلقها. أذكر أن في ذاك المساء عقب قدح الكاموميل المعتاد («روزاريا» صانعة ماهرة للكاموميل) وقبل أن ينام، عاد «بوونوكوري» بعد توقف طويل، وسقيم إلى مزاولة نشاطه الرائع، والمفضل، ألا وهو تنفيذ تصميمات مضنية لتفكيك الآلات، ولاقتلاعها من الورش، إضافة إلى إعداد نظم لشحنها تعتمد على أقفاص، وعلى حاويات يتم تعشيق كل حاوية منها داخل الأخرى.

قررت أنه لم يعد باستطاعتي مواصلة الاختفاء. أخبرت «مارتينيز» بهذا حينما أتى إلى بيتي بصحبة زوجته بوجهها المتأمل ذي الجلْد المتسلخ جراء التجاعيد، وقلت له: «يا مارتينيز كفانا حرصاً!». لم يعترض بتاتاً. فقد أدرك أني أرغب في التحليق عالياً بأجنحة مفرودة. أظهرت له يديّ، أترى؟ إنهما لا ترتعشان. حاولت أن أعدد له مزايا الجرأة، وعدم الحذر، وكيف أن الحياة بدونهما تغدو بلا طعم. قال لي إن في ذاك اليوم كان قد ذهب عصراً إلى نادي الشركة، ورأى هناك أناساً كثيرين غاضبين.

«إنهم جميعاً، أو تقريباً، مقتنعون بأن عليهم منع تفكيك المصنع قبل أن يتم الوفاء بالوعود المعطاة لهم». لم تكن تلك أخباراً جديدة. لم أُعلّق. فمنذ أن اعتدنا أن نرى بعضنا بشكل منتظم كانت تلك المرة الأولى التي قررت فيها أن أخفي عنه ما يدور برأسي، كانت فكرة مفاجئة قد خطرت ببالي. كنت أفكر بأن أتوجه يوماً لزيارة نادي المصنع في أكثر الأوقات ازدحاماً بالعمال حتى أُوضح للجميع وجهة نظري. لكنه سرعان ما أشار بإصبعه إلى صدري، وكأنه يوجه إليّ اتهاماً. سألني وعلى وجهه نصف ابتسامة: «ماذا تفعل، أتريد خداعي؟ سآتي معك، وليحدث ما يحدث. لا تزال لي مكانة في «بانيولي»، وإن كانت ثمة كلمات يمكنها أن تعيد الصواب لأحدهم فليس هناك من هو أفضل مني ليقولها؟».

كنا بلغنا درجة من الصداقة جعلته قادراً على قراءة عينيّ.

«أأنت ساحر يا مارتينيز؟» ابتسم مجيباً بنعم، وقال: «في عمري هذا إما أن يصير المرء ساحراً أو ينبغي عليه أن يتساءل في ما أفاد وجوده

في هذا العالم. إني أمضيت حياتي في حل لغز الأسرار المتوارية خلف ستار ضحكات، وعبوس من يتحدث أمامي. أتحسب أني رجل لا قيمة له؟ لعلّي لم أحكِ لك عندما احتللنا المصنع لخمسة وأربعين يوماً متواصلة. كان هذا في عام 1950، وكنت أنا أمين اللجنة الداخلية، كنت الرجل الذي كان عليه في النهاية أن يقرر كل شيء. فقدت حينذاك سبعة كيلوغرامات من وزني جراء التوتر، والقلق. لم أكن متزوجاً وقتها. امتنعت عن الأكل. راحت مسؤولية الإضراب رويداً رويداً تقع على كاهلي، وكنت أشعر بوطأتها الرهيبة عليّ، فقد كنت أفكر في أُسَر رفاقي في العمل، في أطفالهم، ونسائهم، وفي الأشياء القاسية التي كانت يمكن أن تحدث بسبب تهديد إدارة المصنع بإغلاقه إلى الأبد. من ناحية أخرى، كيف كان لنا ألا نواصل مقاومتنا، وإضرابنا لمواجهة قرار فصل أربعة وخمسين عاملاً كانت الإدارة قد اتخذته، وأصرت عليه بذريعة محدودية إنتاجهم. ما هي الطريقة التي كانت لتمكّن المصنع آنذاك من التخلص من العمال غير المرغوب فيهم سياسياً؟ في النهاية، اضطر الأمين العام لاتحاد النقابات «دي فيتوريو»، ووزير العمل «روبيناتشي» إلى التدخل لوضع حل للمشكلة...»

«إنك تتحدث عن تلك الأحداث بحنين شديد».

«أينبغي عليَّ أن أتحدث عنها بانزعاج، ولامبالاة؟ كان لدينا ما نؤمن به يا «بوونوكوري»، كنا نؤمن بالمصنع. آه لو تعرف كم كان جميلاً، كانت الحرب قد وضعت أوزارها منذ فترة وجيزة حينما شرعنا نشيّده قطعة وراء قطعة...».

*** ·

في اليوم التالي، عقب الإفطار مباشرة، اجتزنا معاً بوابة النادي في شارع «كوروليو» بجوار الأكواخ التاريخية الباقية من المنشأة الصناعية الأولى في «بانيولي»، «مصنع زجاج ليفيفري» الذي يرجع لعام 1853م. كانت الساحة الكبيرة التي تطل عليها مباني النادي تبدو مهجورة تماماً. أصابتني الدهشة لذلك، فقد كنت مقتنعاً أننا سنجد هناك زحاماً، ولغطاً، وتوتراً، وكنت أحسب أننا كنا على وشك اختراق حقل مغناطيسي كان سيصعب علينا الخروج منه. سرنا نحو نهاية الساحة وأعيننا شاخصة إلى السور الذي كانت تبرز من خلفه قمم أشجار الكينا المصطفة في الطريق الخارجي، والممتدة بمحاذاة الساحل البحري المواجه للمصنع.

كنت أرغب في أن أقول شيئاً لـ«مارتينيز»، ولكني آثرت الصمت بعد أن أصابني حزنه الذي لا أعرف مصدره بالخوف. حين تداهمه الكآبة (لحسن الحظ نادراً ما يحدث هذا) يتصرف العجوز على هذا النحو: يلتزم الصمت، يحدق في الفراغ، تبرز من وجهه التجاعيد، يصير اللون الرمادي لعينيه أكثر برودة مضفياً على وجهه المتسامح تعبيرات عدائية حادة. انتظرت أن يخرج هو نفسه تلقائياً من حالته تلك. كان مقهى النادي أيضاً خاوياً تقريباً. كان ثمة رجل في الخمسينيات من عمره يجلس على طاولة، كان يبدو متحجراً في مكانه، ويحدق بنظراته في ملعبي التنس القريبين منه حيث كان زوجان من اللاعبين منهمكين في اللعب، وكانا للغرابة متشابهين في العديد من الأشياء (الغريبة للغاية). كانا يتحركان وفق إيقاع شديد البطء، حتى أن حركاتهما كانت تبدو وكأنها رقصة على موسيقى بطيئة، ومتقطعة، وكأن مرضاً داخلياً قد أفسدها. لكن كانت سيقان اللاعبين الأربعة هي أكثر ما أصاب

خيالي بالدهشة. كانت كلها متشابهة، رخوة، نحيفة، ملساء بلا شعر. وصلتْ من جهة البحر امرأتان، ظهرتا فجأة لأن الممر الذي يربط البحر بالمقهى ضيق، ومتعرج. كانت ملابسهما تكشف عن رغبة واضحة في الظهور، وجذب الأنظار والألباب. كانت إحداهما أكبر قليلاً من أن تكون فتاة صغيرة، ويبدو أنها كانت في الثانية أو الثالثة والعشرين من العمر، أما الأخرى فكانت تكبرها سناً، ولكنها لا تقل عنها جمالاً. تعرفت على الفور على المرأة الصغرى، فقد كانت تسكن في «بانيولي» وكانت قريبة من جهة أمها لـ«رايموندو لو بريستي» أو«الهدّام» كما كنّا نطلق عليه.

بيد أني لم أكن أعرف صديقتها، كانت أكثر جاذبية، وجسدها أكثر امتلاء، وخبرة، كانت متزينة، ولعل الريح البحرية (كان من الواضح أنهما لبثتا لبعض الوقت على الشاطئ) قد تسببت في تشقق مسحوق التجميل على وجنتيها مخلفاً بعض القشور البُنية الدقيقة. كان لها ثغر جميل، بسّام، وكانت في الواقع قد تبسمت لي أكثر من مرة بينما كنت أحملق فيها بجرأة ودون خجل. ما إن وصلتا إلينا حتى اقتربت «مارشيلا» مني، ودون أن تنطق بكلمة واحدة، دنت بوجهها مني وقبلت وجنتيّ. فعلت هذا بطريقة ماكرة، وتلقائية معاً، ولاحظتُ أنها لم تُدهش صديقتها فقط، بل العجوز «كارلو» أيضاً، رغم أنه كان يعرف «مارشيلا» وميلها إلى عمل أشياء مبالغ فيها. فلنفهم الأمر جيداً: إنها لم تفعل شيئاً يمكن اعتباره خاطئاً. فمنذ فترة كانت «مارشيلا» قد أعلنت على سبيل المزاح أنها مغرمة بي. كانت تقول (حتى أنها ذات يوم رددت هذا أمام «روزاريا» التي راحت تضحك ببراءة): «إني

أحبك لأنك تذكِّرني كثيراً بأبي».

كنت أعرف أباها جيداً، لم أكن صديقاً حميماً له، ولكني كنت أُقدره كثيراً كما أحسب أنه كان يقدرني هو أيضاً. كان طويلاً، ووسيماً، وأنيقاً حتى أنهم كانوا يطلقون عليه «الإنجليزي». كان يغلب على لون بشرته الاحمرار، وكان له شارب أشعث يُبرز ابتسامته الودودة، كانت النساء يلتهمنه بأعينهن. كان يعمل على أشرطة الصهر في وحدة التلبيد، وكانت المنية قد وافته وهو على فراشه، فقد توفي رسمياً جراء إصابته بالالتهاب الرئوي. كان موته المبكر قد أثار جدلاً شديداً، ولاسيما لعدم تشريح جثته مما حال دون معرفة السبب الحقيقي للوفاة، والذي، وفق البعض، يرجع إلى نوع العمل الذي كان قد أُجبر على القيام به لسنين طويلة، فقد كان عملاً ملوثاً وغير محميّ بطريقة مناسبة.

كان «الإنجليزي» قد أثار إعجاب «بانيولي» لنشاطه النقابي أكثر منه لوسامته: فقد كان قريباً دائماً من الناس، وعلى استعداد لإسداء النصح وحل المشاكل، ولهذا فعند مماته بكاه أهل الحي بأكملهم، وشعروا بالمسؤولية نحوه، وارتابوا في أن الدوائر العليا في المصنع قد مارست ضغوطاً حتى لا يتم التأكد من سبب الوفاة.

رغم أني للوهلة الأولى ظننت أن المرأتين كانتا تريدان التوقف قليلاً في المقهى، ولكني رأيتهما تبتعدان نحو الساحة الكبيرة. كانت «مارشيلا» في المؤخرة أما الأخرى فكانت تتقدمها بخطوتين إلى الأمام بشيء من الإصرار ربما لأنها كانت لا تزال متبرمة من منافسة «مارشيلا» لها، وعلى الطريقة التي تصرفت بها معي صارفة انتباهي بصلف عن صديقتها.

رحت أضحك، وحتى «مارتينيز» اقتنع هو أيضاً بأن ما حدث كان مثيراً للضحك. قال: «ها أنا ذا أمام بوونوكوري آخر جديد».

اعترضت قائلاً: «ولكني بريء».

أجابني بحزم: «بالتأكيد أنت دائماً بريء».

كانت لحظة غفلة واحدة كافية لأن تختفيا عن الأنظار. فالساحة كانت قد بدأت تعج بالحركة، فقد وصلت سيارات، وأناس –ليس مُهماً إن كانوا ضاحكين، أو متجهمين– فقد كانوا أناساً أتوا ليعيدوا إلى النادي كينونته كمكان يقع بالقرب من مصنع، بل إنه كان امتداداً للمصنع، الذي رغم الأزمة الشديدة التي كان يمر بها، ولكنه كان لا يزال مصنعاً، عالماً متكاملاً من المعدات، والآلات والمداخن، والإنسان.

سحبني «مارتينيز» إلى أحد جوانب النادي حيث كانت توجد بعض صالات اللعب، فقد بلغ إلى علمه أنه كان قد تجمع بها خمسة عشر رجلاً من بينهم رئيس النادي نفسه. كيف لم نفكر في هذا من قبل؟ كانت تجري أربع مباريات كاملة، ثلاث للورق ومباراة رابعة للبيلياردو. كان «إيتّوري سابيينزا» رئيس النادي مجرد مشاهد لمباراة للورق، ولكنه، كما لاحظت أنا و«مارتينيز»، كان مشاهداً فوق العادة حتى أنه منح نفسه الحق في توجيه توبيخ شديد إلى لاعبيَن في الوقت نفسه. بمجرد أن انتبهوا لوجودنا في الصالة توقف الضجيج. أما «سابيينزا» فأتى لملاقاتنا دون أي حرج، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، وقال بصوت جهور على أمل أن يشاركه الآخرون الترحيب بنا: «يا له من شرف... يا له من شرف»، لكن لا أحد غيره فتح فاه.

عقب هذا بقليل، وبينما كنا نقف في الساحة أمام المقهى، أوضح لنا

أن عمالاً كثيرين كانوا قد عقدوا عزمهم أن يَحولوا بكل الطرق دون تفكيك المصنع، فقد تم التوصل لاتفاقات عديدة، ولم يُنفذ أي منها، وكانت نتيجة هذا أن حوالي ست مئة عامل باتوا بلا أي أمل في العثور على فرصة عمل أخرى، أو حتى الحصول على المعاش المبكر، فكيف لنا إذن أن نتعجب من تصاعد حدة الغضب؟ علّق رئيس النادي العملاق (بالنظر إليه يبلغ طوله تقريباً المتر وتسعين سنتيمتراً، وتتواءم بنية جسده مع طوله) قائلاً: «إنني أجمع شفرات الحلاقة، وآخرون يلعبون التنس، أو يرسمون، أو يجدفون، أو يلعبون الورق، أو يصنعون مغناطيس، أو يصلحون المحركات، أو يزرعون الزهور، أو يفعلون أشياء أخرى. ثمة يأس كثير هنا، لكن لا يمكن شد الحبل أكثر مما يحتمله».

سألته: «هل هم غاضبون مني؟»

لم يبد مندهشاً لسؤالي مطلقاً، هز رأسه ليجيب بكلا، رغم أنه أضاف أنني كنت أبذل كل ما بوسعي لألتصق بالجانب الخطأ، وأنني صرت مشهوراً بالرجل المتعاون مع ممثلي الإدارة، ومنهم على سبيل المثال ذاك المدعو «لوناردي»، «إن العمال هم مَن يرغبون في أن تنأى بنفسك عن أولئك. ما هذه الحماسة الشديدة لتفكيك آلات الصب يا «بوونوكوري»؟ يقول العمال إنك لا تقف في صفهم».

«آه... إنهم يقولون هكذا؟»

«أجل، ولكن دون ضغينة أو عداء. من جانب آخر، يبدو أنك أنت الذي اعترفت برغبتك تلك، أو بحماستك على الملأ في قاعة الطعام وقت الإفطار. يبدو أن جملة مثل «إنها مهمة قد كلفني بها الرب» قد أفلتت من لسانك. أتظن أن هذا كلام يُقال؟».

«إنني قلت هذا على سبيل المزاح».

«لقد أخذ الكثيرون كلامك فعلاً على هذا المحمل، ولكن، حتى ولو كان على سبيل المزاح، فتلك الكلمات تجرح بالقدر نفسه».

تدخل «مارتينيز» في الحوار قائلاً: «هناك فعلاً من أخذ هذا الكلام على محمل الجد».

«ماذا تريد أن تقول؟».

لم يجب «مارتينيز»، فقد فكر أنه لم يكن له أن يكشف عن أشياء تخصني، أما أنا فقد كنت غاضباً لأن «سابيينزا» لم يكن يتحدث إلا باسم فئة واحدة من العمال وهم الذين كانوا ينوون معارضة تفكيك مصنع «بانيولي» إلى أن يحصلوا فقط على ما كانوا قد وُعِدوا به، عقّبت على كلامه بسؤال: «وما رأيك بمن يطلقون على أنفسهم «الرافضون»؟».

راح ينظر إليّ بوجهه الطفولي الضخم: «ومن يكونون؟».

«حسب قول البعض إنهم مجانين حالمون. إنهم أناس لا ضرر منهم، مثاليون، وواهمون، ولكن لا يمكن أن نؤكد بشكل قاطع أنه لم يندس بينهم بعض الخطرين الذين لا يمكن السيطرة عليهم. إنهم يعتقدون أنه لا ينبغي تفكيك المصنع لأي سبب كان. إنهم معارضون حتى لمجرد مبدأ الهدم».

«ولكني لا أعرف مجنوناً من هذا النوع».

«أأنت متأكد من هذا يا «سابيينزا»؟».

«إني متأكد جداً».

كان يبدو لي أني أحلم. أكان ممكناً أن يجهل «سابيينزا» وجود رجال في «بانيولي» يدعون إلى عدم المساس بالمصنع؟ فقد كان هذا موقفنا

الأصلي في البداية، ثم مع مرور الأيام أخذ عدد الرافضين يتناقص حتى باتوا نفراً قليلاً مجهولين، ويتحركون بشكل سري. في وقت ما كان يبدو أنهم قد اختفوا تماماً وكأن حالة الضعف العام الشديد قد ابتلعتهم. ولكن من صدّق هذا؟

إنهم في الواقع لم يختفوا أبداً. إن الرسائل الثلاثة التي أُرسلت إليّ لم تكن لتشكل تهديداً حقيقياً لشخصي، ولكنها كانت ذات مغزى إنساني، وسياسي على قدر كبير من الأهمية. أكتبها رجل واحد فقط؟ أو رجلان؟ أو ثلاثة؟

لعل مجموعة كاملة قد ناقشت تلك الرسائل قبل كتابتها: أظن أنهم قد يكونون عشرة أفراد على الأكثر، يجتمعون دورياً في مكان مّا. لكني أشهد أن هذه الرسائل كانت تنطوي على شقاء إنساني، ومرارة أكثر مما تحتويه من معتقدات، وأفكار. يا «بوونوكوري» كيف لك ألا تدرك أن ما ينوون عمله بالمصنع هو عمل تدميري بمعنى الكلمة، إنها سرقة شنيعة بحقنا، وبحق مدينتنا، وبحق تاريخها، وثقافتها أيضاً؟ إن المدافعين عن البيئة فرحون بهذا. يا لهم من مساكين موهومين! فلينتظروا وسيرون. إن الحقيقة واحدة فقط، إن «نابولي» قد فقدت مصانعها منذ فترة، فقد تلاشت كلها، وانتقلت إلى أماكن أخرى. كان مصنع «إيلفا» هو المصنع الوحيد الذي ظل قائماً، والآن طرحوه أرضاً. ألا يتألم قلبك لرؤية مصنع «نابولي» طريح الأرض هكذا؟ قلت لـ«سابيينزا» إنه وقتما شاء فأنا على استعداد لأن أحكي له كل شيء عن «الرافضين». تطلع إليّ مذعوراً. أردفت تلقائياً: «إني أعرف أنهم يترددون على هذا النادي، ويأتي بعض منهم أحياناً هنا لكي يتناقشوا، وأحياناً ما يكتبون رسائل مجهولة».

راح «مارتينيز» يجذبني من سترتي: «ويْحك يا «بوونوكوري»! ما هذا الهراء الذي تقوله! ماذا تزعم؟». قلت عندئذ «لسابينزا»: «أعتذر، فقد أخطأت، كنت أريد فقط أن تعرف أني تلقيت ثلاث رسائل مجهولة تحمل تهديداً لي». نظر «سابيينزا» إليّ مذهولاً، كان يبدو وكأنه قد تصلب من هول الصدمة، وكأن ما قلته له قد جفّفه، وأفرغ ما بداخله، أشار علينا بالجلوس أما هو فلم ينتظر أن نلبي طلبه، وألقى بنفسه على أحد المقاعد المنتشرة. فعلتُ الشيء نفسه. أما «مارتينيز» فجلس فقط بعد أن تأكد من صلابة المقعد وبعد أن وضعه في المكان الذي يرغب فيه، في مواجهة ملعبي التنس حيث كان لا يزال يلعب هناك لاعبون عجائز آخرون حركاتهم هي الأخرى بطيئة رتيبة، وسيقانهم ملساء بلا شعر. كانت السماء قد اكتست بلون أزرق قوي حتى أنه من فرط قوته كان يبدو زائفاً، كانت أقرب شبهاً بملاءة سرير منها إلى سماء حقيقية: كان لوناً أزرق ترابياً عنيفاً كلون سماء الأصيل ممزوجاً باللون البنفسجي للّيل. حاولت أن أُطمئن «سابيينزا»: «أخال أيضاً أنهم من حين إلى آخر يلتقون هنا في النادي، ولكن ما الضرر في هذا؟ إن النادي مكان مفتوح للجميع، وإلى أن يَثبت العكس فإنهم لم يرتكبوا أي أذى، أو أي شيء غير قانوني. أتعرف يا «سابيينزا» في ما أفكر؟ إني أشفق عليهم، أي أنني أتفهم مأساتهم، وحاجاتهم إلى من يقف بجانبهم، ويتفهم تشبثهم بالمصنع. إن موقفي غريب، إني أتفق معهم، وأعارضهم في الوقت ذاته. إني أختلف مع أفكارهم في اللحظة نفسها التي أوافق فيها عليها. إني أحبهم، وأبغضهم. إنها حزمة، أو عقدة من التناقضات داخل كثير منا». عقّب «مارتينيز» قائلاً: «ولكنهم هددوك». تطلع إليّ

«سابيينزا» بنظرة استفهام، كان يريد أن يعرف إجابتي. قلت: «أجل، هددوني: ثلاث مرات متتالية، ولكني لا أصدق تلك التهديدات، أو على الأقل لا أصدق أن من كتبها كان يقصد المعنى الحرفي لها. فلا أحد سيقضي على «بوونوكوري»، أو سيلقنه درساً جاداً لأنه يتعاون مع «ستيل ووركس» التي طلبت منه أن يقوم بتفكيك آلات الصب. لست أنا الوحيد في هذا الموقف: ألسنا كلنا معرضين للخطر نفسه؟ فلنكن جادين! إن التهديد ما هو إلا طريقة يتشبث بها هؤلاء اليائسون بالواقع الذين يشعرون بأنه يتسرب من بين أيديهم، طريقة يجذبون بها انتباه هذا العالم، واهتمامه إليهم من جديد، هذا العالم الذي يرغب في طي صفحة الماضي، والاهتمام بشيء آخر، أو ربما لا شيء على الإطلاق. إنني لا أخشى تهديداتهم يا «سابيينزا». أجل، في البداية كنت أخشاها أما الآن فلا، ولا أظن أن الموقف سيتغير في ما بعد، رغم أن في حالتنا هذه ليس من المناسب أن نصدر أحكاماً قاطعة. أتعرفون ماذا سأقول لكم؟ إن دعوني إلى أحد اجتماعاتهم فسألبي الدعوة دون تردد. لقد تخيلت نفسي في موقف مثيل يشبه المحاكمة، محاكمة الشرير «بوونوكوري». أؤكد لكم إنني استطعت الدفاع عن نفسي جيداً، أقصد أن أقول الدفاع عن مشروعي، أو عن هوسي بتفكيك آلات الصب بشكل مثالي. أيها السادة، لقد قلت لهم وأنا أنظر إلى أعينهم مباشرة، أتدركون أننا قد خسرنا؟ إننا لم نخسر معركة فقط بل الحرب بأكملها، على الأقل هذه الحرب. لم تحقق المصانع في «نابولي» أي تحديث. كنا نقول إن مصنع «إيلفا» سيدخل الزقاق وسيصلح من حاله، ولكن، على المدى الطويل، حدث عكس ما كنا نتوقعه: فقد دخل الزقاق إلى «إيلفا» وأفسده،

أفسد مصنع «نابولي». إن الشيء الإيجابي الوحيد الذي حققه المصنع كان ذلك الضمير العمالي الذي نما وترعرع داخل المدينة الموحلة. وليست رغبتي الشديدة في تفكيك آلات الصب بشكل مثالي، بل وحتى عزلتكم الموحشة تلك إلا نتاج ما فعله المصنع بنا».

***

مكثنا لفترة طويلة في النادي. مع مرور الوقت كان الازدحام يشتد بداخله، وكأننا هكذا كنا نضع كرة منتفخة تحت جهاز الضغط. حينما صارت منتفخة على آخرها رأيت مجدداً «مارشيلا»، وصديقتها المُنافِسة الجذابة. كانت الساحة مكتظة بالناس الذين كانوا يتحركون فيها بصعوبة مما أتاح لي أن أراقبهما لبعض الوقت. كانت الصديقة جميلة للغاية فعلاً، وتنبهتْ «مارشيلا» لإعجابي بها، ولذا نظرت إليّ نظرات تحمل قدراً من السخرية، والوعيد معاً. ظننت أنهما كانتا تنتظران أحداً قد تأخر عليهما بغباء، ولكن لم تكن الأمور على هذا النحو كما تبين لي بعد هذا بقليل. كانت ثمة حفلة لموسيقى «الروك» ستُقام في المساء على الشاطئ حيث كانوا قد شيدوا منصة للرقص مزودة بسماعات ضخمة، ولذا فلم يك غريباً أن يهرع الناس أفواجاً إلى هناك. رغم كل شيء كانت الحياة تسير في مجراها. ولأن «سابيينزا» كان مدركاً للموقف فقد كان حريصاً كل الحرص على أن يجعل سيل الناس يتدفق بأسرع قدر ممكن إلى الشاطئ. كانت الحياة تسير في مجراها مخلفة وراءها خوفاً، وضغينة، وخيبة أمل كدليل على انتصار «التسريح». ما إن بلغنا الشاطئ، وانتهى الزحام، حتى دنا مني الصارم والحاذق «مارتينيز» ليهمس في أذني قائلاً: «فليحيا الروك يا بوونوكوري!».

فتطلعت إليه بخجل مصطنع وقلت له: «أنت يا مارتينيز في عمرك هذا وماضيك الذي أعرفه!».

كنت معترضاً بشدة، فمهمتي كانت تتطلب هدوءاً وتركيزاً بينما كان التوتر يحيط بنا، كانت العاصفة تقترب: «يا مهندس «لوناردي»»، أتسمع أزيز الريح؟ فرجل مثلك تعود أصوله إلى مدينة «جنوة» تكفيه إشارات قليلة لكي يرصد هبوب الريح الجنوبية، والشمالية قبل وصولها».

لم أقل له شيئاً بالطبع عن الرسائل المجهولة، ولكني أخبرته أن شعوراً معادياً شديداً لـ«ستيل ووركس» آخذ في النمو والانتشار، ولاسيما بسبب مشروعها الخاص بتفكيك آلات «أفو 5» التي بيعت للهنود، وجراء تفكيك آلات الصب. أخبرته أيضاً أن بعض العمال، والنقابيين قد اقترحوا مجدداً إعادة تشغيل قطار التصفيح كنوع من الاحتجاج بهدف تكوين جبهة مقاومة حقيقية ضد «تسريح العمال». لِمَ لا تتحركون لتهدئة الخواطر، ولتسوية أوضاع العمال المُسرحين الذين لم ينالوا شيئاً بعد؟ أفْهمتُ «لوناردي» أن الموقف كان يزداد سوءا مما من شأنه أن يكبل يديّ، وأيدي التقنيين الآخرين العاملين في القسم، لأننا كنا هدفاً للنظرات وللهمهمة، مما لا يجلب السكينة لأحد، ولا يعود بالنفع على جودة العمل (تحاشيت إخباره بأي شيء عن «الرافضون»: فلمَ كان عليّ أن أتحدث معه بشأنهم؟).

لم يعترض على شيء، بيد أنه أراد أن يوضح لي أن وظيفته تنفيذية فقط. «يا «بوونوكوري» أتعتقد أني أقرر شيئاً؟ فالكارثة هي أن لا أحد هنا بالداخل ومن بينهم رؤسائي، بوسعه أن يقرر شيئاً في هذا الأمر».

أخذ يحدق فيّ بفضول. كان «لوناردي» طويلاً، ونحيفاً، وله خصلة على جبهته الذكية، أما لحيته فكانت تميل إلى اللون الأصفر، وكانت عيناه الحاذقتان تبدوان صارمتين عن قصد، وليس لطبيعته، وكأنه كان يحاول أن يبدو رجلاً مسؤولاً، وعملياً، رغم إدراكه بأنه يميل أساساً للاهتمام بالعلاقات الإنسانية المرتبطة بالناس. «يا بوونوكوري أتعرف أني أتحدث عنك كثيراً مع زوجتي؟»

«وماذا تحكي لها عني؟»

قال لي ويداه مشتبكتان وظهره منحنٍ: «أقول لها إنك رجل غريب»، ثم أشار عليّ بالجلوس فألقيت بنفسي سريعاً على المقعد الذي أمامه. بدأ حديثه لي يصيبني بالقلق، لأن تعبيرات وجهه، وحركاته تغيرت فجأة وكأنه قد قرر أن يكشف لي عن سر كامن بداخله. رغم اقتناعي الكامل بأنه لا يضمر لي أي عداء، ولكنني شعرت بأن عليّ أن أتوخى الحذر. سألته بينما كنت أتقلب على المقعد محاولاً التملص من شعاع شمس كان يطاردني: «ماذا تقصد بهذا؟»، ثم أضفت: «إن الإنسان يمكن أن يعرف أشياء كثيرة تعنيه، ولكن لا يدرك ما به من غرابة».

«لاحظتُ أنك تتعجل إتمام عملك. لا أقصد أنك تنهيه بسرعة، ولكن تبدو وكأنك تنتظر الكثير من وراء هذا العمل: لعلك تنتظر شكراً، أو مكافأة شرفية، أو سعادة ما.. لا أعرف بالضبط».

«أيها المهندس إن هذا حقيقي. إن لك عيناً حاذقة».

هز رأسه: «ليس بما فيه الكفاية. إنني فضولي يا «بوونوكوري». ماذا تنتظر بالتحديد؟».

أخفضت بصري مفكراً. ماذا كان عليّ أن أقول له؟ لم أسأل نفسي

هذا بغية إيجاد إجابة مناسبة، بل، على العكس، كنت أنوي فقط الكشف عن حقيقتي الضبابية. فلم أكن أريد إنهاء الموقف معطياً إجابة تقليدية أدافع بها عن نفسي، ولكني لم أكن أعرف ماذا أقول له: فأين كانت تلك الإجابة غير الضبابية، الجلية، والواقعية الملموسة ككأس ماء؟ وأي طريق كان عليّ أن أسلكه لأجدها؟ «أيها المهندس، لعلي لا أنتظر شيئاً؟ إن الحقيقة هي أني لا أعرف بما أجيبك. لعله هوس شديد، هاجس عائلي قديم. إن أبي كان ينحت الخشب، كان ماهراً جداً، وأذكر أنه لم يك أبداً راضياً عما كان يعمله. رأيته يوماً وهو يتطلع إلى عمل له والدموع تسيل من عينيه: سألته عما ألمّ به، فأجابني غاضباً: ألا ترى أني أخطأت كل شيء؟ لم يك هذا حقيقياً، فقد كان نحتاً عميقاً مثالياً، لكنه كان مصاباً بداء السعي وراء الكمال، ولذا فلم يكن يفلح في رؤية إلا الأخطاء. إني أعتقد أنه مات أيضاً جراء مرضه هذا. بالنسبة إلي، فأنا، لحسن الحظ، لم أصل إلى هذه الدرجة، درجة مرضه النفسي، لكني على كل حال نشأت من هذا الجذر نفسه».

اكتست نظراته صلابة، ورضا. قلت له: «أيها المهندس تبدو لي راضياً جداً عن نفسك».

«هذا حقيقي. لقد درست طويلاً بطاقاتك الخاصة بالتفكيك، والمقدمة الخاصة بكل بطاقة منها، والملخصات، والملاحظات والتوصيات، والتعليقات. أعرف عن ظهر قلب المقدمة التي افتتحت بها قائلاً: «إن آلات الصب قد قُسمت إلى أربع وحدات وفقاً للمعايير الجغرافية». ما أروع تلك الفكرة يا «بوونوكوري» الخاصة «بالمعايير الجغرافية»! لقد أدهشت حتى زوجتي، التي طلبت مني أن أشرح لها

معناها بالتفصيل. لعلك لن تصدقني ولكن أتعرفُ ماذا فعلتْ حين أنهيت شرحي التفصيلي الدقيق؟ فلتخمن! أرجوك!»

لم أجب، ليس لضيق مني، بل لأنني لم أستطع أن أتخيل شيئاً ذا معنى كانت زوجته لتفعله في ذاك الموقف. أما هو فقد انتظر قليلاً قبل أن يواصل حديثه. حينما لاحظ أنني وصلت إلى طريق مسدود صفق بيديه ليطرد الصمت بعيداً. «لقد ركضتْ لتبحث في القاموس عن تعبير «الباحث عن الكمال»: أتصدق، «الباحث عن الكمال»».

فتح أحد أدراج المكتب، وأخرج منه ورقة: «أتعرف من هو «الباحث عن الكمال» يا «بوونوكوري»؟ إنه من يحاول أن يبلغ درجة من الكمال في عمله ليس من السهل بلوغها دائماً. أما السعي إلى بلوغ الكمال فهو ميل مرضي كالهوس الذي يمنع في أحيان كثيرة الإنسان من تنفيذ أشياء سهلة لنرجسيته المفرطة، وقسوته في نقد الذات».

احتججت قائلاً: «ولكني لست كأبي، فلست أبحث عن شيء لا يمكن بلوغه. هو كان فناناً؛ أما أنا فعامل تم ترقيتي إلى درجة تقني، ولا أدري حتى مدى أحقيتي في تلك الترقية. على أي حال، فلنفترض أنني باحث مَرَضي عن الكمال. فلتفكر في الأمر! إن هذه المدينة لم تمتلك في يوم من الأيام تقليداً حقيقياً لإنتاج صناعي منظم بسبب شرذمة من المديرين غير الأكفاء، فماذا يمكن عمله فيها سوى السخرية من العمل وازدرائه، كما يفعل البعض، أو الاعتزاز به، وجعله مثلاً أعلى إلى درجة الهوس، والمعاناة؟ لهذا السبب اقترحت تقسيم آلات الصب إلى أربعة وحدات منفصلة وفق معيار جغرافي. فالجغرافيا عِلم كامل متكامل، وطريقة مثالية لتنظيم سلسلة من عمليات التفكيك».

أدركَ أنني كنتُ على حافة الإصابة بأزمة عصبية، وحاول التخفيف من وطأة الأمر عليّ فقال: «في مساء أحد الأيام يسعدني أن تأتي للعشاء في بيتي مع زوجتك لتحكي لي عن حياتك: إني متأكد أنني سأتعلم الكثير منها». قال هذا بطريقة مهذبة للغاية، على الرغم أن إشارته إلى حياتي الشخصية وإلى رغبته هو وزوجته في التعلم من حياتي الفقيرة لم تقنعاني كثيراً. اكتفيت بشكره، وأخبرته أن دعوته لي تشرفني.

لم تكن الرواية تخلو من المتعة حتى لـ«لوناردي»، وزوجته. أقصد هنا بالرواية حياتي الشخصية، رغم أنهما في ما بعد لم يدعواني أبداً إلى بيتهما على العشاء. فحتى الآن لم أحكِ لك إلا قليلاً، أو لا شيء مطلقاً: فقد أشرتُ مجرد إشارة إلى الزقاق الذي جئت منه، وإلى يدي أبي، وإلى تعييني في المصنع، ثم إلى الأخطاء القديمة والجديدة التي أدت إلى أفول المصنع، وإلى احتضاره دون أن يكف رغم هذا عن توظيف عمال جدد بشكل منتظم. فكلما اشتد احتضاره ازداد عدد العمال المُعينين به. هل اعترض أحد؟ ولا حتى مناصري حقوق العمال سُمع صوتهم. فلو كان أحد فقط اعترض آنذاك على هذا النزيف! فلو كان صوت واحد فقط سُمع حينها وهو يقول: إننا بهذه الطريقة لن ننقذ «نابولي»، بل سنقضي على «بانيولي» فقط، إن المكان يتحول إلى صندوق للقمامة!

راحت الأشياء تزداد تدهوراً منذ نهاية الستينيات وما بعدها، منذ عام 1969 بالتحديد. فمنذ تلك اللحظة كان المصنع يغلق دائماً موازناته بشكل كارثي، حتى بلغت خسائره في عام 1977 مئة وسبعة وعشرين ملياراً، أي ما يقرب من ستة عشر مليوناً لكل موظف. لقد حقق مئة وسبعة وعشرين ملياراً من الخسائر في اثني عشر شهراً فقط في عام 1977. ورغم هذا ففي ذاك العام فقط عُيِّن المئات من اليائسين –مساجين سابقون، وفاشيون، ومهربون صغار، فقد كان سبعة آلاف فرد مسجلين في قائمة العاطلين عن العمل– وقد فرضهم على المصنع السياسيون الماكرون، والإداريون المحليون. لم يكن ينقصنا سوى العاطلين المتمرسين لإكمال

التردي الذي كان قد حل بالمصنع منذ فترة. فإضافة إلى العمل، والإنتاج (مهمة كلّف بها قليلون ممن يعرفون ويريدون العمل) كانت تُباع في أقسام المصنع السجائر المهربة، والواقي الذكري، والحلي، والملابس، والمشروبات الكحولية، والساعات، والأساور، والنظارات، وكل أنواع البضائع الآتية من مصدر مشروع، وغير مشروع.

كان لدينا المرابون أيضاً: كانوا يأخذون أماكنهم على مقربة من المصرف الملحق بالمصنع (عندما بدأنا في صرف أجورنا بشكل شهري بدلاً من كل أسبوعين) متأهبين للانقضاض على تعيس الحظ المعوز الذين كانوا يشمون رائحته بحاستهم الخاصة. كانوا يقومون بالمراهنة على كل شيء (الخيول، واللوتارية، والمراهنات الرياضية) وكانوا يلعبون القمار، ويرتكبون أعمالاً إجرامية متمتعين بحماية رجال ذوي نفوذ، في أحيان كثيرة من داخل المصنع أيضاً. أذكر أنه تم القبض على رجل كان يتباهى بحيازته لسكاكين، ولأسلحة نارية داخل القسم الذي يعمل به، كان قد أفلح في ابتزاز رفاقه ورئيس دوامه مُجبِراً إياهم على أن يقوموا هم بالعمل الذي كان مكلفاً هو به، وعلى أن يختموا بطاقة دوامه في الصباح بدلاً منه.

من ناحية أخرى، كان المناخ العام للمصنع –على مستوى الإدارة والمسؤولين– هو ما يجذب تلك المخالفات. كان لي صديق تقني كهرباء موهوب للغاية يعمل بالصيانة مثلي في مصنع الصلب، وكان قد اعتاد على تسجيل كل الفضائح، والسرقات، والأعمال القذرة التي كانت تحدث من حولنا في دفتر. كنت دائماً ما أحذره: «ستقضي نحبك مقتولاً». أما هو فكان يضحك بغفلة المجانين، والأطهار ذوي

القلوب الناصعة إلى درجة تصيبك بالخجل.

كان الجدل مُثاراً حول الطاعة العمياء التي التزم بها مسؤولو المصنع إزاء التوجيهات المشينة الصادرة من الطبقة السياسية، ومن ذوي النفوذ الكبار، والصغار، بجيوبهم المعبأة بقوائم لأسماء أناس ينبغي توظيفهم، ولشركات يجب منحها امتيازات في المناقصات، ولموظفين ينبغي ترقيتهم إلى درجة وظيفية أعلى. كانت تثير الجدل أيضاً المصالح الخاصة التي كانت تبدو بوضوح شديد أنها تقف خلف التهاون المخزي إزاء كل ما يحدث من مخالفات وتردٍ.

لعل صديقي عامل الكهرباء «أنطونيو راموزو» أرسل دفتر ملاحظاته إلى القضاء في «نابولي»، أو جزءاً منه على هيئة بلاغ مجهول عما يحدث في مصنع «إيلفا»؟ سألته في يوم عن هذا. أنكر، ولكن بطريقة... كيف أصفها؟ حزينة: كان إنكاراً ممزوجاً بخيبة الأمل. على كل حال لم يحدث شيء، أي أن الأمور ظلت تسير على حالها بشكل غير قانوني وفاضح بدءاً من نظام الإدارة الذي كان يقوم على «التقدير الشخصي والهوائي» لكل شيء، مِثل منح المناقصات إلى الشركات الخارجية، ولاسيما غير المتخصصة منها (مثل الشركات التي تعمل في النقل، والنظافة، وفي تدوير المواد الصناعية) ومن بينها شركات عدة كانت تفوح منها رائحة «الكامورا». كانت تلك الشركات تمثل عبئاً سنوياً ثابتاً، وباهظاً على المصنع، وفي فترات كثيرة دون أن يكون هناك أي عائد يعود على المصنع منها، لأن جزءاً كبيراً من الأشغال التي كانت تُكلف بها تلك الشركات كان يتم وفقاً لمصالحها الخاصة، وكان يمكن لقطاع خدمات الصيانة الخاص بالمصنع أن ينفذ تلك الأعمال.

إنني لست من ناكري الجميل الذين يحبون الذم. فقد كان هذا حقاً ما صار إليه حال مصنع «بانيولي» خلال السنين. في عام 1975 كان عمري وقتها سبعة وعشرين عاماً: وكما يُقال عن بعض الأرامل، والزوجات اللائي تُركن وحيدات، فقد كان بوسعي حينها أن أبدأ حياة جديدة لي. لِمَ لم يُغلق مصنع «إيلفا» آنذاك؟ لِمَ لم يُغلق في عام 1977 عندما اكتشف أنه حقق خسائر تبلغ مئة وسبعة وعشرين ملياراً، وكأن هذا لم يكف، فقد كان سوق الصلب يمر وقتها بأزمة دولية كانت تبدو بلا حل؟..

لكن رغم هذا قرروا إعادة إصلاح المصنع، وهيكلته لكي ينهض من جديد. قرروا أن ينفقوا ألف مليار في تحديثه، وتحويله، وتوسعته رغم أنه لم يكن هناك أحد في إيطاليا، أو في خارجها، مستعد لتصديق إمكانية إعادة بعث تلك الكفاءات، وذاك المصنع الملوَّث، وتلك «القربة المثقوبة المخزية».

أيمكنني القول إنني شخصياً لم أكن أصدق هذا؟ وكذلك أيضاً آخرون كثيرون مثلي داخل المصنع؟

لم نكن نصدق، لأننا كنا نعرف أفضل من أي أحد آخر كيف كنا انحدرنا إلى القاع، وكنا نعرف مقدار اللامبالاة التي كانت قد تراكمت حتى داخل ضمائر أكثر الناس أمانة بيننا.

أقول هذا لأبرر أيضاً عدم معارضتي التامة لضرورة إزالة مصنع الصلب من «كوروليو»، وذلك حتى يتحرر هذا الجزء الرائع من الساحل (لكني في الوقت نفسه أعترض كثيراً على الطريقة التي فُجّر بها الوضع: بعدما أنفقوا ألف مليار وربما أكثر دون أن يوفروا أي بدائل

للوظائف، وللإنتاج وكأنه عمل كان غايته القمع فقط، عملية بتر عنيفة وحسب).

إن الأسباب التي دعت إلى إصلاح مصنع «بانيولي» وإعادة هيكلته لا تزال إلى الآن غامضة بالنسبة إليّ: إنه أعظم الأسرار غموضاً في «هذه العملية القذرة» كما ذكر بوضوح ودون مواربة كاتب الرسائل الثلاثة المجهولة.

إن ألف مليار لمبلغ خيالي كان يمكن أن يكفي لتحقيق أشياء كثيرة، وجيدة، وحتى رائعة من بينها -ليس هذا من قبيل المفارقة- إصلاح المصنع أيضاً، ولكن ليس كمقدمة لإغلاقه بعدها بسنوات قليلة ليهدروا مبلغاً طائلاً من المال، بل، على العكس، فقد أهدوا جزءاً كبيراً منه إلى الصينيين، والتايلنديين، والهنود، وإلى كل من سيشتري أجهزة، ومعدات جديدة للغاية، وعلى كفاءة كبيرة دافعاً فيها ثمناً بخساً وكأنها مجرد خردة. كان ينبغي بالأحرى إصلاح المصنع لمنحه فترة من البقاء، والهدوء طويلة بما يكفي لتخطيط عملية تفكيكه، ومن ثم اختفاءه نهائياً ضمن إطار من البيع الرشيد، والنقل، وإجراءات أخرى متعلقة.

من المعروف أن الوقائع غير المنطقية تُحرِّض على انتشار الأفكار الخاطئة، فنحن نميل إلى الظن بوجود الشيطان وراء كل ما لا نفهمه وكل ما يهين ذكاءنا، وإحساسنا بالعدالة. ولمّا كان الشيطان قادراً على فعل كل شيء فلعله هو من اختلق عملية إصلاح «بانيولي» -كانت هذه وجهة نظر الكاتب المجهول للرسائل- بهدف أن يقضي على أي مبرر للدفاع عن بقاء المصنع بعد أن بات مصيره أن يظل خاسراً ومَديناً للأبد جراء ديونه للمصارف. لكنني لا أعرف إن كان هذا الافتراض مبنياً على

أساس واقعي. لا أعرف أيضاً الدور الذي لعبه المقاولون النابوليتانيون في هذه العملية بنهمهم، ورغبتهم الشديدة منذ البداية في وضع أيديهم على أراضي مصنع «بانيولي»، التي تقع في أحد أجمل الأماكن المطلة على خليج «بوتسولي» أسفل الجهة الشمالية من تل «بوسيليبو» (وقد تحدثت رسائل التهديد أيضاً عن نهم، ورغبات أولئك المقاولين).

لا أعرف ولا أبالي حتى بمعرفة هذا. إن عقدة المشكلة، حسب رأيي على الأقل، تكمن في شيء آخر. تكمن في النرجسية المفاجئة التي استولت على عمال «بانيولي» المُهانين. تكمن في عقولهم وفي قلوبهم التي يعلم الله فقط ما بداخلها.

أتفهمني، فالموضوع على علاقة وثيقة بي، إنه يتعلق بالتجربة الأهم في حياتي قبل أن يتم تكليفي بتفكيك آلات الصب: تجربة البعث من جديد. ولتنتبه جيداً أنها لا تتعلق بمجرد بعث عادي فحسب. إنني أتحدث عن بعث ثوري مشحون إلى درجة رهيبة بالغضب الشديد، والحيوية.

إنها معجزة، ولكني لا أومن بالمعجزات، بل، على العكس، إني أمقت هذه الكلمة قليلة المعنى، والقادرة على سرقة التقدير الذي يستحقه الإنسان لتنسب إياه إلى ما هو غير إنساني. كيف لنا، ورغم كل شيء، أن ننفي تلك النفحة الخارقة للطبيعة عن أحداث تلك السنوات؟ فلتصدقني! كان المصنع قد أصبح صندوقاً للقمامة، فكيف إذن لصندوق للقمامة أن يتحول من عشية لضحاها إلى ساعة منضبطة؟

بيد أن هذا هو ما حدث بالفعل. فقد أُجبر مناصرو «الكامورا»، والباعة، والمساجين السابقون؛ والحثالة، والكسالى على الاختفاء بعيداً

والهروب، أو تغيير سلوكهم، بينما استعدنا نحن -مَن نمثل التقاليد، وقلب «بانيولي» السليم الذي لم يكف أبداً عن الخفقان- السيطرة على المكان مدركين أننا قد أُستدعينا للقيام بمهمة عظيمة تثبت بها عزتنا. يبدو وكأنها قصة تعليمية أخلاقية، كلا... بل إنها الحقيقة العارية. ومع هذا، فأنا لا أريد أن أزعم أن مناخ التعبئة، وإنقاذ الأمل الأخير الذي بثته في أجواء المصنع الإدارة الجديدة التي أُستدعت لإدارة عملية التغيير لم يكن ذا أثر. فحين لا يؤدي الهلع إلى الشلل فإنه يفجر الطاقات، ويشحذ الذكاء. أكان هذا خوف فقط؟ كلا... كلا. بل كان إلهاماً. لقد حدث عندنا تحول يستحيل أن تجده في مكان آخر، فالإصلاح كان يعني قبل أي شيء آخر إدخال نظام جديد غير معروف للإنتاج يقوم على التشغيل الآلي الكامل للمصنع، وتزويد كل دائرة إنتاج الفولاذ بنظام للتحكم الإلكتروني.

لكن في مكان آخر لم يكونوا ليفعلوا هذا، بل كانوا سيشيّدون مصنعاً جديداً به عمال شباب يحمل أغلبهم الشهادة الثانوية. أما في «بانيولي» فكنا نحن من دخلنا إلى مقصورة التحكم الكبيرة المليئة بالشاشات التليفزيونية حيث كنا نشبه رواد الفضاء أكثر منا مجرد عمال، وخبراء صناعيين. دخلنا المقصورة بعدما اجتزنا دورات تعليمية من كل نوع: ساعات، وساعات من التدريب المتواصل في أنحاء شتى في إيطاليا، وفي خارجها، في محاولة خارقة ليس فقط لتلقيننا تقنيات معقدة، ولكن لتخليصنا من كل موروثات الماضي.

كلما مرّ الوقت بدا التغير العنيف في ذاكرتي أكثر غرابة حتى أني أكاد لا أصدقه. كيف حدثت كل تلك الأشياء غير العادية دفعة

واحدة؟ نعرف أن أحياناً ما تصطف النجوم متوازية على خط واحد فتتحد جاذبيتها دافعة الظروف لتتكالب كلها معاً وكأن ذكاء خفياً يقودها. أرسلوا إلينا على سبيل المثال مديراً جديداً من «تارنتو» اسمه «سيغريتي» كان قد عُرف عنه الحزم في مصنع الصلب هناك. كان كفئاً، ومهذباً، وهما ميزتان كانتا في بعض الأحيان كافيتين لإحداث تأثير شبيه بانفجار قنبلة.

كان لدى الناس في «بانيولي» هذا الشعور عنه. فرغم الجميع، ورغم كل شيء، كانت عملية إصلاح المصنع تمثل تحدياً، ورهاناً مما أدى لأن تنشأ علاقة جميلة من التعاون بين العمال، والإدارة لأول مرة، وهذا أيضاً بفضل المهندس «فرانكو سيغريتي» الذي لم يكن يعرف فقط كيف يكسب احترام العمال وتقديرهم ولكنه كان ماهراً أيضاً في جذب الناس إليه، وإشعال الحماسة فيهم، وبث الثقة بينهم.

كنت أتحدث سابقاً عن النجوم. حتى مدير شؤون الموظفين الذي أتى عقب «سيغريتي» بفترة وجيزة كان هو أيضاً، وبطريقته، نوعاً خاصاً من البشر صُمّم خصيصاً لإدارة المواقف الطارئة والصعبة. كان يردد كثيراً عن نفسه: «إنني لست رجلاً صارماً مطلقاً، لكني أجيد التظاهر بذلك حتى أنني أفلح أحياناً في أن أقنع نفسي بهذا». كان الأستاذ «جوليو كوليو» يحب الضوء الخافت، وكانت بحوزته دائماً كرة حديدية صغيرة خاصة بالطب النفسي، وكان، ككل الأطباء النفسيين المحترفين، يحدق في مُحدِّثيه بنظرات نهمة. كان هو و«سيغريتي» يتمتعان بالحيوية، ولكن ذاك الأخير كان ينتمي لفئة الرجال الوسماء: فقد كان طويلاً، وحسن المظهر، وقوي الصوت، ومهاب الجانب، ويبتسم للجميع. وأجزم لك

أن هذه السمة الأخيرة تحديداً كانت لها أهمية خاصة.

***

أذكر أن «راموزو» كان يحيطني علماً بكل الأحداث المهمة التي كان يعرفها دوماً قبل أي أحد آخر. كنت أسأله محاولاً استثارته: «من أخبرك بهذا؟»، فكان يجيب مازحاً: «جواسيسي» ثم يضيف: «ما شأنك بهذا؟ لِمَ تهتم بمن أخبرني؟». كنت أضحك ثم أهرع لأخبر بدوري أحداً آخر بالأمر.

بين الفينة والأخرى كانوا يوجهون إليّ السؤال نفسه: من أخبرك بهذا؟ كنت أجيب مردداً مقولة «راموزو»: أيها الرجال إنها أمور تخصني أنا فقط.. أنا وحدي.

راحت التفاحات العفنة تتساقط الواحدة تلو الأخرى. كان مدير شؤون الموظفين يستدعيهم في مكتبه في حضور حارسين كانا لا يرفعان أعينهما أبداً من عليهم. في حالات كثيرة كان الأمر يتعلق بمجرمين بكل ما تعنيه الكلمة. كانوا يأتون إلى المكتب غير عابئين بالأمر وعلى أفواههم نصف ابتسامة، فيخرجون منه وقد أصابهم الإعياء الشديد، وهم في حاجة إلى مَن يتكئون عليه. كان دائماً ما يصدر الحكم نفسه: الفصل من العمل.

لكنه لم يكن مجرد فصل من العمل وحسب. فالفصل ما هو إلا مجرد إجراء إداري انضباطي، ولكن المدير كان يقصد أن يكون الفصل من العمل مَثلاً، ورسالة إلى الجميع كافة. كان ينبغي فصلهم، ولكن، بعد إهانتهم، وإلحاق العار بهم حتى يقوم الحارسان بنقل تفاصيل ما حدث في المصنع كله. حسب قول «راموزو» كان مدير شؤون الموظفين ماهراً

للغاية في تعذيب تابعي عصابة «الكامورا». فما أن يحاول المرشحون للفصل الرد على الاتهامات حتى يقاطعهم المدير قائلاً: ماذا تفعل حضرتك؟ أترد؟ (كان دائماً ما يستخدم كلمات مثل حضرتك في حديثه) من أعطاك الحق في الرد؟ إن كل ما تريد قوله ليس له أي أهمية، إنك هنا للإنصات فقط...

كان بمثابة إعلان حرب. أعلن مدير المصنع المهندس «فرانكو سيغريتي» رسمياً بأن منذ تلك اللحظة فكل الأشغال كانت ستُخصّص دون أي محسوبية، ووفقاً لمناقصات مُنظمة تخضع لمعايير من الشفافية، والمصداقية المطلقة.

اندلعت الفوضى. أثناء انعقاد أحد اجتماعات مجلس إدارة المصنع -كان يحضره ثلاثون فرداً تقريباً مجتمعون حول طاولة كبيرة تحت رئاسة المهندس «سيغريتي»، وبجواره مدير شؤون الموظفين- شرع مجموعة من العمال التابعين لإحدى الشركات المتضررة من قرار «التنظيف» في بناء جدار بالطوب والجير لسد باب المكتب الذي كان الاجتماع منعقداً فيه إلى أن تدخل الحراس وأوقفوهم، واضطرت قوات الشرطة إلى استخدام الهراوات، وقامت بالقبض على بعضهم. بيْد أن الشركة المتضررة (التي كانت متورطة مع «الكاموزّا» من رأسها إلى أخمص قدميها) اشتركت في المناقصة، ولكنها لم تربحها. لقد ربح المصنع، وانتصر المهندس «سيغريتي» ومعه مدير شؤون الموظفين، وبفضلهم فُصل، ونُقل مديرون كثير من المصنع، بينما كان الإلغاء هو مصير العديد من العقود، والمناقصات الفاسدة، والزائفة.

هكذا أضحينا المصنع الذي يحتل الصدارة على مستويات شتى. فمَن كان بوسعه أن يتخيل هذا؟ فعلى مستوى جودة الصلب اكتسب صلب «بانيولي» بين ليلة وضحاها شهرة دولية، وبات الارتفاع السريع لكافة المعايير التقنية، وتلك الخاصة بالجودة، التي تُستخدم في تحديد كفاءة أي مصنع للصلب، مصدراً للدهشة، والتعجب. أخذنا هكذا مكاننا في صدارة الأفضل أفضل المُصنعين في العالم حتى على مستوى «المصداقية»، وهي كلمة إذا أردنا ترجمتها ففي حالتنا هذه ستعني شيئاً واحداً فقط، وهو أن «نابولي» لم تكن لتخدع عملاءها أبداً، أي إنها كانت تسلم البضاعة المطلوبة في الوقت المحدد بالضبط، وبعد أن تكون قد تأكدت تماماً من أن مواصفات المنتج تتفق مع كل مشترطات الجودة التي يتوقعها منا العميل.

فعلى ضوء ما اعتدنا عليه في السابق لم نكن لننجح أبداً في أن نكتسب مصداقية مثل تلك، بيد أن ما حدث كان العكس تماماً. إننا وضعنا المصداقية على صدورنا لتزين عروة السترة وكأنها زهرة قرنفل حمراء، لنظهر للجميع تقديرنا الشديد للدقة، والنظام، والانضباط؛ ونظهر تمسكنا الشديد بالعمل. وحيث إنه لا ملحمة، حتى وإن كانت صغيرة، إلا وتشهد حادثاً مأساوياً، فقد تلطخت عملية إصلاح المصنع بالدماء: فقد انتحر شاب من «بانيولي» كان يعمل كهربائياً في المقصورة لأنه لم يستطع أن يتحمل عبء المسؤولية المتزايدة. كان «ماورو» قد دُعي للاشتراك في مسابقة لاختيار تقنيين للعمل على الأجهزة الجديدة،

فوافق دون أن يفكر بتمعن في الأمر، وأراد سريعاً أن يظهر كفاءته، فاعتلى الآلات الضخمة معرضاً نفسه لأخطار لم يكن ليتخيلها من قبل، فحدث ما لا مفر منه. هناك في الأعلى، أسفل سقف آلة صب المعدن بقليل، أصابه الهلع، ولكنه لم يخبر أحداً بهذا مقتنعاً بإمكانية نجاحه. بيد أن الأمور ازدادت سوءاً وتصاعد القلق، وبات حاداً قاطعاً كشفرة سكين بينما تخترق اللحم. في صباح أحد الأيام ألقى بنفسه في بئر السلم وهو يرتدي بزة العمل الرسمية بعدما كان قد ترك في بيته كل متعلقاته الشخصية.

لقد سميتها ملحمة، ولن أتراجع مطلقاً عن رأي هذا. فلم يتم احتواء الأمور داخل الإطار الذي كان يمكن تحمله. إنها قصة من المبالغات المفرطة، ومن الأحداث الخارجة عن نطاق السيطرة: أكان علينا أن نستشعر من هذا أن النهاية لم تكن لتجلب لنا خيراً؟ لقد طُلب منا وابل من الإقالات (فإما أن يصير المصنع خفيفاً كالريشة، أو ستقع الكارثة) وبعد شد وجذب من الطرفين، وافقنا في النهاية على كل طلباتهم. طُلب من العمال الباقين أن يبذلوا قصارى جهدهم، فقدمنا لهم أرواحنا على أكُفّنا، وقلنا لهم ها هي لكم يا سادة.

ذات يوم عُلِّقت على لوحة المصنع قصاصة لجزء من مقال كتبته الأستاذة «مارغريتا بالكوني» من جامعة «بافيا» (أستاذة تاريخ الاقتصاد الصناعي). وقد احتفظت بها بين أوراقي، وسأكتب لك مقاطع من ذلك المقال:

في عام 1988 حقق المجمع الصناعي في «بانيولي» عائدا إجمالياً إيجابياً

يبلغ مقداره تسعين ملياراً. إنها محصلة تشغيلية تعادل حجم الخسائر (مقدارها سبعين ملياراً) الناتجة عن الأعباء الخاصة بالتمويل. إن تلك العوائد لا تبرر إيقاف الإنتاج (لأن الديون سيتم تسديدها). وإذا ما تم توسيع العملية التي تتم في مصنع «إيلفا» لتشمل «بانيولي» أيضاً (أي القيام بتخفيض جزئي لقيمة رأس المال بالتوازي مع تخفيف الديْن)، وعلى ضوء التحسن الإداري المتوقع، فمن المؤكد أن الموازنة ستعطي نتائج إيجابية.

وبعد هذا بقليل تقول:

إن الصفائح الرقيقة المنتجة في «بانيولي» أعطت نتائج مثالية، وقد أبدى مستخدموها رضاً كبيراً لجودة أسطوانات «بانيولي» مقارنةً بتلك التي اشتروها في الماضي من شركة «إيتالسيدر»، ولسرعة التسليم، وللدقة في المواعيد. إن دورة إنتاج من ثمانية أيام لكافية لتسمح لـ«بانيولي» بالالتزام بنظام «just in time»: وهذا لم يكن ليتحقق إلا بفضل التكامل الرأسي مع القسم الأعلى المسؤول.

في الختام.

بيد أن النجاح في إنتاج كمّ مناسب من منتجات الصلب، والاستغلال الأمثل للموارد الضخمة التي تم استثمارها مؤخراً في سياق اجتماعي كالموجود في مدينة «نابولي» يتوقفان في المقام الأول على قدرة القوة السياسية في صياغة توجيهات غايتها تحقيق مصلحة البلد على المدى

الطويل: وهذا بالضبط ما ينقص مما يفرغ المساهمات الحكومية من مضمونها وفائدتها...

هذه هي الصورة الموضوعية والحقيقية لمصنع «إيلفا» حين إغلاقه. من ناحية أخرى، أعلم تماماً أنك لم تترك أي شيء حكيته لك دون أن تتأكد منه، وأنك قد طلبت تأكيدات على صحة روايتي من مصادر أخرى مسؤولة. أليس هكذا؟ أذكر الطريقة المضطربة، وشعورك بعدم التصديق والتعجب الذي صاحبك يوماً وأنت تصف لي –وكأنك كنت مكاني تعيش تلك الأجواء في المصنع خلال كل تلك السنوات– التحول الكبير، والمفاجئ الذي حدث لحركة السيارات في الطرقات الداخلية للمصنع: فبين لحظة وأخرى، أضحت حركة المرور منظمة، وبطيئة، وحضارية سواء للعربات الكبيرة، أو الصغيرة، وصارت تنظمها إشارات مرور كثيفة تشير إلى السرعة القصوى، وإلى الأماكن الممنوعة، ولم يكن أحد ليجرؤ على مخالفتها. لمَ وكيف؟ كنت تتساءل مضطرباً، أو بالأصح بحماسة مضطربة، ألا يرتكب أحد مخالفات؟ لمَ كل هذا الحرص العجيب، والمرهق للأعصاب؟ أهو الخوف فقط من الغرامات الشديدة ضد المخالفين؟ إن التهديد بالغرامة أمر مهم وله قوة ردع كبيرة، ولكن الغرامة ليست كل شيء.

لم يكن كل شيء، رددت هذا بطريقتك الغامضة في مواجهة الأمور، ففي حالات كهذه يوجد شيء أكثر من مجرد الغرامات، شيء يرتبط بعقل، وبقلب الناس، وبرغبتهم في المساهمة بدور نشط في عمل مّا، وأن يكونوا مشاركين فاعلين وليسوا مجرد متفرجين.

فبينما كان قائدو السيارات يتحركون ببطء عن اقتناع على متن مركباتهم في طرقات المصنع، كانوا وكأنهم يعكسون صورتين مغايرتين لمدينتين مختلفتين، وكأننا بصدد المقارنة بين مدينتين تحملان اسم «نابولي» نفسه –واحدة داخل المصنع، والأخرى خارجه– وبين مدن أخرى كـ«روما»، أو «جنوة»، أو «بروكسيل»، أو أي مكان آخر تريد. كان هناك من ينادي بتصفية مركز تصنيع الفولاذ في «بانيولي» غير عابئ على الإطلاق لا بمبلغ الألف مليار الذي أُنفق منذ فترة وجيزة، ولا بالجهد، والحماسة، والتضحيات الكبيرة التي بذلها الجميع.

طلبتُ من أحد النقابيين النشطين كان قد أُحيل إلى المعاش، ولكن كان الزمن بالنسبة إليه قد توقف تقريباً عند تلك السنوات التي ارتبط معها، ولا يزال يرتبط إلى الآن بعلاقة وطيدة وحميمية، بأن يعد لك ملخصاً لكل أحداث المراحل الأخيرة من حكاية «بانيولي». فها هي شهادة «ألدو فيلو»، الاسم الذي بات راية لكل من عايش احتضار «إيلفا» بغضب، ولهفة.

إن الحكم الأول بموت «بانيولي» –أقول حكماً وليس مجرد ثرثرة فحسب– يعود إلى عام 1987 حينما أعد المدير العجوز «ماليولا روازيو» في آخر أيامه خطة يؤكد فيها أن المجمع الصناعي كان يمثل «مشكلة صناعية لا يمكن حلها».

وفقاً للخطة فإن المستقبل لم يكن يخبئ لنا سوى خسائر باهظة، ومتواصلة بمقدار مئتي مليار كل سنة. بعد هذا بقليل –في عام 1987 نفسه– قام المدير الجديد «غامبرديلا لوبو» بتأكيد الشيء نفسه:

ينبغي إغلاق «بانيولي» بأي ثمن، ولا يهم إذا كان قد أُنفق ألف مليار في إعادة تأهيله. ينبغي إغلاقه لأن موازنته ما زالت تسجل خسائر جراء الفوائد السلبية الناتجة عن القروض المصرفية التي تم اقتراضها لإجراء عمليات الإصلاح (وكأنه بإغلاق المصنع لم يكن على الدولة في كل الأحوال تحمل عبء هذه الخسائر)، ينبغي إغلاقه ولاسيما أن توقعاتنا بخصوص طلب السوق على الصفائح الرقيقة (أو ما نطلق عليه «كويل») تبدو سلبية للغاية.

بالتأكيد، إذا كانت الأمور ستسير حقاً على هذا المنوال (أي تهاوي الطلب على الصفائح في إيطاليا) فلم يكن هناك أي معنى، أو فائدة لبقاء «بانيولي»، ليس فقط كقطاع للصهر، ولكن أيضاً كمركز لصنع الصفائح. لكن كانت تلك التوقعات وهمية، وقد صيغت بهذه الطريقة لتحقيق هدف واحد، وهو ليس تعزيز صناعة الصلب الإيطالية، ولكن تحقيق بعض المصالح الاستثمارية، والربحية (حتى أن كبرى الشركات الصناعية -«فيات»، و«إيري»، و«أيني»، و«إيفيم»- أسرعت بتقديم مشروع ضخم لإعادة تخطيط كل منطقة «كامبي فليغريي»، بعد أن يتم إخلاؤها من جميع المصانع وتشييد بدلاً منها منشآت سياحية، وفنادق، ومرفأ سياحي، وعمارات وحدائق).

يا إلهي! في نهاية عام 1987 كانت آلات الصب لا تزال جديدة، ويمكننا أن نقول إنها كانت تنتظر أن يتم تشغيلها بطاقتها الكاملة، بينما كان ثمة من يدق لها أجراس الموت. لم تُفِد احتجاجاتنا في شيء. ففي إطار خطة إصلاح صناعة الصلب ذات المساهمة الحكومية قام كلا المديرين «غامبرديلا – لوبو» اللذيْن لم يكونا يفقهان شيئاً عن صناعة

الصلب، وكانت خبرتهما تتعلق بمجال آخر بتحديد موعد إغلاق قطاع الصهر في «بانيولي» (نظرا لعدم جدواه الاقتصادية) في غضون شهر يوليو من عام 1989.

لكن كانت الخطة تشتمل على فقرة استثنائية تؤكد على أنه كان يمكن إعادة النظر في القرار في حالة لم تتوافر في السوق منتجات نصف مصنعة للتصفيح بسعر أقل مما يعرضه مصنع «بانيولي». ابتلعنا الطعم ظنا منا بأن تلك الفقرة كانت تمثل باباً موارباً لإنقاذ المصنع، ولم نكن نشك أبداً أنها كانت خدعة حقيرة.

قُدمت خطة الإصلاح إلى «بروكسيل»، ووافق عليها وزراء المجموعة الأوروبية ولكن دون أن تتضمن تلك الفقرة، ودون أن يتحدث أحد عنها في «بروكسيل». إنها كوميديا سوء التفاهم (إذا اتفقنا أولاً أن ما حدث كان سوء تفاهم فعلاً)، ومنذ هذه اللحظة راحت الأمور تندفع بطريقة عنيفة، وتدور حول نفسها. عاد وزير المساهمات الحكومية إلى إيطاليا وهو يزعق بالنصر (كان فرِحاً لأنه نجح في الحصول على الموافقة على منح إيطاليا مساعدات أوروبية مقدارها سبعة آلاف مليار كان من المقرر أن تُخفضها المجموعة الأوروبية إلى خمسة آلاف ومئة وستين مليار ليرة). فَسَّرت النقابات هذا النصر بطريقتها الخاصة ظنا منها أن «بانيولي» لم تكن لتخشَى شيئاً بعد ذاك اليوم وأعربوا هم أيضاً عن سعادتهم بالنصر إلى أن قامت إحدى الجرائد، في أحد الأيام القليلة السابقة لرأس السنة، بنشر القرار الأوروبي بنصه الكامل كاشفة النقاب عن الحقيقة كاملة. كان يجب أن يُفكِك مصنع «بانيولي» قطاعه الساخن قبل يوم 30 يونيو من عام 1989 (وحدة التكويك، والفرن

العالي، ومصنع الصلب، وآلات الصب). لم يكن هناك مفر، فلم تكن هناك أي فقرة استثنائية.

أترك لكم تخيل مقدار خيبة أملنا: بلغت عنان السماء، أما غضبنا فقد بلغ ما هو أبعد من هذا. إنهم خدعونا، وهذا لا يروق لأحد، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بمستقبلك وبمكان عملك. نزلنا إلى الشارع مع كل أهل «نابولي»: فماذا كان بوسعنا عمله أكثر من هذا؟

أما في ما يتعلق بالأسباب التي أُغلق من أجلها المصنع، فبوسعي أن أقدم لك الشهادة الأكثر أهمية ومفاجأة: شهادة المهندس «فرانكو سيغريتي»، الرجل الذي أدار «إيلفا» طيلة فترة الإصلاح، والهيكلة، والذي لم يتردد في دخول معركة مفتوحة مع كل قيادات الشركة على مستوى إيطاليا كافة حينما كشف أولئك عن رغبتهم في التخلص بأي ثمن من «بانيولي».

قد وصلت هذه الشهادة إلى يدي بطريقة لا تُصدق عن طريق أحد المديرين الذي لا يزال يوجد بيننا هنا، وكان أحد المقربين جداً لـ«سيغريتي» ولاسيما في المرحلة الأخيرة حينما خلع المدير قفازيه بعد هزيمته مفضلاً الاستقالة. إن هذه الشهادة قد وصلت إليّ بفضلك، فقد أُعطيت إليّ كساع للبريد لتسليمها لك. لم يُطلب مني هذا بشكل صريح، فأنت تعرف أن هناك أشياء واضحة إلى درجة أنه لا حاجة إلى طلبها صراحة.

إن الأسباب التي أُستخدمت ذريعة لإغلاق «بانيولي» بشكل عام لا

يمكن الكشف عنها. إني أعتقد أن نهم التربح العقاري كان له تأثير كبير في توجيه دفة الأحداث لتأخذ منحى بدلاً من آخر، وأعتقد أيضاً أن ضعف القوى التقليدية المؤيدة لبقاء المصنع، واضطرابها (سأكون مهذباً، ولن أقول شيئاً آخر أسوء)، ومن بينها النقابات، كانا لهما أبلغ الأثر في هذا. إن المصنع لم يكن يعاني من أي من الأمراض التي نُسبت إليه بخبث. في الحقيقة يمكن إيجاز مشكلة مركز تصنيع الصلب في «نابولي» في نقطة واحدة: لم تُتح له الفرصة لتشغيل مغداته بطاقاتها الكاملة. وعلى عكس ما كان يحدث في القطاعات الصناعية الأخرى المهمة، فقد سجل قطاع الصلب في تلك السنوات انخفاضاً متواصلاً، وواضحا في العوائد. كانت زجاجة المياه الغازية أغلى ثمناً من كيلو غرام من الصلب رغم أن إنتاج كيلو من الصلب كان (ولا يزال) يتطلب قدراً كبيراً من التكنولوجيا والعمل الوفير وإلى استثمارات لا حصر لها.

فمنذ أزمة الطاقة في عام 1974، وحتى بداية التسعينيات، على سبيل المثال، ارتفع سعر بيع السيارات لست مرات، بينما ارتفع سعر الصلب مرتين ونصف المرة فقط. فلو كان سعر الصلب قد ارتفع ثلاث مرات ونصف المرة فقط لم يكن مصنع «بانيولي» هو الوحيد الذي كان بوسعه أن يقفل موازنته محققاً أرباحاً، فحتى «إيتالسيدر» كان ليحقق في عام 1986 نتائج اقتصادية أفضل مما حققته مجموعة «فيات». ولنعد لحديثنا عن مركز إنتاج الصلب في «نابولي»، فليس حقيقياً مطلقاً أن هذه الافتراضات غير صحيحة، ومن يدّعِ هذا يكذب. فصحة افتراضي تستند على عوامل متعددة داخل المصنع، وخارجه، فلا نغفل عن أن المصنع كان ينتج الصفائح الفولاذية، وكانت إيطاليا آنذاك من

أكبر مستهلكي هذا المنتج.

أما في ما يتعلق بالكفاءة، فأقول فقط كان بإمكاننا عقب فترة وجيزة من الإصلاح والهيكلة أن نقيس النتائج وسط اندهاش الجميع. فقد تحسنت الإنتاجية بشكل قاطع، وخلال فترة قصيرة كان المصنع قادراً على مواجهة المنافسة الأوروبية بفضل الجهد الوفير المبذول في إعادة تأهيل العمال، وفي تنفيذ دوائر إنتاج، وفي إدخال أنظمة عمل آلية شاملة. كانت معركة ضارية، ولكننا ربحناها، وصرنا فجأة في الصدارة، وغدونا نموذجاً لمصنع صلب متقدم يُحتذى به. تم إدخال حاسوبين مركزيين بقدرة 25 ميغا؛ وثلاثة وعشرين حاسوباً فرعياً، وأربعة وخمسين حاسوباً شخصياً لمراقبة المعدات تقوم بتلقي المعلومات، وصياغتها، وتقديمها على شبكة الاتصال؛ تم تشغيل أول نموذج للذكاء الاصطناعي طُوِّر بكامله هنا في «بانيولي»، تم تحسين الإنتاج والاستهلاك ولاسيما بفضل النظام الحديث للتحويل المباشر للصلب السائل إلى صلب شبه مُصنَّع بواسطة آلات الصب. زودنا المصنع بأحدث آلات التصفيح في العالم القادرة على تصنيع منتج عالي الجودة.

كان هذا هو المصنع الذي أمروا بهدمه. إلى جانب كل ما ذكرته، ينبغي إضافة مبلغ مئة وعشرين مليار ليرة أُنفقت على أجهزة حماية البيئة (ستة عشر جهازاً لمنع الأتربة، وتسعة أجهزة لتنقية المياه، وتسعة أجهزة لكتم الأصوات، علاوة على تحويل نسبة عشرين في المئة من أراضي مركز الصلب إلى مساحات خضراء). لن يتبقى شيء من هذا. أليس هذا إسرافاً مجنوناً؟ يبدو لي هذا التعبير غير كاف، ولكن لا أجد برأسي تعبيراً آخر... إنه إسراف مجنون.

نزلتُ معهم إلى الشارع أنا أيضاً تصحبني «روزاريا» كما كنا قد فعلنا منذ شهور قليلة سابقة، في أبريل إن لم تخني الذاكرة، حينما طُلب من المصنع تقليص عدد العمال إلى 1850 عاملاً وتخفيض حجم الإنتاج بالمواءمة مع عدد العمال.

كان فخاً تقليدياً، فقد أفلحنا في الطفو فوق سطح الماء بصعوبة شديدة على مستوى العوائد، والأرباح بإنتاج سنوي من الصلب يصل حجمه إلى مليون ومئتي ألف طن. فلنتخيل إذن ما كان ليحدث لو خفضنا الإنتاج جزئياً، أو إلى النصف. لقد كانوا يرغبون أن تسجل موازنتنا خسائر بأي طريقة، ولم تكن تكفيهم الفوائد السلبية على القروض التي كنا مُرغمين على تسديدها.

كيف لنا في حالات مثل هذه ألا نفكر أننا إزاء مؤامرة شيطانية؟ فكلما بذلنا الجهد، والنفس لتعزيز صورة «بانيولي»، وكفاءتها على الساحة الدولية كانت الحكومة و«إيري» (المؤسسة الوطنية للإصلاح الصناعي) تصعّدان من نشاطهما بهدف إظهار المصنع وكأنه لا يزال على حاله الأول من الإسراف، والخسارة، وأنه لا يزال مصدراً للمصائب لا فائدة من إصلاحه، بل ينبغي بتره كذراع مصابة لا أمل في شفائها على مذبح إعادة الهيكلة كما طلبت المجموعة الاقتصادية الأوروبية.

لم يكن من حقنا فقط، بل كان من واجبنا أيضاً أن نثور، وقمنا بهذا بطريقتنا الخاصة، فنظّمنا إضراباً تم إخراجه مثل عمل فني، أو عرض مسرحي. كان بمثابة صرخة استغاثة إلى المدينة بأسرها، مما دفع أهلها أن

يطلوا من الشرفات، أو يقفوا على أبواب المحال لمشاهدتنا. وضعنا فوق إحدى عربات النقل لفّتين تالفتين من صفائح الصلب كنا قد أخذناهما من المخزن، فبسطناهما، فبلغ طولهما ما يزيد على الكيلو متر ونصف الكيلو متر.

كان يوم الخميس. اعتلى اثنان منا مقصورة القيادة لعربة النقل وقفز الآخرون فوق حافلات استأجرناها بعدما كنا قد حجزناها قبلها بأيام. توجهنا مباشرة إلى الجامعة عبر شارع «أومبرتو»، والمسمى أيضاً بـ«ريتّيفيلو»، والذي يشبه مساره الشريط الفولاذي، على الأقل كما يبدو أمام أعيننا في الأفق. كان الشارع يبدو وكأنه صُمِّم خصيصاً بمبانيه الضخمة المصطفة على الجانبين لاستضافة البساط الفولاذي الممتد متراً وراء متر، والذي كان يبلغ طوله كيلومتراً ونصف الكيلو متر، وعرضه متراً واحداً، أو يزيد قليلاً. كان هدفنا أن نثير الدهشة، والوجل، ونشعل قدرة الناس على التخيل، ومن ثم نحرك ضمائرهم. كنا نريد أن يستوعب الناس ما يحدث.

حاولت الشرطة أن تزج بنا داخل سياراتها، ولكن بحذر، ودون عنف، لأنها كانت تدرك أن أناساً بلا عمل، وفي تلك الظروف، كان بوسعهم أن يدفعوا الموقف إلى درجة من التردي لا رجعة فيها. تحركنا نحن أيضاً بحذر مدركين بدورنا حجم، وقوة الاحتجاج، والتحريض اللذين كنا نتسبب فيهما، واللذين كانا يمثلان عبئاً علينا نحن قبل أي أحد آخر. كان الناس يرقبوننا في وجوم: كانوا بالكاد يهمسون، أو يوجهون سؤالاً. وبينما كان بعض منا يبسطون الشريط كان آخرون يحاولون أن يشرحوا للناس المغزى مما كان يحدث. كانوا يرددون: كيف

لا تعرفون ما هذا الشيء مشيرين بأصابعهم إلى «البساط» الفولاذي؟ إنه صلب مصفح يستخدم لاسيما في تصنيع الأجهزة الكهربائية المنزلية: الثلاجات، والمطابخ، وغسالات الأطباق. يُطلق على هذه الصفائح اسم «كويل» وننتجها نحن في «بانيولي» من الصلب ذي الجودة العالية. بيد أن إنتاجنا لها راح يسبب الإزعاج للكثيرين في إيطاليا، وفي الخارج، ولذا فها هم يريدون إغلاقنا لمصلحة مصنع الصلب في «تارنتو»، الذي يملكه منتجون أوروبيون يخشون أن نتسبب في خسارتهم للسوق الإيطالية التقليدية، التي ما فتئت دائماً تستورد الصلب، ولمصلحة جماعة أخرى تريد التربح من الأراضي التي يشغلها المصنع، ليشيدوا فوقها بدلاً منه حياً بشعاً من ناطحات السحاب، والبنايات الشاهقة المطلة على البحر.

كنت أنا ضمن فريق «المُعلنين». ظللت متردداً لفترة طويلة قبل أن أقرر المشاركة في المظاهرة. إنك تعرف أن الإضراب لا ينتمي إلى عقليتي أو على الأقل، لا يعد رد فعل تقليدي ينتمي إلى طبيعتي. إن الأمر لا يتعلق بوجود أفكار مسبقة لدي، بل لعله مجرد تحفظ بسيط، أو إنها روح العمل الكامنة بداخلي، التي أقصد بها الإخلاص الشديد للعمل الذي أعتقد أنه ليس من حق أحد أن يوقفه إلا لأسباب شديدة الأهمية، والخطورة. من ناحية أخرى، إن عقيدة العمل هذه، وهذا التشبث غير المنطقي به داخل مصنع للصلب يكادان يكونان نوعاً من غلبة الصنعة على العامل وتمكنها منه. فالشيء الأول الذي يتعلمه عامل الصلب حين دخوله المصنع أن هناك أقساماً يجب أن يتواجد بها عدد مناسب من العمال مهما حدث، وذلك لمراقبة أن بعض عمليات التشغيل لم تتوقف:

على سبيل المثال التأكد من استمرار إمداد قلب الفرن العالي بالطاقة، وضمان عدم تعرضه أبداً لخطر انطفاء خارج عن السيطرة.

ولهذا كنت متردداً. لكنني قررت في النهاية أن ميلي إلى الانضباط الذي دفعني لأن أنأ بنفسي عن كثير من الاحتجاجات النقابية السابقة هو ذاته ما كان يحثني آنذاك على أن أقف معهم بكل كياني في ذاك الإضراب، مع إدراكي أن المصنع ما كان ينبغي أن يموت دون أن نرفع أصواتنا زاعقين كاشفين النقاب عن تلك المذبحة الصناعية (في تلك الأيام، إضافةً إلى مصنع «إيلفا»، كانت تُغلق، أو كانت مهددة بالإغلاق مصانع أخرى كثيرة في «نابولي»، حتى أن إضراباً عاماً عن العمل كان قد أُعلن عنه في شهر أبريل نفسه احتجاجاً على عملية التسريح المتردية).

ظللت طوال الأسبوع السابق على المظاهرة أتساءل عما كان يمكن أن يحدث. كنت أتحدث عنه باستمرار مع «روزاريا» لأكتشف أن مشاركتها، وتعاطفها معنا كانا يزدادان يوماً بعد يوم، إلى أن جاء اليوم السابق على المظاهرة فأخبرتني بأنها ستأتي هي أيضاً إلى الجامعة إن لم يكن للمساعدة في بسط الشريط الفولاذي، فإنها ستتحدث مع الناس لتشرح لهم، وتقنعهم.

ربما لأنها أخبرتني بهذا فجأة؟ أو لأنني لم أكن أتوقع منها هذا؟ أو ربما لأن بداخلي رجلاً ذكورياً سخيفاً يعارض تدخل النساء في شؤون أزواجهم؟ أو ربما لأن فكرة وجود زوجتي خلفي كانت تسبب لي بعض الضيق؟ أو ربما لأنه كان لدي شكوك قوية بألا تنتهي مظاهرة من هذا النوع بطريقة سلمية؟ أياً كان السبب، فقد تطلعتُ إلى «روزاريا» وعلى وجهي استياء ودهشة دفعاها إلى أن تطلق ضحكة مدوية: ماذا

تفعل يا «بوونوكوري» ألا تنفجر في البكاء لما قلته لك؟

صعدتْ فوق الحافلة معي، وشعرت بالارتياح حينما تنبهت إلى وجود زوجات أخريات معنا، إلا أن «روزاريا» كانت تبدو ابنة أكثر منها زوجة، بل إن أحداً ظن فعلاً أنها ابنتي: نظر إليها أحد النقابيين بصرامة سخيفة وسألها: «أين أبوك يا فتاة؟».

كان على وجهها شحوب الفتيات غير المتزينات، لأنهن لسن في حاجة إلى الزينة؛ كانت بها نحافة جميلة قد تلاشى فيها أي أثر للأمومة، شعرها ذو اللون الكستنائي الفاتح قصير، كثيف، منتفخ وقليل العناية به؛ كانت ترتدي تنورة ذات ثنايا بألوان زاهية يكفيها القليل من الهواء لتنتفخ فوق فخذيها البضتين، والخفيفتين. بيْد أن وجهها هو ما كان يدفع الناس لأن يخطئوا تقدير عمرها لملامحه الشابة رغم ما يعتريه من بعض الصرامة أحسب أنها تنبع مباشرة من داخلها، ومن شخصيتها الحازمة، والحادة أحياناً.

لا تزال «روزاريا» إلى الآن على حالها هذا: فينبغي عليك أن تتطلّع إليها طويلاً حتى تعرف عمرها وتدرك ما في قلبها.

تصرفتْ بطريقة رائعة. من كان سيقول إن ميزتها الأولى هي البراعة في الحديث؟ كانت أفكارها تنساب سريعاً متحولة إلى كلمات، بل إلى حوار: كانت مُقنعة، رزينة، رصينة. كانت تنظر إلى أعين متحدثيها، وتنصت إليهم باهتمام حينما كانت تفلح في جعلهم يتحدثون، كانت تومئ بالموافقة مشجعة إياهم حتى عندما لم تكن متفقة معهم. كانت ترد عليهم بهدوء، وبثبات دائم. كانت معرفتها الدقيقة بكل التفاصيل باعثاً على الدهشة. كنتُ مذهولاً: كيف كان لها أن تعرف كل تلك

التفاصيل وكل تلك الوقائع المعقدة، والأرقام؟ فمتى، وأين استطاعت حفظ كل تلك المعلومات، وممن استقتها؟ عبر الاستماع إليّ فقط؟ هذا مستحيل. أظهرتْ بأنها كانت على معرفة عميقة بموضوعات لم أكن أعرفها أنا شخصياً. للحظة شعرت بوخز الغيرة: شعور بالإعجاب الممزوج بالخوف. لعلها أدركت ما بي لأنها ما إن رأتني قلقاً، وغارقاً في التفكير حتى صفعتني على إحدى وجنتيّ على سبيل المداعبة، والتوبيخ في آن واحد، وقالت: «متى ستفيق يا بوونوكوري؟ متى ستضع قدميك على الأرض؟».

كانت تردد لي هذا بين كل خطاب جماهيري وآخر تلقيه كل مئة متر تقريباً طوال الطريق. كانت المظاهرة تتوقف، فيتوقف الرجال المسؤولون عن بسط الشريط الفولاذي، ومن ثم ينطلق «المُحدِّثون» نحو الجموع مقسمين إياهم إلى مجموعات صغيرة. في المرات الأولى شاركتُ أنا أيضاً في حملة التوعية والإقناع، ولكن لم يكن الناس دائماً منحازين لنا (فقد كانت حركة المرور متجمدة بطول شارع «ريتّيفيلو» حيث كانت أصوات أبواق السيارات التي يطلقها السائقون الغاضبون، الحانقون ترجّ المكان). في ما بعد، ونظراً لأن «روزاريا» كانت أكثر براعة مني، ولرغبتي في حمايتها، فقد اكتفيت بالسير وراءها لتأمين ظهرها، وقد شجعني زملائي أنفسهم على هذا قائلين لي: فلتتركها تتحدث؛ إن كانت بارعة في سرد الوقائع... إن كانت تجيد هذا...

أما هي فكانت توقف الناس، وتشرح لهم، وتوضح، وتجيب بدقة متناهية عن الأسئلة التي في أحيان كثيرة كانت توجهها هي لنفسها خلال حوار أحادي الجانب من أسئلة وأجوبة ناجع للغاية

لأنه يقوم على التخيل.

عقب سنوات عديدة من الزواج، ومن الصحبة، والألفة اكتشفت الحقيقة في تلك اللحظة فقط، لم تكن توجد «روزاريا» واحدة، بل اثنتان، أو ثلاث، وكل واحدة منهن كانت تمتلك هبة الكلمة (ليست أي كلمة، ليست الكلمة التي تتحدث إلى نفسها فقط، بل الكلمة التي تعرف كيف تصل إلى ذكاء الآخرين مباشرة).

بينما كنا نأكل شيئاً في أحد المقاهي منهكين، ولكن في المجمل راضين، بل كنا تقريباً سعداء، أذكر أنها نظرت إليّ بعينين يملأهما الحب، وقالت: «أرأيت؟ فقد كنت دائماً تستخف بي؟».

لقد قالت إني كنت أستخف بها دوماً دون إدراك مني لما تتمتع به من مميزات. فمثلاً، حينما كانت لا تعلّق على الأحداث، وحينما كانت تبدو شاردة، أو غائبة، فإنها في الحقيقة كانت تسجل كل كلمة تُنطق أثناء وجودها. كنتُ أستخف بقراءتها لكل شيء، كالجرائد، والمجلات، والكتب، وحتى الأوراق التي كنت أجلبها إلى البيت: نشرات النقابة، والبيانات، وحتى المستندات التقنية، أو، على الأقل، المستندات التي كانت قادرة على فهم محتواها. كنت أستخف بانخراطها في العمل التطوعي، ومناقشاتها المتواصلة مع الأصدقاء، والصديقات، والأقارب عن كل ما كان يحدث في حيّنا المعقد والذي لم يكن كل سكانه ربما يتحصلون على راتب من «إيلفا». بيد أننا جميعاً، دون فرق، على المستوى الاجتماعي والإنساني، كنا غارقين في المصنع من رؤوسنا إلى أخمص أقدامنا، ويهيمن علينا شعور بالتبعية النفسية نحو ذاك الوحش الجبار مع حرص منا شديد على معرفة أخباره، ومصائبه، ومع اضطرابنا

لكل ما كان يأخذه منا، ويمنحنا إياه، ولما كان يعدنا أو يتوعدنا به، بطريق مباشر أو غير مباشر، حتى لو كان هذا الشعور مبعثه فقط أننا نعيش على مقربة منه.

-13-

خلال شهري مارس، وأبريل كنا قد نظمنا حوالي أربعين ساعة من الاحتجاجات، ازدادت بعد مظاهرة «خميس الشريط الفولاذي». خلال الإضراب الذي أعقب نشر القرار الأوروبي قامت قوات الشرطة بالاعتداء، وتوجيه اللكمات إلى «ألدو فيلو»، حتى أنهم اضطروا للإبقاء عليه في المستشفى لعلاجه. أهذا هو الوقت المناسب للدخول في التفاصيل الدقيقة لتلك الأحداث الحافلة بالهزائم، والانكسارات؟ بدأت قطع الغيار في النقصان، وكانت الإجابة المتكررة للرؤساء: عليكم بالتصرف. سألت رئيس القسم «ماذا يعني هذا؟»، «ماذا تريد أن يعني هذا؟ يعني أنه قد أُسدل الستار»، ثم استقال المدير «سيغريتي». أفهمنا بوضوح أنهم وضعوه في طريق مسدود: فإما أن يقبل بموت «بانيولي»، أو يغرب عن المكان. قرر الابتعاد لأن من كان شاهداً على الأمل، والبعث من جديد لا يمكنه أن يشهد الموت، والفشل.

يا للخسارة! لقد كان ذاك الرجل يروق لي. كان قد راق لي منذ أن وطأت قدماه «بانيولي» لأول مرة في عام 1981 للحماسة التي سرعان ما أظهرها عند توليه المهمة، المهمة المستحيلة، إصلاح حال المصنع بالاعتماد على أفضل العاملين به. إنني شخصياً أعتبر نفسي مدينا له، فقد صنع من دون أن أدري رجلاً حقيقياً، وتقنياً ذا كفاءة مشهود لها.

لكن هل أفادت في شيء كل تلك الجهود؟ فكلما كان الموقف يزداد سوءً كلما كان عملي يبدو غير مفيد بشكل مأساوي. كانوا يتصلون بي على الهاتف أثناء الليل في أحيان كثيرة دون سبب محدد. في إحدى

المرات، في الرابعة صباحاً، اتصل بي رئيس الوردية ليخبرني أن خطاف إحدى الرافعات سقط في حوض للماء المتسخ، سألته بصوت مغتاظ: «أتتصل بي فقط لهذا السبب؟» لكني، في ما بعد، فكرت في الأمر، وأقنعت نفسي بأننا كنا نمر بحالة من التردي العام ربما جراء الخوف، أو جراء مناخ من عدم الأمان راح يلتهم ثقة كل منا في نفسه. لا أحد كان يشعر بالقدرة على تحمل المسؤولية. لا أحد كان قادراً على أخذ قرار واحد حتى لو كان القرار الأتفه في العالم.

ذات يوم حلمت بأني كنت أعجز عن البلع، كنت أختنق. لم أقل شيئاً لـ«روزاريا» ظناً مني بأنه كان مجرد كابوس. إلا أني في الليلة التالية استيقظت مذعوراً لأني كنت أختنق فعلاً، فقد كان فمي ممتلئاً بمضغة من اللعاب لم أكن أستطيع ابتلاعها. ثم حدث لي الأمر نفسه على الطاولة أثناء تناول الطعام. كنت ألوك، وألوك بين اللسان، والحلق مضغة من المعكرونة لم أكن أجرؤ على دفعها نحو البلعوم، والمريء، كان كأنه شعور بالاشمئزاز ورفض للطعام. كنت قلقاً، ماذا علي أن أقول؟ كنت في حالة من الاضطراب الشديد منعتني من التفكير واتخاذ القرار. كان الشيء الأسهل الذي ينبغي عمله هو أن أنهض وأن أذهب إلى الحمام لأبصق تلك الكتلة البشعة من الطعام حتى أتمكن من استعادة السيطرة على نفسي.

إلا أنه لم يرد بخاطري أن أنهض من على الطاولة: كنت أشعر بأني في صراع مع نفسي، كنت متعجلاً على أن أسيطر على ذاك الجزء المتمرد بداخلي، ذاك الجزء المعادي للجميع ولكل شيء. بيد أني اخترت القيام بالحركة الأقل ذكاء التي كان يمكنني أن أفعلها في موقف مثل هذا:

دفعت الطعام بقوة نحو الأسفل بعد أن سحبت نفَساً عميقاً مكنني من أن أضغط بكل قوتي على البلعوم. نجحت جزئياً في ما كنت أريده، ولكن بقدر ضئيل جداً. سرعان ما أخذ المريء في التقلص العنيف؛ داهمتني رغبة شديدة بالتقيؤ، ورغم أني كنت جالساً لكني رحت أترنح يميناً ويساراً جراء شعور بالغثيان دفعني لأن أتشبث بالطاولة بكلتا يديّ. حين أخبرني طبيب الأذن والحنجرة بالمستشفى الجديد بصوت غير مبال، ومتعال بأنني من الناحية الجسمانية، والطبية كنت سليماً تماماً تطلعتُ إليه بغضب. قال لي متهكماً: «أؤكد لك أن شوكة من «الاسباغيتي» لن تؤدي بك إلى المقبرة. إن لم تكن تصدقني فاسأل طبيب الأعصاب».

«ماذا يعني، هل أنا مجنون؟»».

أجابني قائلاً: «لم أقل هذا» ولكن دون أن يضيف شيئاً آخر. لم أستطع أن أهدئ من روعي، ولم أستطع الكف عن التفكير بغضب في هذا الطبيب كلما صادفت صعوبة في البلع واستيقظت مذعوراً في قلب الليل مصاباً بالاختناق. كنت أقول لنفسي: أكان ينبغي أن يصادفني شخص كهذا؟ سأعود غداً إلى المستشفى، وسأقتله.

في أحد الأيام استدعى مدير المصنع كل التقنيين، وحذرنا من مواصلة الاحتجاج. بات شراء قطع الغيار، الذي كان قد ندر كثيراً منذ فترة، مسموحاً فقط لابتياع قطع الغيار الإستراتيجية التي لا غنى عنها لبلوغ الهدف النهائي.

سأل أحد لا أتذكر مَن: «لقد أوشكنا على الوصول إذن».

لم يجب. لكني أتذكر أنه استخدم كلمة غريبة ليفهمنا ما كان يريده

منا: «فلتنهشوا كسمك البيرانا» «يجب عليكم أن تنهشوا كالبيرانا». سُمع لغط مفاجئ يدل على التعجب في القاعة التي كانت تستضيفنا مع جمع كبير من المديرين، فراح المدير يوضح وجهة نظره: على كل منكم أن يحصل على قطع الغيار أينما يستطيع، ومن لا يجد مخرجاً فليس عليه أن يفقد الأمل. لم يقل لنا بأن «نسرقها» ولكن نبرة الصوت، والنظرات، وإيماءات الرأس، والابتسامة الخبيثة، كل شيء، في رأيي، لم يكن يوحي بشيء آخر غير حرب شاملة بين مختلف وحدات المصنع.

وإلا ماذا كان يعني بحديثه عن سمك «البيرانا» المُسمى أيضاً بالسمك «النمر»، والمعروف بشراهته، وميله للقتل (طالع الكثير منا في ذاك المساء القواميس، والموسوعات العلمية)؟ فمنذ فترة كانت ثمة «حيوانات» نهمة تتسلل إلى المخازن قليلة الحراسة لتسرق ما كان يمكن أن يُسرق. أوراق كثيرة راحت تتساقط من تلقاء نفسها: فمع صدور قانون الإحالة إلى التقاعد كان بوسع كل من وُلد بين عامي 1941 و1946 الاحتفال بعيد ميلاده ثم التقاعد مباشرة. كانت خمسين شمعة كافية ليحصل العامل على اللقب المثير «الحديد العجوز». بل إن آخرين لم يكونوا يكتفون بإطفاء الشموع فقط، فكانوا يفتحون زجاجات «الشامبانيا» في محاولة منهم لإقناع أنفسهم بأن هذا كان عيداً حقاً.

أما أنا فقد حاولت، دون جدوى، الاتصال بالشركات التي كانت توظف يداً عاملة ذات خبرة سابقة في «بانيولي». قلتُ «دون جدوى»: فقد زودني مكتب شؤون الموظفين الخاص بنا بإعلانات للتوظيف في درجات مهنية متدنية بشركات ليس لها أية مصداقية بينما أخفوا عني الفرص التي كانت ربما تناسب خبرتي. في أحد الأيام بلغ بهم الأمر حدّ

إرسالي لعقد مقابلة للعمل في مصنع صغير لتركيبات الألمونيوم دون أن يوضحوا لي أي شيء عن الوظيفة، أكانوا يسخرون مني؟ أم كانت هناك نية مبيتة لإهانتي، وإذلالي؟ استغرق الاجتماع أقل من دقيقة، انصرفت صافقاً الباب خلفي بقوة بينما قلبي في حالة اضطراب، لِمَ؟ كنت أسأل نفسي، لِمَ يفعلون هذا بي؟ أمن الممكن ألا يعني لهم شيئاً أنني منذ سنوات وأنا أقوم بدور محوري مهم على هذه الآلات الضخمة، والأكثر تطورا في العالم؟ بينما كنت تحت تأثير هذه الأسئلة، شعرت لأول مرة بِشَكّ يتدفق في رأسي وكأنه شيء حقيقي ملموس: إنني أواجه نوعاً من المُقاطعة المقصودة، وكأن أحداً ما يرغب بأي ثمن ألا أترك الميدان: «إيلفا» وآلات الصب.

ذات صباح اتضح لي كل شيء فجأة.

ليست هذه المرة الأولى التي أحدثك فيها عن رئيس القسم، ذاك الرجل الساخر، والمندفع، والذي حين أعيد التفكير فيه قليلاً أجده يظهر في كل مراحل مشواري المهني الأكثر أهمية، ويقف وراء كل نجاح، وإخفاق، فلا أدري إن كان ملاكاً أو شيطاناً، صديقاً أم عدواً.

كان قد اكتسب في الفترة الأخيرة نفوذاً كبيراً يفرضه الأمر الواقع دون أي سند رسمي ودون معارضة من أحد. كان يتصرف بحرص شديد فلم يكن يفعل شيئاً، على الأقل، ظاهرياً يمكن أن يُفسر على أنه تجاوُز لِمَن هم أعلى منه درجة، أو على أنه اعتداء على سلطة أحد. رغم هذا فقد كان هو من بقبضته الأمور (ليس بوسعي أن أنفي أن في وقت ما لعله قد تمكن من الحصول على تفويض حقيقي، وصريح من الأعلى، مِن مَن كان يعتقد أن أمام ذاك المشهد المتوقع والمتدهور من الفوضى كان

من الضروري الاعتماد على رجل حازم، وذي خبرة، وغير واضح، أو مرئي للجميع، على رجل قوي، ومتوار عن الأنظار في الوقت نفسه، لإنقاذ ما كان يمكن، وما كان يجب إنقاذه).

قال لي بقسوة حانية: ليس بوسع الجميع أن يغيروا رئيسهم في العمل، أو أن يُحالوا إلى صندوق البطالة. كان يجب على بعض منا البقاء في خندق المعركة، على الأقل، إلى أن تُنجز كل العمليات الدقيقة اللازمة لعبور المصنع إلى حالة الهدوء المطلق، وإلا فمن كان عليه أن ينفذ أوامره؟ ومَن كان عليه تأمين كل المعدات، والأجهزة؟ ومَن كان سيقوم بتسجيل كل ما بالمصنع في قوائم؟ ويحمي الأرشيف الذي يحتوي على آلاف وآلاف التصميمات والمستندات المحفوظة؟ ويُعدّ المشروعات، وبطاقات تفكيك الآلات، والمنشآت في حالة البيع الجزئي، أو الكلي للمصنع؟ قال لي وهو يشد من أزري كالقائد الذي يقوم بتكريم الجندي في الميدان: يا «بوونوكوري» سيكون عليك أن تعتني بآلات الصب (في ذاك الوقت لم يكن يُعرف بعد إن كانت ستباع أو لا، وإن كانوا سيبيعونها قطعة واحدة أو مُجزأة). لن يجرؤ أحد على مضايقتك، فأنت ضمن فريقي: لقد صرتَ رجلاً لا يمكن المساس به...

في الأسبوع السابق على آخر عملية صب أرسلني إلى «تيرني» لأشارك في دورة تدريبية للمديرين المتوسطين لصناعات الفلزات. عقب المراسم (أعني تلك العملية الملعونة الأخيرة لصب الصلب) عدت إلى «تيرني» لأكمل تدريبي الهزلي. كان قد مر على إقامتي هناك يوم أو يومان عندما تلقيت مكالمة متوترة من «روزاريا»: أتعرف ماذا أُمسك بيدي الآن؟ إنه خطاب من مكتب شؤون الموظفين، لقد

أحالوك إلى صندوق البطالة...

عدت سريعاً إلى «نابولي»، وتوجهت مباشرة إلى مكتب رئيس القسم: فلم أكن قلقاً كثيراً، ولكني كنت فضولياً لمعرفة رد فعله. أدهشني غضبه العارم على المسؤول عن إحالتي لصندوق البطالة، فقد حرص على أن أشهد أداءه المبالغ فيه وكأنه أراد أن يعوضني عما حدث، كما أدهشني تعليقه الختامي الذي صرح به عقب نهاية ذاك التوبيخ التليفوني الحاد.

كان غاضباً حتى من نفسه، لأنه قال بأننا نكون دائماً، وبطريقة مّا، مسؤولين عن أخطاء مَن لا يعرف تفسير قراراتنا، أو مَن يفسرها بشكل خاطئ.

المعذرة يا «بوونوكوري».

لعلك ستسيء فهمي، ستظن أنني امرؤ يسهل التأثير عليه، والتلاعب بعقله. لكني لم أقابل في حياتي أناساً كثيرين مستعدين للاعتذار، ولتحمل مسؤولية أخطاء لم يرتكبوها. إنني شخصياً لست متأكداً من قدرتي على التصرف بالطريقة نفسها. لا أجرؤ على القول بأننا كنا قد صرنا أصدقاء: فكثير من الأشياء كانت تفرق بيننا، ومن بينها العمر. بيد أننا أصبحنا رجلين لا يزدري أي منهما التحدث إلى الآخر، والإنصات إليه. كان يعرف كيف يستطيع أن يضعني ولو جزئياً في قبضة يده، حتى أنه من حين لآخر كان يسمح لنفسه بصلف بأن يوبخني جراء ثقتي المفرطة به. قال لي يوماً: «إنك تبالغ يا بوونوكوري. أتعرف أن بإمكاني فجأة أن أظهر لك مخالبي؟ حينئذ ماذا ستفعل؟».

أجبته بنبرة الصوت نفسها: «إن حضرتك تفرط أيضاً في الثقة بي. إنني لست أصمّاً تماماً عن سماع النداء الجذاب للخيانة». راح يضحك:

«إنك تمزح! لقد ارتكبت هذه المرة فعلة كبيرة! إني متأكد أن بداخلك شاعراً: يبدو عليك أنك تتحدث مع الآلات». ولمّا أخذت أهز رأسي كمن يشعر بأنه صار مثاراً للسخرية، قال لي بصوت حنون: «هل قلتُ شيئاً سيئاً؟ شيئاً أهانك؟ أحياناً ما يصادفني أن أتكلم أنا أيضاً مع الآلات رغم أني نصف دارس للعلوم الإنسانية: فأنا متخرج من قسم الفلسفة، وهذا يثبت لك أن كل شيء يمكن أن يحدث في هذه الحياة. في النهاية: أتتكلم مع الآلات أم لا؟».

«بل كيف يمكن أن يحدث العكس؟ أتظن أنه من الممكن الحياة لسنوات مع أحد مّا، أو مع شيء مّا، بشكل دائم، دون أن تتحول تلك المعايشة إلى حوار؟ يا أستاذ لم تكن حياتي حياة سهلة. لعلك تكون دارساً للإنسانيات، أو فيلسوفاً، ولكنك تغدو إنساناً خاصاً منذ اللحظة التي لا يخفى فيها عنك أي شيء يحدث فوق حفرة آلة الصب. لقد كنتُ شاباً صغيراً متدرباً يعمل على البوتقة حينما شرعت في التحدث مع الآلات».

أومأ بالموافقة بحزم ربما لكي يمنعني من مواصلة الكلام، لكني واصلت إفضاء ما بصدري. قلت إن مهمتي كانت تتركز في إدخال طرف مدبب لقضيب يبلغ طوله خمسة أمتار في فتحة تقع في قاع البوتقة. ولإنجاز تلك العملية فقد كان ينبغي علي الركض بسرعة لإصابة الهدف بقوة بدونها كان من الصعب أن يلتصق «المُفرِّغ»، الذي يشبه الصنبور المشبع بالإسمنت سريع الالتصاق، بفتحة البوتقة.

لم أكن أفلح دائماً في إصابة الهدف. ولمّا كان القضيب يجري فوق قضيب آخر مكونين معاً ما يشبه الصليب، فقد كان أي عائق صغير،

أو اهتزاز خفيف كافياً لإفشال المحاولة. حينئذ كانت تفلت من فمي كلمات. كانت كل كلمة تخرج تجر وراءها كلمة أخرى حتى تغدو الكلمة ألفاً، فعشرة آلاف، ثم تصير حواراً طويلاً، ومركباً موجهاً إلى القضيب المُعلق، أو إلى ذلك الذي يحمل رأسه «المُفرِّغ»، أو أخيراً إلى فتحة البوتقة. كلمات كثيرة كنت أرددها ليس للاحتجاج فقط بل، وللتملق أحياناً، ولطلب الصداقة، ولكسب الود. مَن يقول إن الآلة لا يمكنها أن تظهر التعاطف نحونا؟ أو أنها على العكس قاسية، معادية، وانتقامية؟ إني أعتقد شخصياً أن الآلة تدرك حقيقةً إن كان من يعمل عليها خبيراً بأمورها، ويحترمها، أو أنه ذو أصابع عنيفة، قاسية، عديمة الذكاء والرقة. لا أنوي أن أزعم أن للآلة روحاً مثلما يمكن أن يعتقد أي إنسان آخر ذي خيال جامح. بيد أني أرى أن الرجال الذين يعملون على الآلة إما يمتلكون هذه الروح أو لا يمتلكونها. إن النقطة الرئيسية هي أن الروح الإنسانية التي تكمن في الآلة هي انعكاس لإنسانيتنا. فإما أن توجد تلك الإنسانية، أو لن يكون بوسع الآلة إلا أن تعكس غباءنا، وتتحول بدورها فتصير عمياء، وقاسية.

كان رئيس القسم كثيراً ما يأتي فجأة إلى مكتبي دون أن يخطرني مسبقاً. في تلك الأيام كنت منشغلاً جداً ولاسيما بتنظيم عملية تحويل «سفينة بانيولي» مع الفريق المكون من التقنيين الذين كانوا سيتولون مهمة إعداد خطط تفكيك الأقسام التي ينتمون إليها. رغم انشغاله الشديد بالعمل لكنه لم يكن ليتنازل عن أن يقضي بصحبتي بعض الدقائق كان يوجه إليّ خلالها أسئلة شتى تتعلق بالقسم الذي أتبعه، وتتعلق في أوقات كثيرة بأشياء أخرى مختلفة.

أخبرته يوماً: «أتعرف إلى ماذا يلمِّح البعض؟ يلمحون أنني مصدر خاص لك، أي إنني جاسوس، أو مُخبر».

أجابني ضاحكاً وكأنني أخبرته بأكثر الأشياء إضحاكاً في العالم: «وأنت أتؤكد لهم هذا؟ فلتُؤكد لهم هذا تماماً، فلتصدقني ليس هناك نفي أكثر فعالية من هذا».

شعرت بأنه لم يكن يريد أن يضيع وقتاً في التفكير في الأمر. رغم الإنهاك، والدهشة المُرّة اللذين كانا يطغيان على المناخ العام، لكن راحت المهام، والتكليفات تتساقط علينا من كل صوب، ولاسيما من مكتبه. كانت مهامٌ عاجلة للغاية ينبغي تنفيذها بسرعة شديدة، وبدقة متناهية، ومسؤولة. كان يبدو أن هاجس الأزمات المتعلقة بالأمن يسيطر عليه، ولاسيما المشاكل الخاصة بتعطل الآلات. لا أذكر كم مرة أرسلني إلى آلات الصب لأتحقق إن كانت إحدى العمليات قد نُفِّذت بالمطابقة للقواعد. كان كثيراً ما يطلّ عليّ من باب مكتبي ويقول لي: «لدي شك ما...».

على سبيل المثال: هل فُرِّغت البطاريات الهيدروليكية؟ هل وُضِعت على الأرض في منطقة آمنة؟ وخطاطيف الرافعات؟ هل أوقفتم تدفق كل المواد السائلة: الماء، والغاز، والهواء المضغوط، والأكسجين؟ هل أحكمتم غلق صمامات الضخ؟

أحسب أنه كان يتعمد المبالغة حتى يجعلنا نركز في العمل بأكبر قدر ممكن. ذات صباح لم أستطع أن أمنع نفسي وقلت له: «إن الناس منهكون».

فأجابني مغتاظاً: «لعلك أنت وحدك المنهك».

«أجل إني متعب. لكني لست مختلفاً عن الآخرين».

«وماذا عليّ أن أفعل إذن؟ أأخبر الجميع بأن يبقوا في منازلهم؟ يابوونوكوري إن قلت لهم شيئاً مثل هذا فسيقطعونني إرباً إرباً، وستكون أنت أول من يفعل بي هذا».

حينما حانت لحظة الجَرْد، قال لنا بأنه سيكون علينا أن نضع بدقة متناهية القطع التي جُردت، وسُجلت في بطاقات تعريفية في مكان رحب بمصنع الصلب مرتبين إياها وفق ترتيب يفوق «القدرة الإنسانية» (لقد قال هكذا بالضبط «ترتيب يفوق القدرة الإنسانية»). كان من الضروري توضيح الأمر الذي كان الجميع يعرفه وهو أن الجرد –جرد من هذا النوع– كان يمكن أن يسبب لنا الإصابة بأسوأ أنواع الكآبة؟ فلم يكن علينا فقط الجرد والتسجيل الكامل لفوضى عارمة من الأشياء غير المفيدة، والشخصية تقريباً –طاولات، مقاعد، دفاتر، أدوات إصلاح، بعض الآلات الكاتبة، بعض أجهزة الحاسوب القديمة– ولكن كانت هناك أيضاً قطع مهمة تنتمي إلى ماضٍ كل منا. كان الأمر وكأننا نذهب عقب وفاة جدة أحدنا إلى غرفة التخزين العلوية الخاصة بها لنعبث بين الصناديق القديمة باحثين عن ذكريات، وأشياء صغيرة من الماضي.

هل أصابتك الدهشة مما أقوله لك؟ أيبدو لك أن مبنى آلة الصب لا يمكن بأي حال من الأحوال مقارنته بغرفة التخزين العلوية للعائلة؟ لو تعرف كم تخطئ. أينما يخْطُ الإنسان يمِيل إلى ترك آثار لا تخطئها العين لتكشف عن مشاعره، واضطرابه، عن أخطائه، وذنوبه. لقد عثرت على خطابات لم أرسلها أبداً من بينها بعض الرسائل الغرامية، ودفاتر مليئة بالعناوين، ومجلات جنسية، وبعض الأشياء التي تبدو ظاهرياً ذات

قيمة (بعض الخواتم، وقلادة ذهبية، وساعة) وبطاقات سياحية كثيرة تنتمي إلى أكثر مناطق العالم غرابة أرسلها إليّ العمال الذين بعث بهم المصنع إلى الخارج، أو إلى فروع أخرى له لتلقّي، أو لتقديم تلك البضاعة الرائعة التي نطلق عليها «الخبرة المهنية».

وضعوا تحت قيادتي فريقاً من العمال لتأمين آلات المصنع، ولكن كان عليَّ أن أتولى عملية الجرد منفرداً. كانت تصحبني دائماً ظلالي الثلاثة: السيد «سوائل»، والسيد «كهرباء»، والسيد «نجارة». في الصباح الباكر كنت أصل إلى المكاتب الخاوية تماماً، وأشرع في تصفح الأوراق المتراكمة في الأدراج، التي كان بعضها لا يزال موصداً بالأقفال (ولكني كنت قد حصلت على تصريح بفتحها عنوة إذا لزم الأمر).

هكذا رحت أضع يدي على كل الملفات التي حتى أيام قليلة ماضية لم يكن مسموحاً لي الاطلاع عليها: على سبيل المثال فقد وقعت في يدي الأجندة الضخمة السوداء (كانت في الحقيقة أقرب إلى دفتر منها إلى أجندة، سوداء منتفخة يلتف حولها شريط مطاطي أسود أيضاً يحتوي بصعوبة الصفحات الكثيرة للأجندة، التي كان أغلبها عبارة عن وريقات صغيرة، متفرقة، متطايرة) التي كانت تنتمي إلى رئيس قطاع سابق توفي منذ بضعة أعوام. كانت تحتوي على بعض الملاحظات والتقييمات سواء عن المصنع، وتاريخه أو عن مجموعة محدودة من الأفراد، والتقنيين، والعمال، وحتى عن بعض المديرين الذين كان عدد منهم لا يزال في الخدمة.

كان الدفتر قديماً يرجع إلى سنوات عديدة فائتة، ولكن لم يكن هذا لينتقص من أهميته، فقد كان يحتوي على معلومات صعبة، ودقيقة

مسجلة بأسلوب يذكّرنا بالتحريات الخاصة بالشرطة.

كانت ثمة صفحات تتحدث عني، ولحسن الحظ، كانت التقييمات الخاصة بي، وبعملي إيجابية بما فيه الكفاية. كنت أروق له، أو هكذا كان يبدو. كنت برأيه رجلاً سيكون له مستقبل كبير، لأني كفء، وطموح. كتب أنه كان قد وضعني تحت ملاحظته منذ أن كنت عاملاً متدرباً أقوم بأعمال الصيانة على الرافعات، وكنت أصطحب معي كتبي حتى لا أُضيع ولو دقيقة واحدة من وقتي. (لكن، أكان هذا مدحاً أو ذماً؟)

كان التعليق الختامي موجزاً جداً: «إنه يعرف ما يريد: لا أتمنى لأحد أن يعترض طريقه». يا إلهي! أكان على حق؟ أهذا كان الانطباع الذي أعطيته إياه؟ إني لا أعرف بتاتاً ما أريده، لم أعرفه أبداً. لا يروق لي بالتأكيد أن يعرقل أحد اختياراتي أو عملي، ولكن ما يعني هذا؟ ليس هذا سبباً لكي يظن أحد أنني رجل «مُبرمَج»، وانتهازي رديء.

كان ثمة خيط رفيع من الغموض يتسلل عبر الأوراق الباقية للدفتر بحيث يظهر بطريقة لا يشعر بها أحد في كل تقييم يحتويه، إلا عندما يدفعه أمر ما مهم إلى أن يتخذ موقفاً واضحاً، بل عنيفاً أحياناً: «إن كلاً من «أ.س»، و «ف.ل» أوغاد، مثليون جنسياً، ضبطهما الحراس متلبسين، لم يكن المصنع ليصل إلى مستوى أحقر من هذا، فماذا ينتظرون لكي يغلقوه؟». هذه الأجندة لا تزال في حوزتي. أعترف بهذا: لقد احتفظت بها لنفسي. ليس لشيء تافه كما قد تظن، ولكني أدركت منذ الوهلة الأولى أنها مستند مهم، وسيرة ذاتية شيقة كتبها أحد رؤساء الأقسام في المصنع ظناً منه بأنه يصف الآخرين، بيد أنه في الحقيقة، ودون أن يدري، كان يصف نفسه، ويصف تشبثه المريض بالانضباط

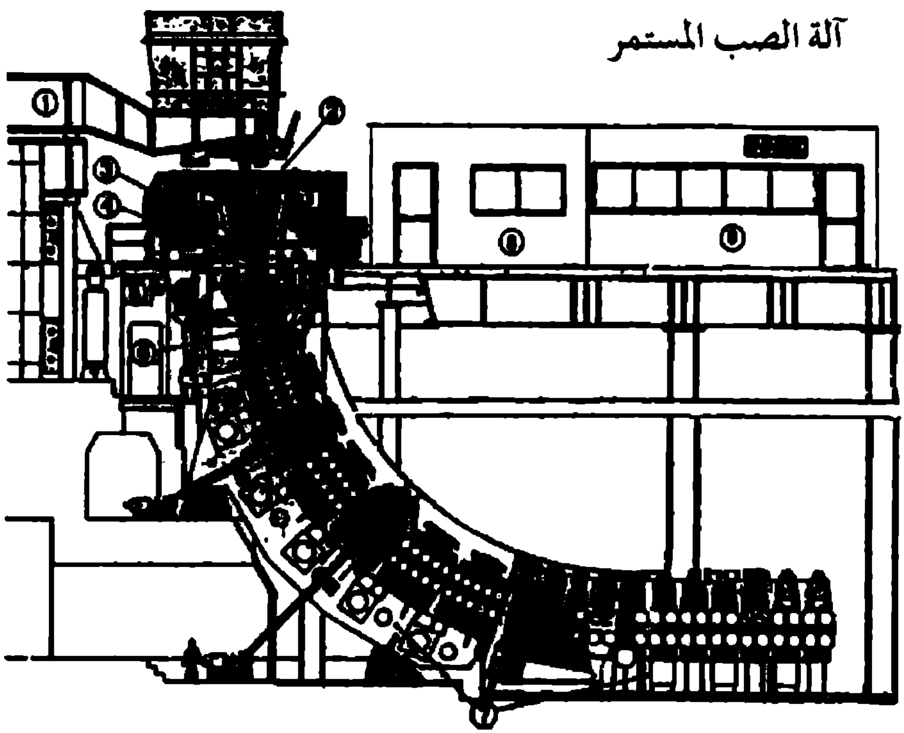
إلى درجة تدفعه حتى إلى كيل الاتهامات للآخرين؟

استغرق الجرد شهوراً: أعني هنا جرد المصنع بأكمله. لعل الأمر دام سنوات، ينبغي عليّ التحقق من الأمر، لأنه يبدو أن الوقت قد تفتت في رأسي إلى أجزاء صغيرة للغاية.

عقب جرد الأوراق كان ينبغي عليّ جرد المعدات، والآلات، والأدوات، وقطع الغيار، والطاولات، والمقاعد، أي باختصار كل شيء. لا أميل بطبعي إلى التخيل. نادراً ما أجد نفسي خاسراً في عوالمي الخيالية. لكن في تلك الأيام حدث مراراً أن فقدت تركيزي في العمل لأغرق في أحلام مفاجئة. حدث لي هذا أيضاً مراراً، ولكن وأنا واع لما كان يحدث وكأنني كنت أبحث عن فترة راحة من لعبة الشد والجذب التي كنا نمر بها. كنت أجلس منفرداً في جانب وأتنفس بملء رئتي. كنت أردد لنفسي «فلتتنفس يا طرزان» محاولاً أن أبدد كل المخاوف المتوارية في الظل وكأنها متدثرة بغطاء. من ناحية أخرى، كنت أفكر بأني لا أزال شاباً. لكني كنت أفكر في هذا، وأنا أدرك أني أخدع نفسي، لأنني لم أكن أفقه شيئاً عدا آلات الصبّ، وكيف لي أن أعثر بطريقي على آلة مثلها مرة أخرى؟

كانت قد وصلتْ إلينا عقب وقت طويل من اختراعها. كانت صناعة الصلب العالمية قد عرفتها، واستعملتها منذ زمن بعيد، ولكن إيطاليا، كما نعرف جميعاً، تتذيل دائماً الدول التي تهتم بإدخال المعدات الحديثة. فقبل اختراع آلة صب الصلب، كانت عملية تصنيع الفولاذ أكثر بطءًا، وأكثر احتياجاً إلى الجهد. كانت المنصات التي تنقل القوالب

آلة الصب المستمر



الأجزاء الموضحة بالشكل

1. البرج
2. الحوض
3. رافعة قاعدة الحوض
4. القوالب
5. مِهزاز القوالب
6. القطاع الأول
7. جهاز التقويم
8. مكاتب رؤساء الدوام
9. غرفة الأجهزة

تتوقف تحت الممرات، وحينما كانت تصل البوتقة ملتصقة بالرافعة، كان الفريق المسؤول عن الصب يقوم بفتح المُفرِّغ وإغلاقه، ومن ثم يعبّئون القوالب التي في الأسفل، والشبيهة بالأقماع الكبيرة. كانت عملية خطرة للغاية. فكثيراً ما كان الصلب يتسرب بطريقة عشوائية، أو يتناثر في الهواء مخترقاً بزة العمال المصنوعة من الأسبست، والصدرية الصوفية التي تحتها. وفي بعض الأحيان تعرض بعض العمال للإصابة بالجروح أيضاً.

في عام 1977 أُدخلت في مصنع «بانيولي» آلة للصب من الحجم الصغير شبيهة بالمرأة الضئيلة البنية كالدمية. حينها كنتُ قد قطعت شوطاً طويلاً، واجتزت حفرة آلة الصب، وانتقلت إلى قسم الصيانة، ورغم هذا فقد وقعت في غرامها في الحال، وأفلحت في أن أجعلهم يضعونني هناك إلى جوارها ضمن المجموعة التي كان عليها المعاونة في تركيبها مع خبراء «إينسي»، الشركة المُكلَّفة بتصميمها، وتصنيعها. ورغم مرور كل هذا الوقت، ولكني أحتفظ بذكرى تلك التجربة، وبالأحاسيس التي كنت أشعر بها آنذاك كما هي دون تغيير. كانت الآلة تخرج من غلافها، ومن الصندوق الخشبي، قطعة وراء قطعة، وكأنها لعبة ضخمة.

كانت كل قطعة منها تبدو وكأنها أحجية ينبغي تفسيرها: تعلمت للمرة الأولى قراءة تصميم صناعي، واكتشفت ساعتها أن تصميماً كذاك كان له سحر خاص به، بل وجمال نضر كثيراً ما يكون واضحاً ويسهل فهمه، وأحياناً أخرى غامضاً، وملتوياً. لي رجاء عندك الآن: فلا يمكنك أن تتخيل كم ستكون سعادتي إذا ما أدرجت في الكتاب الذي

ستكتبه أحد هذه التصميمات، واحد فقط، ولكن مع تنبيه القارئ ألا يطوي الصفحة سريعاً، وألا يتجاهله، أو يتعمد عدم النظر إليه بتعجل، وبعدم صبر، فعلى القارئ أن يتطلع إليه بعناية فائقة، وأن يتأمله، وأن يتفحص بدقة، جزءاً بعد جزء، ذاك التعاقب المتناغم بين اللونين الأبيض والأسود، وبين الأجزاء الممتلئة، والأخرى الخاوية على امتداد القوس.

شُغِّلت الآلة عقب سنة تقريباً من تركيبها. أيمكنني أن أعترف لك بأنني درست تصميماتها مع «روزاريا»؟ فقد قبلت هي أيضاً أن تخضع لهذا الاختبار من أجلي (إن الزمن الذي نعيش به سيُذكر دوماً بأنه كان زمن الإرادة، والكبرياء النسائيتين: وأؤكد لك أن إرادتهن لا حدود لها)، ومن أجل نفسها أيضاً، لأنها أدركت أني كنت بحاجة إلى أحد ما، تلميذ ربما، لأشرح له تلك الأوراق –التصميمات، والمعادلات، والأرقام– فبهذه الطريقة فقط كنت لأتمكن من إدراك كل خباياها. في المساء بعد أن كانت تضع الطفل في الفراش (حينها كان «أندريا» في الخامسة من عمره) كانت «روزاريا» تلحق بي في المطبخ حيث كنت أنتظرها باسطاً الأوراق على طاولة من خشب «الفورمايكا» وقد نفد صبري متلهفا على أن أبدأ الدرس. أجل كنت متلهفاً، ومتلهفة كانت هي أيضاً. كنا بمثابة إرادتين في مواجهة، بل في منافسة («روزاريا» درست المحاسبة ولكن، تنبه لهذا! فأكثر العلوم إثارة لاهتمامها هو علم الميكانيكا! الأرقام، والميكانيكا!).

كنت أتصرف كالعادة مزهواً كالطاووس: كنت أشرح، وأشخبط، وأعتلي الكرسي متظاهراً بالثقة، حتى عندما كنت في الحقيقة أفتقدها. أما هي –بعينين شرستين، وكسولتين في الوقت نفسه فكانت تتظاهر

بالتواضع. لكن ما إن كانت تُتاح لها الفرصة حتى كانت تهاجمني دون تردد، وتقول لي: يا «بوونوكوري» إنك تقول الكثير من الترهات؛ يا «بوونوكوري» لقد فقدنا تركيزنا وفقدتَ أنت الفكرة؛ يا«بوونوكوري» لقد اختلط عليك الأمر بشكل مؤسف...

كنا نبصر المصنع من خلف زجاج الشرفة، وكنا اعتدنا على وهجه الذي بات جزءاً لا يتجزأ من حياتنا العائلية الخاصة، حتى أنه كان يشاركنا الجلوس على الطاولة كضيف مستديم، ثم يتفجر في ما بعد إلى أجزاء كثيرة متفرقة تتسلق فوق جدران المطبخ كحيوانات بلا جسد يطارد كل منها الآخر.

في بعض الأحيان بعد أن يكون قد أصابنا التعب جراء فك دميتنا وتركيبها، كانت «روزاريا» تطفئ الأنوار، وتأتي لتجلس بجانبي على الأريكة التي كنا وضعناها هناك لتحويل المطبخ إلى صالون إذا ما لزم الأمر. حينها كان المصنع يبدو وكأنه يحتل بيتنا بأكمله: كان كإعصار أحمر يبث القشعريرة دوماً في جسد «روزاريا» التي كانت تردد بنبرة مازحة وجادة في الوقت ذاته: «ماذا يحدث؟ ماذا يحدث؟». كانت البقع القرمزية على الجدران تطارد بعضها بعضاً متسارعة وكأنها حشرات تخوض حرباً ضروساً في ما بينها في ميدان تخضب ساحته الدماء.

***

ألا تفكر أنت أيضاً في هذا اللقاء السعيد، إنه حب من أول نظرة بين رجل وآلة، أيمكن أن يكون مقدراً؟ لكن كانت ثمة مشكلة، فقد حدث شيء مؤسف كان على وشك أن يحطم حلمي الجميل لحظة ولادته ليدفع

بي نحو اتجاه آخر. كان من الضروري تعيين مراقب رسمي مسؤول عن الآلة، فاقترح رئيس القسم، صاحب الأجندة التي حدثتك عنها منذ قليل، أن أتولى أنا هذا الدور، ووافقت الإدارة على هذا بالإجماع. بينما كنت على وشك أن أتولى المهمة قدّمت النقابة بعض الاعتراضات على هذا، شرحوا لي أن الأمر لم يكن يتعلق بمشكلة شخصية نحوي، ولكن إن كان العمل الذي كُلِّفت به سيؤدي إلى ترقيتي إلى درجة أعلى فلم يكن ينبغي اختيار مَن يتولاه بناءً فقط على تخصصه. فقد كانت ثمة معايير أخرى يجب أخذها بعين الاعتبار (مثل الأقدمية)، وتبعاً لتلك المعايير كان من حق أحد آخر نيل المنصب بدلاً مني.

عُيِّن فعلاً عامل آخر، أصابني غضب شديد لا معنى له، فصببته على الآلة وكأنها هي المسؤولة عما حدث لي، وكأنها هي من رفضتني. إلا أن منافسي أتى إلي بشعور طيب ليعتذر لي طالباً مني مساعدته، والوقوف بجانبه، وقال لي: إنني مسن، وهذه هي الفرصة الأخيرة لي لأحسّن من وضعي التقاعدي.

لم تكن لدي الجرأة لأصرّ على موقفي، فقد كان في نهاية مشواره الوظيفي، وكان سيصبح عملاً شريراً حقاً من جانبي أن أَحُول بينه وبين هذه السعادة، وهذه الفرصة.

بيد أن الحظ السعيد عاد ليبتسم لي مجدداً. عقب شهور من هذا أُخترتُ لأكون ضمن فريق مهم يمثل كافة التخصصات في «بانيولي»، وكان هذا الفريق مكلفاً بالاستعداد ليغدو القوة الدافعة في المصنع الذي كانت تُعاد هيكلته: كنا بمثابة قاطرة السحب المسؤولة عن إعادة بعث الشركة. لعله لا معنى من أن نطلق عليه «قدراً»، لكنه يستحق اسماً

خاصاً به، ألا ينبغي أن يكون له اسم، ألا تعتقد هذا؟

ليس من طبيعتي أن أمتدح نفسي، ولكن كيف لي أن أنكر أنني صرت فعلاً قطعة شطرنج مهمة –إن أردت فلتعتبرني مهماً، وثانوياً في الوقت ذاته– في كل الأحداث التالية؟

كنت في «تارنتو» في دورة تدريبية أخرى عندما بلغني نبأ ترقيتي إلى كادر وظيفي جديد، فقد تجاوزت درجة «عامل» رقم 7553 لأصبح «الموظف» رقم 1961. أعترف بأن عينيّ اغرورقتا بالدموع. اتصلت بـ«روزاريا»، وراحت تبكي هي أيضاً. قلت لها: «أتبكين؟ ألست أنت المرأة الصلبة للعائلة؟». لأول مرة عرفت أن ثمة قلباً بين أضلعي يمكنه فجأة أن يخفق، ويرفرف بجناحيه كعصفور. دعوت الجميع إلى الشراب. أهذا هو المصير؟

لا أعرف. كل ما أستطيع قوله أن حياتي كثيراً ما دارت حول شمس واحدة. إني أنتمي إلى هذه الفئة من الرجال القادرين على أن يُحبّوا لمرة واحدة فقط، وأُصرّ بشدة على أن أكون زوجاً لواحدة فقط (على الأقل في ما يخص العمل). أذكر أن أبي أيضاً كان يقول إنه لم يكن ليعرف، أو ليقدر أن يمارس عملاً آخر في حياته. لعله كان يشعر مثلي بأنه أسير في قفص بصحبة ملائكته الخشبية، وزهوره، وأوراقه التي لم يكف أبداً عن محاولة جعلها بالغة الكمال.

***

أنا آسف، فقد خرجت عن الموضوع. إن «روزاريا» تقول لي باستمرار: «يا بوونوكوري قل ما تريد!». كنت أتحدث عن الجرد. إن لم تخني الذاكرة فقد كان هذا في عام 1991. لعلها كانت الفترة الأكثر

حزناً وكآبة في المراحل الأخيرة لقصة مصنع «إيلفا»، على الأقل إلى اليوم الذي بدأتُ فيه التفكيك الفعلي لآلة الصب –الطامة الكبرى– فمنذ ذلك الوقت راح المصنع يتلاشى بلا رجعة.

حينما أصدر رئيس القسم ذاك الأمر لفريق العمل المسؤول عن التفكيك لم يدرك أحد منهم آنذاك مغزاه الحقيقي. ففي نهاية الأمر ما السوء في كلمة «جرد»؟ فنحن جميعاً شرفاء، ولا سوء في هذا. إنها تعني حصر مجموعة من الأشياء. لكن، حتى نعي جيداً ما معنى «اللعب بالنار»، فقد كان ضرورياً أن نأخذ وقت كافياً للتفكير في تلك الكلمة «الجرد»، والإنصات إليها مليّاً بينما تتردد على مسامعنا وسط حديث طويل بصوتك أنت، المتردد، والمرتجف، أو بصوت آخر، فلا أهمية لهذا.

فلا بد لك أن تخوض تلك التجربة فعلياً لتدركها. فها أنت تستيقظ في الصباح الباكر مع الفجر كالعادة. تطل من شرفة المطبخ لتصيبك الدهشة في كل مرة تجد نفسك فيها أمام سماء رمادية سخيفة (فلتعترف بأنك تشعر بالحنين إلى ذاك اللون الأحمر الذي اختفى؛ وحتى لذاك المذاق الحامض، والخشن للهواء الذي لم تعد تتذوقه). تنطلق بسيارتك ورأسك مشحونة بالأفكار. تجتاز بوابات المصنع. توقف السيارة كما اعتدت دائماً أن تفعل أمام ورشة آلة الصب. تدخل.

لا أحد هنا. تلتفت حولك، وتسأل نفسك: من أين أبدأ؟ حتى في مكتبي الخاص كانت ثمة أدراج موصدة لم أفتحها منذ زمن طويل لا أذكره. أذكر أنني لبثت أحدق طويلاً في أحد الأقفال قبل أن أقرر أخيراً بأن أولج فيه المفتاح. فتحت الدرج قليلاً، وأدخلت به يدي،

ورحت أتحسس ما بداخله بعينين مغمضتين. تعرفت على إحدى رسائل «روزاريا» لي بمجرد أن لمستها أناملي. أخرجتها. كانت الرسالة تعود إلى الفترة الأولى لتعارفنا. رغم أني كنت أحفظها عن ظهر قلب، لكني رحت أقرأها من جديد. كانت «روزاريا» تريد مني أن أُعجِّل ببيع سيارة لي «فولفيا كوبيه» ذات لون بنيّ كنت قد اشتريتها منذ شهور قليلة سابقة بعد أن وقَّعتُ على ثلاثين كِمبيالة قيمة كل منها خمسون ألف ليرة. كنت قد ابتعتها قبل أن أتعرف على زوجتي. أبصرتها في صباح يوم أحد في واجهة معرض للسيارات بشارع «كاراتشولو» فرحت ألتهمها بعيني.

بعدئذ اقتحمت خطيبتي الطفلة حياتي. وما إن لاحظتُ بغضها للسيارة حتى سألتها: «أتشعرين بالغيرة من سيارة؟» فأجابتني: «ولِمَ لا؟»

«ولكنها مجرد سيارة!»

فأجابت بإصرار: «ولِمَ لا؟»

لم يكن الأمر مجرد غيرة فقط، إنها كانت تعتقد أن سيارة كتلك لم يكن من المناسب وجودها في حياة إنسانين لم يأتيا بالتأكيد إلى هذا العالم ليتجولا على متن سيارة فخمة. «أأنا باغية؟»».

«ماذا تقولين؟»

«أقول إنني حينما أضع قدمي في تلك السيارة فالناس تنظر إلي، ولا أقرأ في عيونهم سوى أفكار شريرة عني».

ولّما كنت متردداً في تنفيذ ما أرادته مني، رحت أضيّع الوقت في التفكير متحججا بكل الأعذار الممكنة إلى أن أتى اليوم الذي كتبتُ فيه

لي هذه الرسالة. كانت الرسالة تقول بإيجاز: إما أنا أو السيارة.

استدرت فجأة حتى أن الرسالة انزلقت من يدي، وسقطت على الأرض. لم يكن أحد يتجسس عليّ. لم يكن هناك أي وقع أقدام كما كان يبدو لي للوهلة الأولى. كان الصمت كصمغ شديد اللزوجة يلف المكان، ويلصق الأشياء كلها معاً. إني شخصياً كنت أشعر بنفسي وكأني قد صرت تمثالاً من الجبس داخل متاهة من الحنين المتحجر. معروفٌ أن الجرد إجراء ضروري مهم. ولكن، لعل الأمر الأقل ذيوعاً هو أنه نادراً ما يظل هذا الإجراء هدفاً رئيسياً في حد ذاته، لأن الجرد بطبيعته يشبه الموجة التي تفيض، أو كالحدث الذي يتمدد، ويتوسع متجاوزاً كل الحدود. تظن في أول الأمر أنه عمل محدود يحتاج إلى جهد ضئيل عديم الأهمية. بيد أنه حين تشرع في العمل تجد أنه كلما زاد مجهودك، وكلما حفرت، وكتبت، وفصَلْت، وأعددت القوائم أدركت أنك تؤدي عملاً مهولاً. فلتصدقني لا يوجد عمل آخر أقرب إلى الموت من الجرد. إن الموت حاضر في كل شيء تجرده، في كل كلمة تكتبها، في كل صندوق تغلقه. إن كل شيء حولك تفوح منه رائحة الموت، والعطن، وخيبة الأمل، والفشل، ورائحة أشياء كانت فتلاشت، ولا حياة لها الآن.

في أحد الأيام أتى رئيس القسم لزيارتي (أو لمباغتتي؟).

«يا «بورنوكوري» لقد اختفيت، ولم يرك أحد منذ زمن».

«إنه عمل لعين».

«أعرف هذا. إني أتفهم تماماً. أتعرف لا يوجد أي قسم بحالة أفضل. كل المصنع قيد الجرد. يؤسفني هذا. إني أيضاً أشعر بالقشعريرة من هذا الموقف. هل وجدت شيئاً خاصاً؟».

«خاصاً؟».

«أسلحة على سبيل المثال، أو مستندات مهمة يمكنها أن تسبب المتاعب لأحد مّا».

«كلا. لا توجد أسلحة، أو مستندات خطيرة. فقد عثرت فقط على أشياء غير ذات أهمية: لن أعددها لك حتى لا أصيبك بالسأم».

«إنك لا تصيبني أبداً بالسأم. فلتقل لي ماذا وجدت». حينها فقط أتى ليجلس بجانبي على مقعد دوار صغير جداً لرجل في حجمه. كان رجلاً قصيراً، ومستديراً، وليست له قسمات مميزة، عدا نظراته التي يصعب وصفها، التي في بعض الأحيان تبدو باردة، وغاضبة، وفي أحيان أخرى، ساخرة، أو يملأها يأس حذر، أو تشاؤم خجل. أما الشيء الوحيد الثابت لديه فكان حبه للتسلط.

قلت له: «على سبيل المثال، وجدت بعض الكتب المدرسية التي كنت أطلع عليها لأحصل على شهادة الدبلوم. أتعرف ما حدث لي؟ لقد وقعت في غرام مدرسة اللغة الإيطالية، لذا فقد هجرت الرياضيات، والميكانيكا. لم أكن أفعل شيئاً سوى قراءة «دانتي» و«بيتراركا» و«بوكاتشو»[5] داخل مقصورة الرافعة على أمل ألا يتذكرني، أو يبحث عني أحد هناك. لحسن الحظ، سرعان ما عدت إلى صوابي، رغم أنه بقي ندم، وأسف على هجراني لهذا الأدب الجميل. وإلى يومنا هذا فإذا ما أشار علي أحد بكتاب جميل فإني لا أدعه يفر من يدي أبداً...».

(5) يعد «دانتي» و«بيترارك» و«بوكاتشو» أهم ثلاثة أدباء في الأدب الإيطالي الكلاسيكي في القرن الرابع عشر، وينسب إلى «دانتي إليغييري» كتابته لأول عمل أدبي باللغة الإيطالية الحديثة مما مهد لانتشارها بالتزامن مع انسحاب اللغة اللاتينية كلغة للتواصل والكتابة. (المترجم)

«ألم تجد شيئاً آخر؟».

سرعان ما حدثتني نفسي أن هذا الرجل لديه مشكلة ما. إنه ليس رئيس القسم الذي أعرفه، والذي لا يخطئ سؤالاً، والذي يهيمن عليه شعور دائم بالسيطرة على الأمور في قبضة يده. أجبت: «أجل بالتأكيد. وجدت بعض إيصالات استلام الراتب التي تحمل اسمي وترجع إلى السبعينيات. باختصار، لم يكن «إيلفا يدع أحداً يموت من الجوع؛ ولا حتى شاباً طموحاً في أول مشواره على البوتقة. عثرت أيضاً على خطاب كانت زوجتي قد أرسلته إليّ عندما كنا خطيبين».

«أهي رسالة غرامية؟».

«ليس تماماً. كانت رسالة ابتزاز غرامية: إما أنا أو السيارة فولفيا كوبيه».

«ولَم هذا؟».

«لأنها كانت تظن أنها ترف مفرط لأناس مثلنا».

ضحك، ثم قال إنه سيكون عليه هو أيضاً أن يخلي مكتبه: «أتحسب أن ليس لرؤساء الأقسام قلوب أيضاً؟ تخطئ يا «بوونوكوري» إن ظننت هذا. حتى الرؤساء لهم قلوب، لعلها أكثر قسوة، ولكن لهم قلوب».

كان يبدو أنه استعاد تماماً صوته المتهكم المألوف حينما تمتم فجأة بتؤدة مقصودة: «على ذكر رؤساء الأقسام، أبغي أن أبوح لك بسر حتى أنت نفسك لم تكن لتستطيع تخيله».

أطلت أُذنيّ، ولكنه اكتفى بالتنهد، وبات الانتظار لا يحتمل.

ولذا؟

قال إنه بين الفينة والأخرى يُحال رؤساء الأقسام هم أيضاً إلى

التقاعد. فيخلدون للراحة، وربما يغمر قلوبهم الموت، كما في حالته هو، ولكن برأس مرفوع، وبعد أن يكونوا قد أدوا واجباتهم كلها إلى آخِر لحظة.

همهمت: «لا أستطيع أن أصدق».

فقد كنت مذهولاً فعلاً، بل منزعجاً.

لاحظ ما بي من ذهول فابتسم لي بود. قال إنه لن يحدث شيء بشكل مفاجئ عنيف. كانت يداه تمسكان بخيوط كثيرة، ولذا كان من الصعب أن ينقطع الحبل الذي يربطه بالمصنع مرة واحدة فجأة. فلم يكونوا ليسمحوا له بهذا قبل أن يُكمل الأعمال المُكلف بها، أو على الأقل أكثرها أهمية.

قال: «لدينا جميعاً واجب لنؤديه، وعلينا تعزيز الحقيقة التي تمنح معنى، ومغزى لحياتنا. أتعتقد أنه من السهل أن تكون رئيساً جيداً لأحد الأقسام؟ لم يكن سهلاً على الإطلاق. كم من قرارات كان عليّ اتخاذها رغما عني، ولكني لا أقول إنها كانت قرارات غير أخلاقية، أو كانت تتعارض مع ضميري، فهذا مما لم أكن أقبله مطلقاً. إني أتحدث عن شيء آخر. على سبيل المثال، عن القرارات التي تتعلق بهذه الجنازة الكبيرة التي ننفذها الآن. لحسن الحظ، إن مهمتي قد أشرفت على الانتهاء، ولكني سأظل أبذل قصارى جهدي إلى آخر يوم في عمري».

تطلعت إليه باهتمام حتى أجعله يدرك بوضوح مشاعر الاحترام التي أكنها له. لقد أفنى حياته كلها في هذا المصنع مُنحازاً دائماً إلى جانب الصواب. كان أيضاً أحد من لعبوا دوراً مهماً في عملية التحديث، وأحد المديرين الذين كافحوا لإصلاح الصورة الفاسدة للمصنع.

يا للغرابة فلم أنظر له أبداً على أنه رجل مسن. كان حقاً بديناً قليلاً، ولكن لم يكن بشخصه، أو بهيئته أثار للشيخوخة أو للإهمال. بل، على العكس، كان له وجه جميل بجلد مشدود مع قليل من التجاعيد، والشعر الأبيض، ولاسيما أنه، على المستوى الذهني، كان يبدو في أحسن حال، رغم مسحة الكآبة، والتشاؤم الساخر التي تغلفه، والتي لم يكن من السهل ملاحظتها عليه، لأنه كان يفعل ما بوسعه لإخفائها، إلاّ معي، ومع بعض الآخرين.

قال: «أشكرك يا بوونوكوري على كل ما تشعر به نحوي: ولكن أأنت متأكد حقاً أنني أستحق هذا؟»

اكتفيت بالابتسام، وبالإيماءة بالموافقة.

-15-

لم يكن فقط مجرد جرد للأوراق، بل للتحف، وللمفروشات، وللأثاث، ولقطع الغيار، وللأدوات الصغيرة، وكل ما كنا نعثر عليه داخل أقسام المصنع. كانت تتعاقب علينا أثناء عملنا فترات من الهدوء (من القراءة، والكتابة، والتأمل، والتخيل، والتحدث، والاتصال الهاتفي، والنميمة) وفترات أخرى من الحركة الدؤوبة للغاية، كما كان يحدث على سبيل المثال في ورشة الصلب حيث أقمنا هناك مكتباً لاستلام قوائم الجرد التي تم الانتهاء منها، أو في قاعات المخزن العام خلف قطار اللفائف حيث تراكمت قطع للغيار من كافة الأنواع، وبزات للعمل (بزات واقية من الإصابة وغيرها) وأشياء خاصة بالسكرتارية، ومكاتب، وخزائن، ومقاعد، وبعض أجهزة الحاسوب القديمة، والآلات الكاتبة، أي باختصار، كان جبلاً من الحاجيات المفيدة، وغير المفيدة، وكان يمكن لأي عامل منا أن يأخذ منها ما يحتاجه من أغراض تساعده على إتمام مهمته في تصفية المصنع.

أذكر أنهم كانوا قد أطلقوا على ذلك المخزن اسماً من أكثر الأسماء شؤماً في الحرب العالمية الثانية: «هيروشيما»، حتى أني كنت أجيب عن كل من يسألني: إلى أين أنت ذاهب يا «بوونوكوري»؟ قائلاً: إلى «هيروشيما». في الواقع كنت أجيب هكذا بصرف النظر عن المكان الذي كنت أقصده، ففي تلك اللحظة كان العالم بأكمله لي يشبه «هيروشيما». كان بمثابة مستنقع من الجنون رحنا نغرق فيه.

على أي حال كان للمخزن العام سحر خاص به، وحينما كنت

أستطيع لم أكن لأضيع فرصة للتجول بداخله. في صباح أحد الأيام سألني «أرتورو سكوديري» التقني السابق لفرن التكويك (ولأقول الصدق فقد كنا آنذاك نعرف بعضنا منذ فترة وجيزة فقط): «عمّ تبحث؟». اكتشفت ساعتها أن كلينا كان يبحث عن الشيء نفسه، ولذا كان من الأَوْلى أن نصير أصدقاء، ونوحّد جهودنا، وخططنا. كنا لا نزال شابين، وكنا بحاجة إلى طريقة لنُبعَث من جديد، ولكيلا ينتهي بنا الأمر إلى الموت.

بيد أن وضع «سكوديري» كان أكثر حساسية من وضعي: كان له ولدان يحملان دبلوماً في علوم الحاسب الإلكتروني (وكان أكبرهما يعمل كمعدٍّ للبرامج في أحد أهم مصارف «نابولي») وكان الولدان يلحّان على أبيهما حتى يتعلم استخدام الحاسوب، ولكنه كان يخبرهما بعجزه عن فعل هذا («إني عجوز على هذا، ولكي أكون صريحاً إني أمقت هذه الآلة الحاسبة، وأبغضها»). لكن نظراً للظروف الجديدة فقد غيّر رأيه، وكان يرغب في تعويض الوقت الذي أضاعه بسرعة، ولكن دون أن يَعلم ولداه شيئاً عما يحدث. سألته: «هل هي مسألة كبرياء؟». رفع كتفيه إلى أعلى. ولحساسية الموقف لم أعقب بشيء.

كانا الحاسبان اللذان عثرنا عليهما في «هيروشيما» بحالة مزرية للغاية، ولكننا أخذناهما غير آبهين. كانت رائحة كريهة لا تُطاق تنبعث منهما: وكأنهما كانا مغمورين في بئر للصرف الصحي. قبل أن نحملهما في السيارة، قمنا بتطهير سطحهما الخارجي بعناية بمطهر كحولي معطر. قال لي إنه ينتمي أيضاً إلى فريق التفكيك، ولذا فقد كان على وشك نقل مكتبه إلى المبنى الملاصق لورشة الصلب، والذي كنت

قد سبقتُ جميع أعضاء الفريق في الانتقال إليه. كنت أريد أن أسبق الجميع لأضع يدي على أفضل مكان، وأثاث، وتجهيز، وعلى ستائر جميلة، جديدة تقريباً، كنت قد عثرت عليها في المخزن العام، وقمت بنفسي بتركيبها.

وحيث إن علاقتي بـ«أرتورو سكوديري» سيكون لها بلا ريب دور كبير، واستراتيجي في هذه الحكاية (إنك لا تتخيل ما استطعنا أن نفعله بذينك الحاسبين كريهي الرائحة) فإني أرغب في أن أصف لك بإيجاز هيئته وشخصه. سأتحدث بالطبع عن «سكوديري» تلك الفترة، وليس «سكوديري» اليوم في 2001، والذي أشاركه المكتب، ولهذا فقد أُتيحت لك فرصة معرفته جيداً.

كان نحيفاً، وقوي البنية، وله وجه مستدير تضيئه عينان لامعتان معتمتان، شعره مجعد، ولون بشرته بين البرونزي والزيتوني، كلماته بطيئة، وحذرة، ولكن تغلفها ابتسامة دائمة (يقول كثيرون إنها خاصية تقليدية في الأفراد الخجولين، أو العنيدين). إني لا أمزح، ولكنه كان رجلاً خجولاً، وعنيداً بشكل لا يصدق. سألته يوماً: «ما فضيلتك الكبرى؟»، فأجاب دون تردد: «الخجل».

«ماذا تقصد؟».

«لولا خجلي، ولولا ميلي الغالب إلى الاختفاء لكان عليّ ربما أن أُظهر لنفسي وللجميع قيمتي باستمرار».

أما اليوم فهذا الرجل قد تحول تماماً، صار خجله أقل حدة، وأكثر شروداً، حتى أنه بات يميل إلى السخرية من نفسه، وإلى المزاح (يقول لي الآن بين الفينة والأخرى ضاحكاً سعيداً من إيماءتي المتكررة، والطويلة

بالموافقة: «فلتعترف أن لساني يخيفك»). ولكن... اندلعت على الفور حرب شاملة، ومدمرة بينه وبين الحاسبين، لأن «سكوديري» لم يكن يريد الاعتراف بأنه يواجه تكنولوجيا معقدة تتطلب منه مقاربة حذرة، ومدروسة، ولكنه، على العكس، كان يفضل أن يتعامل مع الجهازين باستعلاء مقتنعاً بقدرته على حل أية عقدة بمفرده دون الحاجة لمساعدة أحد ولاسيما ولديه.

لن أزعم أنني استطعت التصرف بطريقة أكثر هدوءاً وسيطرة على النفس. كان هذان الجهازان يصيبانني بالغضب أكثر منه، ولكني كنت أتحاشى أن أحوّل تلك الصعوبة إلى هوس، أو إلى مسألة مبدأ، أو في أسوء الأحوال إلى مسألة أيديولوجية. ظلت عينا «أرتور» لساعات وساعات معلقتين بكتاب توضيحي دون أن يحرك ساكناً وكأنه كتلة من الرخام، بلا نظرات أو أحاسيس تقريباً، وكان يُشعرني في أغلب الأوقات بغضبه وتوتره (مرات كثيرة كنت أقف على باب مكتبه، وأرنو إليه، ولكن دون حتى أن يشعر بوجودي) بيْد أني لا أستطيع أن أنفي أنه بفضل غضبه المَرَضي هذا، وسكونه الخارق، فقد أفلحنا في تجاوز عوائق لا حصر لها، وفترات عديدة من الإحباط.

عقب أيام قليلة من أَخْذنا للحاسبين من «هيروشيما» انتقل هو أيضاً إلى المبنى الملاصق لورشة الصلب مع الرجال الآخرين في الفريق (كانوا تقريباً ثلاثين رجلاً) واختار له غرفة قريبة من غرفتي (فقد كان معي زميل آخر في المكتب، ولم يكن باستطاعتي أن أتخلص منه دون أن أثير غضباً لا معنى له).

أذكر أنني ساعتها كنت ما زلت أقوم بالجرد تحت قيادة رئيس

القسم، كباقي رجال الفريق، ومن بينهم «سكوديري» الذي كان ينبغي عليه كل صباح أن يقضي بعض الوقت في فرن التكويك. في مساء أحد الأيام سمعته يصرخ في أحد الممرات: كان بالأحرى يتأوه وجعاً أكثر منه يصرخ. هرعت نحوه: «ماذا ألمّ بك؟».

استطاع بالكاد أن يتمتم قائلاً: «إنه الحاسوب!».

كان أمراً متوقعاً لحاسوب قديم ومزرٍ، أن يأتي عليه يوم يأبى فيه أن يفيق من سباته. كان بارداً هامداً كالجثة.

«ماذا فعلت به؟».

«لا شيء أبداً... أقسم لك، حاولت أن أشغله، فأوصلت الجهاز بالكهرباء... وفي غمضة عين».

ولكي أكون أميناً فلم أكن آسفاً كثيراً، فكرتُ أنه ربما حان الوقت لكي يطلب المساعدة من ولديه، لكني كنت مخطئاً، فبعد أن سمح لي بفحص جهازه (دون نتيجة) قال لي بإصرار: «الآن لم يتبق لنا سوى أن نفككه قطعة قطعة».

كان يرغب في البدء في العمل فوراً، ولكني قلت له بصوت متبرم: «مهلاً مهلاً! لن أقول لك بأننا لن نفككه، ولكن غداً بعد أن ننام، ونُريح أعصابنا».

في الغد حينما وصلت إلى المكتب لاحظت أن الجميع كانوا على علم بالأمر، حتى رئيس القسم بدا مهتما للغاية بتلك التجربة. أسرّ إليّ قائلاً: «لم أرَ من قبل حاسوباً يُفكك. إن لم يكن يسبب لك الإزعاج فسأمرّ عندكم لألقي نظرة».

شعرت بأن من واجبي أن أشرح له أنني أيضاً، وحتى «سكوديري»

نفسه، لم نرَ في حياتنا حاسوباً مفككاً. على كل حال لم نفشل في اختراق مَعِدة الحاسوب متبعين التعليمات، والرسومات التوضيحية، مع التنبيه الواضح على الجميع أن هذا لم يكن يعني نجاحنا تلقائياً في إصلاحه. في لحظة ما تمنيت أن يقترح رئيس القسم استدعاء تقني متخصص، أو طلب شراء حاسوب جديد مباشرة كنت على استعداد لتعلُّم العمل عليه لخدمة الصالح العام. لكنه تجاهل كل تلميحاتي، التي كانت في بعض الأحيان واضحة صريحة.

كان الأمر أشبه باحتفال بأحد الطقوس. فلأسباب غامضة هيمن الحدث علينا ولاسيما على مشاعرنا. قررنا بأن نفكك الجهازين معاً لمقارنة كل قطعة بمثيلتها في الجهاز الآخر. ولمّا كنا واثقين بأن أحد الجهازين سليم، لذا فقد كانت المقارنة ستعيننا على اكتشاف الجزء «الميت». عملنا فوق طاولتين منفصلتين بحضور عدد كبير من زملائنا، بعضهم جالسون وآخرون واقفون يبدو عليهم الاحترام الشديد لما كنا نعمله، حتى أنهم كانوا يتحدثون همساً في آذان بعضهم. كان ضوء الشمس يعم المكان، وكانت النوافذ المفتوحة تنقل لنا أصوات احتجاجات بعيدة بأصوات منهكة. كنت أرى أمامي كتلة الصدأ الكبيرة فوق ورشة الصلب التي كانت تبرق وكأنها مصنوعة من زجاج وليست من صلب أحمر باذنجاني اللون.

كان أول شيء فعلته بعدما حررت الحاسوب من غطائه الواقي هو أني رحت أشمّ ما بداخله بشكل متكرر. كان الشحم في كل مكان، وكان ثمة عَلَق من مادة داكنة اللون لزجة جفت أجزاء منها. ها هو ذا مصدر الرائحة العفنة التي كانت لا تزال ملتصقة بالجهازين رغم أن

حدتها كانت قد خفت كثيراً منذ اليوم الذي أخذنا فيه الحاسبين من المخزن العام.

رحت أضرب بمِفكّ على تلك التراكمات التي أخذت أجزاء منها بحجم الأزرار الكبيرة السوداء تنفصل، وتتساقط متهشمة إلى شظايا ضئيلة لم يكن من الصعب أن نتعرف فيها على آثار «حديقة الحفريات» خاصتنا. لكن، كما قلت، لم تكن التراكمات كلها جافة متحجرة، فقد كانت ثمة شبكة عنكبوتية سميكة داكنة، ومطاطية تغطي مساحة كبيرة احتاج تنظيفها صبرا لا حدود له مع حرصي الشديد على ألا ألحق الضرر بالأجزاء الأساسية للحاسوب.

أمضيت الجزء الأكبر من فترة ما بعد الظهر منهمكاً في تنظيف الجهاز مما أدى في النهاية إلى تبدد حالة التوتر، والقلق التي كانت قد سيطرت على المكان. لا أتذكر من كان أول من تكلم مُذيباً ذاك الجليد، ثم قام رجل ثانٍ، وثالث بخرق حالة الوجوم، ثم شرع الجميع تقريباً في التحدث معاً. كان كل منهم يزهو بثقافته الكيميائية، ويطرحون نظريات، وافتراضات حول مصدر الرائحة الكريهة، التي، حسب رأي البعض، لم يكن المتسبب فيها تداخل التفاعلات الجزئية الطبيعية، أو تلك الاصطناعية.

أما زميلي في الغرفة، خبير السوائل، فقد أكد أن أشياء من كل حدب وصوب استقرت داخل ذاك الحاسوب: مواد حفرية، وكائنات دقيقة نباتية وحيوانية، أي باختصار كل ما هو مصدر للحياة الأولية، وكل ما يمكن اعتباره أصلاً أو نقطة انطلاق للحياة.

ضحك البعض، كانوا يحسبون أنها فكرة شاذة للغاية، ومضحكة

أن تكون كتلة من العفن الكريه، كتلة من العفن الكوني، هي ما تسببت في نشأة العالم بأسره.

كنت مستمتعاً، ومغتاظاً في الوقت ذاته. بل كنت، في الحقيقة، مغتاظا أكثر مني مستمتعاً. فكل ذاك الضجيج كان يشتت أفكاري، ويفقدني ثقتي، وتركيزي. أما أنا فكنت أرغب في الاحتفاظ بهدوئي، فلم أكن ألهو. عندما أردت الاحتفاظ بالحاسبين القديمين كان هذا لسبب واضح، ولبرنامج محدد في رأسي. فقد كان عليّ إصلاحهما وإعادة تشغيلهما بكفاءة بأي ثمن. كان عليّ أن أتعلم استخدامهما حتى أستطيع أن أخلق بمرور الوقت أرشيفاً معلوماتياً للمصنع الخاضع للتصفية.

بوسعي أن أتخيل دهشتك. وإلا فلمَ كان عليّ إذن أن أصنع تلك المعجزة الكبيرة؟ مَن وما كانا يرغمانني على هذا؟ حتى «روزاريا» تطلعت إليّ بذهول حين أخبرتها بمشروعي، وقالت لي: إنك مجنون!

فلتعطني الفرصة لأشرح لك. فبموجب القواعد المتبعة في مثل هذه الحالات، كان على إدارة المصنع أن تُنشئ مكتباً قادراً على تلقي المعلومات الصادرة عن فريق التفكيك، والخاصة بكل قسم في المصنع، ومن ثم تحليلها. وحيث إن الشركة لم تكن مهتمة بأن تتعرف على الأصول المملوكة لها بالضبط، أو كانت مرغمة على التقشف، وتوفير المال (رغم أن لا أحد يعرف من أرغمها ولِمَ) فلم تكتف الإدارة بعدم إنشاء المكتب فقط، ولكنها أفهمتنا صراحة بأنها لا تنوي أن تزودنا بحاسب متواضع ليعمل عليه موظف حريص على العمل. كل شيء كان مُقدراً له أن يسير وفقاً لأسلوب العمل الكتابي التقليدي الصارم: ورق

مخطط، وورق الكربون، وأقلام الرصاص. رغم أن قاعات السينما في «بانيولي»، وضواحيها كانت قد عرضته في تلك الفترة فيلم «2001: أوديسة الفضاء» لـ«ستانلي كوبريك» والذي ظهر فيه ذلك الحاسوب -إن لم تخني الذاكرة كان اسمه «هال»، وكان يتمتع بحاسة بشرية- حتى أنه حينما كان ينبغي فصل الطاقة عنه كان يتوسل قائلاً: لا... لا تتركوني اختفي! يا إلهي! إني أموت، إني أنطفئ، لِمَ تفعلون هذا بي؟

كانت حكايتنا في المصنع ملحمة أيضاً كـ«أوديسية» ولكن دون حاسوب مطيعاً كان أو متمرداً، فقد كانت ملحمة للتردي. وعلى ضوء واقعنا ذاك فقد كانت لي وجهة نظر خاصة: فلِمَ لا نملأ نحن الفراغ الذي تركته الشركة لنحقق ما لم ترد، أو لم تستطع تحقيقه؟

وحيث إني لا أنوي الظهور بمظهر البطل لأنني لستُ هكذا في الحقيقة، فسأقول لك جملة يقولها عني أعدائي الاعتياديون من خلف ظهري لتدرك مغزى حماستي: «إن بوونوكوري وغد حقيقي. إنه يعرف فن انتهاز الفرص، فلا يجد باباً مواربا إلا وحاول التسلل منه».

حين حكيت لـ«روزاريا» ما كانوا يقولونه عني، أتعرف بماذا أجابتني؟ «يا بوونوكوري إني أعرفك جيداً جداً. أنت نهاز للفرص؟ لا لن تفلح في خداعي».

فحسب وجهة نظر «روزاريا»، إن كنت قد فهمتها جيداً كما أظن، فليس لطموحي أية غاية عملية (الترقي مثلاً في العمل، أو الحصول على المال)، بل إنه طموح غايته الطموح فقط، وتحقيق المتعة (أي متعة؟)، متعة بلوغ الكمال (أي كمال؟).

حدث ما لا مفر منه. اضطر ولدا «أرتور سكوديري» إلى التدخل

لإعادة حاسوبه، وحاسوبي إلى الحياة. فقد خرج حاسوبي من عملية التنظيف الشاملة بحالة متردية.

أكانت تلك هزيمة؟ لقد كانت كذلك بالتأكيد لـ«أرتورو». أما بالنسبة إليّ فقد كان وقعها عليّ أقل حدة، فلم أعقد رهاناً مع نفسي حول هذا الأمر.

في البداية أبدى «أرتورو» استياءه مني، فلم يكن ليستطيع أحد أن يمحو من رأسه فكرة أنه كان بحاجة فقط إلى مزيد من الوقت للوصول إلى غايته دون اللجوء إلى أية مساعدة خارجية. لكن، رويداً رويداً، تعقّل الأمر، وتفهمه، لأن ثمار عملنا بدأت تظهر للوجود أيضاً؛ ولأن العمل بات باستمرار أقل ارتجالاً، ولاسيما بعد أن سمح وَلَدَا «أرتورو» لكلينا بأن نتصل بهما وقتما أردنا إذا ما تعرضنا لأي مشكلة (سمحا لي أن أتصل بهما وقتما شئت أكثر مما سمحا به لوالدهما).

في غضون شهرين صار مكتب «أرتورو» يشبه معملاً متطوراً للإلكترونيات. نتيجة للطلب المتزايد علينا من رئيس لآخر في المصنع زادت حاسباتنا إلى أربعة، كان جوف أحدهما مفتوحاً على الدوام، ليعلن، بلا شك، عن الولع الجراحي لـ«أرتورو سكوديري»، بينما كان ولعي ذا طابع رسمي وينصبّ أساساً على البرنامج. بيد أننا في تلك الفترة لم ننجح في أن نوطد من صداقتنا، أكنت أنا السبب في هذا؟ أو كان هو السبب؟ لا أستطيع أن أحدد. كنت مغتاظاً لاسيما من غيرته على ولديه، فقد كان يشعر بالغيرة من أي كلمة تقدير، أو ود منهما لي، وحتى من استعدادهما لمساعدتي وكأنها سرقة ارتكبتها أنا بحقه عن سوء قصد مني.

لقد قلت تواً إننا لم نوطد صداقتنا. يا إلهي! لمَ قلت هذا؟ ليس صحيحاً على الإطلاق، أو، على الأقل، لم تك علاقتنا مبنية على المنافسة، وسوء الفهم فقط. أجل، كان سوء الفهم، والمنافسة حاضرين، ولكن كان بيننا ثمة شعور بالتقدير، والعرفان، وتشجيع كل منا للآخر. وكان حاضراً في علاقتنا أيضاً الحرص على أن يحمي كل منا الآخر، وأن يدافع عنه، حرص بدونه لا يمكن لإثنين أن يظلا معاً لفترة طويلة كانت أو قصيرة.

أخشى أن مَن عمل فقط في مصنع للصلب هو القادر على أن يفهمني؛ وأن يفهم ميلنا إلى التناقض، وطريقتنا المضطربة، والتنافسية في البقاء معاً، وارتباط كل منا بالآخر عبر رابطة لا شيء قادر على تهديدها، أو التأثير فيها، رابطة مقدر لها أن تصمد لأسباب كثيرة، وكأنها مصير غامض محتوم. يزعمون أنه يمكن تبرير هذا الترابط بنوع العمل الذي نعمله، بتوازناته وبالآلة التي تحتل بيننا مكانة خاصة وكأنها ملكة مُتَوجَة، فهي أيضاً لها مراحلها، وأطوارها، ودوراتها، أي أنها، في المجمل، لا تشبه بتاتاً خطوط الإنتاج الصناعية حيث الرتابة، والتطابق يقتلان كل شيء بدءً بالمشاعر، الحب والكره، ويقتلان أيضاً بشكل ما الآلة نفسها، لأنها تغدو بلا شخصية، ومفككة، وكأنها جسد تقطعت أوصاله على طاولة من الرخام، بينما تقوم اسطوانة مشروخة في خلفية المشهد بتكرار سقيم للموسيقى نفسها.

فلنجرب الآن الاقتراب من الفرن العالي! لعل جملة «لا تلعب بالنار» قد وُلدت هنا؟ فالفرن العالي يمثل أولاً تحذيراً بألا نتهاون مع الأشياء الضخمة التي يكفي حجمها الجبار لجعل الجميع يخضعون لها (فليس من قبيل المصادفة أن الآلة تتمتع في مخيلتنا الجماعية بحياتها

الخاصة، ولها سطوة هائلة تفرض على الجميع الانصياع لإرادتها)، فلا أحد يمكنه التصرف أمامها بمفرده. إن العمل حول الفرن العالي يشبه رقصات الطقوس.

فمنذ اللحظة التي يمتلئ فيها دلو الشحن، وحتى لحظة التفريغ، حين يأخذ السائل المعدني في القفز، والتناثر كحمم لزجة حمراء باهرة تفور من جوف بركان، فتسلك مجرى سرعان ما ينشق إلى فرعين، يخرج الحديد من ناحية، والخبث من ناحية أخرى، مثل ما يحدث في أي طلاق، أو انفصال آخر يقع بعد فترة طويلة من الزواج.

أراهن أنك لم تر يوماً عملية تفريغ للصلب السائل، حين تقوم يد العامل بتحريك عصا شعلة الأكسجين لتثقب غطاء فتحة آلة الصب، فتأذن للحديد بالتدفق من جوف الفرن العالي. آه لو تعرف كم فكرت في نقلي إلى ذاك القسم أثناء فترة التدريب التي أعقبت تعييني في المصنع مباشرة. حلمت بأن أكون أنا من يحرك أنبوب الأكسجين وسط فريق من الزملاء الذين يتطلعون إليّ بانتباه وإعجاب شديدين. الحقيقة هي أن وحدة الفرن العالي، بل ربما ورشة الصلب بأكملها، تمثل عالماً مستقلاً يقطنه رجال يؤمنون حقاً بأنهم أتوا إلى هذا العالم لإظهار قدر الروح البطولية المتوارثة الكامنة بداخلهم. في فترة ما كان كبرياء الرجال يمنعهم حتى من ارتداء البزة الواقية؛ فوفقاً للتقاليد والرغبة في التفاخر كان على أولئك العمال العمل بصدور عارية متحلّين بشجاعة أقرب إلى التهور، وباحترام شديد لرؤسائهم، وبروح جماعية قوية راسخة بداخلهم. فالفرد هنا يعمل من أجل الجميع، والجميع من أجل الفرد.

حين قدم مدير شؤون الموظفين الجديد إلى «بانيولي» في عام 1981

كان أحد أول الإجراءات التي اتخذها التهديد بتطبيق عقوبات مالية ضد من يتعمد مخالفة قواعد الأمان: على سبيل المثال ضد من يمسك بسلك المعدن المنصهر المشتعل ويلفّه بحركة بهلوانية، وبمهارة لا داعي لها؛ أو ضد من يستخدم أسنانه، وفمه في القبض على فتيل الزئبق المتفجر بدلاً من الملقاط النحاسي المخصص لهذا، والمضاد للاشتعال.

لهذا إذن لم يكن «بوونوكوري» الخيالي يخشى شيئاً وهو يتحكم بيديه في عصا الأكسجين، ويثقب غطاء فتحة آلة الصب بحركات جريئة للغاية. رغم أن هذه العملية في الواقع لم تكن ربما بتلك الخطورة، ولكنها كانت تبدو كذلك لأنك تصل العالم الخارجي بجوف البركان (تبلغ درجة الحرارة الناتجة عن احتراق طبقات من فحم الكوك، ومواد معدنية بواسطة دفع هواء ساخن من الأسفل إلى ألفي درجة مئوية).

ولكن سرعان ما كان التحفز والحماسة الشديدين يخبوان بداخلي، فإنني، لحسن الحظ، رجل حذر وواقعي. بيد أني سأكون كاذباً إن زعمت أنني لم أؤمن، ولا أؤمن إلى الآن بملحمة ورشة الصلب حتى من منظورها الروحي، والمجازي، بطريقتي بالتأكيد، وبالمواءمة مع الذوق السائد في زمني، وثقافتي.

فلتصدقني بأن هذا لا يُحدث فرقاً على مستوى العاطفة، والانتماء. إن مصنع «إيلفا» الذي يختفي ويتلاشى لا يهمني فحسب بل إن تلاشيه هذا يشملني أيضاً. قلت يوماً إلى صديقي «سكوديري» بينما كانت حالتي المزاجية سيئة جداً: «يجب أن نتعلم أن نُسرِّح أنفسنا أولاً. إن تدمير مصنع فجأة يمكن أن يكون عملية بسيطة يسيرة، ولكن تدمير حضارة، وثقافة، ونظام فكري عقلي ليس بالقدر نفسه من السهولة».

-16-

ذات مساء أخبرت «أرتورو» بأني نجحت في إعداد برنامج جيد للحاسوب لحفظ كافة بيانات عمليات الجرد التي كانت لا تزال مستمرة في المصنع. اقتدته إلى مكتبي، وأجلسته على مقعدي الدوار، وقمت بتشغيل الحاسوب. «فلتنقر هنا!» فنقر بالفأرة على الشاشة. أصدر اللون الأخضر المائل إلى الزرقة للشاشة انعكاسات مائية على وجهه المستدير الذي يشبه وجه سمكة كبيرة للزينة. قال لي «إنه رائع يا فينشيه». حينما شرحت له أن هذا البرنامج لم يكن فقط ثمار عملي أنا وحدي، اكتأب وجهه على الفور، هربت نظراته بعيداً، وكأن لا شيء حوله يستحق النظر إليه. لم يكن ليحتمل فكرة أن وَلَدَيه، ولاسيما «دانييلي»، كانا قد ساعداني في هذا. ثرتُ غضباً عليه، كانت تلك الغيرة تبدو سخيفة لي، وغير منطقية أو مبررة، ولا داع لها.

غير مبررة؟ لعل قدرتي على التعرف على أخطائي ليست مميزة جداً ولكنها أيضاً ليست أسوأ عيوبي. منذ فترة وكان ضميري يؤنبني لأنني كنت ألتقي «دانييلي» دون علم أبيه. كان ينبغي أن تتضح الأمور بشكل حاسم، وكان عليّ أن أخطو الخطوة الأولى. وفعلاً تصارحنا، كانت كلمات قليلة كافية، بعض الشتائم، ثم بعض عبارات الود المتبادلة. كان غروب وردي قد غزا مكتبي بنوافذه المفتوحة على مصراعيها على المصنع الصامت الغارق في سكون مطبق ترتسم عليه علامات هروب شامل. كان تصارحنا مفيداً إلى درجة أننا اتصلنا بـ«دانييلي» و«ماركو» ليقضيا الأمسية معنا: نحن الأربعة معاً في بيتي لتحديد الطريقة التي كنا

ستتبعها حتى نتحكم نحن (إنه مجرد قول فقط) في عملية التسريح.

سنضع المصنع بأكمله في ذاكرة الحاسوب. لست أمزح، إني أعني كل المصنع. كان زملاؤنا في الفريق يصطفون الواحد منهم تلو الآخر ليقدموا لنا بياناتهم. كانوا يأتون كل صباح، فيجلس كل منهم حسب دوره بجواري، أو بجوار «أرتورو»، كانوا يُملون علينا كل البيانات، والأرقام التي كنا نقوم نحن بدورنا بكتابتها على الحاسوب وفق برنامجنا.

صار الأمر كاللعبة، فلا أستطيع أن أصف لك مقدار النشوة التي عمت كل المبنى الملاصق لورشة الصلب حينما بدأنا في توزيع أولى الجداول، والقوائم المُسجل فيها بوضوح، وبالتفصيل كل شيء بتاريخ مولده، وحالته، وقيمته الافتراضية.

كان الكثيرون يؤمنون بوجود ما يُسمى بـ«السعادة الإلكترونية»، ولكن أيقصد الجميع بهذه السعادة شيئاً واحداً فقط؟ في وجهة نظري يمكن إيجازها بكلمة أو بمفهوم واحد فقط: النظام، أو لعله من الأفضل أن نقول إنه السحر الكامن في النظام، والذي طالما اُفتتنتُ وتأثرتُ به. كانت «روزاريا» تقول لي في فترة ما عندما كنت أضبطها متلبسة بعدم النظام: «يا بوونوكوري إن ما بك هو مرض، ينبغي عليك الذهاب إلى المحلّل النفسي». كان أمراً أقوى مني، وحينها كنت أجيبها محدثاً إياها عن بعض النظريات، وأخبرها كيف أن رائحة الموت تغلف كل ما ليس منظماً ومرتباً بدقة متناهية (أما الآن فهي لا تجيبني على هذا النحو وستدرك سريعاً لمَ).

كان ثمة رف شبكي من الحديد معلق دائماً في المطبخ على الجدار،

ومعلق فيه وفق ترتيب دقيق أدوات من كل نوع يمكن لكل أفراد العائلة استخدامها (بالطبع)، ولكن كان على الجميع أن يعيدوا الأدوات إلى مكانها بعد الاستعمال وفقاً للترتيب الذي كنت قد وضعته أنا. كنت قد وضعت بجوار كل خطاف في الرف قطعة مستطيلة من الحديد محفوراً عليها الرقم نفسه المنقوش على يد الأداة. يعني هذا مثلاً أن الأربعة ملاقيط المختلفة الأحجام ينبغي وضعها بالترتيب في الخطافات رقم اثني عشر، وثلاثة عشر، وأربعة عشر، وخمسة عشر. هل تظن أنت أيضاً أن إصراري على ألا يفسد هذا الترتيب، وألا تعم الفوضى على الأقل على هذا الرف المعدني، هذه المرآة الضئيلة للكون، هو أمر متعسف، ومستهجن؟

كانت المرة الأولى التي تشاجرت فيها مع «روزاريا» بسبب ذلك الرف. لم تكن تفهمني. بل إنها في لحظة مّا (كان قد مر على زواجنا سبع، أو ثماني سنوات) راحت تعقد لي محاكمة بعد أن حولت ذاك الشيء إلى أداة اتهام لي. كانت تردد للجميع: «فلتروا كم هذا الرجل مهووس؟ أتعرفون أنه على وشك أن يفقد عقله، ولعله يضربنا أيضاً إن اكتشف أنني أو «أندريا» علّقنا أدواته اللعينة على الشبكة بترتيب مغاير لما قرره هو، أو أننا حركنا شيئاً في غرفته الغامضة المعتمة؟».

سألتها بحدة ذات مساء كانت قد قامت فيه بتمثيل ذاك الاحتجاج المتهكم أثناء حضور بعض الأصدقاء الذين أتوا لزيارتنا: «يا روزاريا أتريدين أن تقطعي علاقتك بي؟ هل سئمت إلى هذه الدرجة من «بوونوكوري» حتى أنك رحت ترتابين في طبيعته، وفي الأشياء القليلة المتوازنة لديه؟ لعلك قد نسيت، إن أبي أيضاً كان يحتفظ بأدواته على

رف مثيل، والويل كل الويل لكل من كان يحاول أن يُغير من الترتيب الذي كان قد وضعه لكل أداة. كان يردد جملة أكررها أنا أيضاً كثيراً مستخدماً كلماته نفسها كان يقول إنه لا يخشى شيئاً سوى الفوضى فهي فقط الوحيدة القادرة على إخافته جدياً...».

حين أنهيت كلامي كانت عيناها تلمعان. كانت أمسية لن أنساها أبداً في حياتي من العناق الحار، واليائس لإنسانين اكتشف كلاهما جوهر الآخر فجأة، ولأول مرة، على هذا النحو، فوجدا أن كليهما يتفهم الآخر، ويلتحم به على كل ما بهما من اختلافات جذرية. للحب وجوه متعددة. إن هذا هو الوجه الفريد، والرائع للمعايشة الطويلة، التي إن كانت ناجحة حقاً فإنها تتحول إلى مشاركة وثيقة في كل شيء. أما اليوم، فقد باتت «روزاريا» هي الحارس الأكثر أمانة، والتزاماً بالنظام الخاص بالرف المعدني، بل صار من السهل أن أخطئ أنا، وأن أسهو عن هذا النظام، أما هي فلا. بل إنني عندما أخطئ فمن المستحيل أن أتملص من توبيخها، فتقول لي دون تهكم، وباقتناع تام: «إنك تعرف أن هذه الأشياء تزعجني. يبدو لي أحياناً أنك تفعلها متعمداً».

أما عن اكتشافاتي الشخصية الخاصة بالحاسوب فيمكننا أن نتحدث طويلاً. بحثت طويلاً في مخزن «هيروشيما» الأقرب شبهاً بصندوق قمامة ككلب ضال يبحث عن قطعة عظم تبقيه على قيد الحياة. كانت تلك اللحظة هي الأكثر يأساً، وكآبة في «حكاية بانيولي»؛ كان يبدو لي أن كل شيء هناك يخضع للقانون الصارم للفوضى. وضعت أنا و«أرتورو سكوديري» أيدينا على ذينك الحاسبين القديمين الباليين وتشبثنا بهما. بالنسبة إليّ أعزف الآن جيداً لِم اخترت الحاسوب.

فلو كان عقلي آنذاك أكثر حضوراً وانتباهاً لركضت أولاً إلى محل بيع الأدوات الكتابية لأبتاع مسطرة، وقلما، وفرجاراً. أتفهم ماذا أود قوله؟ لو كنت أكثر ذكاء حينها لكنت انكببت على كتاب للفلك لأتصفحه (ولم تكن «روزاريا» لتعترض على هذا) أو لكنت درست علم الأقمار، والشموس، والمجرات الممتع، والمسلي للغاية. إن الكون يخضع لنظام ما: فلا يمكن أن يكون كل هذا زيفاً، والرب نفسه لا يمكن أن يكون كله زيفاً.

ليس بوسعي أن أحدد إذا كان النظام الذي يحكم الحاسوب هو ذاته الذي يهيمن على الكون. لقد بحثت عن دوائي في تلك الذاكرة المتواضعة للحاسوب، وسأكذب إن قلت إنني لم أجدها على الأقل بشكل مّا. بيد أني ارتكبت خطأ التحدث كثيراً عنها، حتى في المصنع.

أعترف بأن حمى الحاسوب قد اجتاحتنا، وكان «سكوديري» يبدو أكثر حماسة مني. كنا نعمل حتى ساعة متأخرة، وكنا آخِر من يتوقف عن العمل، هذا أيضاً لأني كُلفت في تلك الأيام بالعمل الذي طالما انتظرته، وخشيته: إعداد برامج مفصلة، وتصميمات لهدم آلة الصب وفي الوقت نفسه إعداد برامج بديلة لتفكيكها في حال صادفنا الحظ السعيد وبغْناها.

كنا أربعة مسؤولين عنها، ورغم هذا فإن «شرف» تخيل الطريقة المثلى لتفكيك (أو هدم) الجزء الحقيقي للآلة –القوس، والحصيرة المتحركة، وقوالب صب المعدن، والختامات– كان حقاً حصرياً لي. خرج عن دائرة اختصاصي كـ«مَلاك للهدم» كل من القطاع الكهربائي، وقطاع السوائل، والرافعات، وبعض الأجهزة الأخرى الأقل أهمية. والحمد لله

كانت سقائف المصنع قد وقعت هي أيضاً خارج نطاق نفوذي.

قمت أنا و«سكوديري» بتقسيم يومنا في العمل إلى ثلاث مراحل مختلفة، ومنفصلة: فكنت أمضي الصباح عند آلة الصب (أما هو فكان في فرن التكويك)، أو كنت أعمل على تصميمات تتعلق بها؛ بعد الظهر، كنت أقوم بتسجيل بيانات الأقسام الأخرى وحفظها (بمفردي أو بالمشاركة مع «أرتورو»)؛ أما المساء، وحينما كنا نشعر فقط بأننا راضون عن عملنا أثناء النهار، فكنا نخصصه للدراسة النظرية، والعملية للحاسوب، وأحياناً ما كان يحدث هذا تحت مراقبة «دانييلي» و«ماركو» اللذين أُصدر لهما تصريحين حتى يتمكنا من دخول المصنع وقتما أرادا.

مع مرور الوقت حدث ما كان يمكن أن يتوقعه أي أحد بل وحتى طفل صغير، ولكننا لم نكن قادرين على التنبؤ به. راحت تسري في المصنع إشاعات مغرضة عنا وعما نبتغيه من وراء عملنا: كانوا يقولون باختصار بأننا كنا سنحصل على أموال من الإدارة من تحت الطاولة، وإن لم تكن أموالاً فستكون بعض المصالح. أية مصالح؟ وجهت هذا السؤال إلى مخبري الخاص الذي ذهبت بصحبته إلى النادي (كان هو من دعاني إلى شرب القهوة هناك لأنه «كان لديه ما يقوله لي»). هز رأسه: وما أهمية هذا؟ قال: «لقد أخبرتك بهذا الأمر لأدعوك فقط لتوخي الحذر قليلاً. أحياناً ما يظن المرء بسذاجة أن العالم كله يحبه...».

***

أفرطت في الشراب في تلك الليلة، ولكني لست بشارب متمرس. حدث لي هذا لمرات قليلة ودائماً للسبب ذاته: الرغبة في التخلص من

فكرة مزعجة. حين يقتنع «بوونوكوري» بأنه ارتكب خطأ ما لم يكن عليه ارتكابه يعاقب نفسه بهذه الطريقة، ويا له من عقاب حقيقي، فالكحول لا تروق له مطلقاً.

ابتعت زجاجة «ويسكي»، وذهبت بها إلى البيت. لم تكن «روزاريا»، ولا «أندريا» هناك. عندئذ شرعت أشرب في هدوء على أمل أن يعودا سريعاً ليجداني لا أزال في كامل وعي. كنت غاضباً من نفسي، ومن الطريقة الغبية، والمتعالية التي تصرفت بها أمام رجال فريق التفكيك دون مراعاة لشعور زملائي الذين لم أتردد في إهانتهم مبخساً من قيمتهم، وقدراتهم في مجال الحاسوب. كنت قد تفوهت بكلمات لم يكن يجب أبداً أن أقولها، حتى وإن كنت في ذروة غضبي، ووجهت لهم لوماً، وتحدياً ما كان ينبغي لي النطق بهما مطلقاً.

وصل «أندريا» أولاً. توجه بسرعة إلى غرفته دون حتى أن يشعر بأن أباه كان يجلس في المطبخ وأمامه زجاجة «ويسكي» وكأس مملوءة. وصلت «روزاريا» بعده بقليل. ولكونها امرأة عملية فلم تنطق بشيء. صبّت لنفسها بعضاً من الويسكي، وجلست بجواري وهي تحدق فيّ وعلى وجهها ابتسامة متهكمة أكثر منها قلقة.

في اليوم التالي أعلنت لـ«أرتورو سكوديري» بأن مرحلة جديدة لي قد بدأتْ منذ ذاك اليوم. لم أقل له أن أحداً بيننا كان يطلق الإشاعات المغرضة عنا، وأنه إن لم يكن يتمنى لنا الموت فعلى الأقل كان يريد بنا شراً. أخبرته فقط بأنني بناءً على نصيحة «روزاريا» فقد قررت أن أُغيّر من طريقة تصرفي، وأنني سأحدّ من ثرثرتي بشكل عام. لن أعرض عملي علنا أمام الجميع. بل وحتى الحاسوب فسأقلل من عملي عليه.

كانت التساؤلات تملأ عيني «أرتورو» حتى أنه كان يبدو مذعوراً. «ولكن هل سنواصل حفظ بيانات الأقسام الأخرى في ذاكرة الحاسوب أم أننا أعلنا الحرب على العالم أجمع؟»

طمأنته بأن لا شيء سيتغير البتة.

بعد مرور بضعة أيام أدرك رجال فريق التفكيك التغير الذي طرأ علينا، وساد توتر يكاد يكون صامتاً متوارياً. كان الجميع ينظر إليّ بنظرات مختلسة يملأها الفضول وأحياناً القلق. «يا بوونوكوري ماذا دهاك؟».

كنت أجيبهم قائلاً: لا شيء مطلقاً، كل هذا جراء آلة الصب فقد استولت على كل ما لديّ من وقت. في الحقيقة كنت قد عدت من جديد إلى التردد عليها باستمرار، فإعداد تصميمات التفكيك والهدم كان بحاجة للكثير من الوقت. كنت ألبث عندها لساعات وساعات محدقاً في شرود في تروسها المختلفة. كان يروق لي أيضاً الاستماع إلى وقع خطواتي فوق الحصيرة الإسمنتية. كنت أتقدم إلى الأمام، وأرجع إلى الخلف بآذان صاغية بينما أضرب بقدمي الأرض بكل ما أوتيت من قوة. كانت خطواتي تمزق السكون الذي كان ينطلق صداه مدوياً وكأنه يحتج. أكانت تلك المرة الأولى التي أسمع فيها وقع خطواتي على آلة الصب؟

آمل أن يشرح أحد لي يوماً أي شيطان شرير ماكر تمكن منا، وجعلنا نود أكثر من أي شيء آخر أن نشارك بأيدينا في هدم المصنع بعد أن أنهكنا أنفسنا في آلاف المعارك لإنقاذه. في المساء، وقبل أن أعود إلى البيت، كثيراً ما كنت أمر على مقهى «سان دومينغو» حيث كان هناك دائماً

مَن يقص أخباراً جديدة وغير عادية عن المصنع، أو حتى عن التسريح ومستجداته. في إحدى المرات راح شاب لم أره من قبل –لعله كان، على أقصى تقدير، في الثلاثين من عمره– يصف لنا عملية التسريح بكلمات واثقة ومقنعة حتى أنه كاد أن يقنعني بروايته. حدد لنا القطع التي كان سينبغي تفكيكها، وبيعها، والجهات التي كانت ستؤول إليها (الصين وتايلاندا والهند..)؛ وحدد أيضاً القطع التي كان من المفترض هدمها، والمباني التي كانت ستُترك على حالها كذكرى لما كان يوماً؛ ووصف لنا كيف أن «بانيولي» كلها سترتعش جراء الديناميت المتفجر. كان يقسم على أنه قرأ كل شيء في وثيقة سرية خاصة بالفريق المكلف بالتفكيك. قال مؤكداً إن كل شيء مدون، وكان يبدو حقاً واثقاً من كلامه. لم يكن شيء صحيحاً في ما قاله، فلم تكن هناك أية وثيقة سرية من هذا النوع، وكان فقط ينقل هراء سمعه بين العمال. ورغم هذا فقد أخذنا كلامه على محمل الجد، حتى أنا أيضاً، رغم أني كنت عضواً في فريق التفكيك، بل إني كنت غارقاً حتى رأسي في أعمال التفكيك. كان المصنع قد تعرض للتدمير مرات لا حصر لها في مخيلة الناس قبل أن يُهدم حقاً في الواقع، حتى أن أناساً كثيرين يظنون أن هذا التسريح سيُذكر دوماً كنوع من التمارين العقلية الكئيبة التي دامت لفترة طويلة حتى صارت اضطراباً عصبياً جماعياً. كم من مرة جمعت فيها الأصدقاء، والأقارب في شرفة مطبخنا لأمثّل لهم موت المصنع؟

يعود ذلك اللقاء في مقهى «سان دومينغو» إلى عام 1993. أذكر هذا التاريخ جيداً ليس فقط لأن عبير زهور البتونيا كان يفوح من المزهريات الإسمنتية المصطفة أمام المقهى، ولكن لأني ما زلت أتذكر الذراعين

الحاسرتين لفتاة كانت تصغي باهتمام شديد إلى الشاب اليافع الذي كان يدّعي معرفته لسر أسرار المصنع. كنت وراء ظهرها وتنبهت فقط في النهاية أنها كانت «مارشيلا» قريبة «رايموندو لوبريستي»، الفتاة التي كنت التقيتها في نادي الشركة بصحبة صديقة لها جذابة أيضاً، رغم أنها كانت أكبر سناً من «مارشيلا» وأكثر منها أنوثة.

تعرفت عليها قبل أن تتعرف هي عليّ، عانقتني كعادتها بحرارة وإثارة هناك أمام الجميع.

-17-

سرنا معاً بتلقائية شديدة نحو نفق «كومانا»، اجتزناه، فوجدنا أنفسنا في الشارع الصغير المزدحم الذي يتجه إلى ميدان «بانيولي». كان المساء قد أوشك أن يسدل أستاره، والمحال قد أنارت أضواءها، ويافطاتها بأضواء متوهجة تبدو وكأنها تزيد كل شيء سعة وعدداً: الحاجيات، والأفكار، بل وحتى الهواء المتردي المنبعث من الأطعمة النيئة، والمطهوة، وغضب أبواق السيارات، والمعروضات المرئية والمسموعة، وحركة المارة.

قالت ما أطيب الجيلاتي! أتحبين الجيلاتي! أجل، ولكنني أفضله فقط في قرطاس من البسكويت. إذن فأنت تحبين الجيلاتي بالبسكويت... بالشيكولاتة؟ وبالكِريمة أيضاً.

كنت قلقاً قليلاً، ماذا سيحدث الآن؟ بينما كنا نلعق الجيلاتي، ودون أن نفقد تلقائيتنا، سرنا بمحاذاة الشاطئ الذي يربط «بانيولي» بـ«بوتسوولي» عبر منطقة «جيرولوميني».

كانت سعيدة للغاية لأننا التقينا، وأكدت لي هذا بصوتها الحزين: «إنني في غاية السعادة». كانت قد فكرت أكثر من مرة في الاتصال بي، ولكنها عدلت عن الفكرة في آخر لحظة.

كانت تخشى أن أسيء فهم طلبها. لم تكن تريد شيئاً في الحقيقة؛ تبادل الحديث فقط مع إنسان قادر على أن يقول لها أشياء منطقية. لقد كانت محاطة بصنوف شتى من الجنون: «كلهم أنذال ميؤوس منهم، بدءاً من أمي، وأخيها «رايموندو»، صديقك يا بوونوكوري».

اتكأنا على السور المطل على البحر بينما كانت قطرات الجيلاتي تتساقط؛ كان ينبغي أن نلعقه وظهورنا محنية إلى الأمام ورؤوسنا معلقة. كانت فتاة جميلة بحق رغم ما بها من قسمات غير منتظمة –كان بعينيها حور بسيط متقطع، وأنفها رقيق مستقيم مع اعوجاج قليل عند مقدمته، وبوجهها انحناءات بارزة ربما بعض الشيء– لعل تلك القسمات غير المنتظمة هي ما كانت تعطي لجمالها رونقاً خاصاً به. أريد أن أقول إن جمالها يظل محفوراً في رأس من يراها وذاكرته. كان قوامها نحيفاً، ولها مؤخرة بارزة كانت تحرص على أن تبقيها مغطاة مشدودة. لم تكن ترتدي حمالة للصدر لتبرز جمال نهديها. ولكن، كانت العينان ما يميز وجهها، ويعطيه مذاقاً خاصاً به، ولاسيما لضوء عنيد لحزن متهكم ينبعث منهما. كانتا عينين واسعتين أقرب إلى العيون الصينية، وكانت «مارشيلا» تميل إلى إغماضهما لاسيما إذا كان من يُحدّثها يتحرك جانباً، فتحاول هي أن تتعقبه بنظراتها المتأرجحة.

سأكذب إن أنكرت أن اقترابها مني لم يصبني بالاضطراب. كنت أشعر بعطرها الطبيعي يفوح من تحت إبطيها الحاسرين، ومن كل جسدها ممتزجاً برائحة البحر، وصخور الشاطئ. لا شيء يوحي بالمضاجعة كما توحي به صخرة بالشاطئ تغطي جوانبها الطحالب. كانت تصيبني بالنشوة. ولكني، لم أكن مستعداً أن أفقد السيطرة على نفسي وأن أُعرّض علاقتي مع «روزاريا» للخطر جراء لحظة ضعف ألمت بي. كانت «مارشيلا» تدرك هذا. بل إنها في وقت مضى سخرت مني مازحة من هذا الموضوع. «لَمِ تكترث كثيراً هكذا بزوجتك؟ إنها ليست فائقة الجمال».

كنت أعرفها منذ ولادتها. كانت أمها تكبرني بسنتين، أو ثلاث على الأكثر. لم تكن في شبابها امرأة يسهل عدم الاكتراث بها، كان لها وهج متأجج، وشخصية طائشة، مفرطة في تصرفاتها تجعل الجميع لسبب، أو لآخر يطلقون الشائعات عنها. أما «رايموندو» فلم يكن يخفي معارضته لما كانت تفعله أخته، وحينما كان يزداد غضبه كان يطلق عليها «نصف العاهرة». كان يسألني أحياناً: هل رأيت مصادفةً «نصف العاهرة»؟ أما أنا فلم أكن أجيبه بشيء مطلقاً. كنت أبغضه بغضاً شديداً عندما يتصرف بهذه الطريقة.

فقدت «مارشيلا» أباها عندما كانت صغيرة جداً. عقب موته، انكشف تماماً الضعف الإنساني لأمها التي لم تستطع مواجهة المأساة على الإطلاق، وانشغلت فقط بالبحث عن رجل آخر يملأ مكان زوجها الشاغر في الفراش (لكن لم يبتعد الخوف عنها أبداً في ما بعد، فيجيء ويروح مثله مثل الرجال الذين تتعرف عليهم، يلبث قليلاً معها ثم يتلاشى مجدداً). أما «مارشيلا» فقد مثّل موت أبيها علامة أبدية في حياتها. كانت تقول إنني أُذكّرها بأبيها. كنت أعترض قائلاً بأن أباها كان ذا شعر أشقر يميل إلى الاحمرار، كان وسيماً وذكياً، وقبل أي شيء آخر كان باله منشغلاً بالآخرين، أي إنه يختلف كثيراً عني. بيد أنها لم تكن تصغي إلى أسبابي. كانت تقول «أي فرق يحدثه هذا؟». فما الفرق إن كان أشقر، وله شارب، ووسيماً، وكان يهتم بالآخرين؟ «ما الفرق؟» وحيث إنها لم تكن تذكر إلا القليل عن أبيها، فقد كان من المستحيل منعها من أن تتخيله مثلي، بقسماتي وصوتي نفسيهما، وأنه كان يتكلم معها بعذوبة كما أكلمها أنا.

كانت فتاة صغيرة عندما أخبرتني بهذا لأول مرة. كانت تبدو آنذاك مقتنعة جداً، حتى أني أذكر أنها أغمضت عينيها الصينيتين بشدة حتى اختفتا في التجويف السحيق لجفنيها. كانت في الوقت ذاته تشد بيديها على يديّ وكأنها تسخر مني. أما «روزاريا» فلم تكن بغريزتها ترتاح لها. كانت تصفها بالغموض، وتردد قائلة: مسكينة تلك الفتاة!... ولكن دون أي دفء في صوتها. في تلك الفترة لم أكن أعرف شيئاً عن حياة «مارشيلا»، ولم تُتح لنا فرص كثيرة لكي نلتقي. كانت صداقتي مع خالها قد اضمحلت واقتصرت على تبادل التحية فقط: صباح الخير، مساء الخير، وكفى. (من ناحية أخرى أظن أن «مارشيلا» كانت قليلاً ما تتردد على خالها، لعل أمها هي من غرست بداخلها الريبة نحوه، فقد كانت الأم تثأر منه، وتطلق عليه «نصف النذل»).

ترعرعت «مارشيلا» وكأنها سجينة داخل قوقعة، ودون عائلة بالمعنى التقليدي، عدا جدتها، أمّ أمها وخالها عامل «الهدم». لكن، ماذا يمكن أن تقدمه الجدة لها أكثر مما هو متعارف عليه في حالة مثل تلك: بعض العطف (لحسن الحظ)، والقبلات، والهدايا في الأعياد، وبعض التنهدات: فلتحكي لي يا صغيرتي كل شيء، فلتثقي بي...

تفوح من العجائز رائحة مسحوق تزيين الوجه، وهذا لا يروق للأطفال. فعادة ما يبغضون تلك الرائحة: أقصد رائحة مسحوق البشرة. قالت لي «مارشيلا» يوماً وكانت قد شبت عن الطوق قليلاً آنذاك: «أراهن أن رائحة مقززة تنبعث مني. فقد كنت عند جدتي وعانقتني طويلاً. كانت مغطاة بمسحوق البشرة».

تحصلتُ بعد مشقة على شهادة دبلوم لا أذكر في أي شيء، ثم

توقفت عن الدراسة. كرّست حياتها للكسل: لقاء الصديقات، وسماع الموسيقى، والملل. انشق صدرها فجأة عن نهدين كبيرين منتصبين. قابلتها يوماً، ولم أستطع التعرف عليها. نادت عليّ بتعبيراتها الماكرة الحزينة: «أنت.. يا هذا».

انتهينا من لعق الجيلاتي. مددت إليها منديلي فقد كانت الشيكولاتة قد خلفّت بقعاً على قميصها، وما إن تنبهتْ إلى هذا حتى اشتعلت غيظاً. كان بداخلها قسوة، وصلابة وكأن هيكلاً معدنياً يقبع وراء قشرة سميكة خارجية تغلف شخصيتها. كانت تشبه خالها على الأقل من هذه الناحية. أرغمتني على أن أبلل المنديل بماء البحر، ومسحت به على صدرها. أدرت رأسي إلى الجهة الأخرى في خجل. كلما كان الظلام يزداد قتامة كان شذى البحر يغدو أكثر قوة وتركيزاً. بدأ صبري ينفذ: لَم كنت هناك؟ لَم لم أكن أفلح في أن أجد الإرادة لأنهي على الفور هذا اللقاء؟ تطلعتْ إليّ بعيون متوسلة. قالت: «أرجوك ألا تتركني هنا وحيدة. إني بحاجة إلى الحديث معك. لا يمكنك أن تتخلى عني أنت أيضاً كالآخرين».

استأنفنا سيرنا نحو منطقة «جيرولوميني» بمحاذاة البنايات المصطفة على الجهة اليمنى للطريق لنتجنب أضواء السيارات المبهرة. كنت أشعر وكأني وقعت في شرك. بالتأكيد ثمة من رآني، وتعرف عليّ معها، أو سيحدث هذا بلا ريب طالما بقينا معاً. كيف سأبرر هذا لـ«روزاريا»؟ ماذا سأقول لها؟ مهما قلت لن تصدّقني. ففي علاقة مثل علاقتنا لا تساهل مع المواقف الغامضة، أو الشبهات، أو الأخطاء، أو الأزمات الدبلوماسية. كل شيء ينبغي أن يكون واضحاً

قاطعاً: إما أسود أو أبيض.

أخذتني «مارشيلا» تحت ذراعها، سألتني بأدب جم: «أتسمح لي؟». لم أجب. ففي موقف مثل هذا كل الإجابات خاطئة، بل سخيفة. أما هي فراحت تتكلم دون توقف عن نفسها، وعن حياتها، وعن الحي الذي تعيش فيه، وعن خالها «رايموندو»، وعن العالم السيئ الذي نحيا فيه، وعن أمها التي رغم بلوغها الخمسين من العمر لا تزال تبحث دون كلل عن رجل تُوقع به.

كنت أصغي إليها بانتباه متقطع. كانت شخصيتها، والعطر الذي يفوح منها يسلبانني تركيزي كل حين، مما كان يفقدني سياق حديثها. عندئذ كانت تخفض رأسها لتبتسم لوهلة لنفسها، وأحسب أنها كامرأة كانت سعيدة لاضطرابي. سألتني إن كنت أوافق على أن نذهب لنجلس فوق صخرة على الشاطئ؟ أليس الكلام أفضل هناك بالقرب من البحر؟ ثم، ودون أن تنتظر إجابة مني، أضافت قائلة: «ينبغي عليك أنت يا بوونوكوري مساعدتي».

«أنا... كيف؟».

قعدنا كما كانت تريد فوق صخرة على الشاطئ. كانت قد أثارت فضولي بشدة. بات صوتها جاداً للغاية، وراحة قبضة يدها اليمنى تضرب على راحة يدها اليسرى. حكت لي أنها كانت قد تقدمت إلى متجر فخم في وسط «نابولي» حيث كانوا يبحثون عن بائعة «ماهرة» و«جذابة». طلبوا منها أن تخضع للاختبار، فوافقت. «هل أنا فتاة ماهرة، وجذابة يا بوونوكوري؟».

قلت لها: «كُفّي عن هذا؟ أكملي كلامك!».

ولكنها أصرت على سؤالها: «ألستُ جميلة؟».

أخذتها من ذقنها برقة، وهمست لها: «إنك رائعة جداً. من يشك في هذا؟».

جعلوها تعمل لأسبوع كامل، أشاروا عليها بما ينبغي أن ترتديه، وكيف تتزين، وأخبروها أن تكثر من ابتساماتها. حثها المدير قائلاً لها: «هيا ابتسمي بشفتيك الممتلئتين، وبأسنانك الناصعة تلك. لا تخفي الأشياء الجميلة؛ بل ينبغي عليك إظهارها. لا يجب أن يبدو عليك العبوس دائماً. أتعرفين مَن تشبهين أحياناً؟ الراهبة التي على وشك أن تدخل الدير». بعد مرور أسبوع كانت «مارشيلا» مقتنعة بأنها قد اجتازت الاختبار. كانت قد ابتسمت للجميع كما كانوا يريدون منها. كانت إيجابية، مشجِّعة، ومهذبة. حتى أن مساء السبت الْتَفَتْ فتيات المتجر حولها ليهنّئْنها: إنك ماهرة، لقد نجحت، سترين أنه سيجعلك توقعين عقد العمل حالاً هذا المساء. كانت على وشك أن تصدق: أيمكن أن يصل غباؤهن إلى هذه الدرجة؟ «يا فينشيه! أيمكن أن يصل غباؤهن إلى هذه الدرجة؟».

أغمضت عينيها الصينيتين من جديد، وراحت دمعتان تسيلان منهما. عندما دخلتْ إلى مكتب المدير كان يهز رأسه كمطرقة الجرس. قال لها مباشرة، ودون مواربة : «إننا نبحث عن بائعة ذات أسلوب أكثر رقة، وأفضل منك مقدرة في التعبير عن نفسها، وأكثر ثقافة».

أصابها الوجوم: كانت المرة الأولى في حياتها التي ودت فيها أن تضرب أحداً، وأن تؤذيه، وأن تراه دامياً حتى قدميه. سألت نفسها ببرود شديد «وإن ضربته بذاك المقص؟». لحسن الحظ، لم تفعل هذا.

خرجت من المكتب، فجمعت حاجياتها بكرامة دون أن تنبس ولو بكلمة، ثم انصرفت.

قالت: «لم أحك هذه الحكاية لأحد. لقد مرت عليها شهور، ولكني احتفظت بها بداخلي كمرض عضال. منذ اللحظة الأولى فكرت أنك ستكون الإنسان الوحيد الذي سأخبره عنها. كنت أحياناً على وشك الاتصال بك على الهاتف. حتى أنني رفعت السماعة، وشرعت في إدخال رقمك. لكني لم أستطع أبداً إكماله. كنت أخجل».

صمتت. كانت أنفاسها بطيئة، ويملأها الانتظار، ولكني كنت مذهولاً إلى درجة تمنعني من الكلام. كان البحر يهدر بين الصخور مؤيداً دهشتي، وعدم تصديقي لتلك الحكاية الغبية، والقاسية في الوقت ذاته.

«أتريدين أن أذهب لأتحدث إلى هذا الرجل؟ وأن أكيل له ما يستحقه من السباب؟».

فتحت عينيها الرائعتين على وسعهما: كنت قد نطقت بما كانت ترغب أن أقوله. كانت «مارشيلا» في الحقيقة فتاة بخيلة في ابتساماتها. أدركتُ هذا في تلك اللحظة عندما أضاء وجهها بأكمله -فمها، وعيناها، وأنفها، ووجنتاها، وجبهتها، وذقنها- فكانت تبدو لي فتاة لا أعرفها.

قالت: «كلا، أأنت مجنون؟ إني لا أرغب في رؤية هذا الرجل أبداً».

لم يكن عليّ أن أفعل شيئاً، لأني كنت قد فعلت الكثير فعلاً حينما أنصت إليها. قالت: «لا أريد شيئاً آخر منك سوى أن تستمع إليّ. لذا فما فعلته يكفيني».

سمعنا من جديد هدير البحر بين الصخور، كان صوت الدوامات أجش وكأنه يصدر عن حناجر متعبة كحناجر العجائز. بات الهواء مشبعاً بالرطوبة وكان الطقس حاراً، أما السماء فكانت تكاد تتفجر بالنجوم التي كانت تبدو مطبقة علينا منذرة ومتوعدة.

كنت غارقاً في التفكير في أمور أخرى حين أخذت «مارشيلا» يدي ووضعتها فوق صدرها.

«ألا تريد حتى أن تداعبني قليلاً؟» همست لي بهذا بكل ما تمتلكه من عذوبة، دبت القشعريرة في أوصالي بينما كانت راحة يدي تلمس نهديها المستديرين، وتشد عليهما رغماً عني.

«كلا، يا «مارشيلا»».

«ولكنك ترغب بهذا».

«هذا حقيقي ولكن كلا».

خلّصت يدي، ولكنها لم تكن مندهشة، ولا مغتاظة. قالت بصوت حان كصوت الأم: «من الواضح أنك تنتمي إلى عصر آخر. لعلك لم تنتبه بعد ولكن العالم يا «بوونوكوري» قد تغير. باتت أشياء كثيرة بلا معنى. إننا نعيش حياتنا يوماً بيوم. نختطف منها ما نستطيع. يا إلهي لو حكيت لك عن حياتي...» ثم نهضت.

بينما كنا في طريقنا للعودة إلى «بانيولي» أخبرتني أنها تتردد على مجموعة من أقرانها تصفهم هي نفسها بأنهم «يائسون». لكنهم فقط يائسون، ليسوا خطرين. أكدت قاطعة: «كلا... أبداً. ليسوا خطرين، على الأقل، إلى الآن. ربما في المستقبل القريب...».

لم تكن غبية مطلقاً، كانت جميلة ونبيهة. إن كان ثمة شخص غبي

فهو بالتأكيد مدير ذاك المتجر اللعين.

***

نمتُ قليلاً أو لم تغفُ عيناي مطلقاً. لحسن الحظ عندما عدت إلى البيت كانت «روزاريا» في الفراش. أفلحت في أن أخلع ثيابي دون أن أوقظها. حينما مددت جسمي تحت الغطاء أدركت أن الأشباح التي كانت تثور بداخلي لم تكن لتسمح لي بأن أغيب ولو قليلاً عن الواقع. في نهاية الأمر لم تستطع «مارشيلا» أن تمنع نفسها ربما من متعة غامضة في أن توقع العقاب بي، وراحت تقص عليّ كيف كانت تقضي بعض الليالي بصحبة رفاقها، وعن غزواتهم أينما وُجدت تجمعات لموسيقى «التكنو» حيث الموسيقى الصاخبة، والرتيبة إلى درجة الملل، وعن «الحاجيات» الأخرى اللازمة لكي يظلوا مستيقظين حتى الفجر، ولاسيما الحبوب المخدرة، والحشيش، والماريخوانا.

كنت سمعت من قبل عن هذا، ولكني لم أتخيل أبداً أن هذه الموضة قد وصلت إلى «بانيولي» و«نابولي» وإلى إقليم «كامبانيا» بأسره[6]. ولَم لا؟ ردّت عليّ «مارشيلا» قائلة: «إن الموضة كما تسميها أنت هي بالأحرى غزو بعض المجموعات من المهمشين للمؤسسات الصناعية القديمة ليلاً رغبةً منهم في «الارتحال» وعدم التفكير في أي شيء آخر. منذ أيام قليلة فقط كنا على سبيل المثال في ريف «كازيرتا» داخل مستودع كبير، ومهجور كالأطلال بين جبل من براميل تنبعث منها رائحة نفط كريهة، أو لعله كان زيتاً معدنياً».

كان الهيكل الصناعي القديم لـ«نابولي» بأكمله قيد التفكيك: لم

(6) الإقليم التي تعدّ مدينة نابولي عاصمة له. (المترجم)

نكن نعرف فقط من أين نبدأ. ففي منطقة «فليغريا» فقط كانت قائمة المصانع التي توقفت مخيفة: مصانع «تشيمنتير»، و«مونتي إيديسون»، و«أوليفيتي»، و«بيريلّي كافي»، و«كانتييري نافالي»، و«نوفوبان»، و«فيرّيري»، ناهيك عن عشرات الشركات الخاصة التي كانت تقوم بأعمال الصيانة داخل مصنع «إيلفا». علاوة على هذا كانت هناك أيضاً مصانع المنطقة الشرقية: «كورّاديني»، و«كوتونييري»، ومصنع التبغ، ومجمع البتروكيماويات...

كم عدد العمال الذين أُقيلوا خلال العشر سنوات الأخيرة في مدينة «نابولي» فقط؟ إنه سر غامض. يمكننا فقط التخمين والافتراض. يستحضر عقلي الآن المصانع الكثيرة التي كانت تعمل، عندما كنت شاباً صغيراً، جنباً إلى جنب مع «إيلفا»، ثم اختفت أو قل نشاطها: مثل «ميكفوند» التي كانت تصنع المكابس لمصانع السيارات إلى جانب مشاركتها في أعمال إعادة البناء الدورية لأفراننا. أما في الميناء فقد كان هناك عدد لا حصر له من الشركات (لاسيما مصانع الأنابيب، والآلات) التي كانت تعمل مع الميناء، وتنتج لنا ما كنا نطلبه منها.

حسب قول «كارلو مارتينيز»، ففي دراسة لم تُنشر أبداً، ولكنها كانت معروفة بين الخبراء المتخصصين في «إيلفا» (إن لم تخني الذاكرة فإن مؤلفها يُدعى «ألفريد مارينييلّو») فإن عدد الأسر في «نابولي» التي كانت تتحصل على دَخْل مباشر، أو غير مباشر من المصنع في عام 1977 يُقدر بحوالي خمسين ألفاً. فإن قدّرنا أن كل أسرة كانت مكونة من ثلاثة أفراد فسيكون لدينا عدد يقدر بمئة وخمسين ألف نسمة فقدوا إن لم يكن مصدر عيشهم الوحيد فعلى الأقل الجزء الأكبر منه.

كانت «مارشيلا» قد اعترفت لي بأنهم أثناء غزواتهم الليلية كان يتسللون كثيراً داخل «إيلفا» ويسرقون كل ما كان يصادفهم، ولاسيما الأسلاك النحاسية. كانوا يتسللون إلى المصنع من جهة البحر. كانوا يقتربون في قلب الليل على متن قوارب كبيرة مزودة بالمجاديف، ويرتدي جميعهم بزات مطاطية مقاومة للماء. «أتشعر يا بوونوكوري بالاشمئزاز مني؟».

ولأنني رحت أضحك ثارت غضباً مني: «أتظن أن كل ما أخبرتك به كان مجرد ترهات؟».

«كلا... كلا».

«إذن».

«لا أدري ماذا أقول لك. فلتتصلي بي كلما أردت! ولتتعقّلي!»

قالت لي وهي تبتعد: أتعقّل؟ ألا تعرف أنه أمر شديد الصعوبة. من السهل نُصح الآخرين بالتعقل في حي مثل الذي نعيش فيه، ثم..

وفق إحصاء عام 1991 كان معدل البطالة بين سكان «بانيولي» يفوق نسبة 42٪. لعله يبدو غريباً أن يأوي رجل إلى الفراش وهو يفكر في تلك الأمور بعدما قضى أمسية مثل التي قضيتها أنا. لكني فعلاً كنت أفكر في بيانات إحصاء عام 1991. يا للخسارة لقد كان حيّاً سعيداً. صحيح أن التراب الأحمر كان قد غزا بيوتنا، لكن، كانت أغلب الأبواب تُترك مفتوحة طوال اليوم، لم تكن تحدث سرقات أو سلب، أو نهب، أو مشاجرات، أو اغتصابات. كان الليل أمناً وسلاماً، والشوارع يضيئها وهج المصنع الأحمر الذي لا علاقة له بالجحيم مطلقاً. كان هناك دوماً من يمر، تارة سريعاً، وتارة بتؤدة، لكنه كان دائماً إنساناً

موثوقاً به. أما الآن، فعلى العكس تماماً، يحدث كل شيء: اعتداءات، وسلب، وسرقات، وحتى أسوأ من هذا. من جانب آخر ظهرت عصابة الـ«كاموزّا».

قبل أن أخلد إلى النوم فكرت فيها ملياً. كان عبيرها لا يزال بأنفي، وكان له رائحة كبريتية، لعلها رائحة الصابون الذي كانت تستعمله، أو لعلها رائحة شبابها؟ كل حين كنت أقول لنفسي: احذر، وابق بعيداً عن تلك الفتاة! فأمر مثل هذا لن يظل هكذا طويلاً، عاجلاً أو آجلاً ستقع، وحينها ستنفتح أمامك أبواب الجحيم على مصراعيها.

قلت لنفسي بأنني لن أراها مجدداً، وأقسمت على هذا. لكنني سرعان ما ندمت، وتراجعت عن قسمي. كانت «مارشيلا» تثير شفقتي، فلم يكن أحد في «بانيولي» يحتاج إلى المساعدة مثلها. في آخر الأمر فماذا كانت لتأخذ مني؟ ماذا يمكن لفتاة مثلها أن تريد من عجوز مثلي؟ بعض الحماية، أو لعلها تود أن توهم نفسها بأني أحميها.

كانت «روزاريا» ترقد بجواري ساكنة كعادتها، كانت تشغل مساحة صغيرة بالكاد وكأنها مجرد ثنية من ثنايا الغطاء على حافة الفراش، بقعة سوداء فوق الوسادة البيضاء. كان الفراش كله لي، رحباً واسعاً كساحة كبيرة مهجورة. لكن، لم يكن هذا أمراً يجعلني أشعر بالطمأنينة مطلقاً، فلم أكن أشعر بتاتاً بالسيطرة بل بنقيضها.

عقب سنة أتى الصينيون في أكتوبر من عام 1994. أقلتهم حافلتان حتى موقع الغرف سابقة التجهيز التي كانت قد خُصصت لهم. كانت الأكواخ تلمع وتبرق تحت أشعة الشمس، وتمتد أمامها ساحة خضراء رائعة تصطف على أطرافها الزهور ليبدو المكان كضاحية من الضواحي الأمريكية الجميلة التي يقطنها أناس ترتسم على وجوههم السعادة، على الأقل ظاهرياً. لم أكن حاضراً وقتها، ولكني تعرفت عليهم في ما بعد في النادي حيث نُظّم لهم لقاء رسمي مع تقنيي، ومديري شركة «ستيل ووركس». كان يوماً طقسه بديع مع بعض الريح الخفيفة. أغرقونا ببطاقات التعارف. فما إن تبتسم لأحد منهم، أو تنطق أمامه بنصف كلمة مثل «good morning» أو «هل كانت رحلتك ممتعة؟» (كانوا قد أتوا جميعهم من «روما» حيث قضوا بها ليلتهم عقب وصولهم من «بكين») إلا وكان يدس يده في جيبه ليخرج منه بطاقته البيضاء الجميلة، حتى أن بعض تلك البطاقات كانت مغلفة بالبلاستيك، أو كانت كتابتها مطبوعة بحروف بارزة (احتفظت ببيتي بكثير منها، لأني من أولئك الذين يحتفظون بهذه الأشياء، لأنها تجسد ذكريات صغيرة لا أود فقدانها، فهي تصحبني بشكل ما في حياتي، أو لأني، كما تقول «روزاريا»، رجل عاطفي).

كنا جميعاً في غاية الإثارة دون أن أدري سبباً لهذا، فقد كان واضحاً أن ذاك اللقاء قد أتى تتويجاً لفترة انتظار طويلة. كانت المجموعة المكلفة بالاستقبال أنيقة، ومتأهبة للغاية، وكانوا يبذلون قصارى جهدهم

ليثبتوا أنهم على قدر المسؤولية الملقاة على عاتقهم. أما النساء فازددن تزيناً أكثر من المعتاد، وكن يرفلن في ملابس لم يرتدينها من قبل. حتى المهندس «لوناردي» كان يرتدي حِلة من الصوف الرمادي القاتم، وكان يبدو وكأنه قد خرج للتو من حانوت الخياط، فضلاً عن أنه كان يتمتع بأناقة طبيعية لم تكن بحاجة مطلقاً إلى ما يظهرها. وقد ارتدى التقنيون الآخرون أيضاً أبهى حللهم، وكان كل منهم يزهو بربطة عنق ذات ألوان صارخة يزينها الذهب، والفضة (أما أنا فقد كنت مختلفاً، فقد أفلحت في أن أقاوم رغبتي في ارتداء شيء مثيل، رغم أني ظللت متردداً إلى آخر لحظة، بينما قميصي الأبيض الثلجي كان ممدداً على الفراش بعدما كوته زوجتي لي). أما «بياتريتشي» السكرتيرة فقد أتت إلى اللقاء وهي ترتدي فستاناً أحمر بحواف سوداء، وتضع فوق كتفيها وشاحاً كبيراً من الحرير تزينه رسومات تنين ذي ألوان زاهية، وأعمدة من الرموز الصينية في أطرافه الأربعة.

حققت نجاحاً يفوق الوصف، حتى أن الوفد بأكمله -يقترب عددهم من خمسين فرداً- توقفوا ليقرأوا ما كان مكتوباً على الوشاح، بينما هي راحت تعرض للجميع رداءها بسعادة لا حدود لها. كانت الكتابة حكمة من حكم «كونفوشيوس»، ترجمتها لي المترجمة الخاصة بهم. لم تكن المترجمة فتاة قبيحة، ولكنها كانت نحيفة بشكل محرج (تكاد تكون بلا صدر) وذات نظرات ثابتة وواثقة، قالت: «إن التأمل بلا كتاب أو معلم لأمر خطير».

علقت متململاً وقلت لها: «إن هذه الفكرة لا تروق لي. إن فكرة أن التأمل بدون معلم هو أمر غير مفيد، بل قد يصبح خطيراً، تُعد بدون

مبالغة فكرة رجعية». انفجرتْ ضاحكة رغم دهشتي منها، قالت: «كلنا بحاجة إلى معلم. فقد أخبرونا، على سبيل المثال، بأنك أنت من ستعلمنا العمل على آلة الصب. فقد أتينا إلى هنا لنتدرب على يد معلم خبير. لعل «كونفوشيوس» كان يقصدك ويقصدنا عندما كتب حكمته تلك» ثم انفجرت مجدداً في الضحك سعيدةً للغاية من نفسها.

أصرّتْ على أن تقدمني إلى رئيس الوفد، مدير مصنع صلب «ميشان» (فلنلاحظ أنه لم يكن المدير العام للمصنع، بل كان مديراً فقط لأحد الأقسام، بل لأهم قسم على الإطلاق). كان يحتسي الشاي بصحبة المسؤولة عن العلاقات العامة لمصنعنا. انحنى لتحيتي وعلى وجهه ابتسامة عابرة كئيبة. أخبرني بأنه والوفد بأكمله متلهفون لرؤية آلة الصب.

سألتهم باندهاش: «فوراً؟».

أومأ بالموافقة. كان صوت المترجمة يكاد لا يُسمع، كان أشبه بحفيف سريع يتزامن مع صوتي، ثم ينتهي بعده مباشرة. بحثت بعيني عن المهندس «لوناردي». ما إن عثرت عليه حتى طلبتُ من المترجمة، ومدير قسم الصلب الصيني أن يمنحاني الوقت للحصول على الموافقة اللازمة.

بينما كنت أعود أدراجي كانت تلاحقني نظرات الفتاة الصينية. أدركتْ أنه تمت الموافقة على رؤية آلة الصب، ولذا فقد ارتسمت على فمها الصارم في أغلب الأحيان نصف ابتسامة. انتقلنا من النادي على متن حافلة، وأعتقد أنه كان صحيحاً أن الجميع كان متلهفاً لرؤية آلة الصب، لأننا ما لبثنا أن دخلنا القسم حتى باتت مشاعرهم ملموسة

وواضحة للعيان، وراحت صيحات دهشتهم وهمساتهم وكل الأصوات التي تعبر عن التعجب تدوي في المكان.

أعترف بأن تلك الأصوات وذاك الرضا زادوني فخراً واعتزازاً. كنت أشعر بنفسي وكأني نحات في معرض ضخم للفنون يكشف عن أعماله، قطعة وراء قطعة، أمام أعين جمهور يمتلئ إعجاباً ونشوة.

عمّ الورشة هدوء مفعم بالدهشة. اكتشفت آسفاً أن طبقة سميكة من التراب كانت قد تراكمت على الحصيرة المتحركة. كانت الآلات تبدو وكأنها أُيقظت فجأة من سبات عميق، وكأن وجود كل أولئك الناس قد أقضّ مضجعها. فكرت أن الآلات ربما تعتاد الوحدة بسهولة، فالأشياء كالإنسان تميل بسرعة إلى التوحش، وإلى تحويل الصمت إلى صدأ، وإلى أسى أيضاً. أخبرت المترجمة بأني أسمح لهم بالصعود فوق الآلة بشرط أن يصطفوا في صف واحد ملتو. اقتدتهم، ورحت أردد: «فلتأتوا من هذه الناحية. لا تركضوا، وعليكم أن تنظروا إلى موضع أقدامكم وحولكم جيداً، عليكم توخي الحذر، وأن تدركوا أن الآلات في هذه اللحظة صامتة، فلا بخار، ولا فولاذ ملتهب، والحصائر آمنة. لكن، في العادة لا تكون الأمور هكذا، بل على العكس تماماً، فالضوضاء تدوي في الرأس، ومن ثم يصبح من السهل فقدان التركيز...».

كنت أتحدث إليهم وكأنهم أطفال، ودون أن آخذ في اعتباري أنهم أيضاً عمال مثلي، بل خبراء في صناعة الصلب إلا في ما يخص تلك التقنية. كانت المترجمة ملتصقة بجانبي تترجم بدقة مرئية شرحي لهم. كانت تعبيراتها متوترة، ولم يعد صوتها كالسابق كالحفيف الرقيق، بل كان سلسلة من الأصوات الحلقية، والتنهدات الحادة. حينما تجمعوا

كلهم عند المنصة عرضت عليهم البوتقة قائلاً: «أترونها؟ إنها ال-بَو-تَ-قة». ترجمت الفتاة ما قلته متهجية الكلمة بالإيطالية. أما هم فكانوا ينظرون إليّ دون استمتاع على الإطلاق، بل بعيون متأملة تقريباً، ومفعمة بالدهشة. قلت، ولكن بود، وبسخرية حنونة: «هيا فلترددوا معي: بَو- تَ - قة». للأسف لم يبتسم أحد، ولكنهم رددوا ورائي كلهم في صوت واحد: «بَو- تَ - قة» ليثبتوا أمامي التزامهم الصارم، بل والسخيف أيضاً بالانضباط. يجب أن أعترف بأن هذه الحادثة أربكتني، فقد شعرت بالخجل لما فعلته إلى درجة أني اتهمت نفسي بأني ممن يحبون اضطهاد الآخرين: يا «بوونوكوري» ماذا ألمّ بك؟ قدمتُ لهم المعلومات الأولية عن عملية إنتاج الصلب.

شرحت لهم بأن البوتقة تصل معبأة بالصلب السائل، ومحمولة بواسطة رافعة متحركة. رفع رجل يرتدي سترة سوداء يده، وتكلم. ترجمت الفتاة ما قاله بسرعتها المعتادة: «ماذا يحدث إن تعطلت منظومة الأمن الخاصة بالرافعة؟».

قلت وأنا أحدق في عيني الرجل: «لا يحدث شيء. ستتعطل الرافعة فقط».

كان رجلاً ضئيل البنية يشبه عنكبوتاً صغيراً بوجنتين ضخمتين، وأنف منغولية مدكوكة، وذقن مدببة. سأل بحدة: «كيف تتعطل؟». كان لديّ شعور بأني لم أكن أروق له كثيراً:

«نجذب عصا التحكم إلى الأسفل».

عقّب قائلاً: «وإن تعطلت عصا التحكم؟» كانت المترجمة تؤيده وكانت نبرة صوتها تحمل العذاء لي.

«لا يهم. ستتوقف الرافعة على أي حال، ولاسيما إذا كان هناك عطل. إنه نظام آلي ذكي. إن حدث خطأ ما فكل شيء يتوقف فوراً».

راح الرجل يهز رأسه، فلم يكن مقتنعاً بتاتاً، قال: «إنك تشرح في عجالة. لا أنوي الإلحاح الآن ولكني سأرجع إلى المسألة لاحقاً».

كنت على وشك أن أسيء معاملته، وأن أجيبه بطريقة متهكمة، ومهينة، ولكني أمسكت نفسي في اللحظة الأخيرة، وكأني أعطيه إنذاراً. لو كان حدث العكس فبالتأكيد ما كنت أنا و«تشونغ فو» لنصير صديقين حميمين كما صرنا في ما بعد، وإلى الآن بصورة ما، فما زلنا نتبادل الرسائل حتى وإن كان هذا على فترات متقطعة تزداد تباعداً مع مرور الزمن (إننا نتكاتب بالإنجليزية، وأظن أن كلينا يستعيرها من أحد آخر).

إن الرجل الحكيم هو من يستطيع تصحيح أخطائه بسرعة: لا أدري من قال هذه الحكمة، ربما لا أحد مطلقاً، ولكن هذا لا يعني أنها لا تتعلق بحقيقة عظيمة (إنها حقيقة عظيمة جداً إلى درجة أنها تبدو سخيفة). لكن إذا كانت تلك الحكمة تنطبق عليّ فلا علاقة لها إذن بـ«تشونغ فو»، لأنه يؤكد أنه شعر نحوي بالإعجاب، والتقدير منذ الوهلة الأولى التي تعرفنا فيها على بعضنا.

ذات مساء تحدثتُ معه عن هذا الموضوع وسألته: «يا «تشونغ فو» أأنت واثق أنك تتذكر جيداً؟». كنا حينها في قاعة الألعاب التي أنشأها المصنع خصيصاً ليُمضي فيها الضيوف الصينيون أوقات فراغهم.

أجاب قاطعاً: «إني متأكد جداً، لكنه يؤسفني حقاً أني أعطيتك انطباعاً مختلفاً. في حقيقة الأمر، نحن الصينيين ننزع إلى إخفاء أفكارنا،

للخجل أحياناً، وللريبة أحياناً أخرى. ينبغي عليّ الاعتراف بأننا مرتابون جدا».

قلت له: «أعرف هذا، فلا يمر يوم إلا ويتأكد لي هذا».

ابتسم بتعبيراته الغامضة التي تشبه قليلاً الغموض المسرحي، والتي كانت جزءاً من إيماءته المعتادة. لم تكن تعبيرات «تشونغ فو» دائماً يسيرة الفهم، حتى أننا نستطيع القول إن له ميلاً خاصاً إلى السرية والغموض. عندما توطدت أواصر صداقتنا، حينها فقط نجحت على سبيل المثال في أن أعي المغزى الحقيقي لابتسامته. ولكي أكون أميناً فقد ساعدتني على هذا «كريستيانا» المترجمة الإيطالية التي وصلت إلى «بانيولي» عقب وصول الوفد ببضعة أيام. عندما يبتسم «تشونغ فو» فإنه كان يعبر عن عدم رضاه، أو عن معارضته، أو قلقه، أي أن الابتسامة التي كانت ترتسم على وجهه كانت في أحيان كثيرة تعبر عن معنى معاكس للمعنى التقليدي والنفسي المألوف لنا، ولكن عليّ أن أقول إنه لم يكن معنى متناقضاً تماماً. فقد جعلتني «كريستيانا» ألحظ بفطنتها النسائية الحادة (كدت أقول الخبيثة) أن «تشونغ فو» حينما كان يبتسم كان يغدو أكثر قبحاً، كان وجهه يتمدد، وترتفع وجنتيه لتغطي عينيه اللتين كانتا تختفيان كهلالين يتواريان خلف تلال جبارة.

فهم أنني كنت أقصد الأسئلة التي كان رجال الوفد يوجهونها لي أثناء لقاءاتنا اليومية لتفقُّد الآلات. كانت الأسئلة دائماً متكررة، أو كانوا يعيدونها من جديد ربما بعد أسبوع من التوقف. في أول الأمر كنت أظن أنهم أغبياء، ثم فهمت بعد ذلك أنهم كانوا ينصبون لي شراكاً حتى يوقعوني في تناقضات، ومن ثم يرغمونني على الاعتراف بعيوب

ربما نكون قد أخفيناها ببراعة عنهم.

كانت القاعة مكتظة ككل مساء قبل العشاء. كان «تشونغ فو» قد دعاني لتناول الطعام مع المترجمة، ومدير قسم الصلب بمصنع «ميشان» «هو كواي ميي». قبلت، رغم أنني كنت عادة ما أتهرب من اتباع طقوسهم في تناول الطعام على خلاف بقية زملائي في فريق الاستقبال الذين كانوا يتبادلون الدعوات معهم باستمرار.

فلمَ كل هذه الأعياد، والاحتفالات، والأفراح، والاستمتاع؟ ليتني أستطيع الإجابة عن سؤال مثل هذا! إن كلمة عيد (في اللغة الإيطالية) كما هو معروف كلمة غامضة يمكن أن تحمل في طياتها معانٍ تعيسة: فيُقال نحتفل بالعيد بمعناه المطلق، والمتعارف عليه، ولكن يُقال أيضاً نقيم العيد لأحد، أو لشيء ما، أي بمعنى إلحاق الأذى به، أو التخلص منه. في ذلك اليوم كنا نقيم بالتأكيد عيداً لشيء ما هناك.

أما بالنسبة إلى الفرح، والسعادة، فنحن نعرف ما يحدث عادة: فلا شيء يثير الشهوة الجنسية كالمصائب. إن الرقص على سطح سفينة على وشك الغرق هي صورة سخيفة بقدر ما هي ضرورية ولا غنى عنها. كان مصنع «بانيولي» قيد التصفية، وشركة «ستيل ووركس» هما من أضفيا رسمياً هذا الطابع الاحتفالي والترفيهي على عملية التسريح. فعقب بضعة أيام من وصول الصينيين قام الطرفان بدعوتهم على عشاء شرفي في فندق «بارادیزو» الواقع في شارع «بيتراركا»، والذي يطل على مشهد رائع (كانت هناك مأكولات، ومشروبات شرقية، ومراوح، وتنانين، وباقات ورود، وأضواء كتلك التي في «بكين القديمة»). بعد العشاء رأى جمع غفير من المدعوين أن تُختتم السهرة في مرقص سيء

السمعة قليلاً في منطقة «ميرجيلّينا»، مما أثار تهكم بعض الجرائد التي راحت تُبرز في الأيام التالية كيف أن البذخ في الاحتفال (رغم إحالة كل أولئك البائسين إلى صندوق البطالة) ووجود كل طاقم إدارة الشركة، وبعض مندوبي مجلس المصنع في حفل العشاء كان أمراً غير لائق.

أتى الرد الصيني على حفل العشاء سريعاً. قاموا بدورهم بإعداد عشاء في صالة الألعاب على مقربة من المكاتب، والغرف الخاصة بهم، وطهوا لنا أطباقاً صينية تقليدية (فقد كانت هناك بعض النساء إلى جانب المترجمة ضمن أعضاء الوفد، ولكن ليس بوسعي أن أؤكد أنهن كن أمهر من الرجال في الطهي). قبيل العشاء نُظِّمت مباراة في الكرة الطائرة بين فريق إيطالي وآخر صيني، ولكننا خسرناها فعلاً وليس بقصد مجاملة الضيوف، أو للترحيب بهم. أعقب المباراة رقص وغناء.

-19-

طيلة عام بأكمله لم أرَ «مارشيلا» سوى أربع مرات فقط، بل أقل، لأن مرتين منها التقينا مصادفة، وعلى عجالة (في إحداهما كانت بصحبتي «روزاريا» التي، لا أدري لِم، كادت ألا تسلم عليها، ثم ألقت عليها التحية، ولكن ببرود شديد).

قبل حلول عيد الميلاد (أقصد لعام 1993) طلبتْ مني أن أساعدها في التخلص من رجل كانت قد سئمته، ولكنه لم يكن يرغب في تركها وشأنها. عقب ستة أشهر من هذا في يونيو لعام 94 اتصلت بي ثانية لأنها كانت مريضة، وكانت تخشى أن تموت، وطلبت مني أن آتي لزيارتها عند أمها.

سأقص عليك كلتا الحكايتين (بكل التفاصيل التي سألتني إياها)، ليس لأنهما مهمتان، ولكنهما مفيدتان جداً في توضيح بعض أوجاع «بانيولي» في خضم مرحلة التغيير الكبرى.

إني لا أحاول التملص من واقعتي الصغيرة عديمة الأهمية مع «مارشيلا». فقد كابدت تلك الواقعة إلى نهايتها، ولا أزال أكابدها إلى الآن، رغم أن «مارشيلا» لم تعد موجودة، ولا تستطيع «روزاريا» أن تفهم بالضبط ماذا حدث ولِم. بيد أني أشعر ببعض الحرج في أن أحكيها، لأنها ربما تتعلق بحكاية وهمية، أو بعلاقة نُسجت فقط بالكلمات، وبالأفكار، وبالهواجس، وبالإغراءات، وبظلال أخرى غامضة لا أعرف عددها، ولكنها تبتعد بمسافة كافية عن الواقع.

كان عيد الميلاد على وشك الحلول عندما اتصلت بي. بدت منذ

الوهلة الأولى مضطربة، وعصبية على الهاتف. كانت خائفة، وقالت إن رجلاً كان يعذبها، وإنه لم يكن رجلاً حسن السلوك، بل خطيراً جداً. أضافت: «لا أعرف ممن أطلب المساعدة. ليس لي أحد سواك». بدت لي صادقة، أو على الأقل، لم أشعر باصطناع في صوتها. قبلت أن أقابلها، وأن أتحدث مع ذاك الرجل لأنذره بأن يتركها وشأنها.

التقينا في اليوم التالي في «جيرولوميني». كان الطقس بارداً، والبحر ثائراً، حتى أن بين الفينة والأخرى كان رذاذ أمواجه يجتاز الصخور ليبلغ الطريق. لكننا كنا اتفقنا على اللقاء في مكان يقع بعد فندق «تيرمي»، حيث يتسع الكورنيش الضيق متحولاً إلى شارع كبير. كانت ترتدي معطفاً أسود ضيقا. عانقتني، وأدركتُ سريعاً أن أحداً ما كان يراقبنا.

همست في إحدى أُذني: «إنه هو. فلتتحدث إليه، ولكن احتفظ دائماً بهدوئك. إنه رجل شرير».

جعلتُه يقترب مني، لحسن الحظ كان شاباً. كان يحدق في طرف حذائه الشبيه بأحذية الجنود، ولم يكن ليرفع رأسه حتى ولو أمرته بهذا وبيدي بندقية مصوبة إلى صدره. سألني ورأسه ترنو دائماً إلى الأسفل: «أأنت رجلها؟».

«كلا».

«إذن فمَن أنت؟».

«كنت صديقاً لأبيها».

«آه... هكذا؟ وماذا تريد مني؟».

«أن تتركها وشأنها».

رفع رأسه لوهلة وهزها، ولكن كانت عيناه خاويتين بلا نظرات،

قال: «لا سلطة لك عليّ. لا قيمة لك عندي».

قررت ألا أفقد هدوئي كما نصحتني، كان يلزم معه الدهاء. كان له وجه رجل غبي، ولا أدري لِمَ صاحبته «مارشيلا»، فقد كان قبيحاً في كل شيء حتى من الناحية الجسمانية. قلتُ له، وقد فقد صوتي الهدوء كصوته أيضاً، فبات قاطعاً حاداً ومباغتاً: «لقد قلت لك إنني في مَنزِلة أبيها».

«ولكنك لست أباها».

«فلتعتبرني أباها: أمن الصعب عليك تخيل أمر كهذا؟ قال لي أبوها قبيل موته: فلتعدني يا «بوونوكوري» أن تحمي «مارشيلا» كلما احتاجت إلى الحماية، فوعدته بهذا... أفهمتَ الآن؟».

لم يجب، ولكني شعرت، لا أعرف كيف، بأن حديثي قد تسلل إلى داخله، ومسّ نقطة ذات حساسية خاصة بعقله. حاولت ألا أترك له فرصة للتفكير، فأعقبت قائلاً: «اتفقنا إذن؟ أستتركها وشأنها؟».

تنهد، وسأل بهدوء واضح: «وإلا؟».

رفعت كتفيّ، وأجبت: «لن تكون هناك وسيلة أخرى سوى الشرطة. فلتفكر إذن في الموقف المُخجل الذي ستقع فيه».

استسلم في النهاية، وقال إنها هي التي ستخسر، فلن يكون بوسعها مستقبلاً أن تكون ضمن جماعته، ثم أضاف: «فلتنتبه! إنني أمتلك جماعة خاصة بي، كلها لي».

ابتسم لي ابتسامة متوعدة. ظل ينظر إلى الأسفل. كانت له لحية صغيرة شقراء بشعر خفيف متفرق لوجه شاب يافع. كان يتحسس لحيته باستمرار، ربما ليضفي قدراً من الأهمية على نفسه، أو لشعوره

بعدم الثقة بالنفس. كانتا عيناه ذواتي اللون الأزرق المائي تبدوان على فترات بيضاويتين، أما وجهه النحيف فكانت تغطيه بعض البثور، وشعره الأشقر اللامع، ربما من أثر الصبغة، كان مجدولاً خلف رأسه في ضفيرة قصيرة.

ساورني شعور فجأة بأني أعرفه وأني رأيته من قبل. إن «بانيولي» حي حبيس بين جدرانه، لذا من الصعب ألا نعرف بعضنا. كنت على وشك أن أنطق باسمه، ولكن شيء ما منعني، لعله خاطر، أو هاجس ما. لم أكن أقف قبالة ممثل عادي لجيل الشباب الجديد في «بانيولي» بعد المرحلة الصناعية، والذي كانت الصحافة تتحدث عنهم في تلك الأيام (ولا تزال تتحدث عنهم إلى اليوم)؛ بل كنت أمام حفيد عزيز لأحد كبار رجال الجريمة المنظمة المحلية، والمشهور باسم ينطبق عليه حقاً «القرش».

كانت شهرة الرجل «القرش» تعود إلى إحدى مراحل المصنع الأكثر حرجا، حينها كانت أبواب المصنع مفتوحة على مصراعيها أمام حثالة المدينة. وبفضل التوظيف غير القانوني، راحت تتشكل في المصنع المجموعات الأولى لأفراد يمارسون كل أنواع النشاطات غير المشروعة. كان «القرش» ابناً لأحد مُدرسي المدارس الحكومية بـ«بانيولي» المرتبط بعصابة «كامورّا». كان يبدو في أول الأمر شاباً هادئاً غير عنيف مطلقاً، بل، على العكس، كان وديعاً، ومنزوياً إلى درجة مفرطة، حتى أنهم أطلقوا عليه أولاً اسم «الأطرش» (ربما لأنه يميل إلى التزام الصمت الماكر كَمَن يتظاهر بأنه لا يسمع ما يُقال له).

بيد أنهم قتلوا أخاه الذي كان يتبع خطى أبيه، وكان يتردد على

جماعات تحترف الجريمة، فقرر أن يثأر له مهما كلفه الثمن. في أحد الأيام ظهر في نادي الشركة بصحبة مجهولين. اختلوا بأنفسهم في طريق معروشة بالكرم كانت خالية وقتها تماماً، وطفقوا يتمتمون طويلاً. كان حارس المصنع قد أبصرهم، لكنه رأى ألا يتدخل، وألا يخرجهم من المصنع، ولبث في ذات الوقت يلاحقهم بنظراته. في اليوم التالي سُمع دوي طلق ناري في وسط «بانيولي». سقط رجل على الأرض مضرجاً بدمائه، ومن ساعتها تغير اسمه فجأة من «الأطرش» إلى «القرش». للمرة الأولى شهد أهدأ أحياء «نابولي» بعينيه الجريمة، وأدرك معنى الثأر.

***

اتصلت بي ثانية في اليوم التالي، كانت ترغب في لقائي مجدداً لتشكرني، ولتشرح لي موقفها. أخبرتها بأنه لم يكن ينبغي عليها أن تشرح لي شيئاً. كنتُ فظاً معها: يا «مارشيلا» إنني مشغول، ولدي عمل كثير عليّ الانتهاء منه، ليس لدي وقت لأُضيعه. لعلها شعرت بالإهانة. همهمت معتذرة، وأغلقت السماعة.

لم أعرف عنها شيئاً طيلة ستة أشهر. على غير انتظار في صباح أحد أيام شهر يونيو التالي عاودت الاتصال بي. استهلت مكالمتها بطريقة مسرحية قائلة: إني يائسة...

«يائسة... كيف؟».

«إني وحيدة، ومريضة، ومكتئبة، فلا أصدقاء لي، ولا أحد يهتم لحالي».

«وأين أمك؟».

«في ألمانيا».

قالت فقط «في ألمانيا» دون أن تخبرني منذ متى ولِم. كان قد قام على علاجها ممرض عجوز أرسله لها «كارلو مارتينيز»، لم يكن طبيباً، ولكنه كان يعرف جيداً بأمرها، وكان مهذباً للغاية، وعلى استعداد لمساعدة أي محتاج، حتى أنها كانت تشعر آنذاك بتحسن على الأقل من الناحية الجسمانية.

أما من الناحية النفسية فمن الأفضل ألا نتحدث عنها...

كنت أعرف الممرض فقد كان أحد النشطاء الشيوعيين، وقد أسس جماعة تطوعية ذات خبرة في المجال الصحي والطبي: كانوا يقدمون المساعدة ولاسيما لعجائز الحي. كان «مارتينيز» يحبه كثيراً، كانا صديقين قديمين تجمعهما أشياء كثيرة مشتركة: ذكريات، وأحاسيس، وأفكار، ونشاط سياسي، وحسرة. كان اسمه «جينّارو أموروزو»، كان ممتلئ الجسم كـ«مارتينيز»، ولكنه أكثر قوة؛ شعره أبيض، ولكن الغريب أن لحيته كانت سوداء، وكانت طبقة خفيفة منها تغطي وجهه دوماً.

بعد الأصيل عقب انتهاء العمل توجهت إلى بيت «مارشيلا». كانت تقطن في مبنى في شارع «ديقليتسيانو» يبعد قليلاً عن حي «كوكيا»، الجيب السكني الذي يخترق أحد جوانب المصنع. من بيتها يهيمن على المشهد الهيكل الرئيسي لمدخنة العوادم الناتجة عن عمليات الاحتراق الخاصة بوحدة التلبيد. لن تتعرض المدخنة للهدم، فقد أُدرجت ضمن قائمة قطع الجحيم التي سيتم الاحتفاظ بها. كانت أعمدة المدخنة تبدو قريبة جداً معطيةً الانطباع بأن بوسعك لمسها بأطراف أصابعك إن أطلت ذراعك إلى ما وراء زجاج الشرفة. استقبلتني كما هو متوقع وهي

ترتدي قميص نوم غير مهندم ولكنه مثير في الواقع: قميص بسيط فوق ملابسها الداخلية. كانت الشقة معبأة بمزيج من الروائح الكريهة التي لا يمكن وصفها والملتصقة بكل شيء فيها، رغم أن الشرفة والنافذة كانتا مفتوحتين على مصراعيهما طوال الوقت. كان شعرها غير مصفف، وعيناها حمراوين كمن بكى طويلاً، وكان يبدو عليها الحرج.

رجوتها أن تذهب إلى الحمام فوراً لتغسل وجهها، وتصفف شعرها، وتتزين، وتتعطر، وتغطي جسدها إن أمكن. «هل لديك روب؟»

أومأت بالموافقة: «ولكن لا تسئ معاملتي!».

أطاعت فوراً. اختفت خلف أحد الأبواب ولربع ساعة تقريباً لم أعرف عنها شيئاً. رحت أنظر إلى ما حولي: كنت فضولياً، أبحث عن أدلة، أو تفاصيل يمكنها أن تكشف لي عن شخصيتها، أو عما لم أكن أعرفه عنها، أو ما لم أستطع تخمينه. كانت غرفتها أكبر قليلاً من ثقب، وتعمها الفوضى العارمة مما يجعل الدخول إليها أمراً مستحيلاً. خزانتها عبارة عن مقعدين متجاورين تتراكم فوقهما ثياب من كل نوع، ملابس داخلية، أحزمة، صدريات، سراويل، وحتى معطف من البلاستيك السميك ذو لون أسود لامع. أما الفراش فكان غير مرتب وصغيراً جداً أقرب إلى فراش فردي متنقل، وملاءاته صفراء باهتة من كثرة استعمالها. كانت أحذية كثيرة للبيت، وللخروج مبعثرة على الأرضية، وكانت صورتان كبيرتان تزينان الجدران. لم تكن صورتين لممثلين، أو لمغنيين مشهورين، بل لمشهدين طبيعيين ريفيين ذَوَي جمال لامع. كانت تلك الغرفة كبحر هائج تتلاطم أمواجه المختلفة الواحدة تلو الأخرى منتشيةً، ومسبحةً بسحر كل ما هو غير مستقر، وسريع

الزوال في هذه الحياة، ما عدا شيئاً واحداً فقط كان لا ينتمي إلى تلك الفوضى.

كان ثمة حوض كبير للأسماك موضوع فوق طاولة كبيرة بين جدارين ليكشف عن طبيعة «مارشيلا». كان كخطاف سفينة بين صخور الشاطئ، رمزاً وعلامة على رغبة في الاستقرار، والتشبث بالمكان، مما كان يناقض، بل ينفي كل الفوضى المضطربة في ذاك الثقب. على مقربة من الحوض كانت ثمة برطمانات مختلفة لأعلاف السمك؛ ومقياس كبير للحرارة داخل حامل خشبي وظيفته الطفو فوق الماء؛ وشبكة خضراء على هيئة إبريق ملتصقة بشوكة بلاستيكية، وحاجيات أخرى. تطلعت إليها وهي تطعم أسماكها وتتحدث إليها، كنت أرنو إليها بنظرة تائهة في ذاك المشهد الذي لم تكن الحياة تتوقف فيه، كان أشبه بخرير متواصل، أحداث متلاحقة تبدو ظاهرياً عديمة القيمة، ولكن إن تحلينا بقدرة تخيل عميقة كانت ستبدو لنا وكأنها تحاكي الحياة بكل عبثها اللامحدود.

كان حوضاً مكشوفاً كبيراً به عدد محدود من الأسماك، ولكنه يتميز ببيئة مائية جميلة غنية بألوانها: ففيه أحجار سوداء مدببة يخترقها نفق معتم، ونباتات لزجة، وسفينة غارقة بالقاع مقدمتها تنظر إلى الأعلى وكأنها مولية وجهها لتصلي. أحصيت الأسماك فكانت سبعاً، بيد أن واحدة فقط منها كانت ذات حجم كبير. كانت حيواناً غريب المظهر، شفافاً وضعيفاً، وكانت الزعانف تنتشر على جسدها كله (الظهر، والبطن، والذيل) فصارت أشبه بمروحة تدور بلا توقف. أما اللون فكان فضياً تتخلله خطوط قاتمة بين الأسود، والبني يصير لونها أقل

قتامة بالقرب من الذيل؛ فمها كان ضخماً ممتلئاً، ويتحرك باستمرار. كانت تبدو وكأنها تُمثل، إنها سمكة ممثلة، أو لعلها شاعرة تقرأ على الأسماك الأخرى أشعارها.

بيد أن الجمهور بأزيائه الحمراء، والذهبية اللون لم يكن يعير العرض اهتماماً ملحوظاً: فتارة يقف ساكناً متطلعاً إلى الشاعر، وتارة أخرى يتسلل مبتعداً في قلب النفق الطويل، أو يختبئ بالقاع خلف النباتات الخضراء الكثيفة، التي لم أكن باستطاعتي من مكانها هناك أن أحدد إن كانت حقيقية أو مصطنعة (أكانت نباتاً حقاً أو مطاطية؟).

حينما أدرت رأسي ألفيتها جالسة على طرف الفراش وقد ارتدت روباً أزرق قاتماً من القطن، وصففت شعرها، وتزينت. كانت قد دخلت خلسة حتى لا تقطع حديثي مع أسماكها، وجلست على فراشها الصغير. كانت تبدو لي أكثر جمالاً مما اعتدت عليه، ربما لفرط حزنها، أو لأن ثمة شيئاً كان يضطرم بداخلها، ويبرق وميضه على وجهها، وفي عينيها. قالت: «لقد أصابتني الحمى من جديد». دنوت منها، وطلبت أن تضع مقياس الحرارة. هزت رأسها رافضة، وأخبرتني أنها قاستها تواً حينما كانت في الحمام. عندئذ اقتربت منها، ووضعت راحة يدي على جبهتها. كانت ملتهبة. قلت لها وقد داهمني القلق: «إن حرارتك ملتهبة».

ابتسمت وتمتمت: «ليست مرتفعة كثيراً». لكنها أضافت بأنها كانت سعيدة لقلقي عليها. أشارت إلى مقعد صغير كانت تستعمله ككمودينو، وطلبت مني أن أجلس بجوارها. قالت: «أتودّ أن أحدثك عن حوض الأسماك؟»

«إنه رائع».

«لقد أثثته بنفسي. أحضرت الأحجار، والحصى، والرمال من بركان «فيزوف». أما الطحالب فبلاستيكية، والسفينة كانت لعبة قديمة ألعب بها في طفولتي. أعرف أنه حوض كبير أكثر من المعتاد حتى أنه يثير الضحك لدى البعض، ولكنه يروق لي كثيراً. إنه يثير مشاعري. إنني امرأة تبكي كثيراً، رغم أن هذا ربما لا يبدو عليّ. إن سفينة بقاع البحر يمكنها أن تدفعني للبكاء إلى درجة اليأس».

أخطأت، وأغمضت عيني حينما راحت تتحسس بطرف سبابتها يديّ المعقودتين حول ركبتيّ. لعل القشعريرة دبت في أوصالي أيضاً. أما هي، فما أن رفعت سبابتها عني حتى هبت تضحك بصوت خافت.

قالت: «هذه هي المرة الأولى التي أدرك فيها حقاً أنني أروق لك. أصحيح، إنني أجعلك تفقد صوابك فعلاً؟».

هززت رأسي في إيماءة ليس لها معنى سوى التعبير عن حرجي.

سألتني بصوت واهن أقرب إلى الهمس: «أتعرف ماذا يقولون عنا؟».

نظرت إليها في جزع: «ماذا؟».

«يقولون إننا عاشقان».

«من يقول هذا؟».

«كثيرون».

«ولكنك تكذبينهم. أليس كذلك؟».

رأيت فجأة على وجهها تعبيراتها الصارمة المعتادة. ألقت برأسها إلى الخلف بقوة جعلت شعرها يفقد هندامه. قالت: «أنا... لا أؤكد ولا

أنفي. إنني لا أهتم مطلقاً بما يقوله الناس».

أحسست بالغضب. شعرت بنفسي وقد وقعت في فخ منصوب في قفص غبي. إني أُستغَل، ويُساء فهمي.

نهضت من على المقعد: «إنك تفعلين ما بوسعك لجعلي أندم على زيارتي لك. من الأفضل أن أنصرف، فلست بحاجة إلى شيء».

انفجرت باكية وكأنني ضربتها، أو ألقيت عليها شيئاً فأصبتها. داهم ظل كثيف «الثقب» فجأة. كان صوتها يبدو لي وكأنه يأتي من مكان قصي، كان خافتاً واهناً. لم يكن صوتاً مُعاتباً، أو متأوهاً، بل هامداً لا حياة فيه. كان الصوت يردد قائلاً: «ليس صحيحا. إني بحاجة إلى كل شيء. إني خائفة يا بوونوكوري. كيف لا يمكنك أن تفهم أني مذعورة؟».

لم يكن لدي خيار. اضطررت للجلوس مجدداً على المقعد الصغير ألملم شتات أفكاري وأفكارها لأصل إلى حقيقة ما.

«لن أقول شيئاً لأؤثّر عليك، أو لإثارة عطفك نحوي. أنا لا أريد عطفاً من أحد. سأسرّ لك بسر عادة لا يُفصح عنه لا لأب أو لعاشق، ربما لصديق فقط. إني أفكر كثيراً في الموت، لاسيما في الأمسيات التي تملأها الوحدة، والكآبة. أُنير هذا الكشاف الصغير: أتراه؟ إنه في الأعلى هناك؟ إنه ينير الحوض كالأضواء على خشبة المسرح أثناء أحد العروض. أعكف على التطلع إلى أسماكي في الغرفة المظلمة، وأفكر في الموت. إنني كحطام تلك السفينة، لقد انتهى بي الأمر في القاع، لقد ابتلعتني عاصفة بَحَرية. لا أصدقاء لي. منذ أن تركت ذاك الرجل المشؤوم ولا أحد يريد رؤيتي، حتى صديقتي الحميمة تخشى أن تظهر بصحبتي».

لم أرها في حياتي يائسة هكذا. «إني لست أباك، ولا عاشقك، إنني صديقك فقط، أو لعلي صديق يعرفك منذ الصغر. بوسعك أن تتحدثي معي عن كل شيء. أتودين الحديث عن الموت؟ لِمَ لا؟ إنه موضوع كآخر غيره في أيام مثل هذه، وماذا بعد...».

لم أكن لأتخيل أبداً أن تأخذ كلامي على محمل الجد. انتصبت واقفة، وراحت تمشي عبر «الثقب» تتحاشى بمهارة سلسلة من الحواجز. كانت تتبع مساراً معتاداً لها ينتهي عند الجانب المقابل لمكان الحوض، تحت رفّ مثبت به مفتاح إضاءة الكشاف الصغير. أدارت المفتاح، فراحت فجأة أشعة الضوء تخترق الحوض رغم أن بقية من ضوء النهار كانت لا تزال عالقة في الأفق وكأنها رماد نهار قد فني محترقاً. كانت حواف الحوض الزجاجي تبرق بشكل خاص. كانت خطوط التحام جنباته مغطاةً بشريط من الصلب المصقول، فما إن تُحرك رأسك ولو قليلاً مُغيراً من زاوية رؤيتك حتى تراه يختطف من الحوض أشعة تتأرجح ألوانها بين الأخضر، والوردي، والفضي.

باتت «مارشيلا» أكثر بروزاً في الظل، وأكثر مطاطية. حين كانت تقترب من الحوض كان جلدها يكتسب ضوءاً وردياً اصطناعياً تماماً، بينما كانت الأشعة تتحطم على شعرها متحولة إلى ومضات ملونة. أشارت إلى نقطة في الحوض. قالت «أترى سمكة «الملاك» تلك؟ إني أقصد تلك السمكة الكبيرة ذات الزعانف الجميلة الشفافة».

مكثت لبرهة أرقب الحوض دون أن أنطق بشيء. شعرت بها تكاد تثور غضباً. في النهاية وبعدما توقفتُ عن الاستماع لخفقان قلبي قلت لها: «إني أرى واحدة تتكلم دونَ توقف».

همست: «إنها هي. لعلك لن تصدق، ولكنها مريضة تحتضر».

قلت لها إني حزين جداً لذلك، وإنني لم أكن أصدق أبداً أنها على وشك الموت بينما أراها جميلة هكذا، ومنتفخة تتكلم في سعادة.

«لعلك تكونين مخطئة؟».

«كلا للأسف».

«أمرضها عضال لهذه الدرجة؟».

«إنه المرض الأكثر بشاعة. إنها لا ترغب في تناول الطعام. أتراها كيف تلهث؟ إنك ظننت أنها تتحدث. إنها لا تفعل شيئاً سوى الاحتجاج. حسب رأي الطبيب البيطري فهي في المرحلة الأخيرة من مرض مميت. لقد تحدثت معه على الهاتف. إني لا أصدق هذا، وأخال أن شيئاً ما قد أهانها بشدة، ولذا فقد قررت أن تترك نفسها للموت. لعلي كنت أنا السبب وراء هذا».

«أنت السبب؟ ما العبث الذي تقولينه؟ إن الأسماك لا تنتحر يا عزيزتي مارشيلا...».

«من قال هذا؟ أعتقد أن الانتحار رغبة تواتي الجميع، حتى الأسماك تحت ظروف معينة. على سبيل المثال، هل سمعت عن ذاك الشاب؟ شاب الكرسي الكهربائي؟».

انتفضت. لم أكن أعلم عنه شيئاً. سألتها: «أي شاب، وأي كرسي كهربائي؟».

ابتسمت «مارشيلا» في هدوء: «أحياناً يخيل إلي أنك تعيش فوق القمر، وليس في «بانيولي»، فوق القمر. إن الجميع يتحدث عنه يا «بوونوكوري». إنك أنت فقط من تجهل الأمر».

لم أجب عليها. كنت أحدق فيها فقط، وقد تجمدت من الفضول. أتت نحوي، لم يكن ثمة داعٍ آخر لتبقى بجوار حوض الأسماك الذي كان يُرى بوضوح، إن لم يكن بوضوح شديد ومزعج، من مكاني بجوار الفراش الصغير. كلما ازداد الظلام حلكة اجتاح ذاك القفص المنير كل الفراغ، وهيمن على كل شيء محولاً إياه إلى مجرد «إكسسوار» له.

عادت لتجلس جواري مجدداً، أحسست بشذى جسدها الساخن الذي كان يلمسني. قالت: «كان يعمل بأحد المقاهي خارج بانيولي. كان نادلاً يقدم القهوة إلى الزبائن. كان عملاً، غبياً، ومهيناً، ولاسيما لموسيقيّ مثله. كانت له فرقته الخاصة وأستوديو للتسجيلات. لكنه لم ينتحر لِهذا. يزعمون أنه قتل نفسه بسبب الحب.. ولكن ما أهمية الأسباب وراء أعمال مثل تلك؟ إن ما يهم هو الحدث نفسه؛ لكن، إن أردتَ، فثمة شيء آخر مهم أيضاً، الطريقة التي انتحر بها، ولاسيما في هذه الحالة. أما الأشياء الأخرى فليست أكثر من مجرد نميمة».

«أتريدين القول إنه صنع كرسياً كهربائياً لكي ينتحر؟».

«بالضبط يا «بوونوكوري». لقد حاول أن يموت بطريقة بطيئة، وبشعة، حتى يستطيع الاحتفاظ بوعيه ليشهد موته إلى اللحظة الأخيرة. يُقال إنه أراد أن يكون مُمثلاً، ومُشاهداً لموته في آن معاً، وأن يخوض التجربة من خارجها، ومن داخلها. كان قد اشترى سلكاً كهربائياً طويلاً، أوصل أحد طرفيه في مفتاح الكهرباء، وأوصل الطرف الآخر بمجموعة من التوصيلات التي ألصقها بجسده المبلل بالماء، ثم جلس على الكرسي، وأدار المفتاح الكهربائي».

داهمني فجأة شعور بالبرد. كنت أفكر في ابني، في ذكائه الهادئ،

والحريص الذي دائماً ما جعلني مُحصناً ضد تلك المخاوف.

لكن من كان بوسعه أن يحسب نفسه آمناً، ومُحصناً في هذا العالم الهش، وغير المفهوم الذي يحيط بنا، وفي خضم ألاعيب كثيرة من الأصفار والتحولات؟ قالت «مارشيلا» ساخرة: «فلتنتبه! إن هذا الشاب لم ينتحر بسببي. لعلك لم تلحظ، ولكنك ترنو إليّ بنظرات امتعاض».

هززت رأسي نافياً بضجر: «متى حدث هذا؟».

«منذ أسبوع مضى، أو ربما اثنين، لا أذكر بالتحديد».

«يا للغرابة! لم تخبرني «روزاريا» بشيء، رغم أني متأكد بأنها على علم بالأمر. إنها تعلم بكل شيء».

«لعلها آثرت الصمت حتى لا تزعجك. أهي مرتبطة بك بشدة؟».

«أظن هذا».

«وأنت تعتمد عليها، أهكذا؟».

فردت ذراعي. عم الصمت في البداية، ثم قالت متظاهرة باليأس: «إذن فلا مكان لي مطلقاً».

كان ينبغي أن تكون حقيقة مأساوية لها، ولكن، لحسن الحظ، كانت تبتسم وهي تكز على أسنانها ساخرة، وتشد على أنفها، وعينيها، رغم وهنها من الحمى. قالت: «إني معجبة بك يا بوونوكوري، ولكن هذا لا يعني أني أحبك. إني أحب فقط حوض الأسماك، إن كان يريحك هذا. أظن على الأقل أني أحبه».

أشارت إلى سمكتها «الملاك» التي كانت لا تزال في مكانها تلهث ساكنة بلا حراك تقريباً بزعانفها الجميلة المفرودة.

سألتني بصوت متألم: «ألا تأسف لذلك الحيوان المسكين؟».

ذكرت لي اسمها العلمي «بيتروفيلوم سكالاري»، وأخبرتني أنه اسم نبيل، لأنه، وفقاً للبائع الذي باعها السمكة، فاسمها يعني «السمكة المُجنحة»، لأن الجزء الأول من الاسم «بيترو» يعني في اليونانية «طيران» فقط، بل إنه يعني «جناح». كانت أمسية طويلة، ومؤلمة. في أحيان كثيرة كنتُ على وشك أن أهم بالانصراف، ولكنني لم أكن أفلح في العثور على القوة الكافية لكي أترجم رغبتي إلى فعل. فما إن كانت تدرك نيتي، أو تلمح في عيني رغبة في الانصراف إلا وسرعان ما كانت تُبدّل من تعبيرات وجهها، فتبدو أكثر انكساراً وكأنها على وشك الانهيار العصبي.

حدث هذا لمرتين، بل لثلاث مرات. في المرة الثالثة راحت تبكي، قالت متوسلة: «فلتنتظر على الأقل حتى أروح في النوم. أعترف لك بأني أخاف من بقائي وحيدة، لم يحدث لي هذا أبداً من قبل».

اعترضت على كلامها بقسوة: «لا أصدق هذا». إنك تريدين إثارة غضبي.

كنت في الحقيقة أصدقها، ولكني كنت أرغب في استثارة رد فعلها، وإيقاظ كبريائها من سباته.

هزت رأسها، وحذرتني مُثيرةً دهشتي بذكائها: «ليست هذه هي الطريقة الصحيحة. إن الوقت متأخر للغاية لكي تعاملني بقسوة. عليك الآن أن تكون رقيقاً معي وإلا ربما تندم على قسوتك. انتظر حتى أخلد للنوم، وانصرف».

استسلمت: «حسناً... ولكن عليك أن ترقدي في الفراش الآن».

خلعت «الروب» بتلقائية شديدة ودون أي احتشام، وتمددت تحت الغطاء.

«أيمكنني أن أطفئ أنوار الحوض».

أومأت بالموافقة. اتبعتُ المسار نفسه الذي سلكته حينما راحت تضيء الكشاف. لبثنا لوقت طويل في صمت. كنت جالساً بجوارها على المقعد الكوميدينو في سكون تام، وأرنو إليها بينما هي راقدة على فراشها مغمضة عينيها. لم يكن الظلام دامسا، فقد كان المصراعان الخشبيان للشرفة مفتوحين، وكان الزجاج مواربا (كانت هي من طلبت مني أن أتركهما على هذا الحال) وكان يتسلل من الشرفة وميض تصحبه جلبة ليلية، ولحسن الحظ كان صخب شارع «ديقليتسيانو» يبدو نائياً: سيارات وتلفازات وأصوات نساء، ورجال، وأطفال.

قالت فجأة: «يا «بوونوكوري» أتدري في ما أفكر؟».

«كلا».

تمتمتْ: «آه... لعله من الأفضل ألا أخبرك».

رحتُ أضحك: «أجل، من الأفضل ألا تقولي شيئاً».

«طابت ليلتك إذن».

«تصبحين على خير».

سرعان ما غطت في النوم، وانصرفتُ أنا متسللاً على أطراف أصابعي. كنت مضطرباً، بل متألماً تملأ رأسي صور محزنة، أهمها صورة السمكة اللاهثة التي كانت تنتظر يائسة موتها. عزمت أمري للمرة الألف على ألا أقابل أبداً «مارشيلا» في ما بعد. كانت تفكر هي أيضاً في الموت، وأنا مثلها أيضاً... و«بانيولي»... وشارع «كامبي فليغريي»...

وذاك الجمع الغفير من الشباب الذين يضحكون خلسة في الأسفل تحت ظلال شجر البلوط...

بيد أني في الوقت ذاته كنت أعرف أنني سألتقيها ثانية، لأننا لا يمكننا التملص من طبائعنا. كنت أدرك أن كل لقاء سيغدو أكثر حزناً من سابقه.

في الصباح التالي تعمدت أن أصل إلى المكتب مبكراً حتى أستعمل الهاتف بحرية كاملة أثناء السكون الصباحي التام (أرقٌ بالليل، ومرارةٌ في الحلق، وصفيرٌ دائم في الأذنين)، وإلا متى كان يمكنني التحدث مع «كارلو مارتينيز» في هدوء، وبتركيز عما كان يجثم على صدري منذ ليلة البارحة؟ يا صديقي العزيز لقد زرت «مارشيلا» في بيتها. لم يكن هناك أثر لأمها. يا صديقي إن هذه الفتاة بحاجة عاجلة للمساعدة، ولكن ليست مساعدة من جانبي، بل إنني أُمثّل مشكلة لها، لعلي أكون المشكلة الأقل خطورة، أو الأتفه، أو الأكثر إثارة للضحك؛ ولكني على أي حال أُمثل مشكلة لها. ماذا تعني؟ ما هذا السؤال يا «مارتينيز»؟ إنني ما زلت شاباً، وكنت صديقاً لأبيها، إنها تضعني في مكانه، ولكن ليس دائماً، وليس هذا كل شيء...إن المرض فكرة جيدة، ولكنها بحاجة لشيء آخر، ينبغي عليك أن تذهب لزيارتها مع زوجتك...

لكن ينبغي عليّ أولاً أن أوضح لك الموقف بصورة أفضل. كانت زوجة «مارتينيز» بالمصادفة قريبة بعيدة لـ«مارشيلا»، كانت ابنة عم لأبيها، ونظراً للفارق العمري الكبير بينهما كان يعاملها وكأنها عمة له، أي إنه كان يُظهر لها طاعة، واحتراماً ورثتهما «مارشيلا» عنه. قلت لـ«كارلو» مُبالغاً إنني كنت مذهولاً لحالتها البدنية، ولإهمالها لنفسها، ولنحافتها، وللإرهاق الشديد الذي كان يبدو على عينيها، ولسوء تغذيتها، حتى أنني عرضت عليها أن أجلب لها طعاماً، لأنه لم يكن لديها شيء تأكله بالبيت، ولكنها رفضت. لقد انزعجتُ كثيراً حينما

عرضتُ عليها هذا، وأساءت فهمي، مما جعلني أتراجع في نهاية الأمر.

اقترحت عليها: «فلأجلب لك على الأقل علبة من الحليب! سأذهب، وأعود فوراً».

كان ردها سريعاً مفحماً: «إني أكره الحليب». ولكي تمنعني من أن أقول شيئاً آخر غبياً، أضافت بأنها تكره أيضاً البسكويت، والشوكولاتة، والخبز، والسمك، والبيض، والخضار.

سألتها بنبرة بين المداعبة والسخط: «والفاكهة؟».

بيد أن عنادها لم يكن أقل من عنادي: «إن الفاكهة بالتحديد تروق لي، ولكن للأسف فقد نهاني الممرض عن تناولها».

حدث هذا عندما كانت مستلقية على فراشها قبل أن تنام.

أنصت «مارتينيز» لي في صمت، وصرامة حالتا دون حتى أن أشعر بأنفاسه، وكأنه أدار وجهه مبتعداً عن سماعة الهاتف. «ألو؟»... استغرق وقتاً قبل أن يجيبني، ثم تمتم قائلاً: «نعم أنا معك».

كان يحدث هذا عادةً عندما كان يتعلق الأمر بـ«مارشيلا»، أو بالشباب عامة، أو بـ«بانيولي» الواهنة خلال الأجيال الأخيرة. طلب مني أن أخبره بالحقيقة إن كانت «مارشيلا» تتعاطى المخدرات.

يا إلهي! ما هذه الأسئلة التي يسألني إياها؟ ثرت غضباً، وضيقاً: «كلا... لا أعتقد مطلقاً يا «كارلو»... مطلقاً. لِمَ تحدثني في هذا الأمر الآن؟ ما أهميته؟ إن الفتاة بحالة سيئة فقط. إنها بحاجة للعون ولا شيء آخر».

واصل صمته كاتماً أنفاسه، ولذا شعرت بحاجة أن أقول شيئاً آخر: «لا أستطيع أن أجزم أنها لم تخض تجربة تعاطي المخدرات. لكن لا

أتخيل أبداً أنها أدمنتها».

كان رجلاً منفتحاً، وذكياً، وكريماً، إلا في ما يتعلق بأمر واحد: الشباب. كم مرة ونحن نسير بشوارع «بانيولي» كان يقف ويغمز لي بعينه، أو يضع يديه المعقودتين خلف ظهره ضارباً بإحدى قدميه على الأرض بينما القدم الأخرى متسمرة في مكانها (كان غالباً ما يعبر عن استهجانه، ودهشته بهذه الطريقة) لأنه ربما لمح فجأة شاباً ما وقد تنكر في ثياب غريبة، أو ربما لأن آخر وضع قرطاً في أنفه، أو لأنه رأى رهطاً من الشباب في العشرينيات من عمرهم، يلوح العنف في تصرفاتهم، وهم يصيحون بشكل غير لائق. كان يقول أحياناً مجادلاً بطريقة غير مباشرة معي: «أعرف أن العيب عيبي أنا إن لم أستطع الموافقة على أشياء كثيرة تحدث، أو لم أتفهمها، بل إني لا أرغب حتى في فهمها إن كانت ستقلب موازين جهازي العصبي رأساً على عقب».

لم أكن أتفق معه في مشاعره تلك، ولكن كيف كان يمكنني أن أقول له إنه مخطئ؟ إن الشباب يثيرون بداخلي الشفقة أكثر من الغضب، ولم تكن مصادفة أنني شجعت ابني دون تردد حينما أخبرني بنيته على الانتقال للعيش في «روما»، بعكس أمه التي أبدت قلقها، وتخوفها من هذا الأمر: «لديك ميزة مهمة وهي أن بوسعك العودة إلى بيتك وقتما شئت إذا ما سارت الأمور على النحو الذي لا تريده. إننا هنا، ولا شيء يمكنه أن يقتلعنا من هذا المكان، شئنا أم أبينا. بيد أني متأكد من أن شخصيتك العنيدة ستجعل الصعاب تنأى عنك. لم تعد «بانيولي» مكاناً ملائماً لأحد ولاسيما لشاب في عمرك».

في تلك الأيام نشرت إحدى الجرائد إحصائيات، واستبيانات كانت

تبرهن على أن الجيل الجديد في الحي كان يرغب في الرحيل للحياة في مكان آخر. كان يُنظر بضيق نفسي إلى «بانيولي» على أنها مكان تعمه المشاكل، والأزمات، وعلى رأسها أزمة البطالة (وفقاً لرأي أغلبية المشاركين في الاستبيانات)، والجريمة (في المكان الثاني بعد البطالة).

أما بالنسبة إلى رجل مثلي قادم من قلب «نابولي» القديمة فـ«بانيولي» كانت أقرب إلى أن تكون قرية. لم تبد لي أبداً من قبل مختلفة، وبعيدة عن أن تكون مدينة مثل تلك اللحظة. بل إنها كانت بعيدة كل البعد عن أن تكون أي شيء، إنها شطر منعزل من الإنسانية، جزيرة دون راية. من ناحية أخرى، لم يكن ثمة داع للتعجب من هذا. كانت «بانيولي» قد توحدت مع المصنع، فما لبث أن اختفى المصنع حتى تلاشت هي أيضاً، باتت عدماً. باتت بلا مستقبل. أيوجد شيء أكثر قدرة على التبخر من الأمل؟ لفترة طويلة كان الأمل يقطن بيت «بانيولي» (بفضل المصنع) ثم هجر فجأة المكان دون أن نعرف عنه شيئاً.

إني ذكرت كلمة الأمل هنا قاصداً بها العمل فقط. فلعقود وعقود كان الشباب يتجهون، لحظهم السعيد، نحو ممارسة أعمال رفيعة المستوى، أو كان ينتهي بهم الحال في المصنع، ولاسيما أبناء العمال منهم. لم تكن الشركة لترغب بأفضل منهم، فابن العامل كان نصف عامل تلقائياً، فالانضباط، والإحساس بالواجب، وأخلاقيات العمل كانت جزءاً لا يتجزأ من طبيعته، وقيمة مضافة إلى قيمته كيد عاملة.

وهكذا نشأت العائلات العاملة التي أرست جذورها منذ نشأة المصنع ذاته: أجداد، وأعمام، وأصهار، وأقارب من مختلف الدرجات، كان اقتفاء آثارهم، وصلات قرابتهم عملاً يتطلب دقة، وإصراراً شديدين

كفيلين بأن يصيبا أي أحد بالدوار.

كم من أسماء بوسعي أن أعددها لك: آل «تاجاني» على سبيل المثال؛ وآل «مارتوني»، و«دي فرنشا»، و«لو بريستي»، وعائلات أخرى كثيرة. كنت أعرف جيداً «جوسيبي تاجاني». كان هو كـ«لو بريستي» يقطن بشارع «كوروليو»: في شقة جميلة تطل على البحر، كان المصنع قد منحها لأبيه الذي كان قد عُين في البداية حارساً، ثم سرعان ما صار مسؤولاً عن الحراسة.

كان جد «تاجاني» حارساً أيضاً. كان قبل هذا شرطياً في «بوتسوولي»، ثم قام أحد المديرين المهمين في المصنع بمنحه تلك الوظيفة، فلم يتردد الشاب آنذاك، وترك سلاحه الميري، وانتقل إلى «بانيولي» القريبة. أظن أن مصنع «إيلفا» حينها كان قد بُني منذ فترة وجيزة عقب «الانطلاقة الصناعية» لـ«نابولي»، أو كما يقول «نيتّي»[7] عقب انتصار فكرة المدينة الصناعية على المدينة السياحية (مدينة الكارت بوستال).

كان «جوسيبي تاجاني» يكبرني، ويكبر «رايموندو لو بريستي» بعشر سنوات، ولكن علاقتنا حديثة تعود إلى أيام تواجدنا معاً في «إيلفا». لقد أُحيل إلى التقاعد في عام 1994. فقد أرغمته الحياة على الانتقال بعيداً عن «بانيولي»، ولم يستطع أبداً أن يرضى بالأمر الواقع، وكان يشكو حاله إلى الجميع. حينما نُظِّمت بمقر النادي حفلة وداع له حضرها الأصدقاء، واتتني فكرة سيئة للغاية، قلت له إن «بانيولي» قد تغيرت كثيراً إلى درجة تجعل من حزنه على فراقها أمراً غير مبرر. تطلع إليّ

(7) تولى السياسي والصحافي الإيطالي فرانشيسكو نيتي (1868–1953) رئاسة مجلس الوزراء في إيطاليا خلال عامي 1919 و1920، فضلاً عن أنه سُمي وزيراً لأكثر من مرة خلال عدة حكومات متعاقبة، وكان أحد أبرز المعارضين للحكم الفاشي في إيطاليا. (المترجم)

بنظرة صاعقة كالبرق. كان ثمة ألم شديد في تلك النظرة، ويعلم الله فقط كيف أنني شعرت فجأة بمشاعره نفسها، وآساه المرير نفسه. إنني لم أُولد هنا، بل إنني أنتمي لأحشاء نابولي (الأمعاء الغليظة منها)؛ ولكن منذ سنين وأنا أتحدث دائماً عن «بانيولي» وكأنه الحي الذي أنتمي له. ليس هذا مجرد قول فحسب (رغم أني في نهاية الأمر كنت كثيراً ما أنأى بنفسي عن انتمائي هذا، ولاسيما خلال مجادلاتي مع «روزاريا»، التي على عكسي تنتمي إلى «بانيولي» أصلاً ونشأة).

في الختام، إنني لن أعيش بعيداً عن هذه الأماكن لأي سبب كان، مهما حدث، ومهما سيحدث. لن أرحل لألف سبب، وسبب غير المصنع: لذكرياتي، ولأصدقائي، ولعاداتي، ولمشاعري... ولأسباب تتعلق بالاعتزاز الذي يُشعرني به انتمائي لكل هذا المزيج الرائع من الأشياء. سأشرح لك. أتعرف ما أول شيء تعلمته هنا خلال حياتي في «بانيولي»، وخلال عملي في مصنع «إيلفا» بين الأدخنة، والأبخرة، بين ضجيج الآلات، وصفير الإنذار؟ تعلمتُ أن خلال حقبة الإمبراطورية الرومانية كانت ترتفع هنا فلل سامقة فخمة، وكان امتلاك واحدة منها في «بايا»، أو في «كوما»، أو في «بوتسوولي»، أو حتى في منطقة «بوسيليبو»، يمثل شرفاً ما بعده شرف للوجهاء، والأغنياء. إنها أرض قليل عليها أن نصفها بالمحظوظة، فهي تطل على البحر الأكثر زرقة بين البحار (على الأقل في وقت مّا)، وتتدفق من جوفها ينابيع عدة للمياه المعدنية، ولهيب بركاني، وحمم، وغازات كبريتية.

فلتصدقني، إني مقتنع تماماً أن قرار تأسيس صناعة للحديد والصلب بـ«نابولي»، وإنشاء مصنع في موقع يتميز بذاك الجمال البركاني، وبتلك

المياه الرائعة كان جنوناً مطبقاً. ولكن كيف لنا أن ننفي أن المصنع والطبيعة قد أفلحا في التعايش معاً لوقت طويل، على الأقل حتى النصف الثاني من السبعينيات، حين صار ذلك التزاوج بين الحي و«إيلفا» أمراً مستحيلاً عقب توسيع رقعة المصنع، وزيادة عدد الآلات به، إضافةً إلى فضيحة الأتربة الحمراء، وكل صور التلوث الشديد الأخرى المنبعثة منه؟

من جانب آخر، لم يكن من السهل إقناع النابوليتانيين أن يتخلوا عن الاستفادة من تلك الينابيع التي لا تُوصف، والتي تذكرها وثائق تاريخية ترجع إلى العصر الإغريقي الروماني (كانت جدتي تعشقها، وتفرط في شرب مياهها مُجبرة إياي، وجدي، وخالي «سالفاتوري» أيضاً على شربها). لكن، ودون الرجوع كثيراً إلى الوراء في الزمن، إنك تعرف أن ثمة كتابا طُبع في «نابولي» في سنة 1668م قام فيه «سيباستيانو بارتولو فيلياترو» بإعداد قوائم دقيقة للغاية، حتى لا نقول مفرطة في الدقة، لكل نبع وفضائله، وفقا للترتيب التالي.

يمكن استهلال الرحلة عبر تلك الحمّامات مروراً أولاً بحمام «بانيو سيكّو»، أو نبع «سوداريو سان جيرمانو» على ضفاف بحيرة «أنيانو»، والذي قال عنه المؤلف «فيلياترو» إن لمياهه «قدرة فائقة كمُليِّن للمعدة، وإنها تساعد على إفقاد الوزن، وشفاء الأمعاء، وتجفيف الجروح العميقة». تقاوم تلك المياه أيضاً النقرس، والاستسقاء، وتيبّس الجلد. أما الحمّام الثاني فهو حمّام «بولا»، ومياهه «تنظف الرأس، وتقوي النظر، وتطهر المعدة، وتعالج القرحة، والطحال، والكبد». في المرتبة الثالثة يأتي حمام «أستروني» ومياهه «تعزز القوة العقلية، وتداوي العيون، والتهابات اللثة، وتقوي الأسنان، وتجفف البلغم، وتعالج

بحة الصوت، وتقوي الصدر وتهدئه، وتفتح الشهية، وتقاوم الغثيان، وخمول الأعضاء، وكل أنواع البلغم».

يقع النبع الرابع بجوار البحر: «عند سفح جبل مونتي بوسيليبو». هناك يتدفق بئر ماء عذب «يرطب المفاصل الملتهبة، والأعضاء المتيبسة جراء الحمى، ويشفي الرئتين، والكبد، والصدر، ويقوي المعدة، ويعالج السعال، والجلد المصاب بالمرض». (لكن لا يُنصح باستخدامها إلى مرضى الوذمة، لأنها ربما يمكن أن تسبب لهم بعض الأضرار).

أما الحمّام الخامس فهو الحمام المُسمى «يوناركا»، ويوجد في وسط «بانيولي»، على أول الطريق المؤدية إلى «بوتسوولي». هناك يقع البحر على اليسار وعلى اليمين: «ثمة حمام يُروِّح عن العقل، ويسعد النفس، ويشفي الربو، ويثير الشهوة، ولذا فهو مفيد للغاية، يعالج الكلى، ويفيد المعدة، والأفخاذ المتسلخة، وينشط الكبد، ويزيد الوزن (كان لا بد من وجود عيب مّا!) ويقاوم شيخوخة الجلد».

وتطول القائمة لتشمل حمام «بالغا»، و«بييترا»، و«كالاتورا»، و«سوبفيني هوميني»، و«سانتا أنستازيا»، و«أورتودونيكو»، وحمام «سولفاتارا» الذي يقع داخل فوهة البركان، والذي يختتم الحمامات الواقعة قبيل حمامات منطقة «بوتسوولي».

أما مياه نبع «سولفاتارا» وأنهاره: «فتهدّئ الأعصاب، وتعالج الدموع، والقيء، وتُبعد الألم عن الرأس، والمعدة، وتزيد الخصوبة، وتُشفي الحمى، وتطهر الأعضاء المصابة بالجرب».

إنها مياه كلها فضائل تجلب غالباً السعادة، وتصحح العيوب، والهفوات التي ارتكبتها الطبيعة بحقنا. حتى إن افترضنا أن «فيلياترو»

غالى، وأفرط في ذكره لتلك الفضائل بأكثر مما تستحقه، بل فلنقر بهذا ونحن مغمضو الأعين، ولنعطِ كلماته حجمها الصحيح، لكن، وفي هذه الحالة أيضاً، ألا يبدو لك أن ما تبقى من فضائل يكفي بأن يجعل النابوليتانيين يتمسكون بإصرار على أن تظل «بانيولي» حماماً ونبعاً، رغم مداخنها، وعوادمها المشؤومة، وصفارات الإنذار؟

حتى أن أبناء «بانيولي» أنفسهم كانوا جميعاً يمارسون تلقائياً أسلوب حياة مزدوج: فأثناء العمل كانوا عمالاً يؤدون واجباتهم، وعقب انتهاء دوامهم كان جميعهم يهرعون، فمنهم من يبتاع السمك الطازج في «بوتسوولي»، ومنهم من يخرج بصحبة فتاته لزيارة حمام «سولفاتارا»، وآخرون يجولون بقواربهم بمحاذاة ساحل الخليج، أو يستحمون في البحر، بينما أصدقاؤهم وأقاربهم يقومون بإدارة أماكن للاصطياف، وحمامات ومطاعم.

أذكر أنني شخصياً كنت أذهب مع عامل آخر كان يعمل معي في حفرة آلة الصب لصيد الأخطبوط من أمام شاطئ المصنع. كان قد مر على تعييني حينها فترة وجيزة، وكان زميلي صياداً متمرساً، وخبيراً، وصبوراً للغاية، وكان يعتقد بأنه في مبارزة مستمرة من المكر، والدهاء مع رخويات البحر التي يقوم باصطيادها. كان يقول بصوت مبحوح من فرط تهديده المتواصل لكل أخطبوط يفلح في الفرار من شبكته في آخر لحظة، وربما بعد أن كاد يُخرجه من الماء: «أتريدون أن تتلاعبوا بي؟»، ثم كان يضيف بعدها: «سأُريكم الآن أيتها الحيوانات الحقيرة. الآن سألقنكم الدرس». ثم يبدأ النزال مجدداً.

كان يكبرني بأعوام قليلة، ولكنه كان متزوجاً، وأباً. كان يمتلك قارباً

صغيراً راسٍ في خليج «كوروليو»، حيث كان يعرف الجميع هناك. حينما كان الصيد وفيراً كان أحد أصحاب المطاعم هناك يبتاع منه أخطبوطاته. خرجت معه لثلاث مرات، وكنا نلبث بالخارج لساعتين فقط، ثم عَزَفت عن مصاحبته، فقد أدركت أنه كان يدعوني معه فقط لأنه كان بحاجة لمن يساعده في الصيد، ويصدر إليه الأوامر. بيد أني لم أكفّ عن التردد على المياه التي تفصل منطقة «نيسيدا» عن المصنع. كنت أنا أيضاً قد بدأت في توطيد صداقتي مع بعض الأشخاص في خليج «كوروليو»، لم تكن كلها صداقات دافعها المصلحة، رغم أني كنت قد توددت إلى رجل يمتلك قارباً كبيراً للصيد مزوداً بمجاديف، وبمحرك خارجي صغير جداً. كان رجلاً في الخمسين من عمره وكان يقول عن نفسه بأنه صياد، ولكن لم يكن أحد يعلم حقاً عمله. سألته يوماً إن كان يقبل بأن يؤجر لي قاربه فلم يبد اعتراضاً.

«أُعرفك بأن أحداً آخر سيكون بصحبتي».

هز كتفيه «أهي فتاة؟».

قلت «إذن لقد عرفتَ، على افتراض أنها ستأتي!».

كنا في نهاية شهر سبتمبر، ولكن كانت الشمس ملتهبة في الرابعة عصراً وكأننا في منتصف الصيف. كان البحر ساكناً وله لون قاتم لا يمكن تحديده، فتارة تتلون بقع كبيرة منه باللون البنفسجي وتارة أخرى باللون الأزرق الزيتي الجميل. كنت أنا و«روزاريا» على وشك الزواج، لكن لم تكن بيننا بعد تلك الحميمية الكاملة القادرة على أن تمحو أي مسافة تفصل بيننا. أقصدُ حميمية المضاجعة، والرغبة العاقلة، والمجنونة في الوقت ذاته في تملك الآخر:

عندما اقترحتُ تلك النزهة عليها أدركتْ سريعاً غرضي منها. وصفت لها القارب بدقة شديدة، وكم كان كبيراً، ومريحاً، وآمناً، ومضيافاً. قلت لها متعمداً: «ولاسيما أنه قارب مضياف، ودافئ. إنه مخصص للصيد، ولكن يمكننا أيضاً الجلوس على راحتنا، أو النوم، والاضطجاع بقاعِهِ على طبقة ناعمة، وثيرة من المطاط بينما يهدهدنا موج البحر. أتفهمين ماذا أود قوله يا «روزاريا»؟ يهدهدنا موج البحر...».

بينما كنتُ أتحدث كانت تغمز لي بعينها وهي غارقة في الضحك. كانت تومئ بالموافقة، وتهز رأسها، وتشير إليَّ بيدها منذرة، ومتوعدة. في نهاية الأمر ذهبنا وكلانا يدرك ما كان سيحدث. حينما بلغنا عرض البحر أطفأت المحرك، فاهتز القارب قليلاً. كانت «روزاريا» عند المقدمة، وأنا في المؤخرة. رمقتني بنظرة بلا انفعال، راحت تخلع ثيابها. كانت عيناها مبتلتين تماماً والدموع تسيل خطوطاً على وجهها (ستقول في ما بعد، وطوال حياتنا معاً، بأنها لم تبك أبداً في ذلك اليوم، وأن هذه الدموع هي اختراع غبي، بل كذبة اختلقتها أنا).

ضاجعتها. بين الحين والآخر كنت أرفع رأسي لأتأكد أن كل شيء هادئ في الجوار. كانت المراقبة تدوم لبعض الثواني أكثر مما ينبغي حتى أتطلع إلى قمم مبان المصنع اللامعة وورشة الصلب بمداخنها، ودخانها الذي كان يمكن رؤيته آنذاك قبل بناء الحصيرة المتحركة (ستُبنى بعد هذا بوقت طويل، حوالي عشر سنوات، أي في عام 1984). كنت أعمل هناك، وكانت هناك حفرتي عند آلة الصب. لم يكن من السهل رؤيتها من تلك المسافة، ولكني كنت قادراً على التعرف عليها. بل إني حاولت أن أريها لـ«روزاريا»، رفعتُ في الهواء نصفها الأعلى العاري، ووجهت رأسها

ناحية ورشة الصلب. كانت تضحك من قلبها وتقول: «أمِن المعقول أنه حتى في لحظة مثل هذه لا تستطيع أن تكف عن التفكير في آلة الصب، وفي حفرتك هناك؟ فلا قيمة لي إذن».

يا إلهي! كم كانت قيمتها غالية لدي!

***

نجحت عائلة «لو بريستي» في بلوغ مكانة رفيعة أيضاً. إن أصولها تكاد ترجع إلى زمن تأسيس المصنع، لكن ما يدعو حقاً للدهشة هو انتشارهم الأفقي المتغلغل فيه. فقد كان هناك عمال من آل «لو بريستي»، وموظفون «لو بريستي»، بل وحتى مديرين على الدرجة المتوسطة من آل «لو بريستي»: أعمام، وأحفاد، وأبناء عمومة، وأخوات، كل منهم يتبعه بالطبع أصهار، وأقارب آخرون، ولذا فقد كنا نعتبرهم بمثابة قبيلة. وحتى النساء أسهمن أيضاً في نمو «إيلفا» (أقصد بطريقة بسيطة، وساخرة قليلاً): لأنهن كنّ يقمن على رعاية الأطفال في المخيمات الصيفية التي كان ينظمها المصنع.

كان عم «مارشيلا» «رايموندو» هو آخِر حلقة باقية في المصنع من سلسلة آل «لو بريستي»، بل كان آخر من ينتمي لتلك السلالة على الإطلاق. حتى هو نفسه كان يذكر هذا بطريقته الفظة، والساخرة معاً: «ليس لي أبناء، فلم أرغب بهم. كأن الحلقة تضيق لتنغلق. فلقد وُلد آل «لو بريستي» والمصنع معاً منذ ما يقرب من مئة عام، والآن تتوفاهم المنية معاً أيضاً. إن هذا هو حقاً ما يمكن أن نطلق عليه «المصير المشترك»!».

إنه يعمل في فريق الهدّامين التي يقودها «نيكولا مارتوني»، والذي يُعتبر نموذجاً آخر لعائلة على وشك الانقراض. كان لكليهما شخصية

صلبة، مع فرق واحد هو أن الأول، «رايموندو»، كان أكثر انفتاحاً على الآخرين، وأكثر فظاظة، بينما الثاني، «مارتوني»، فكان أكثر انغلاقاً، يتكلم قليلاً، وله عينان زرقاوان باردتان كالجليد يصعب للغاية قراءتهما.

لكل منهما حكاية طويلة، بل رواية حافلة بالمفاجآت. لا أريد التحدث عنهما. فكيف لنا أن نعقد محاكمات نحكم فيها على سلوك رجال على متن سفينة توشك على الغرق؟ فلكل منا غرائبه، وكل منا يميل لأن يتصرف بطريقة مخالفة لما اعتاد عليه، والنتيجة هي أخبار تتناقلها الألسن: ألديكم أخبار؟ أجل، إن «لويجي» قد فقد صوابه... و«فرانشيسكو» قد تورط في مشاكل مع زوجته... أما «جينّارو» فقد رحل إلى «تايلندا»، و«ألفونسو» استقر به الحال نهائياً في الهند...

كان هذا أقل ما يمكن أن يحدث. لقد تفجرت كل المشاكل المتراكمة منذ زمن؛ وانفجر كل ما حسبناه قد صمت للأبد. سمع كل منا فجأة بداخله صراخ آلاف صفارات الإنذار، كما يحدث في أفلام الحرب.

كان لـ«رايموندو لو بريستي» مثله مثل «نيكولا مارتوني» أصدقاء قليلون، ليس لأنه لم يكن يعيش وسط الناس، بل على العكس، ولكن كان أغلب المحيطين به يكنون له البغض، وعدم التقدير. بيد أن «رايموندو» رجل ثرثار يميل إلى المبالغة، والكذب، فضلاً عن أنه زير نساء، ويتفاخر بعلاقاته مع أناس على مستوى عال، وهذا ما جعله يحظى ببعض القبول بين الناس. حتى فترة قليلة مضت كنت أعتبر نفسي أحد أصدقائه. لا أظن أن الصداقة تقوم على توافق في الطباع وفي وجهات النظر، كما أنني لا أصدق أيضاً أن اختلاف الرؤى يمكن

أن يمثل بدوره قاعدة للصداقة.

أنا و«رايموندو» نمثل عالمين يبعد كل منهما عن الآخر إلى درجة التناقض التام. إنه يرى عكس ما أراه أنا في كل شيء تقريباً. حينما كنا شابين كان هذا التناقض بمثابة فرصة للحوار وللنقاش، مما كان يمنحنا شعوراً وهمياً بقوة علاقتنا. ثم رويداً رويداً صار التناقض ذريعة للصمت، إن لم يكن حافزاً لكي يتحاشى كل منا الآخر. لم يتبق من هذه العلاقة سوى الطابع الرسمي لها: تصافح حميمي، وتربيت على الكتف أحياناً، وبعض الإطراء الزائف (كيف حالك أيها الرجل الهمام؟) وبعض التعبيرات الخادشة للحياء التي يهمس بها في أذني (سأقولها صراحةً فقد كان «رايموندو» وغداً صرفاً).

إني لا أمارس النميمة، بل إني كنت لأتحاشى إخبارك بهذه الأمور إن لم تكن مفيدة في إيضاح ما يطرأ من تحولات في حياة كل الحي، وحياة كل منا. إنها، على سبيل المثال، تسلط الضوء على علاقتنا بالماضي، وعلى قدرتنا وتصميمنا على ألا نعيش هذا التسريح وكأنه قطيعة نفسية وأخلاقية أيضاً مع كل ما مر بنا، ومع كل تاريخنا. إلا أن الشباب يميلون تحديدا إلى إنكار هذا التواصل مع الماضي. فما لبث أن أغلق المصنع أبوابه حتى ضاعت هباء الرياح أُسَر، وحكايات عائلية. وبعد أن تبدد أمل إيجاد فرص عمل أخرى، صار الناس لا يرغبون في سماع أي شيء عن تلك الملحمة القديمة. يزعمون أن المصنع لم يكن سوى جحيم، وخداع، لذا فمن الأفضل نسيانه تماماً وإلى الأبد.

يُقال إن النادي أيضاً سيلقى مصير المصنع نفسه: الهدم. لم أكن أبداً كثير التردد على «عش الذكريات ذلك»، ولكنني أعتقد في الحقيقة أن

من العار إزالته، فما الإزعاج الذي يسببه لهم؟

عندما ستحين ساعته (إن كانت ستحين حقاً) لن أذرف الدمع عليه. إن لم أذرف دمعة واحدة على آلة الصب فلمَ ينبغي عليّ أن أبكي على النادي؟ أحد آخر في مكاني كان لاشك سينتحب، وكان ليعيش الأمر وكأنه مشهد ختامي قاس، وصعب يكشف عن خطة كبيرة لمصادرة أخلاقية، ومادية. أحد آخر غيري كان ليحلم طويلاً بالشاطئ القريب من الجسر الجنوبي، والبنايات الأحادية الطابق بقاعاتها، وبشرفاتها، وبمكاتبها.

لا يعني هذا أنني لن أحلم بكل ذلك. بل، ولكي أكون أميناً، فأنني أحلم به منذ الآن. حين أحلم بهذا المكان فكأنني أحلم ولو قليلاً بنفسي، بماضيّ البعيد، وبشبابي المبكر. حينما كنت في الثالثة أو الرابعة عشرة من العمر، لا أذكر بالتحديد، كنت أجيء إلى «بانيولي» منذ زمن ليس بالقصير لقضاء الصيف مع خالي، وأجدادي لأمي. كان «رايموندو لو بريستي» هو أول من حدثني عن نادي شارع «كوروليو». كان النادي حينها مُخصصاً فقط للموظفين ذوي الدرجات العليا، أما العمال فكانوا يلتقون في منفى بعيد في ميدان «بانيولي» في أحد مراكز «هيئة رعاية العمال»، حيث كانت هناك طاولة للعب البلياردو، وبعض الطاولات الأخرى للعب الورق. لم تكن هناك أي علاقة بين المكانين: فكان نادي شارع «كوروليو» يتجاهل ببساطة وجود مركز التقاء العمال مع الحرص كل الحرص على ألا يجتاز أبوابه كل مَن ليس على الدرجة الوظيفية الموائمة.

كان «رايموندو» شاباً أكثر مني دهاء، وطمعاً، وخبرة، إضافة على

أنه يكبرني ببضع سنين. كان يقطن بفيلاّ «فيرّي»، التي اختفت منذ فترة. كانت شقته تطل مباشرة على البحر، وعلى النادي الذي كان يمكنه دخوله رغم أنه كان ابن عامل بسيط، لأنه كان مثلي له خال موظف على درجة عالية. تعرفتُ على «رايموندو» في ميدان «بانيولي»، حينها لم يكن يفعل شيئاً سوى الحديث عن ناديه، وعن السيدات الجميلاًت ذوات الفساتين عارية الصدر التي تملأ جنباته، وعن حفلات العشاء، والرقص التي كانت تنعقد باستمرار، ويحضرها مدعوون من كافة أرجاء «نابولي»: ضباط كبار، ومديرون صناعيون، وقيادات سياسية، ومديرو بنوك.

عندما علم أن خالي كان موظفاً مهما أيضاً اقترح عليّ أن أزور النادي بصحبته في مساء أحد الأيام إذا ما سمح لي جداي بهذا. أتى ليصحبني من ميدان «بانيولي»، فوجد أمامه «بوونوكوري» مختلفاً تماماً عمن كان يعرفه، كنت في غاية النظافة والأناقة بفضل جدتي. كان سروال «رايموندو» في الحقيقة مكوياً، وقميصه الأبيض الكبير نوعاً ما نظيفاً جداً، وكانت ياقته مشدودة بفعل النشا.

اجتزنا بخطى سريعة الشارع الذي يفصل بين ميدان «بانيولي»، وبوابة النادي. على فترات كانت تهب زوابع هوائية، فينتفخ القميص الناصع لـ«رايموندو» جاعلاً منه يشبه سارية العلم. كان رجلاً وسيماً للغاية حتى أن كل نسائنا كن مغرمات به. بل إن جدتي كانت قد أعلنت هي أيضاً أنها إحدى معجباته المولهات، مما دفع جدي لأن يطلق ضحكة عصبية.

حسب رأيي كان الحدث الأهم الذي لا يُنسى في تلك الأمسية هو

ما حدث عند بوابة النادي. كان حارس البوابة يعرف تماماً «رايموندو»، ولكنه لم يكن يعرفني، ولم يكن يقبل بتطمينات صديقي له حول حقي في الدخول إلى النادي. لبثا يتناقشان بحمية لوقت طويل، مما جعلني أشعر برغبة شديدة في الفرار. رحت أكرر لنفسي بهوس: الآن عليّ الهرب والاختفاء، رغم علمي بأني لم أكن لأمتلك الشجاعة الكافية لفعل هذا.

أما «رايموندو لو بريستي» فلم يكن يشعر مطلقاً بالحرج من إصرار، وعناد الحارس، بل إنه كان يبدو مستمتعاً للغاية بمعارضته له إلى درجة السخرية منه أيضاً. حينما بدا واضحاً أن الحارس بات عصبياً جداً، راح «رايموندو» يتصل بأناس كثيرين على الهاتف، ولكن دون أن يفلح في العثور على أحد مستعد لتحمل مسؤولية قرار دخولي إلى النادي. اتخذ «رايموندو» آنذاك قراره. طلب مني ألا أتحرك، وأن أنتظره، ثم دلف إلى النادي. مرّت بعض الدقائق دون أن يحدث شيء. في النهاية عاد بصحبة رجل في منتصف العمر تبدو عليه الجدية، ويرتدي زياً أسود بالكامل وكأنه كبير النُدل، أو ما شابه هذا. أخذ الرجل يتفحصني بعينيه، ثم بإيماءة بسيطة من رأسه أذن للحارس بأن يُدخلني.

لا تسألني عن انطباعاتي حول ما كان داخل النادي، فأنا لا أذكر شيئاً. لعلي نسيت بسبب التوتر الذي كان قد تراكم بداخلي أثناء ذلك الانتظار المضني إلى أن يقوم أحد أو شيء ما بحل مشكلتي. أذكر فقط الضوء المبهر داخل قاعة الاستقبال الذي ضاعف من حرجي، لأنه سرب إلى داخلي إحساساً بأن كشافات إضاءة لا حصر لها كانت مسلطة عليّ. شعرت بنفسي وكأني أقف عارياً أمام نظرات جمع من

الفضوليين. داهمني إحساس بالخجل الشديد من جسدي. إن خجلي فقط هو كل ما أتذكره من تلك الواقعة.

في عام 1964، ونتيجة لأسباب مختلفة لن أعددها لك، فُتحت أبواب النادي أمام العمال أيضاً. أما من كانوا يُعرفون بالأعضاء النبلاء، الموظفون والمديرون، فسرعان ما لاذوا بالفرار منه بالتأكيد.

-21-

يود العجائز المساكين سرد كل ما يمتلكونه من حكايات، من حين لآخر يعيدون المحاولة مبدين عدم اكتراثهم للإخفاقات السابقة. غالباً ما تدور حكاياتهم حول تشبثهم بالعمل، أو حول أمور تثير المشاعر، كتلك الحكاية التي كثيراً ما كان «مارتينيز» يذكرها عن العامل «باسكوالي مانشيني» (المسجل في الأرشيف في صندوق رقم 36، بالصف الثاني، بالدور الثالث عشر، بملف رقم: 189) والذي كان قد لقي حتفه في أنبوب للمياه المغلية، بعد أن ألقى بنفسه فيه لإنقاذ زميل له كان قد سقط بداخله؛ وحكايات عن حوادث، وعن رسائل بَعَثَتْ بها نساء أرامل يتحلين بالكبرياء إلى إدارة الشركة؛ وحكايات، وحكايات عن إضرابات مفتوحة. إن أولئك العجائز مستعدون لأن يدفعوا أي ثمن بغية أن تظل شعلة ذكرياتهم متقدة، فليت الشباب يستسلمون لهم، وينصتون لحكاياتهم، ولو لمرات قليلة فقط! عرفتُ أن في بعض الحالات بلغ الأمر بأحدهم بأن يدفع مالاً لأبنائه وأحفاده، وبأن يكون مضطراً إلى قيد وثاقهم في المقعد حتى يعيرونه انتباههم.

لا حرج في هذا، فقد بات دفع المال أمراً واجباً في هذا الحي. أقصد أن الآباء، والأجداد، الذين باتوا أكثر قوة بفضل ثرائهم المؤقت، لا يترددون في دفع المال إلى الآن ونحن في عام 2001 على رجاء أن يعود الأمل مجدداً ليقطن بين أرجاء «بانيولي»، وأن تتوقف، أو، على الأقل، تخف وطأة البطالة.

أنتحدث عن الأمل! فبرغم أن انعدام الثقة كاد أن يصير أمراً واقعاً،

بل بات مسألة كرامة شخصية، لكن هناك دوماً مَن يشعر بأن من حقه الثرثرة بخيال جامح عن المنتزه الرائع الذي سيخرج للنور على أنقاض المصنع، بعد تطهير المنطقة وعودة الظروف البيئية القديمة إلى حالها الأول. سوف يضم المنتزه مساحة خضراء شاسعة -ورود، وزهور بخور مريم بدلاً من القطران، ومادة الأسبست- وفنادق، ومركزاً للمؤتمرات، ومرفأ سياحياً، ومجمعاً رياضياً، وعجائب أخرى لا علم لي بها.

ولقد وافقت بلدية «نابولي» مؤخراً على مشروع إعادة تخطيط منطقة «كوروليو»، و«بانيولي». تؤكد الصحافة أنه لا توجد أية عوائق تحول دون تنفيذه. ولكن، ولكي أكون أميناً، لا أصدق هذا، بل إني أزعم أن لا أحد في «بانيولي» يصدق هذا، باستثناء بعض السذج الميؤوس من شفائهم. سيحدث شيء آخر بالتأكيد يؤدي إلى ضياع كل هذا سدى، أو سيتم إرجاء الأمر لوقت آخر. على أي حال، وبما أني نجحت في الحصول على تصميم يوضح البيانات المهمة في المشروع، فسأرسله لك. جميعنا يعرف أن أي شيء يمكن أن يحدث في هذا العالم، وفي لعبة «الروليت» فإن احتمالات الخسارة دائماً ما تكون أكثر من فرص الفوز (ولكن، أحياناً، ودون أن ندري السبب، يأتي الفوز. يطلقون في «نابولي» على هذا الأمر اسم «المعجزة»).

لعلي لم أجب إلى الآن بطريقة مرضية عن سؤالك حول كيف كانت «بانيولي» بين أعوام 1994 و1996، أي خلال الفترة التي بدأ فيها المصنع يختفي فعلياً. كيف كانت؟ أتذكرها كما هي الآن تقريباً، أي إنها كانت تقع تحت وطأة تناقضات كثيرة: بين رخاء مادي (جراء صرف مكافآت

نهاية الخدمة، ومعاشات التقاعد، وتفرغ بعض العمال لأنشطة، ولأعمال أخرى) وخوف من المستقبل. إن موت «إيلفا» لا مقابل له. إن مشروع الحديقة التي ربما لن ترى النور أبداً، والذي يخضع لافتراضات، ومصالح، وعقبات من كل نوع ليس بكاف لكي يعطي إجابة وافية على الحاجة الجماعية للأمل، ولاسيما وأن الجريمة المنظمة كانت قد بدأت تحكم قبضتها على المنطقة.

وحسبما اعترف «ماسيمو أيسبوزيتو» المُدان في قضايا عديدة، فإن تغلغل عصابة آل «داوزيليو» في «بانيولي» يعود إلى تلك الفترة. كان تغلغلاً ناعماً، بل يكاد يكون ودوداً، لأن رئيس العصابة –كما روى «إيسبوزيتو»– «كان حريصاً على أن يحتفظ بعلاقات جيدة مع الناس، وعلى ألا يلجأ للعنف غير المبرر. فكان يفرض إتاوات منخفضة حتى يسهل على الناس دفعها، ولكيلا يضطروا إلى اللجوء إلى الشرطة. وحتى يحتفظ بعلاقات جيدة مع الناس، كان «داوزيليو» قد أمرنا أيضاً بأن ندفع ثمن الحاجيات التي نأخذها من المحال...».

يمكننا أن نصفها بالإتاوات الحنونة. ولكن الشيء الأهم هو أن عصابة «كامورّا»، ولاسيما جماعة «داوزيليو»، كانتا تعتبران تلك «الإتاوات» بمثابة ترويح عن النفس في وقت الفراغ، أو بمثابة نشاط ثانوي مقارنةً بنشاطهما الرئيسي، والذي كان سيتركز على تغلغل الجريمة المنظمة داخل عمليات التسريح، والخصخصة بهدف فرض إتاوة قيمتها عشر بالمئة على كل مناقصات البيع، التي ستؤول إلى الشركات الخارجية لتفكيك المصنع، وتطهير الأراضي في ما بعد.

أضاف «ماسيمو إيسبوزيتو» «إن «داوزيليو» يحاول منذ فترة توسيع

دائرة نفوذه لتشمل الإنشاءات التي سُتنفذ في منطقة «بانيولي» بهدف إعادة تطوير المنطقة الصناعية. وأحسب أن بعض الشركات تخضع من الآن لسيطرته».

كان على الجميع أن يدفع الإتاوة (من ناحية أخرى، لم تكن جماعة «داوزيليو» وحدها النشطة في تلك الفترة في المنطقة). إن اطلعنا على البلاغات التي جمعتها الشرطة فسنجد أن الجميع كان يدفع: بائعو الفاكهة والخضر، والجزارون، ومطاعم البيتزا، والمطاعم، والمقاهي، ومحال بيع الملابس. سأعرض لك جزءاً من تحقيق صحفي لجريدة «إل ماتّينو» حول تغلغل الجريمة المنظمة في «بانيولي».

كانت عوائد المراهنات السرية كبيرة أيضاً. كانت الأرباح الأسبوعية للعب أثناء العصر الذهبي للمراهنات تصل إلى مبلغ أربعمئة مليون ليرة أسبوعياً. وقد كشف عن هذا «ماسيمو إيسبوزيتو» الذي أكد أنه «كان يُسدّد إلى داوزيليو أسبوعياً مبلغ مئة وعشرين مليون ليرة».

ويقدر المحققون عدد أعضاء الجماعتين اللتين كانتا تسيطران على «بانيولي» على النحو التالي: سبعون عصابة تابعة لجماعة «دومينيكو داوزيليو»، وخمسون لجماعة «باولو سوربرنديتي». كانت الحرب بين الجماعتين تثير الخوف لدى الجميع، كما أكد أحد أصحاب المقاهي في المنطقة: «إن الناس خائفة، وأشعر بهذا من كلام مرتادي المقهى. بدأ كل شيء بعد مقتل المُهرِّب «كريسكوولو». كان رجلاً هادئاً يخرج من البيت فقط ليكسب قوت يومه...».

في السياق ذاته تأتي تصريحات شاب آخر: «باتت منطقتنا «بانيولي»

و«كافالاجيري» ساحتيّ حرب. منذ مقتل المهرب «كريسكوولو» وثمة حظر تجول مفروض، فلا يُرى أحد بالشارع عقب العاشرة مساء».

مَن يعيش ويعمل بـ«بانيولي» يدرك الحجم الحقيقي للحرب الدائرة والهدف من ورائها. إن أجور المنتمين للعصابة مضمونة. قام المُدان السابق والتائب الآن «إيسبوزيتو» بالكشف عن المبالغ التي كان تُدفع كأجر أسبوعي ثابت، ويصل إلى 400 ألف ليرة للأعضاء الجدد في العصابة. أما الأعضاء الأقدم فكانوا يتلقون مليوناً أسبوعياً، أي أنهم يتحصلون شهرياً على أربع ملايين ليرة. كل هذه المبالغ مصدرها الإتاوات، والابتزاز، والمراهنات السرية، والقمار...

لكن لدي أشياء أخرى مهمة أضيفها عن واقع «بانيولي» بين أعوام 1994 و 1996. لقد استمعت إلى نصيحتك، وذهبت لأرى الدكتور «ماريو ساباتينو» في مركز الصحة العقلية الكائن بشارع «إينيا». قامت «روزاريا» بترتيب موعد لي معه، لأنها تعرفه جيداً. كل شيء تم باسمك، وكان «ساباتينو» مهذباً جداً معي، وطلب مني أن أبلغك بأنه يود التعرف عليك شخصياً حينما تأتي إلى هنا في المرة القادمة. إنه يعمل طبيباً للأمراض العصبية في القطاع الخامس والأربعين بالمؤسسة الصحية رقم واحد والتابعة لمدينة «نابولي»، ويأتي حالياً إلى «بانيولي» لمرة واحدة في الأسبوع بالتبادل مع طبيب نفسي آخر يتردد على العيادة لثلاثة أيام. يقول إنه ليس مسؤولاً عن ندرة مرات حضوره إلى «بانيولي»، فسابقاً لم يكن الأمر هكذا. فلم يتم تعزيز الرعاية الصحية كما كان يأمل الجميع، برغم مجهودات المؤسسة الصحية، والبلدية اللتين

حملتا على عاتقهما تلك المهمة. أراني الثلاث غرف الكائنة في شارع «إينيا»، وقال لي بنبرة متأسفة: «أترى؟ أترى كم المكان فقير هنا؟».

إن «ساباتينو» رجل ضئيل البنية، ومتوسط أو صغير القامة، له ابتسامة حنونة، ووديع، وحين تراه تدرك سريعاً أنه معتاد على الحديث مع أشخاص معاندين ينبغي عليه اكتساب ثقتهم إن أمكنه هذا. حينما طرقت الباب سمعت صوته يطلب مني الدخول. بعد أن اجتزت غرفتين صغيرتين، وجدته أخيراً بجوار شماعة ملابس بينما كان يجفف يده بمنديل ورقي. كان ثمة معطف أبيض مهترئ مُعلق على الشماعة، فظننت أنه ربما كان قد خلعه قبل دخولي مباشرة حتى يكون أكثر رقة معي، وحتى يمنحني شعوراً بالاطمئنان بأنه لا يعاملني كمريض يمكن أن يخضع لأسئلته، واستفساراته (في المساء قالت لي «روزاريا» وهي تنظر إليّ بنظرات متعالية إن أطباء الأمراض العصبية، والأطباء النفسيين يعتبرون المعطف الأبيض نوعاً من السبة، ويظنون أنه زيّ لا يجب ارتداؤه أبداً).

يتكلم «ساباتينو» بوضوح شديد، ولا ينزعج إذا ما قاطعه أحد ليستوضح منه أمراً. كان رأيه قاطعاً حول ازدياد حالات الاضطراب العصبي، والنفسي بـ«بانيولي». فرغم عدم وجود إحصائيات حقيقية، لكنه أكد بأنه عقب إغلاق المصنع زادت حالات الأمراض العصبية، والعقلية بصورة واضحة، حتى أنها باتت تمثل حالة طوارئ حقيقية. يشهد بصورة غير مباشرة على تلك الظاهرة زيادة عدد طلبات الحصول على العلاج الصحي الإجباري (التي سُجلت بمقر البلدية وفقاً لما ينص عليه القانون)، مما جعل «بانيولي» تتفوق في عدد تلك الطلبات على

مدينة «فووري غروتا» التي يقطنها ثلاثة أضعاف سكان «بانيولي». باختصار، يمثل الأمر فضيحة بمعنى الكلمة، كان سيتم التغطية عليها بصمت غير مبرر باستثناء بعض الأصوات الخافتة والمعزولة.

أخبرت «ساباتينو» بأنك كنت ترغب في التعرف بشكل مفصل على بعض الحالات التي تعبر بشدة عن مأساة الآخرين. أعني إنك ترغب في قصة نموذجية لتكتب عنها في كتابك.

لم يتراجع عن الأمر. كان قد انتهى منذ قليل من فحص أحد المرضى، لعلي قابلته مصادفة على الدرج؟ لحسن الحظ لم أقابل أحداً على الدرج مما جعل «ساباتينو» يطمئن، حتى أنه قال لي: هكذا أفضل يا «بوونوكوري»، هكذا أفضل، ثم راح يحكي لي قصته، قصة «لورينسو تشي» (اسم مختلق بالطبع).

كانت زوجته هي من أتت به إلى المركز الصحي بشارع «إينيا» في عام 1995: أيها الطبيب فلتساعدني! إن هذا الرجل لم يعد مثلما كان، إنه آخذ في التلاشي كالشمعة. بينما كانت المرأة تتحدث مع «ساباتينو»، كان «لورينسو» جالساً في أحد الأركان وتملأ عينيه الدموع. كان يبكي دون سبب، أو دون سبب واضح لنا. سأله الطبيب «ما بلك يا «لورينسو»؟». فأجاب: «لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا، لقد فقدت الرغبة في الحياة».

«ولَم؟ إن هيئتك تبدو جيدة؛ ولك أبناء كبار؛ وقد أعطاك المصنع مكافأة كبيرة في نهاية الخدمة، وتتحصل على معاش للتقاعد...».

«أعرف هذا، وكثيراً ما أقول لنفسي الشيء ذاته، ساعتها فقط تتحسن حالتي النفسية، ولكن سرعان ما أسقط مجدداً».

«أين تسقط؟».

«في اليأس، في الخوف. أخاف من كل شيء. إني أخاف بعد أن كنت لا أخشى شيئاً في الماضي».

كان «ساباتينو» يتفحصه بعناية منذ فترة: يديه، ووجهه، وقَصَّة شعره، وعقدة ربطة عنقه، ونحافته الشديدة. إن لديه نقصاً شديداً في التغذية. أكان يأبى تناول الطعام؟ لم يسأله عن هذا، ولكن سأله شيئاً آخر: «أتشعر بالراحة إن تكلمت معي عن مشاكلك؟».

التزم «لورينسو» الصمت لبرهة، بينما كانت عيناه تبحث عن إجابة في الفراغ أمامه. قدَّر «ساباتينو» مقدار تقدم العمر بالرجل: فقد كان عمره يزيد قليلاً عن الخمسين عاماً، لكنه بات بلا عمر، كخرقة مهترئة.

أخير أومأ «لورينسو» برأسه في علامة على الموافقة: أجل، كان سيشعر بالراحة إن تحدث معه. علق الطبيب حينئذ وقال «حسناً للغاية. إنها حقاً بداية جيدة. ينبغي علينا أن نلتقي مجدداً بصورة منتظمة. سأوجه لك بعض الأسئلة، وأنت ستجيب عليها، تحكي لي عن حياتك، تتكلم عن نفسك، وعن أسرتك، وعما يشغل بالك، وعما يخيفك...».

هكذا بدأت علاقة طويلة، ومضنية بين طبيب الأمراض العصبية «ساباتينو» و«لورينسو»: علاقة (بين الحين والآخر يصفها «ساباتينو» بالصداقة) كثيراً ما كانت تخضع للحالة المزاجية المتأرجحة للمريض المكتئب، ونزوعه إلى اليأس، وتوقعه بعدم حدوث أي شيء إيجابي سواء تعلق الأمر بالحاضر، أو بالماضي، ولاسيما بالمستقبل، فكل شيء مظلم، وشرير، ومعاد.

بعد بعض الجلسات وصف الطبيب لـ«لورينسو» دواء مضاداً للاكتئاب، وبعض المهدئات. في البداية حدث بعض التحسن على مستوى الأعراض السريرية للمرض، بيد أن المريض تعرض لانتكاسات متواصلة. لكن، لحسن الحظ، ورغم تأرجح حالته، لم يكف «لورينسو» عن التحدث، وعن الإفصاح عن كل مخاوفه وهواجسه، التي كان «ساباتينو» يسجلها بعناية حتى يستطيع أيضاً مقارنتها بمخاوف، وهواجس مرضى آخرين خاضوا تجربته نفسها في الحياة، وفي المصنع.

ها هي قائمة قصيرة «بالهواجس العامة المنتشرة»، إن افترضنا أننا يمكن أن نطلق عليها هذا الاسم، التي كانت تؤرق حياة «لورينسو» وحياة أناس آخرين مثله لم يفلحوا في أن يجتازوا بسلام أزمة فقدهم للعمل، وإغلاق المصنع، دون أن يتعرضوا للإصابة بمرض عصبي شديد. وقد أشار عليّ «ساباتينو» بالعناوين بعد أن أخذها من دفتر الملاحظات الخاص به:

1) ماذا يظن الآخرون بي. يقول «لورينسو»: «لقد رأيتُ شخصيتي كأب تتهشم باستمرار يوماً بعد يوم؛ فرحت أفقد هيبتي، وصرت هدفاً دائماً لسخرية أبنائي. في البداية كانت زوجتي ترغمني على الخروج من الدار حتى عندما لم تكن بي أدنى رغبة في هذا: أمن المعقول ألا تخرج أبداً لتتنفس بعض الهواء الطلق؟ لَمَ أنت قاعد دوماً بين أقدامي؟ كان الحق معها بالتأكيد، ولكنني كنت أخجل من الخروج، وأن يراني الناس في «بانيولي» وأنا أسير ويداي في جيبي. بيد أنها لم تكن تتفهم هذا في البداية. كنت أقوله لها مرارا، ولكنها لم تكن تستوعب...».

2) مستقبل الأبناء. «كنت دائماً ما أظن أن ابني سيتبع خطاي، وأنه سيلتحق بالعمل في المصنع. أما الآن فإنني أفكر بهلع في مستقبله، وتراودني أكثر الأفكار سواداً بشأنه. لعل خوفي على ابني هو الهاجس الأسوأ الذي يلاحقني».

3) الطرد من المنزل. «إني متأكد من أن هذا سيحدث لنا: فسيُزوِّر مالك البيت بعض الوثائق ليطردنا خارج الشقة. ذات يوم لم يكن يريد أحد تلك الشقق السيئة التعيسة التي تطل على المصنع، وتملأها دوماً الأبخرة والأتربة. أما الآن فستصبح مواجهة للبحر، ولمنتزه أخضر كبير كما يزعمون. ستصير تلك الشقق ملائمة للأغنياء، أما نحن فسيُبعدوننا إلى مكان لا أدري أين...».

4) لماذا «إيلفا». «لازلت أسأل نفسي ما السبب وراء إغلاق المصنع؟، ولكني لا أجد سبباً واحداً يقنعني. في السنوات الأخيرة كان المصنع مزدهراً، كان قد تم إصلاحه، وإعادة هيكلته، وكان فولاذنا هو الأفضل في العالم. إني أُقدِّم افتراضاً بعد افتراض، حتى أنه في بعض الأحيان تبدو رأسي وكأنها توشك على الانفجار».

5) الميول. يُطلب من المريض التحدث عن نفسه، وعن شخصيته، ولاسيما عن نزوعه إلى الكآبة. قال «لورينسو» في هذا الشأن: «أعترف بأني لم أكن يوماً إنساناً متفائلاً، فصعوبات الحياة تكمن منذ الأزل بداخلي. لكن، هذا لا يعني أني في بعض الفترات كنت أنزع إلى الكآبة. بعد إغلاق المصنع فقط بدأ كل شيء يبدو أسود أمام عيني، وبدأتُ أفقد اهتمامي بالحياة، وأجد وجهي

وقد بللته الدموع دون حتى أن أنتبه لحدوث هذا...».

في النهاية (لِمَ يُقال إن الخاتمة دائماً ما تكون سعيدة، بينما لا نجد في النهاية سوى المرارة؟) كشف لي «ساباتينو» أن إلى اليوم هناك ما يقرب من خمسة عشر فرداً كـ«لورينسو» يترددون على مركز الصحة العقلية بشارع «إينيا»، يتولى هو وزميله الطبيب النفسي الآخر متابعة حالاتهم. إن خمسة عشر فردا ليس بوسعهم الاستسلام للأمر، وآخذين في التلاشي، والفناء في هوة سحيقة من الحزن جراء البطالة، لعدد مخيف في رأيي. سألت «ساباتينو» إن كان هناك أناس كثيرون لا يزالون يكابدون الأمر إلى الآن ونحن في عام 2001، وسألته عن عدد الأفراد الذين أُصيبوا بالاكتئاب، سواء خضعوا للعلاج أو لم يخضعوا، خلال كل تلك السنوات التي أعقبت آخر عملية صب للفولاذ في المصنع؟ أحسب أنني لن أنسى أبداً ما حييت الإيماءة الغامضة التي أشار بها طبيب الوحدة الصحية بذراعيه مجيباً عن سؤالي.

طيلة فترة إقامة الرجال والنساء التابعين لمصنع «ميشان» في «بانيولي» كانت المترجمة الإيطالية، التي عينتها شركة «ستيل ووركس» (تتحدث الصينية والإنجليزية بطلاقة) تصاحبني كظلي. فلم نكن لنعثر على مترجمة أكثر نباهة، ودقة، وذكاء من «كريستيانا». لبِث الوفد الأول في المصنع حتى شهر فبراير لعام 1995، أي لأربعة أشهر كاملة. كان أغلب أعضاء الوفد أفراداً مسؤولين عن تشغيل الماكينات (ما عدا تشونغ فو)، ولذا فقد كانوا مهتمين بالأمر، ولاسيما بإجادة تقنيات الإنتاج.

في الصباح كان الصينيون يفحصون التصميمات، ويقدمون استفسارات مكتوبة بشأنها، ثم تُرسل الاستفسارات إليّ، أو إلى أحد تقنيي القسم، وفق تخصص كل منا. وحيث إني كنت خبيراً بالماكينات، فقد صرتُ أنا هدفهم المُفضَّل. بعد الظهر كنا نذهب إلى القسم، وهناك كنت أبدأ حديثي ممسكاً تارة بقطعة وتارة بأخرى لأُظهر لهم.. كيف أشرح لك هذا؟ آه... أُظهر لهم استسلامها ووداعتها. كنت أقول لهم: «أترون؟ إن كتلة الصلب الكبيرة هذه مثل قطعة الخبز؛ فلا يوجد أي تعقيد في ميكانيكية تشغيلها. يمكننا أن نصفها بالمخلوق الأَوْلي المفيد، والطيّع، الذي يرضى بالقليل لأداء عمله. أجل إنها ترضى بالقليل. ولكن، لا ينبغي عليكم أن تنسوا إعطاءها ذاك القليل الذي تحتاجه، ولا تنسوا أن تعطوها إياه في المواعيد المحددة بدقة. فلنبدأ إذن من الصيانة...».

كانت «كريستيانا» تترجم كلمة بكلمة. وللأمانة، ليس بوسعي أن

أقول إنهم كانوا على درجة عالية من الذكاء. فكان ينبغي علينا أن نكرر ما نقوله أحياناً لخمس مرات، وفي أحيان أخرى، لم يكن بوسعنا حتى أن نتأكد إذا كانوا قد استوعبوا ما شرحناه لهم. لكن، كان يعوّضنا عن هذا أنهم كانوا يتحركون باحترام شديد بين الورش، التي كانت تتلوى في جنباتها تيارات هواء الشتاء الوليد. كانوا يظهرون احتراماً شديداً لي (وللماكينات) وكأنني رجل مهم، لا أدري مَن، وَحيٌّ ربما، يأتي صوته من جوف المصنع ليتحدث إليهم عبر لساني. في بعض الأحيان كان يراودني شعور مثيل. فكلما ازداد لساني طلاقة شعرت في دهشة وارتباك بأني أعيش كلماتي التي أنطق بها. أكنت أنا حقاً من يتحدث؟

ذات يوم قلتُ في غيظ: «أيها الأصدقاء، كفاكم سيراً على أطراف أصابعكم، كفاكم ترديداً لهذا السؤال: أيمكن أن نلمس هذا؟ إن هذه الآلات قد صارت ملكاً لكم؛ يمكنكم لمسها كما تريدون».

ارتفعت همهمات احتجاج. فما لبثْ أن ترجمتْ «كريستيانا» ما قلته حتى تمتموا جميعاً بصيحة واحدة «آوهه...». أدركت فوراً بأني ارتكبت خطأ كبيراً مما قلل من مكانتي في أعينهم، بل وقلل من كل شيء، ومن الموقف بأكمله، محولاً إياه إلى مجرد مسألة غيرة تافهة، وفظة. رأيت حينها «تشونغ فو» يتقدم نحوي (كان قد اعتاد على أن ينزوي جانباً في نهاية المجموعة، أو على مسافة منهم). حينما وقف بجانبي انتابني شعور بأنه كان على وشك أن يقول شيئاً، ولكنه اكتفى بالتطلع إليّ بتعبيرات بدت لي ساخطة وموبِّخة. لحسن الحظ، طوى النسيان الحادثة سريعاً. في اليوم التالي راحوا يتعاملون معي كما كانوا في السابق: كانوا يمشون على أطراف أصابعهم، ويستأذنوني دائماً قبل

أن يلمسوا أي شيء وهم ينصتون إليّ بتركيز واحترام شديدين. لكن، كل هذا لم يكن يمنعهم من هوس إعادة الأسئلة، ومن أن يظهروا لي ريبتهم وقلقهم أمام كل ما كانوا لا يستطيعون فهمه.

صارت طريقة تشغيل برج البوتقة بمثابة ذريعة لنشوب حرب بيننا، مما تسبب في توتر جماعي كاد يؤدي لأول مرة إلى تحطم العلاقة التي كانت تربطنا إلى غير رجعة. لقد تصرفت بطريقة خاطئة مرة أخرى، وأبديت عناداً، وتعالياً غير مبررين على الإطلاق مُغتاظاً من اعتراضات رجل ضئيل الحجم، كان قد أعطاني انطباعاً منذ اللحظة الأولى لتعارفنا، على عكس كل الآخرين، بأنه يكنّ العداء لي. لم يكن سبب ذلك الخلاف أنه لم يكن يستمع إلى شرحي في صمت، أو لأنه لم يكن يسجل الملاحظات عقب ترجمة «كريستيانا» لما أقوله، أو لم يكن يبتسم حينما كنت أطلق بعض الجمل الفكاهية، أو لأنه لم يكن يبدي اندهاشه (أعني أن يندهش بطريقة ودودة كما يفعل زملاؤه الآخرون) حينما كنت أتحدث مع الماكينات، أو أتظاهر بأني أدللها، أو أقوم بإغوائها تارة، أو حينما كنت أهددها مصوباً إليها إصبعي تارة أخرى.

كان بشكل عام مثل رفاقه الآخرين، إلا أنه بعد أن انتهيت مباشرة من شرحي حاول أن يتصيد لي خطأً ما: «إنك يا سيد «بوونوكوري» تزعم أن... ولكن، كيف بوسعك أن تقول شيئاً مثل هذا إن كنت منذ قليل فقط قد أكدت عكسه تماماً؟».

لم يكن ما قاله صحيحاً، أو على الأقل لم يكن صحيحاً المعنى الذي عبر عنه بسؤاله، ولم يكن تسلسله المنطقي مقنعاً على الإطلاق، وكذلك أيضاً قدرته على الخيال الميكانيكي. من جانب آخر، كان «بي تشانغ»

ساحراً معالجاً (كان «تشونغ فو» قد أسرّ لي بهذا ذات مساء، ولم يقل هذا لي لكي يذمه بالطبع). بيد أني كنت قد أخذت عنه فكرة سيئة، حتى أنه كان يبدو لي أمراً مستحيلاً أن رجلاً مثله، «رجل المراهم»، كما كنت قد أطلقت عليه، يمكنه أن يفقه شيئاً عن صناعة الصلب (ولكن، إحقاقاً للحق، فقد كان كل رجال الوفد يضعون مراهم من كل صنف بطريقة جنونية).

بيد أنه كان أكثرهم عصبية، وريبة، والذي كان يبحث باستمرار عن أي خطأ ليتصيده حتى في تصميمات شركة «إينسيه» التي خرجت تلك الآلة الرائعة من مصنعها. لكني أدرك بأني تصرفت كإنسان غبي. حدث ما حدث في اليوم الثالث الذي واصل فيه توجيه السؤال نفسه لي: كيف يمكن لأنابيب السوائل داخل آلة تدوير البوتقة ألا تلتف حول بعضها، وألا تشتبك معاً حينما يلف ذراع الآلة بمقدار 360 درجة؟

أعطيته الإجابة نفسها التي كنت قد أعطيته إياها في اليومين السابقين، لا كلمة أكثر أو أقل: «يحدث هذا بفضل وجود عمود دوار». نظر إليّ وهو يهز رأسه. وللحق، فلم يكن هو الوحيد من فعل هذا. سألته: «ألا تصدقني يا سيد تشانغ؟». كفّ عن النظر إليّ، ولكنه لم يكف عن هز رأسه. انتابني غضب شديد بارد. قلت له: «لكنك لا تشك في ما أقوله، أليس هذا صحيحاً؟ إنك مقتنع بأن الحق معي عندما أؤكد أن الأنابيب لا تشتبك معاً، لكنك فقط لا تزال لا تدرك كيف يحدث هذا، أو إنني مخطئ، وتظن أني أغشك؟».

قبل أن تترجم ما قلته، رمقتني «كريستيانا» بنظرة مُحذرة، ولكني أومأت لها موافقاً أكثر من مرة، وداعياً إياها أن تؤدي واجبها في

الترجمة. استمع ورأسه تنظر إلى الأسفل، ولكن، فجأة، ابتسم لي كاشفاً عن أسنانه البيضاء القوية. أكانت ابتسامته تنطوي على سخرية مني؟ بدت لي هكذا! قال دون أن يغير من تعبيرات وجهه: «لِمَ لا تُشغِّل الآلة، وتشرح لنا كيف تعمل؟».

أثار الاقتراح لغطاً كبيراً يعبر عن موافقة راحت تنتشر بسرعة، ليدوي صداها بين جنبات هياكل الجدران الضخمة والمدببة للورش المُكدَّسة بأعمال نجارة وحدادة من كل صنف، فتبدو وكأنها مزيج متناسق من الآلات والأنابيب معاً. قلت: «يا مستر «تشانغ» إنك تعرف جيداً أن ما تقترحه يستحيل تنفيذه، إنه افتراض اُستبعد صراحةً في بنود العقد. لقد ماتت هذه الآلة في إيطاليا، ويجب أن تظل هكذا. سيمكنها أن تعود إلى الحياة فقط في الصين. وحيث إنك لا تعرف ما هو العمود الدوار، فكل ما أستطيع عمله لك هو أن أهبط معك إلى برج آلة تدوير البوتقة، وسأعرض عليك هناك طريقة عملها على ضوء كشاف كهربائي صغير».

شعر بالإهانة، وسرعان ما شعرتُ أنا بالندم. فلِمَ تكلمت بهذه الطريقة؟ حاولت أن أصلح ما أفسدته. أخذته تحت إبطي، وأخبرته بأن اقتراحه أوحى إليّ بفكرة ستمكننا من تخطي كل العوائق. إن السيد «هو كواي ميي» والذي، حسب ما فهمت، كان رئيساً للوفد، كان يمكنه أن يقدم طلباً إلى «ستيل ووركس» لزيارة مصنع صب الفولاذ في «تارنتو». لقد كان مصنع «تارنتو» مطابقاً لمصنعنا، وبهذه الطريقة كان يمكن تلبية طلباتهم المشروعة عبر زيارة بسيطة، وغير متعبة على الإطلاق.

على كل حال هبطنا داخل برج البوتقة في اليوم نفسه بعد الظهر. كان يمكن بلوغ الاسطوانة عبر سُلَّم داخلي وآخر خارجي، كلاهما مثبتان على أعمدة كسلالم السفن، أي إنها عمودية وصعبة الارتقاء.

بعد أن تفحصنا البرج أراد الآخرون كلهم مشاهدته، فكنت أصحب اثنين منهم في كل مرة. أثناء الهبوط على السلم (كان ارتفاع البرج أربعة أمتار، أو أكثر قليلاً) كانت وجوههم جميعاً متجهمة، ثم كانت تتبدل خلال الصعود فتغدو مرحة، ومبتسمة، ومتحمسة للعمود الدوار، حتى أنهم كانوا يتبارون في تسميته هكذا بالإيطالية «جونتو روتانتيه». أعتقد أنهم سيتذكرونه طيلة حياتهم، لاسيما بعد كل تلك التصميمات التي رسموها له في دفاترهم أو في مذكراتهم هناك عند البرج.

في ذاك المساء خلوت بنفسي في المصنع، فلقد طلب «تشونغ فو» أن يتحدث إليّ منفرداً، فاقترحت عليه أن يلحق بي في الورشة بعد اصطحاب رجاله إلى أماكن إقامتهم.

كان الجو بارداً، فمن أين كانت تتسرب تلك الريح، التي كانت تتسلل بمحاذاة الحصيرة، لتتلاشى عند فجوات تفريغ الألواح أسفل منصة آلة الصب؟ مَن كان ليقول إنه سيأتي يوم أشعر فيه بلدغة البرد وكأنها عضة كلب ضال هنا داخل هذه الورش؟ لعلي أخطأت حينما انتظرت هناك، وضربت موعداً مع «تشونغ فو» في ذلك المكان، وكأنني كنت أرغب في أن أؤكد (له ولي أيضاً) على علاقتي السرية، والخاصة جداً بآلة الصب.

كنت قد حاولت أن أوضح لـ«تشونغ فو» حالتي النفسية: فلا ندم

ولا حنين، كنت أرغب فقط في أن أفكك الآلة بعناية وبحرية. كنت قد أسررت له: «متى أغلق مصنع «إيلفا» أبوابه فلن يتبقى شيء آخر نرغبه سوى تفكيك جميع أجزائه بأسرع وقت ممكن؟ إن كل الرجال العقلاء لا يخشون الموت بقدر خشيتهم من سكراته، أقصد ذلك الجزء من الموتْ الذي يُعدُّ حياةً بشكل مّا».

لكن في ذلك المساء، وربما جراء البرد، أو جراء اليوم المضني الذي أمضيته بسبب «بي شانغ»، بدا لي وكأني قد اكتشفت شيئاً آخر كان يجثم بداخلي دون أن أدركه قبل تلك اللحظة. إنني بدأت أبغض هذا المصنعْ، وأتردد عليه على مضض مني، كنت أراه آنذاك بعيون من يؤمن بالشعوذة، والأرواح الشريرة، وكأنه قط أسود يقطع عليك الطريق. لعل آلة الصب (ولِمَ ليس المصنع بأكمله؟) كانت قطي الأسود؛ نهاية قصتي الشخصية، الشيء الذي بتر أجنحتي.

أثناء الانتظار ارتقيت إلى أعلى المقصورة. هل ثمة مكان أفضل من هذا إن أراد أحد التأمل؟ هناك يغدو المرء معلقاً في السماء، وكأنه في منطاد طائر. كنت أبصر عبر النوافذ السفلية سُحباً كبيرة راقصة من الدخان الرمادي بل البنفسجي، يكشف عنها ضوء نهار عنيد يقاوم الزوال، وكأن رياح الشمال هي من تبث فيه الحياة.

كيف كان سيصير حالي بدون «إيلفا»؟ للأمانة لم أكن لأصير أي شيء على الإطلاق، لم أكن لأنجح حتى في الحصول على شهادة الدبلوم. بالتأكيد بعد الدبلوم كان بوسعي الالتحاق بالجامعة والتخرج. فقد أفلح بعض من كانوا يعانون ظروفي وصعوباتي نفسيهما في أول مشوار حياتي في التخرج من الجامعة، حتى ولو كان الثمن أنهم غرقوا وفنوا

في إنهاك مضنٍ، وقد تحولت شهادة التخرج لهم من مجرد وسيلة إلى غاية، بل الغاية الوحيدة لبقائهم المهني (فلا أتذكر أني عرفت مهندسين تدرجوا من أسفل السلم المهني ثم حققوا نجاحاً ومكانة، ولكنني أتذكر جيداً عمالاً بسطاء وتقنيين سُوعدوا حتى ترقوا رويداً رويداً، فبلغوا درجة عالية، ونالوا احتراماً يصل حد التبجيل...)

كنت بلا ريب مديناً بكل شيء إلى «إيلفا»: كيف لي أن أشك في هذا؟ كنت مديناً بكل شيء، برغم أني في تلك اللحظة لم يكن بوسعي أن أكنّ أي شعور ودي نحو المصنع، ولكنني كنت فقط لا أطيق صبراً على تفكيكه، القطعة تلو القطعة، وعلى رؤية آلات الهدم، والديناميت، والجرافات، والحفارات وهي تعمل بأقصى طاقتها. راح المصنع يبعث بروائح كريهة مثله مثل الجثث حينما تُترك لوقت طويل في العراء. حين كنت أصل في الصباح، وما إن أجتاز البوابات حتى كانت تداهمني رائحة عفنة لا تخطئها أنف لماء آسن دليل على تحلل الجثمان.

في زمن فائت حينما كانت تُكتشف الغرغرينة، عبر الرائحة فقط، كان البتر هو الحل الفوري، أما في «بانيولي» فلم يكن يُبتر شيء. في تلك اللحظة كانت رائحة العفن المنبعثة أيضاً من آلة الصب تطارد فتحات أنفي، لتبلغ مخي، فتثير فيه أفكاراً كئيبة ملائمة للموقف. لكن، رغم ذلك، لم تكن بي أي رغبة في الفرار (إن هذا لموقف غريب) من آلة الصب، أو من المصنع بشكل عام. كم كان سيكون الأمر صعباً لو لم أكن مرتبطاً بذاك الموعد وتلك المهمة التي كان عليّ بموجبها أن أعود في الصباح إلى مقبرتي الصناعية التي كانت تملأني بالحياة ربما أكثر من أي وقت مضى.

***

شعرت فوراً بوجود «تشونغ فو»، كان يخطو كعادته على أطراف أصابعه، ولم يكن يسبب جلبة أكثر من تلك التي تصدر عن فأر صغير، لكنها كانت كافية لأشعر بها عبر حاستي السادسة. أخبرته عن مكاني، فبلغني بسرعة الطائر. لم يكن قد دخل إلى المقصورة من قبل، كانت تملأ عينيه الدهشة، ولكنه رأى أن من الأفضل أن يحتفظ بها لنفسه.

كان قد صار منذ فترة صديقي المؤتمَن، كنت أتحاور معه بالإنجليزية مما كان يضطرنا أن نكون أكثر إيجازاً وبساطة. كان التحدث معه لإنسان مثلي يميل إلى الإسهاب في الكلام بمثابة تدريب متواصل على السيطرة على النفس. كان «تشونغ فو» ينصت إليّ بصبر لا يطيقه أي إنسان آخر؛ كان فضوله لا ينتهي؛ كان يود معرفة كل شيء، ولم يكن يجد غضاضة من حين إلى آخر، حينما كان الموقف ملائماً، في أن يدون في بعض الوريقات التي تملأ جيوبه باستمرار الإجابات التي كان يحسبها مهمة. من ناحيتي كنت أحاول بقدر المستطاع أن أرضي فضوله.

من جانب آخر، فلمَ كان عليّ أن أخفي عنه شيئاً، ولمَ كان عليّ الانزعاج من فضوله؟ بل إني كنت شاكراً له لما كان يبديه من اهتمام نحونا، ولشغفه بمعرفة كل شيء عن «بانيولي»، وعن «نابولي»، وعن المصنع الذي كان آخذاً في الاختفاء، وعن مستقبلنا غير الواضح، وعني شخصياً: أنا الذي لم أكن أعرف مطلقاً ما كان بوسعي أن أفعله في ما بعد... كان على علم بكثير من الأمور، بل كانت المشكلة الحقيقية هي ألا أخطئ وأحدثه عن أشياء كان يعرفها مسبقاً، التي لأدبه الجم، والتلقائي كان دائماً ما يؤكد لي على عدم معرفته لها.

أخبرني الحراس أن في المساء كانت أضواء غرفته هي آخر أضواء تُطفأ –عند منتصف الليل، أو في الساعة الواحدة، أو حتى في الثانية صباحاً– وفي كل مرة كان يحكون لي عنه، كان ينبغي عليّ أن أحاول كثيراً وجاهداً حتى أمحو من عيني صورته التي ارتسمت في مخيلتي نتيجة ما أخبروني به عنه. كنت أتخيله في غرفته وهو جالس منحنٍ أمام الطاولة، ووجنتاه متدليتان، ورأسه بلا نظارات، وأمامه جبل من الملاحظات، أوراق مسوّدة بكتابات صينية عمودية متراصة بعضها فوق بعض وكأنها مُشيدة من الإسمنت المسلح وتتدلى منها ذيول لأحرف كثيرة.

فلمَن كان سيعطي كل تلك الملاحظات؟ كنت أردد على نفسي كثيراً هذا السؤال. أمن الممكن أن يوجد أحد في الصين، أو مكتب مهتم بجمع معلومات تتعلق بمدينة متوسطية أوروبية، أو، بالأخص، بحي انقلب حاله رأساً على عقب جراء اختفاء مصنعه؟

كان يبدو لي أمراً غير معقول، حتى أنني كنت أضحك منه في نفسي، أقصد إني كنت أضحك من خيالاتي، ومن افتراضاتي التي لم يكن لأي إنسان عاقل أن يتفق معي عليها. إذن؟ أكان «تشونغ فو» يجمعها لنفسه؟ حتى هذا الافتراض بدا لي غير معقول لأسباب عديدة، ولاسيما للدور غير المحدد والغامض بعض الشيء الذي كان «تشونغ فو» يقوم به ضمن الوفد الصيني. أجل، كان دوراً غير محدد، ولكنه مهم ومسؤول (ربما الأكثر نفوذاً بين جميع أعضاء الوفد). كان «تشونغ فو» بلا ريب هو من يصدر الأوامر، كان «العقل» المدبر للوفد، ولعل هذا الأمر بالذات يجعل من اهتمامه المبالغ فيه، وشغفه أحياناً بمعرفة

الأحداث التي مرت بالمصنع، والحي، والمدينة بأسرها، أمراً مثيراً للشكوك.

من جانب آخر، لم يكن الكشف عن البرهان الحاسم والقاطع على أهمية وزنه السياسي في الوفد ليتأخر كثيراً. حدث هذا قبل عشرة أيام من لقائنا داخل المقصورة أثناء إحدى مقابلات العمل داخل الورشة نفسها، بجوار منطقة «القَطْع»، عند الحصيرة المتحركة، حيث استدعاني «تشونغ فو» بحجة توجيه بعض الأسئلة التقنية لي. لم يكن الأمر هكذا مطلقاً؟ فلقد اقترح عليّ أن أنتقل إلى الصين في «ميشان» لأتولى إدارة الماكينة نفسها، آلاتي لصب الصلب.

لم نكن بمفردنا، فقد أتى إلى المقابلة برفقة امرأة صينية كانت ضمن أعضاء الوفد. لم تكن شابة جداً، وكانت تتحدث القليل من الإيطالية.

من يدري لمَ لم يلجأ إلى المترجمة الصينية، أو حتى تلك الإيطالية؟ لعله لم يرغب في أن يضفي على المقابلة طابعاً رسمياً عاماً. في الحقيقة كنت قد توقعت هذا الطلب. كنت قد أدركت أن، آجلاً أو عاجلاً، كان سيقدم لي هذا العرض، ولكن، رغم هذا، أصابني الاضطراب. قال بالإنجليزية: «فلتطلب رقماً! الرقم الذي تعتبره مناسباً لك: وسأعرف أنا كيف أجعلك تحصل عليه».

ثم أدار وجهه إلى صديقته وهمس لها بالصينية. أشارت المرأة بالموافقة، وقالت: «إن تشونغ فو يؤكد لك أن الصين جميلة جداً».

اعترضت على كلامها قائلاً: «ولكني... وُلدتُ هنا».

ضم «تشونغ فو» راحتيه، ووضعهما أسفل ذقنه في حركة كان معتاداً على أن يقوم بها، وعادة ما كانت تعبر عن موافقته، وتفهمه.

قال: «بالطبع، بالطبع... لكن، ثمة حرب دائرة هنا الآن: وقد شرحت أنت لي هذا...».

رنوت إليه دون أن أتفوه بشيء. إن هذا صحيح، كنت أنا من أخبرته بهذا، وكنت قد عبرت له عن أسفي الشديد، وحزني العميق لرحيل آلات الصب آخذة معها جزءاً كبيراً مني، ومما كُنتُه، ومما كنتُ يمكن أن أنتهي إليه، لولا أن الواقع الصناعي في «نابولي» قد أصابه الجنون.

لم يجبني بطريقة مباشرة. ومرة أخرى قال شيئاً بالصينية إلى صديقته، التي ترجمت: «إن «تشونغ فو» ينصحك بأن توافق على عرضه، لأن من يقدمه لك هو صديق حقيقي، وقد سمح لنفسه بأن يذكر لك حكمة لـ«كونفوشيوس» تقول إن المرء الحكيم لا يفعل، ولا يقول ما لا يعلم».

لم أستطع منع نفسي من الضحك: هذه هي طبيعة «تشونغ فو». وعدته بأني سأفكر ملياً في عرضه، وأنني سأتحدث مع زوجتي عن الأمر، وسيكون رأيها حاسماً في النهاية. قال لي بهدوء: «إذن سأنتظر».

***

راحت تمطر قليلاً ثم ازداد المطر هطولاً. كنا نستمع إلى غضب السماء فوقنا ونحن جالسون في مقصورة آلة الصب؛ وعبر زجاج الشرفات تعاقبت علينا ومضات البرق، مما اضطرنا إلى التزام صمت مفعم بالانتظار، بريق وراء بريق، وهزيم يعقبه هزيم، حتى صار تركيزنا كله منصباً على طَرقَات قطرات المطر. كنت أنا و«تشونغ فو» نصمت كثيراً حتى دون سبب. إن الصداقة تحتمل أيضاً تلك المواقف، ولا تجد في الصمت ما لا يمكن احتماله. لذا مر بعض الوقت قبل أن يوجه لي

السؤال الذي طالما احتفظ به على طرف لسانه، وكانت إجابتي أيضاً حاضرة: إني آسف يا «تشونغ فو»، ولكني لم أقرر بعد، لا أعتقد أنني سآتي أبداً إلى الصين، أن هذا ليس خياري بعد، ولكنه مجرد توقع.

حرصت جيداً على ألا أفصح له بما قالته «روزاريا» حينما أخبرتها بحذر شديد عن عرض العمل. «يا بوونوكوري لقد فقدت صوابك». لقد قالت لي هذا بالضبط، ولم تضف شيئاً آخر.

حسب رأيي لم تكن المشكلة تبدو بسيطة. إن «الصين» بعيدة للغاية، ولكن كيف لي بالتأكيد ألا أقرّ أيضاً بأن عرض «تشونغ فو» كان ينطوي على بعض الإغراءات؟ كان وكأنه ريشة تُركت عمداً لتتهدهد على العنق، فعاجلاً أو آجلاً ستثير القشعريرة في الجسد. من الناحية المادية لم يكن ثمة شيء يمنعني من أن أطلب مبلغاً خيالياً تاركاً لـ«تشونغ فو» ورؤسائه مهمة أن يجيبوني بالطريقة نفسها التي أجابتني بها «روزاريا»: «يا بوونوكوري لقد فقدت صوابك».

لكن، هل كانت المسألة تتعلق بالمال فقط؟ كان يعمل في «ميشان» بالتأكيد أفضل المهندسين، والتقنيين، ولكني كنت أمتلك شيئاً لم يكن أحد منهم يمتلكه: موهبة طبيعية في العمل على الصلب الذي، حسب كلام «تشونغ فو»، استعمله الغرب في تشييد حضارته وقوته. كان يقول لي: «إنه شيء يسري في دمك». رغم أنه كان رجلاً ذكياً وذا مشاعر باردة، ولكنه كان يميل إلى المبالغة، فيطلق أحياناً أحكاماً شخصية مبالغاً فيها. لم يكن لديّ شك أنه كان يقدرني بأكثر مما استحق. أذكر إعجابه بي حينما أُتيحت لي الفرصة لكي أشرح لمواطنيه خلال بعض المؤتمرات (كانت مؤتمرات ثلاثة بالتحديد، لم يكن يُسمع فيها ولا حتى صوت بعوضة

طائرة من فرط الاهتمام) عن بعض معايير إنتاج الصلب، التي كانت تتغير وفقاً للنتائج المراد تحقيقها: فثمة صلب عالي الجودة، أو متوسط الجودة تختلف المكونات الرئيسية لكليهما، وتتدرج، وتُقوى بدرجات متفاوتة وفقاً للاستخدامات المخصص لها، ويُزود الصلب أيضاً بمواد مضافة أخرى ناتجة عن حيل إنتاجية، أو وصفات صناعية أخرى.

وكما كنت قد اعترفت جزئياً لـ«تشونغ فو» فإني كنت أعلم مسبقاً بأني لم أكن لأذهب إلى الصين أبداً، ولا حتى لفترة قصيرة (أخشى، بل، إني متأكد، أن السبب هو «روزاريا»، فلم أستطع أبداً أن أبتعد عنها بسهولة، ولا حتى للعمل في الخارج لفترات قصيرة جداً). لكن، ألهذا السبب فقط ينبغي عليّ أن أرفض أن أنعم بكل مميزات هذا العرض؟ ولأي سبب آخر إذن كان ينبغي عليّ أن أكابد بهذه الطريقة لهذا الأمر، بينما كان بوسعي أن أُبقي المسألة معلقة، وأن آخذ مهلة من الوقت، وأن أُظهر لهم معاناة في اتخاذ القرار ربما غير حقيقية تماماً. لكن، بصورة عامة، أكان يمكننا أن نُطلق عليها مجرد تمثيلية بسيطة وحسب؟

يا إلهي، لم تكن تمثيلية فقط مطلقاً. ذات مساء اتصلتُ بـ«جينارو دانوبيو»، وطلبت منه أن أقابله. شرحت له الأمر سريعاً: أرغب في أن تحدثني عن «تايلندا». كان «دانوبيو» قد أقام في «تايلندا» مع عمال وتقنيين آخرين من «بانيولي» لمدة عام تقريباً. كان قد ذهب إلى هناك ليقوم على تشغيل حصيرة متحركة كان التايلنديون قد اشتروها من إيطاليا: كانت حصيرة جديدة لم تستعمل من قبل، وكانت مشابهة لحصيرة مصنعنا.

كان «جينّارو» نحيفاً، وساخراً، وكان له عمري نفسه، وتجربتي

نفسها تقريباً، إلا إنه كان يعمل في السوائل، إنه «رجل سوائلي» كما كنا نصفه، لكنني لم أكن أطلق عليه هذا الاسم. قال لي بسرعة: «انتبه! فإن تايلندا فقيرة ورأسمالية، أما الصين، فمن الناحية السياسية والاقتصادية، لا يمكن تحديدها جيداً، ولكنها بلد جاد ومنظم».

أصابتني حكايته بالدهشة. لم يكن قد ركب طائرة من قبل في حياته، ولمّا كان لزوجته ثمانية عشر أخاً وأختاً، فقد صاحبه إلى مطار «كابوديكينو» ثلاثون من أبناء إخوانها (كانوا مجرد وفد ينوب عن الجميع) وعشرة آخرون من بينهم أفراد لم يكن يعرفهم جيداً، أو حتى كان يجهلهم تماماً، رغم أنهم كانوا على صلة قرابة به. وكان في توديعه في المطار أيضاً أقاربه الأوثق صلة به: زوجته، وأبناؤه، وبعض إخوانه، وأصهاره.

كانت هذه الفوضى البشرية بمثابة إنقاذ له؛ فكانوا يلقون به من يد لأخرى، ويهزونه، مما جعله ينسى بأنه كان على وشك الرحيل لبلد قاص مدفوعاً بحاجته للفرار، ولو لفترة مؤقتة، من مصيره المحتوم بالإحالة إلى صندوق البطالة، وهو القرار الذي كانوا قد أخطروه به قبل رحيله.

سألته أن يحدثني قليلاً عن المصنع التايلندي. كنا ساعتها فوق الجسر الشمالي ذات صباح طقسه صاف من صباحات «نابولي» المعتادة، التي يبدو فيها واقع الحياة وكأنه يطابق صورته الفوتوغرافية الماثلة أمام أعيننا: صورة لمساء، وباهتة في الوقت ذاته كصور قليلة مثلها.

انفجر ضاحكاً. قال: «عن أي مصنع تتحدث؟ لقد كان قطار تصفيح فقط قمنا بتركيبه في أطراف إحدى القرى النائية الواقعة بين مستنقع

وغابة للنخيل. كان اسمها «بنغ سافان»، ولم تكن أكثر مما قلته: نخيل ممتد على مستوى الأفق و... جمع غفير من طفلات مومسات يقمن بالترويح عن العمال الأجانب. كنّ يعشن في بيوت من الخشب والقش، وينشدن أغاني حزينة ذات إيقاع رتيب لا نهاية لها، تبث في الجميع شتى المشاعر، والرغبات باستثناء تلك الجنسية. كان ثمن جسدهن حفنة من القطع المعدنية: ككل شيء آخر تقريباً في «تايلندا». فكم ثمن احتساء شراب فاكهة مخفوقة وأنت تتهدهد فوق فراش متأرجح في «تايلندا»؟ قطعة معدنية واحدة. ولو أردت شراء تذكار؟ قطعة معدنية. ولو أكلت شيئاً؟ قطعة معدنية. ولو أخذت قطعتين معدنيتين، أو ثلاثة، وأعطيتها كبقشيش لأحد ما فإنه سيعانقك، وربما تعرضت لخطر انفجاره في البكاء. ماذا عليّ أن أخبرك به: راح ينمو بداخلي، يوماً بعد يوم، ندم وشعور بالضيق الإنساني، بل إنه يكاد يكون شعوراً بالخزي من نفسي، ومن وضعي الذي كان من الصعب ألا يبدو، كما كان في الواقع في ذلك المكان وتحت تلك الظروف، وضعاً مميزاً للغاية بطريقة متغطرسة. رحت أردد على نفسي كثيراً عبارة «كان هذا فقط ما ينقصنا». لقد كان على «جينارو دانوبيو» الخجل مما كان فيه، ليس الخجل من كونه عاملاً أوشك على فقد عمله نهائياً، بل لكونه ثرياً مزعوماً لوقت محدد».

لبثنا بعض الوقت في صمت، ثم قال «دانوبيو»: «يا بوونوكوري فلنتجاهل الأمر. سواء كانت تايلندا أو الصين أو الهند فالأمر لا يستحق العناء. ثم إننا لسنا في عمر يسمح لنا بعمل هذه الأشياء..».

لا فرق بين جملة وأخرى، ولكن تلك الجملة الأخيرة أصابتني بالاضطراب. أحقا لستُ في عمر يسمح لي بعمل هذه الأشياء؟ فما

عمري إذن؟ وأي شيء يلائمه؟ قلت: «يا جينّارو لقد أتممنا بالكاد سبعة وأربعين عاماً، إنني أشعر بأني ما زلت شاباً يافعاً».

أومأ «دانوبيو» بالموافقة على ما قلته، وعقب قائلاً: «وأنا أيضاً كذلك... فلسنا نحن من بلغنا الشيخوخة، ولكنه العالم. إن العالم لا يحتمل أكثر من هذا...».

أعدت تلك الكلمات على «تشونغ فو» بينما كنا في المقصورة حتى أنه تعجب. قلت له: «يا تشونغ لسنا نحن من بلغنا الشيخوخة، ولكنه العالم الذي بات منهكاً وخائب الأمل...».

«إن الصين، في الحقيقة...».

قاطعته بحدة: «إنها ترهات. إن الصين ليست مختلفة عن بقية العالم. فقد شاخت هي أيضاً، ولم تعد تمثل شيئاً، أو تفتن أحداً. يا «تشونغ» إن أشياء قليلة كانت كافية لتمحو جبلاً من الأوهام. إن كنا نحن نمثل الغرب الأناني، والمتردي، فأنتم لستم بمختلفين عنا. إنكم مجرد سوق كبير يطمح في أن يصبح مساوٍ للأسواق الأخرى، بل يود أن يغدو أكثر سطوة منها».

لم يكن سبق لنا أن تناولنا موضوعات مثل هذه من قبل. من ناحية أخرى، لم تكن السياسة موضوعي المفضل، ولم تحتل يوماً قمة اهتماماتي. أخفض «تشونغ» من نظراته شاعراً بالإهانة. ولكي أصلح الموقف، قلت له بسرعة بأنني أفلحت أخيراً في تنظيم الجولة التي كان يحرص كثيراً على القيام بها في مدينة «نابولي»، وكان يلح عليّ بشأنها منذ أسابيع.

«أستصحبني عبر أزقة نابولي يا بوونوكوري؟».

«أستُريني ما لا يمكن لأي سائح آخر أن يراه عادة؟».

«أستكشف لي عن الوجه الحقيقي للمدينة يا بوونوكوري؟».

«ماذا عليّ أن أكشف لك يا تشونغ؟ ليس هناك شيء يُكتشف. إن مدينتي هي مدينة فاسدة، وعفنة بالأساس، يوجد فيها كل شيء، حتى بعض من الجنة بالطبع، على هيئة قطع متناثرة ومبعثرة هنا وهناك».

باتت زيارة «نابولي» موضوعه الأوحد، وصار طلبه بأن أصحبه لزيارة قلب المدينة أكثر إلحاحاً، وهوساً في الأيام الأخيرة («قلب المدينة، أتفهم؟ The heart, please»)، مما أدى لازدياد شكوكي نحوه. كنت أود أن أسأله: من أنت بالضبط يا «تشونغ فو»؟ فلم أفهم بعد طبيعة دورك. أأنت جاسوس حقيقي من أولئك الذين يهتمون بالمواقع العسكرية، وبالموانئ، وبأشياء أخرى مثل تلك؟ إن كنت جاسوساً حقاً فليس بوسعي سوى أن أشعر بالأسى لأجلك. أخشى أن تقاريرك لن تثير اهتمام أحد ما دمت قد اخترتني أنا لأكون مصدراً لمعلوماتك الغريبة.

حينما توجهت للمهندس «لوناردي» لأخبره برغبة «تشونغ فو» في أن أصطحبه لزيارة المدينة، سألني: «وأين تنوي اصطحابه؟»

أجبته: «لن أصحبه بالتأكيد إلى زيارة المتاحف، فيبدو أنه لا يكترث بها كثيراً».

حينئذ قال «لوناردي» بنبرة ساخرة: «أهو مفتون بالجمال الطبيعي؟».

فردت ذراعي: «ولا حتى ذلك يعجبه. أظن أن نقطة ضعفه هي الأزمات الاجتماعية، والأزقة، والعنف. إن «تشونغ فو»، كما عرفته أنا، هو رجل من الطراز القديم منخرط في السياسة. لن أندهش إن عثرت في إحدى حقائبه على صورة لـ«ماوتسي تونغ» أو شيء آخر شبيه. إنه رجل غيور على وطنه، أو من الأصح أن نقول إنه رجل تابع للدولة، ولكنه ذكي وأمين. لعله فقط جاسوس صيني أمين. لقد صرنا أصدقاء يا مهندس «لوناردي»، ولقد وعدته بأني سأصحبه في جولة في المدينة، وسأفي بوعدي».

قال ممثل «ستيل ووركس» بصراحة: «ليس بوسعي إلا أن أثمن حماسته». سألني عن عدد الأيام التي سنتغيبها عن المصنع:

«أتمزح يا سيادة المهندس؟ إن يوماً لأكثر من كاف، سأصطحبه فوق شرفة أعتز بها كثيراً، حيث قضيت هناك ساعات لا تُنسى من شبابي. من أعلاها يهيمن على المشهد ميناءُ نابولي كله؛ حتى أن السفن تبدو كالدمى الصغيرة، كل شيء منْ الدور السابع يبدو ضئيلاً وطيعاً. إنه

لحظ سعيد لجاسوس أن يذهب هناك، إن افترضنا أننا يمكن أن نطلق على السيد تشونغ هذا الوصف».

باتت موافقة المهندس «لوناردي» بمثابة حافز تنظيمي لي. اتصلت هاتفياً بخالي «سالفاتوري» الذي صار مسناً، ومتقاعداً، وكان لا يزال يعيش في وحدة كاملة في البيت القديم الذي ترعرعت فيه (فقد رحل عن عالمنا كلا والديه). حدثته عن الزيارة، فقال لي إنه كان ينتظر بفارغ الصبر لكي يعانقني.

كانت فكرتي هي أن أصطحب «تشونغ فو» إلى الزقاق الذي وُلدتُ فيه، والذي لم أزره منذ لا يقل عن عشر سنوات (كنت أرتعش من التوتر والفضول)؛ ثم إلى شرفة جدتي، وفي النهاية (لكن كان يمكن تغيير ترتيب زيارة الأماكن حسب الظروف) نتجول بعض الشيء هنا وهناك حتى نبلغ المصنع السري وغير القانوني الخاص بصديقي «أفوليو»، والذي صار مستثمراً غير قانوني بعد أن عمل لعشرين سنة كاملة مثلي عامل صيانة على آلات الصب في مصنع «إيلفا» بـ«بانيولي».

على أي حال، إن «نابولي» مدينة تبدو وكأنها شُيدت خصيصاً لكي يتجول فيها الناس بطريقة غير منظمة، وهي لا تخيب أبداً أمل من أتى إليها وهو يثق بقدرتها على إثارة الدهشة والإعجاب. ولمّا كنت أنا أيضاً غيوراً على وطني، ولكن بطريقتي الخاصة، فكنت أود أن تظل تلك الجولة باقية للأبد في ذاكرة «تشونغ فو» جاعلاً إياه مرغماً على أن يسوّد عشرات الصفحات بملاحظات تنتهي عادة بنقاط على السطر، وبعلامات تعجب، واستفهام، وأن يكون مرغماً أيضاً على استخدام كلمات مثل «لغز»، و«غامض»، و«فوضى عارمة». فلتفهم قصدي!

إنني حينما أتحدث عن ولع «تشونغ فو» بالتجسس، فأنا لا أرغب أن يُأخذ كلامي كثيراً على محمل الجد، إنها ليست أكثر من مجرد طريقة في التعبير، أو حيلة وصفية تعينني على تصوير طبيعته التي تتأرجح بين المكر، والتأمل، والفضول اللامحدود والولع الشديد بتدوين الملاحظات (عادة شائعة بين كل مواطنيه في الوفد). إنه، باختصار، نوع من المداعبة البسيطة، وليس اتهاماً أو إشاعة مغرضة، بل إطراء أُبرز به حدة ذكائه المتلهف دوماً على اكتشاف ما وراء حدود المظهر الخارجي (ربما لأنه لم يتبق سوى الجواسيس فقط هم من يتساءلون عن ماهية، وكيفية الأشياء).

في تلك اللحظات المؤثرة لي للغاية (كان الأمر لي بمثابة هبوط إلى الجحيم السفلي لأصولي، وكاد يكون كشف حساب لحياتي) تلقيت مكالمة هاتفية من والدة «مارشيلا». كانت آخر مرة سمعت فيها صوتها منذ زمن طويل، ولكن، لم يمنعني هذا من التعرف عليه بسرعة. لم أوجه لها كلمة واحدة تشجعها، كانت كمن يتحدث إلى جدار، إلى درجة أنها في لحظة ما سألت: «آلو... ألا زلت معي على الهاتف؟».

كانت تشعر بحرج شديد هي أيضاً؛ وكانت تبذل مجهوداً كبيراً لكي تعبر عما تريد قوله، يدل على هذا فترات التوقف الطويلة التي كانت تفصل بين جملة وأخرى، وأحياناً بين كلمتين فقط، وحشرجة صوتها المتواصلة حتى تأخذ الوقت الكافي لاستحضار شجاعتها. قالت إن «مارشيلا» لم تكن تعلم شيئاً عن تلك المكالمة، بل كان ينبغي ألا تعرف أبداً عنها. إنه قرار شخصي خاص بها دفعها إليه يأسها: «إن علاقتنا قد تهشمت منذ فترة، فلو بلغ إلى علمها أنني سمحت لنفسي بأن أتدخل

في شؤونها فستقع قطيعة نهائية بيننا».

توقفتْ، ربما على أمل أن أقول أنا شيئاً، بيد أني تمسكت بصمتي بعناد. عندئذ استحضرتْ كل شجاعتها، وسألتني متلعثمة: «أيكلفك الكثير إن أتيت لزيارتنا ذات مساء قريب قادم؟».

توقفتْ من جديد، ولكن ظل فمي مغلقاً. كلما زاد صمتي دارت بخلدي أفكار وأحاسيس، وحتى شكوك مضطربة. كانت تلك المكالمة لاتزال بلا أي معنى. أكانت ستقرر الإفصاح ولو عن شيء واحد فقط؟

أدركتْ أنها يجب أن تكشف عما في جعبتها، فقالت: «إنني في موقف صعب للغاية. يجب على مارشيلا أن تذهب إلى المستشفى لتجري بعض الفحوصات، ولكنها تأبى فعل هذا. تقول إنها خائفة، وتفضل تجاهل الأمر. لعلك الإنسان الوحيد القادر على إقناعها...».

سألت ببعض الحدة: «لمَ أنا بالذات؟» كانت تلك الكلمات الأولى التي نطقتُ بها: لمَ أنا بالذات.

«لأنه... هكذا...». لم تكن مطلقاً مشوشة الفكر. بل كانت تفصح بالتلميح.

أضافت: «إنها لا تفعل شيئاً سوى التحدث عنك...».

سقطتُ مجدداً في صمت مطبق. أكان ثمة دهاء وراء تلك الكلمات؟ أكانت كلمات محسوبة؟ قلت لنفسي كلا: إنه فقط مجرد طلب للمساعدة، إلا أنها كانت تتطلبها بطريقة فظة. كنت أعرف جيداً أنها امرأة متبجحة، امرأة تنتمي حقاً لطراز آل «لو بريستي»، وعدتُها: «حسناً... سآتي... ولكن بصحبة «كارلو مارتينيز». سأتصل به تواً

لأسمع رأيه...».

اتصلتُ بـ«مارتينيز»، واتفقت معه على الذهاب للتحدث مع «مارشيلا» في مساءِ اليوم التالي. طلبت منه أن ينبئ والدة الفتاة بالزيارة.

***

كان مشهد الحوض الخاوي أول ما أصابني بالدهشة. كانت «مارشيلا» شديدة الشحوب، لكنها لم تكن فاقدة لوزنها، ولم يكن يبدو أنها تعاني. كانت متزينة باعتدال. ربما كان عليّ أن أنتبه أكثر إلى ما كان يبدو عليها من شرود، وإلى نظراتها المترددة، وإلى شيء ما منطفئ، وكئيب أجهله ينبعث منها. بيد أني وضعت كل شيء بدا لي في ما يشبه العلبة المعطَّرة المغلقة، دون أن أدرك أن الأمر لم يكن يتعلق بعلبة بل بنفق مظلم. لم أنتبه حتى ذلك الوقت أن عمر «مارشيلا» اليافع لم يكن إلا مجرد معلومة رسمية خاصة بالسجلات لا أكثر، فلقد كانت عجوزاً بداخلها، وكانت كل أفكارها راشدة، بل طاعنة في السن.

حينما رأتني لم تأب إلا أن تكشف عن سعادتها. قالت وعلى وجهها تعبيرات استياء لتوبخني: «أخيراً ظهرت»، وقد تجاهلت تماماً «مارتينيز»، الذي راح يتفحصها بشدة باهتمام الفضولي والعابس معاً.

حتى أمها فقد استقبلتنا بأفضل ما بوسعها. كان شعرها رمادياً معقوداً عند مؤخرة رأسها؛ وصدرها كبيراً، وواسعاً، ومشدوداً بقوة بواسطة صدرية ذات ألوان زاهية؛ وكانت ترتدي تنورة تنتهي فوق ركبتيها الممتلئتين. شدّتني «مارشيلا» سريعاً إلى غرفتها ذات الأبواب المفتوحة

على مصراعيها. كانت غرفة مختلفة تماماً، ليس فقط لأن الحوض كان خاوياً، ولكن بسبب النظام الذي كانت عليه، ونظافة السقف والجدران التي طُليت حديثاً باللون الأبيض، وللفراش الذي كان يمتد فوقه غطاء معطر ونظيف للغاية.

«وماذا عن سمكتك «الملاك» ذات الزعانف المنتفخة؟».

لم يكن ينبغي عليّ سؤالها هذا السؤال، أو، على الأقل، ليس بهذه الطريقة القاسية. لكنها حينما قررت الإجابة لم تكن مضطربة على الإطلاق. قالت بعدم اكتراث شديد للغاية: «لقد ماتت».

«ماتت؟».

ابتسمتْ: «وما الغريب في هذا؟ لقد أخبرتك بأنها كانت تحتضر».

أما الأسماك الأخرى فقد قامت بإهدائها. «عما قريب سأُهدي الحوض أيضاً. فثمة أشياء تنتهي. إني الآن أبغض أحواض السمك، إنها تغرس بداخلي حزناً لا حد له».

أبديت اعتراضي، لأن ما حدث لم يكن بتلك الأهمية التي تجعلها تتهم نفسها بهذا التحول الكبير في الشخصية. كان لا بد من وجود شيء أشد أثراً وأهمية جعلها تصل إلى هذه الحالة. حينها، سارعتْ بقول أهم ما في الموضوع: «يجب أن تصدقني. إني أتغير من لحظة لأخرى. إني أغدو دوماً أكثر ضعفاً. من يدري لعلك أنت السبب وراء كل هذا؟».

«أنا السبب؟».

أومأتْ بالموافقة. «في وقت ما كنت أحب التجارب المثيرة، كانت المآزق تجذبني، أو بالأصح، كانت تجذبني فكرة تحدي تلك المآزق. لقد

ضاجعت أكثر من رجل في وقت واحد، لقد شاركت في مضاجعات جماعية: أتعرف ماذا أقصد يا بوونوكوري؟ كنت أعشق كل ما يُحدِث دوياً يمكنه أن ينفجر في الرأس. كنت مستعدة للذهاب إلى المرقص، أو إلى ملعب كرة القدم كل مساء. كنت أحسب أن الحياة لا معنى لها دون عنف. بعدئذ، في يوم ما، شعرت فجأة بنفسي وقد تغيرت، أحسستُ بالاشمئزاز من نفسي ومن حياتي».

سألتُ بسذاجة: «وهل لي علاقة بكل هذا؟». أفلحت «مارشيلا» كعادتها في أن تجعلني أفقد توازني، وأن أشعر بالاضطراب. شعرت بأني أحمل على كاهلي ثقل كل مشاكلها. راحت تضحك. «بالطبع كلا. إني كنت أمزح في البداية. إنك تروق لي يا بوونوكوري، ولعلني أحبك أيضاً كما اعترفت لك مرات كثيرة، ولكن، لا علاقة لك بما يحدث لي. إن كنت أتغير، أو إن كنت قد تغيرت فالسبب الوحيد يكمن بداخلي. ينبغي أن يكون سبباً رهيباً...».

«ماذا تقصدين؟».

«لا أعرف. إنه إحساس مسبق داخلي».

في تلك اللحظة بلَغَنا صوت أمها ليخبرنا بأن القهوة كانت جاهزة، ويدعونا للاجتماع كلنا معاً. توجهتُ بسرعة نحو المطبخ؛ أما الفتاة فتحركت بتؤدة وعلى غير رغبة منها.

ولكي أبرر غيابنا الطويل داخل الغرفة، أخبرتُ «مارتينيز» بأمر حوض الأسماك، وبتعجبي، وبأسفي أيضاً لأن «مارشيلا» كانت قد تخلصت منه. لم يكن أسفي من أجل الحوض الزجاجي الذي كان لايزال في الغرفة، بل لكل ما كان يحتويه بداخله، ولأجل الأسماك. أما

«مارشيلا»، التي كان بوسعها جيداً التزام الصمت، فراحت تحكي، لا أدري لما، بشكل مفصل للغاية، وقاس عن سمكتها «الملاك»، وكيف كان وجهها مفعماً بالتعبيرات، وعن لون عينيها، وعن فمها الذي كان يتحرك بطريقة غير طبيعية، ومتألمة تزداد كل يوم سوءاً عن اليوم الآخر، إلى أن أتى صباح توقفت فيه فجأة عن اللهاث. ألقت كل منهما نظرة الوداع إلى عيني الأخرى، ثم استدارت بطن السمكة إلى الأعلى، بينما كان السمك الأحمر الصغير يركض في كل مكان، ثم يلتف حولها وكأنه يدرك أنه قد وقع ما لا يمكن إصلاحه. قالت «مارشيلا»: «في تلك اللحظة خيّل لي أني قد وعيت حقيقة مهمة لم أفكر فيها من قبل، إنه من الغباء الشديد الجزم بأن الحياة تستحق عناء أن نعيشها أو لا تستحقه».

طلب منها «مارتينيز» بوجه عابس: «فلتشرحي الأمر بصورة أوضح».

تطلعت «مارشيلا» إلى يديها، ثم رمقتني، وابتسمت: «أقصد أن الحياة يجب أن تُعاش كما هي. إنها تجربة بالتأكيد، بيد أنها تبدأ وتنتهي دون أن تؤدي إلى شيء. إنها كعود ثقاب يشتعل في الظلام الدامس للّيل، وسرعان ما يخبو دون أن تُفلح في رؤية شيء مطلقاً. إن هذا كل شيء يا عم كارلو».

تدخلت الأم: «أعرف أنا ما تريد قوله. إن الحياة ينبغي مكابدتها وحسب، في عمرها هذا، إن هذا لجنون».

ظننت حينها أن «مارشيلا» كانت سترد على ما قالته أمها، ولكنها صمتت، وكأن أمها لم تتفوه بشيء مطلقاً. لم تبد أية مقاومة ولا حتى

لـ«مارتينيز»، الذي كانت قد اعتادت منذ طفولتها على أن تناديه باسم «عم كارلو»، عندما طلب منها أن تذهب إلى المستشفى للعلاج وفق نصيحة الممرض. اقترح «مارتينيز» عليها أن يصطحبها بنفسه في سيارته. قالت «مارشيلا» ولكن بنبرة مجاملة مصطنعة: «لا داع لهذا يا عم كارلو».

في أثناء ذلك أخذت الأم من أحد الأدراج صندوقاً مملوءاً بالصور، وأفرغت ما فيه على المنضدة. تابعتُ كل حركاتها باهتمام ولهفة. شيء ما بداخلي أنبأني بالحركات التي كانت ستقوم المرأة بها، حتى من قبل أن تنهض من على مقعدها. كنت أتساءل: كيف كان لي أن أعرف تسلسل تلك الحركات قبل أن تحدث، حركة وراء حركة: درج الخزانة الذي يُفتح؛ الصندوق الكارتوني الذي كان يُستخدم سابقاً لحفظ الأحذية، والذي كان يخرج بصعوبة من الدرج؛ ثم المرأة وهي تفرغ محتوى الصندوق أمامنا. لقد كان بالتأكيد طقساً من الطقوس نمارسه جميعاً في ظروف معينة. في تلك الحالة كان الهدف من ذلك الطقس توجيه الشكر لنا ولاسيما لـ«مارتينيز»؛ ولكي تُذكِّره الأم، وتذكرني أيضاً، أن «مارشيلا» كان لها أب، وأننا كنا أصدقاء مخلصين له.

ما إن تبعثرت الصور على الطاولة حتى أمسكت ببعضها بنهم يدفعني إليه ولعي الشديد بالصور. حتى «مارتينيز» فعل مثلما فعلت. كان بالطبع أكثر حرصاً وتردداً. قلت له وأنا أعرض عليه صورة بالأبيض والأسود مقاسها ثمانية عشر سنتيمتراً طولاً وثلاثة عشر عرضاً، ويملأ سطح الصورة بالكامل وجه أبي «مارشيلا»، وخوذته ذات اللون الفاتح، والمثبتة جيداً فوق رأسه: «فلتنظر لهذه!». كانت قد اُلتقطت

فوق الجسر الشمالي: حيث يُرى في الخلفية، بعيداً، المفرِّغ «درافو»، وسفينة سوداء مبحرة فوق سطح البحر الهادئ. أثارت تلك الصورة دهشتي لاسيما للشبه الشديد بين الأب وابنته؛ فالخطوط في وجههما لها الانحناءات نفسها، كما هي مثلاً عند منطقة الفكين السفليين؛ وأنفه الرقيقة، والمعوجة قليلاً عند نهايتها، التي ليست بأقل جمالاً من أنف «مارشيلا»، رغم أنها بالطبع أقل رقة، وأكثر إثارة للضحك. وأخيراً، العينان: واسعتان، وحزينتان، وغارقتان هما أيضاً في شيء من الحَوَر.

انتصبت «مارشيلا» واقفة، وغادرت المطبخ دون أن تتفوه بشيء. ظاهرياً لم ينتبه أحد إلى اختفائها، ولكن، في الحقيقة، انتهزنا جميعاً الفرصة لكي نتحدث بحرية أكثر عن الماضي والحاضر، وعن «مارشيلا» نفسها، وكيف أنها، حسب رأي أمها، «مجنونة وغير عادية» و«متمردة وخطيرة» أيضاً (من يدري ماذا كانت ستضيف أيضاً، لولا أن «مارتينيز» أوقفها بطريقة غير مهذبة: «ولكن ألست أنت أمها؟ أليس كذلك أم لا؟»).

تعرفتُ بحماسة فاترة على نفسي في صورة جماعية اُلتقطت كأغلب الصور الأخرى في المصنع: كنت أقف في صف أمام مائدة المأكولات في قاعة الطعام؛ كان والد «مارشيلا» يقف خلفي مباشرة في وضع جانبي، بحيث يظهر وجهه الأرستقراطي، وشعره الأشقر المائل للاحمرار، وانطباعاته السعيدة والواثقة من أنه موجود في قلوب الجميع وعلى ألسنتهم. كانت تغطي رؤوسنا قبعات تشبه تلك التي يرتديها البحارة (كانت جزءاً من ثياب العمل الرسمي، وكانت مصنوعة من مادة مضادة للاشتعال). أصابني مظهري الشاب بالدهشة،

كنتُ أبدو وكأنني أحد الطلاب، ولم يكن وجهي ينسجم بتاتاً مع هذا الجمع الموجود في الصورة. كان على وجهي تعبير بالتعالي الممزوج بالاشمئزاز: وجه يستحق الصفع كما نقول عادة. كنت أرمق المُصور بنظرات لا تحمل أي شعور بالصداقة، على عكس أبي «مارشيلا»، الذي كان يحدق فيه مبتسماً، بل بود أيضاً.

أمن الممكن أنني كنت رفيق عمل غير ودود، ومنغلقاً على نفسي داخل سجن طموحاتي؟ استرجع عقلي كل مظاهر العداوة (التي كابدتها من الآخرين وليست تلك التي أضمرتها لهم)، والسخرية التي لا أزال أتعرض لها إلى الآن من حين إلى آخر: يا «بوونوكوري» مَن تظن نفسك؟ يا «بوونوكوري» إنك لا شيء على الإطلاق...

لحسن الحظ وقعت عيناي على صور أخرى: صورة «مارشيلا» وهي طفلة، تحملها أمها بيد واحدة (في تلك الصورة كانت «نصف العاهرة» تبدو وكأنها إلهة)؛ وصورة أخرى لـ«مارشيلا» فوق كتف أبيها بينما تركل بقدميها؛ وصورة لها أيضاً وهي كبيرة قليلاً، في الحادية أو الثانية عشرة من العمر، بضفيرتين داكنتين، وبنظرة فيها حور، وهي تحدق في المصور بعيون منحرفة تماماً.

أوضحت الأم: «إنها تصاب بالإرهاق من أي شيء حتى ولو كان قليلاً، فبعض درجات السلم تكفي لإتعابها. إذا خرجت، فعقب ربع ساعة من السير لا تستطيع أن تقف على قدميها، وتصير منهكة تماماً. إني متأكدة أنها ذهبت الآن لكي تستلقي على الفراش».

نظر إليّ «مارتينيز». لعله كان يريد أن يبقى بمفرده مع أم «مارشيلا»، لكي يناقش معها بعض الأشياء. قال بصوت خافت، وبكل العذوبة التي

كان بوسعه التعبير عنها: «أيزعجك إن ذهبت لترى كيف حالها؟ لعلها بحاجة لشيء ما». وجدتها كما كانت أمها قد توقعت، مستلقية على الفراش. قالت: «أشعر بالإنهاك، يحدث هذا لي كثيراً. لعلني مصابة بالعفونة بداخلي».

قعدت بجوارها. «إنك حقاً فتاة غريبة: غبية وذكية في الوقت ذاته. على أي حال، في بعض الأحيان تنطقين بأشياء غير معقولة».

«أأقول حقاً ترهات كثيرة؟».

«أخشى أن يكون هذا صحيحاً».

«لدي الآن واحدة منها على طرف لساني، يا للخسارة...».

«لا أصدق أنك تخشين أحداً، فلتقوليها إذن».

«فلتعرف يا بوونوكوري إنني سأموت، سأرحل وفي قلبي أسى لأنني لم أضاجعك ولو لمرة واحدة، فالأسى الوحيد الذي سيصحبني هو أسى العشق. إنني جادة في ما أقوله، إنني لم أعرف أبداً رجلاً حقيقياً».

لم تكن تمزح. كانت عيناها تلمع بالسخرية، ولكنني متأكد من أنها لم تكن تمزح مطلقاً. شددت على يدها بود، ورفعتها نحوي، وللمرة الأولى لمحت وشماً يطوق معصمها الأيسر كالسوار. كان وشماً منقطاً ذا لون أزرق فاتح به أشعة وردية، وله أناقة غامضة.

أثارت دهشتي سعادتها: «أيروق لك يا بوونوكوري؟ من الواضح جداً أنه يروق لك. ليس هذا وشمي الوحيد، فلدي واحد آخر عند خصري، إنه رفيع كالشريط المطاطي، يبدو وكأنه حافة السروال الداخلي، أترغب في رؤيته؟».

كدت أصرخ في وجهها: «إنك مجنونة؟ أتدركين أن أمك و«كارلو

مارتينيز» جالسان هناك؟ وحتى لو لم يكونا موجودين معنا، ينبغي عليك أن تُظهري لي بعض الاحترام».

راحت تحدق إلى السقف متبرمة، قالت: «أرجوك، لا توبخني. من يدري متى سنرى بعضنا مرة أخرى؛ بل لعلنا لن نرى بعضنا أبداً. إنني أعرف كيف تتصرف، إنك تظهر لتحنو عليّ قليلاً، ثم تختفي ثانية لدهر كامل. ما فائدة هذا؟ أليس من الأفضل أن تختفي إلى الأبد حتى تتيح لي الفرصة، لا أقول لكي أمحوك من رأسي، ولكن، على الأقل حتى أكف قليلاً عن التفكير فيك؟ فمثلاً، هذه المرة، ماذا أتى بك؟ فأنا لم أدعُك. أأتيت بمحض إرادتك».

لم يكن صحيحاً، ولكني أومأت بالموافقة. حينئذ شعرتُ بالارتياح، فتخلت عن وضعها المستلقي على الفراش، ورفعت نصفها الأعلى، وأسندته إلى الجدار. كان لها لون يوحي بأنها سليمة متعافية، لون برونزي طبيعي، وعلى وجهها تعبيراتها الماكرة والساخرة المعتادة حينما تكون في أحسن حالاتها. كنتُ بحاجة لقدرة كبيرة على التخيل لكي أفترض، وأصدق أنها مريضة للغاية، وبحاجة لفحوصات طبية. كان شعرها ينسدل حتى كتفيها في جدائل متموجة غجرية؛ أما الشفتان فمرسومتان بلون أحمر ناري فاتح يمتاز عن لون بشرتها الأكثر قتامة. قالت: «لدي سؤال أريد أن أسألك إياه منذ فترة، ولكن، أتعدني بألا تغضب؟».

كانت جادة وهادئة، بل إنها لم تكن تجرؤ على النظر في وجهي مباشرة. «أود أن أعرف: هل تخبر «روزاريا» حينما تأتي إلى هنا؟».

هززت رأسي بقوة. كان بالتأكيد يبدو على وجهي الخوف، لأنها لم

تتردد في تصديقي بسرعة: «أتريد أن تقول إنها لا تعرف شيئاً عنا».

لم أستطع أن أفعل أفضل من وضع يدي على عيني، وكأنني أحاول ألا أرى شيئاً. كنت مذعوراً. أما هي فكانت متألقة. كانت ترمقني بعينين معوجتين، وكأن حَوَراً شديداً داهمهما، حتى أن إحداهما خرجت تماماً عن مسارها لتبحث عني دون أن تجد الطريق إليّ.

في ذاك المساء، بينما كنا نسير على قدمينا عائدين إلى وسط «بانيولي»، لاحظت أن العجوز «مارتينيز» كان يبدو عليه القلق، والتجهم. لحسن الحظ لم تكن تمطر، ومع هذا كانت الطريق مبتلة، ومملوءة بالبرك الصغيرة، والسماء تغطيها سحب سوداء. توقف فجأة. قال: «يا بوونوكوري أخشى أنك تلقي بنفسك في بحر من المشاكل».

لم أجب. من ناحية أخرى ماذا كان يمكنني أن أقول؟ لقد كان الحق معه؟ كنت مدركاً لذلك؟ استأنفنا السير في صمت لفترة طويلة، إلى أن قرر هو العودة للحديث مجدداً، فقال: «في الواقع، ثمة طريقة للخروج من هذا المأزق بشرف، ودون أن يتأذى أحد. لقد اقترحت عليك مرة بأن تتحدث عن الأمر مع «روزاريا». فلتجعلها تساعدك...».

أمسكتُ ذراعه بحدة فاجأته: «أتعتقد أنني لم أفكر في هذا من قبل؟».

يا إلهي، لقد فكرت طويلاً في هذا الأمر! بل لمرات عديدة كنت على وشك مواجهة الأمر معها –وجها لوجه– أحياناً ونحن على الفراش، أو في المطبخ، أو عقب المجامعة مباشرة. لكني دائماً ما كنت أتراجع في اللحظة الأخيرة، لمَ؟ إن الأمر بسيط: لأني كنت مقتنعاً بأنها لم تكن لتصدقني أبداً، ولأنه لم يكن باستطاعتي مطلقاً أن أبرر لها عدم إفصاحي

لها عن لقاءاتي المتكررة مع «مارشيلا»، وأخيراً لأني كنت قادراً على تخيل إجابتها لي: غضب، دموع، وسباب. «أكنتَ تريد مساعدتها؟ أكنتَ تريد مد يد العون لها لكي تتخلص من مشاكلها؟ أكنتَ ترغب في أن تكون أبوياً ومحسناً نحوها؟ إنك كاذب خسيس يا بوونوكوري. لك مطلق الحرية في أن تخدع نفسك، ولكن لا تخدعني، لن تستطيع أن تخدع روزاريا، ولتعرف أن علاقتنا قد انتهت...».

-24-

إن لم تكن الكآبة هي سمة الجولة مع «تشونغ فو»، فلقد كانت «العشوائية» الشديدة الغالبة عليها. لا أريد القول إنها كانت جولة فاشلة (بالعكس فقد التقينا «تشيزاري أفوليو»، وزرنا ورشته الواقعة تحت الأرض، التي أثارت لدى «تشونغ فو» الكثير من الفضول: فلقد كان (very, very curious)، ولكن أفسدها المطر الشديد. رحلنا من «بانيولي» عبر مترو الأنفاق الذي كان هادئاً تقريباً، بلغنا ميدان «كافور»، وكانت السماء ملبدة بالغيوم. لم نلبث أن نقفز داخل إحدى الحافلات المتجهة إلى شارعَيْ «دوومو» و«ريتيفيلو» حتى راحت تمطر مطراً يكاد يشبه طوفان النبي نوح. لحسن الحظ، كنا قد جلبنا معنا مظلاتنا. كل حين كان «تشونغ» يرفع مظلته، ويهزها لي تحت أنفي وكأنها كأس ربحه، ويسألني بالإيطالية: «هل أنت راض؟».

كان قد بدأ في التحدث قليلاً بالإيطالية. أظن أنه كان يتلقى دروساً على يد مترجمته. كان يستخدم الأفعال في صورتها المصدرية، ويعقبها بالأسماء. كان يحاول تجنب النعوت، وكلما لم يستطع تحاشيها كان يلجأ إلى الإنجليزية. حين بدأ هطول المطر قال لي: «الجولة أوكي... تشونغ فو لا خوف مطر... مطر أوكي».

هبطنا من الحافلة في ميدان «نيكولا أموري»، واحتمينا من المطر داخل أحد المقاهي. أشرت إلى السماء أمام «تشونغ»، كانت مثقلة بالسحب حتى أنها كانت تبدو غير قادرة على احتوائها كلها. كانت ثمة أحجام وكثافات مختلفة، من اللون الأسود إلى البني، وكانت توحي

وكأنها مشاجرة أمام أحد المحال، أو كأنها جموع حاشدة غير منتظمة وعدائية. كان لبعض الغيوم، وليس لأغلبها، وجوه: عين، وأنف، وفم. استدعت إحداها إلى مخيلتي وجه «تشونغ فو»: فقد كان لها الشكل نفسه المثلث، والوجنتين البارزتين، والمستديرتين نفسيهما، ولاسيما التعبيرات الغامضة نفسها. كانت غيمة أخرى تشبه «أفوليو» تماماً، وكانت هي ما ترسل لنا آنذاك ذاك المطر العنيف. رَعَدَتْ مدوية، فانتفضنا معاً لصراخها: أمسكته من كتفيه وكأنني كنت أمنعه من السقوط. أما هو فراح يضحك.

سألته إن كان يرى سحابة تشبهني أنا أيضاً. مرر إصبعه، فوق أنفي، وذقني، وعيني، وفمي مراراً، لم يكن يفهم مع أني كنت أعيد عليه السؤال مستخدماً كل مرة كلمات أكثر بساطة سواء بالإيطالية أو بالإنجليزية. حينما، أخيراً، فهم قصدي، تطلع إليّ بتعجب، وقلق وكأنني كشفت له فجأة عن إنسان ذي طبيعتين مختلفتين. حينئذ، قلت له بعض الهراء، ربما لأثير غيظه: إن الناس في «نابولي» لهم علاقة خاصة وحميمية بالغيوم، لأن «نابولي»، برغم اعتبارها مدينة مشمسة، فالمطر فيها لا يتوقف أبداً. ثم أكدت له: «إن الغيوم هي أفكارنا الشريرة، إنها مآزقنا وما يؤرق بالنا، إنها (ours troubles, mister Chung)».

ثم أخذت أحدثه عن كتاب «لاسمورفيا»، كتاب الأحلام والأرقام. كنت قد حدثته عنه من قبل (ذات مرة، ولما كنتُ قد رأيت «تشونغ» في الحلم، فقد أقنعته بأن يلعب معي اللوتارية على رقمين: الرقم سبعة الذي يمثل الصديق الغاضب، وأربعة وثمانون ويمثل الرجل الصيني)، أضفت بطريقة قاطعة: «إننا نحلم بالسحب كثيراً».

حاول أن يقاطعني لكي يقول شيئاً، ولكني لم أعطه الفرصة، وأكدّتُ مرتجلاً: «أعرف جيداً جداً أن في الصين لعبة تشبه لعبة اللوتارية، وأعرف أنكم تعطون أهمية كبيرة للأحلام».

لم أكن أعرف شيئاً في الحقيقة عن هذا، كنت أريد فقط أن أجعله يصمت. لم يكن الأمر صعباً، تطلع إليّ مستسلماً ورأسه مائلة في علامة على الإنصات. قلتُ له في الوقت ذاته: «فلتعرف أنه إذا ما رأى أحد هنا في منامه غيمة لا معنى أو ملامح لها، فثمة رقم واحد تشير إليه وهو رقم ثمانية. أما إن كانت السحب كثيفة فالأمر عندئذ مختلف، إنه يعني أن بعض صفقات العمل ستتوقف، أو بعض الرحلات ستُلغى، وفي هذه الحالة فالأرقام المتوفرة كثيرة، وينبغي التفكير جيداً، وطويلاً، وعميقاً بالأمر. إن سحابة بيضاء بسيطة تشير إلى الرقم خمسة، أما السوداء فرقمها اثنان. أما إن رأى أحد الشمس عبر الغيوم؟ أحياناً ما يحدث هذا، ويحسبه الناس حلماً ممتازاً، ويعني النجاح، والأمل، وحلاً مفاجئاً لمشكلة ما، والرقم الذي يتوافق مع هذا الحلم هو خمسة وثمانون. أما أربعة وثمانون فيعبّر عن سماء تتناثر فيها غيوم صغيرة، ونطلق عليها سماء النعيجات (فكم من معانٍ يمكن أن يشير إليها رقم واحد!). فإلى ماذا ترمز تلك الغيوم الصغيرة؟ يتأرجح الأمر بين التعبير عن عدم الرضا عن النفس، وعن حقد الآخرين، أي إنها ترمز عموماً إلى شيء سلبي يداهم حياتنا. إن الأرقام المرتبطة بالسحب كثيرة، لا تُعد ولا تحصى. فعلاوة على رقم ثمانية، وخمسة، واثنين، تستحضر ذاكرتي اثنين وعشرين، واثنين وستين، وثلاثة وثلاثين، وواحد وأربعين، وتسعة، وستة وثمانين، وأربعة وأربعين. ولكن، هذه فقط الأرقام التي

أتذكرها أنا. وها هو رقم آخر تذكرته الآن، وله أهمية كبيرة: إن رأى أحد في منامه غيوماً، ومطراً معاً، أي حالة جوية كتلك التي نشهدها أمام أعيننا الآن، فالرقم الذي ينبغي اللعب عليه هو ثلاثة وخمسون. لا يُعد هذا حلماً جميلاً، فهو ينبئ بصعوبات، وأمراض، ومشاجرات. يا «تشونغ»، منذ يومين فقط، رأيت في الحلم مطراً، وغيوماً. حينما استيقظت، ورغم عدم تذكري لما رأيته في منامي، لكني أدركت أني قد رأيت حلماً سيئاً: عرفت هذا لأني كنت مصاباً بالدوار والغثيان. ساعتها تذكرت فوراً جدتي: ففي حالات مثل تلك، كانت تعد لي شراباً من أوراق الغار الممزوجة بزيت الزيتون، بحيث كان يمكنني أن أبلل قطع الخبز فيه، وآكلها، إن استطعت استساغة ذلك المذاق. لكني كنت مرغماً بقية اليوم على الامتناع التام عن تناول الطعام، وكانت جدتي تقوم على مراقبة ذلك بصرامة شديدة. كانت هي أيضاً خبيرة في تفسير الأحلام؛ كانت تعرف كتاب «لاسمورفيا» عن ظهر قلب، وأحياناً ما كانت تحكي لي عنه وكأنه كتاب للأساطير، كما كانت تقص عليّ أحلامها المعقدة، التي كانت ترى فيها عادةً سحابة حمراء. كان هذا يحدث ولاسيما في الصيف، عندما كنا ننتقل إلى «بانيولي» للتصييف. بين الفينة والأخرى كنت أرى أنا أيضاً تلك السحابة، وكما كان يحدث لجدتي، فلم يكن يتعلق الأمر بكابوس مطلقاً. في الصباح كانت تطلب مني أن أصف لها الغيمة بطريقة مفصلة: أكانت كبيرة أو صغيرة، مُفتتة أو متماسكة، مضيئة أو منطفئة، أكانت تستدعي إلى المخيلة مشهد الدماء أو البطيخ، أكانت سحابة وحيدة، أو كانت برفقتها سحب أخرى، أكانث سحباً حمراء في وقت الغروب، أو

ليلية في سماء رمادية زرقاء. في كل الحالات كان يَصعب أن تُفسر رؤية السحب الحمراء على أنها فأل سيء. كانت تقول إن تلك السحب تعني حباً خالداً، وهوى شديداً، يمكن أن يدوم طيلة العمر. وفي بعض الأحيان كان علمها الغامض ذاك يحقق بعض الانتصارات الصغيرة. فلقد استطاعت أن تحقق، هنا، في «بانيولي»، الفوز الأكبر في حياتها، ربحتْ ثلاثة أرقام كانت قد توقعتها: ثلاثة وعشرون (وهو رقم آلة الصب، التي لم يغفل عن ذكرها كتاب «لاسمورفيا»، وكانت جدتي قد رأتها في منامها رغم أنها لم تر مثلها أبداً في الواقع) وثلاثة وثمانون (رقم المصنع) وخمسة وأربعون (رقم الحب الكبير أو السحب الحمراء ساعة الغروب)».

توقف هطول المطر فجأة، وحدث بعض الهرج والمرج في السماء. كتلة كبيرة من السحب سوداء اللون كالفحم تمزق أحد جوانبها، فولجت قطع قطنية منيرة مبهرة في تلك الثغرة التي راح ينتشر فيها بخار كان يمكن فيه رؤية قطرات الماء الدقيقة، والمعلقة في الهواء.

أمسكت بذراع «تشونغ فو»، وأجبرته على الركض محذراً إياه باستمرار ألا تجرفه النهيرات التي تكونت بفعل هطول المطر. لم تكن شقة جدتي بعيدة: زقاق وبعده زقاق، فميدان، فزقاق آخر، حتى كدنا نصل إلى الميناء. يرتفع المبنى لسبعة طوابق، ولذا فقد صار الخليج كله تحت أقدامنا، والبحر، والرافعات الضخمة، والسفن العابرة للمحيطات. كانت السحب وكأنها في متناول أيدينا. وكما يمكنك التخيل، فإني كنت أعلم جيداً أن ذلك السطح كان سيقدم لـ«تشونغ فو» أفكاراً، ومشاعر مؤثرة للغاية. بيد أن الشيء الذي لم أكن أتخيله أنا نفسي، هو

أن نتيجةً لظروف الطقس تلك، فقد كان المشهد من الأعلى يصيبني بالدهشة، والتعجب، وكأنني قد نسيت تماماً ما يمكن لذلك السطح تقديمه لزائريه.

تمتم «تشونغفو» بصوت مذهول: «Magnificent, very magnificent!».

لم يكن ليحدث أفضل من هذا: كان كل شيء رائعاً حقاً، كان مشهداً لم ترسمه ريشة رسام من قبل. كان كل شيء خلقه الله حاضراً فيه: كتل ضخمة كالجبال تتعامد رأسياً فوق بعضها، وتغطيها رؤوس شتى؛ وطبقات من الغيوم؛ وسحب فاتحة اللون قطنية عالية، وأخرى مستديرة قاتمة منخفضة، وسحب بيضاء شفافة ترتفع في السماء العليا، وزوبعة من مخلوقات هائلة، مهددة، منذرة، ومتوعدة تعصف في حرب شعواء في ما بينها.

كانت «كابري»، وشبه جزيرة «سورينتينا» متواريتين تماماً عن الأنظار. كان بخار بنفسجي يرتفع كالجدار فوق البحر متوعداً الساحل من على مسافة عشرة أميال وكأنه ستار مسدَل خلف الميناء الذي بات ينتظره مصير مخيف. حيثما غاب البخار والضباب، كان ثمة نور بلوري يجعل حواف المشهد تكاد تتلألأ وتبرق من أثر التباين الضوئي، وكأن كل شيء قد رُسم بقلم الباستيل الأبيض على ورقة زرقاء اللون.

على رصيف الميناء إلى اليسار من المظلة الكبيرة، كانت تمتد سفينة البريد المتجهة إلى «باليرمو». لم ألمح أي نشاط على متنها. كانت البوابة الواقعة في المؤخرة التي تؤدي إلى المخزن مغلقة، مما أوعز لي أن السفينة لم تكن لترحل ذاك المساء، أكان ذلك نتيجة لحالة البحر المضطربة؟

لمحت بطرف عيني «تشونغفو»، وقد هم بتسجيل بعض الملاحظات

في مُفكرته. يا إلهي، ما الشيء الذي أثّر فيه هكذا؟ فلم تكن في الجوار أي سفينة عابرة للمحيطات. كانت الساحات خاوية ودون أية حركة رغم اكتظاظها بالسيارات المتوقفة. قلت في هدوء إلى صديقي الصيني: «أرأيت أن الحق معي يا «تشونغ فو»؟». «ولكن أي ميناء هذا؟ إنه كقشرة بيضة كبيرة جوفها خاو، فلا شيء يحدث به مطلقاً. إنه ميناء خدعة، أو أضحوكة، إن كنت تفضل هذه الكلمة. إنه يغرق تحت وطأة ثلاثين عاماً من الاحتضار الصناعي المتواصل. فلتسجل هذا! لقد اختفى ما لا يقل عن ألفي مصنع، ولعلها ثلاثة آلاف حسب قول البعض. إن التفكير بهذا الأمر ليصيب المرء بالدوار، فكم من أناس رأيتهم بعيني يكون حالهم».

كان كل شيء يبدو أمامي شاحباً بطريقة بشعة. كان سطح البحر هادئاً كالزيت، فلا قارب ولا قاطرة سفن تمخر ماءه. على يمين الساحة الرئيسية كانت البواخر البيضاء، التي تربط «نابولي» بجزر الخليج، تشغل كل أماكن الرسو المتاحة على الرصيف، كانت تبدو وكأنها ملائكة قد خلدت للراحة، فلا باخرة واحدة منها كانت على وشك الرحيل.

كانت المنطقة الشرقية للميناء تغط في سبات عميق هي أيضاً. أصابتني الدهشة حين رأيت سفينة متهالكة للشحن راسية، بحيث يمتد جانبها بمحاذاة رصيف مزود برافعة، وجسر متحرك، وكانت ذراع الرافعة ساكنة بلا حراك أعلى السفينة. للمرة الأولى أبصرت بعض الرجال، كانوا جالسين على قاعدة الرافعة، باستثناء اثنين منهم كانا واقفين، وكان الجميع يثرثرون في ما بينهم متدثرين بستراتهم الملونة. كان يبدو

عليهم وكأنهم يتقاسمون شيئاً في ما بينهم: كانت حركات أيديهم تشير إلى «هات وخذ»، ويطلق الناس في الأزقة على تلك الحركة اسم «بيزينيسّي».

أشرت إلى «تشونغ» ليرى قمة تل «بوسيليبو»، والذي كان يختبئ خلفه مصنع «إيلفا» منكفئاً على نفسه. أجابني قائلاً بأنه كان يعرف تخطيط المدينة. لقد كان يعرف بالتأكيد هذا. أشار إليّ ليُريني غيمة عمودية بيضاء كسحابة الانفجار النووي الشبيهة بالفطر جاثمة في وسط الخليج: للحقيقة كانت هناك منذ فترة، حتى قبل أن نصل. كانت ساقها طويلة، ونحيلة، وتنتهي عند قمتها برأس عريض مُحاط بطوق أكثر بياضاً حوافه مُنسّلة. كان يقطع طريق الفطر طبقات من السحب أكثر قتامة منه، وكان مسارها الأفقي الخادع يكشف لنا عن خطتها للهجوم على الفطر: كانت السحب تنوي سحقه عند أجزاء ساقه الأكثر هشاشة لتهشمه بضربة واحدة. ظاهرياً، كان يبدو أن الصدام حادث لا محالة، ولكن، كان يتأجل وقوعه باستمرار. تنبهتُ ساعتها أن «تشونغ» كان يقول لنفسه أشياء باللغة الصينية، وكأنه كان يهلل متحمساً لجمال المشهد، ويردد «magnificent». «أأنت شاعر يا تشونغ فو؟».

هز رأسه: «تشونغ فو لا شاعر»، قال هذا بنبرة حزينة، وكأنه كان يأسف بشدة لأنه ليس شاعراً. في تلك اللحظة وصل خالي «سالفاتوري» الذي كان قد رآنا ونحن نصل من شرفات بيته. تعانقنا. أحسستُ بجسده النحيف يتكسر نتيجةً لثقل جسمي، وشعرت بالحزن لأجله. لكني حينها تذكرت ما قاله لي يوماً المهندس «لوناردي» بأن الرجال والنساء ذوي الجسد النحيف يشيخون بطريقة أفضل، مما جعلني

أمتدح خالي. قلت له: «أراك بحالة جيدة. إنك نحيف كالأنشوجة»، ثم أبعدته عني بضع خطوات لكي أتفحص جسده كاملاً. وبينما كان خالي يضحك سعيداً، قلتُ لـ«تشونغ فو» «أترى كم خالي جميل؟ وكم هو بصحة رائعة؟».

كنا لا نزال في مرحلة التعارف حينما هبّت تمطر من جديد بشدة. احتمينا بسرعة داخل البيت، ولبثنا به لفترة ليست بالقصيرة.

استمر الحال هكذا طيلة اليوم: أحياناً يهطل المطر وابلاً مدوياً، وأحياناً أخرى تبزغ الشمس لتعاود طلتها علينا مجدداً من وراء الغيمة الأكثر قتامة بين السحب المتراصة في ذلك المشهد. كنا نسير غير مبالين، وفي اللحظات الأسوأ كنا نتوقف لنحتمي أسفل القباب التي تعلو بوابات البنايات مع أناس آخرين، كانوا من فرط استسلامهم للأمر يبدون مستمتعين بما يحدث: لقد قلت لك يا «تشونغ فو» إن النابوليتانيين يحبون المطر: «ألم أقل لك هذا؟».

كنت أراقبه جيداً إحساساً مني بالذنب. أما هو فكان يطمئنني عليه: «إن الجولة أوكي. تشونغ فو أوكي». ولكنني كنت أنظر بقلق إلى حذائه المهترئ، وقطرات الماء التي كانت تتساقط منه، وإلى معطفه الخفيف، وما يبدو على «تشونغ فو» من شعور بالبرد.

توجهت به إلى الزقاق الذي وُلدت فيه. كانت سنين عدة قد مرت دون أن آتي إلى هنا، على الرغم من أنه يقع على مسافة قصيرة جداً من بيت أجدادي، والذي أضحى الآن بيت خالي «سالفاتوري». أشعر بانجذاب شديد نحوه، لكنني أشعر أيضاً تجاهه بإحساس بالرفض، إنه إحساس مزدوج بالحب وبالكره أحسب أنه يعود إلى طفولتي، حينما

كنت أقيم في مدرسة داخلية أو مخيّم صيفي للأطفال، لا أدري بالضبط، وكنت حينها أحترق شوقاً إلى ذاك المكان وتلك القمامة.

ما إن بلغنا الزقاق حتى حثثت الخطى، ولم أكن أخبرت «تشونغ فو» شيئاً عن ذاك المكان المقزز، والذي يمثل أهمية لي: فلا بأس من التعري أمام الصديق، ولكن حذارِ من المبالغة. حينما وصلت إلى بيت والديّ اكتفيت بالنظر إليه بسرعة بينما كنت أسير. كان يتساقط قطعة وراء قطعة. كانوا قد أوصدوا نهائياً الباب الذي كان يؤدي إلى الدور تحت الأرضي بقضيب من الخشب ثُبِّت بمسامير بعرض مصراعي الباب. لم يدهشني المشهد: كانت «روزاريا» قد أخبرتني بالأمر منذ بضعة أشهر، فقد كانت، من حين لآخر، وبِرِقة نادرة، تمر بتلك المنطقة بدلاً مني، فتلقي نظرة، وتسأل أخباراً، ثم في المساء كانت تخبرني ببرود محسوب بما كان ينبغي أن أعرفه، فقد كانت تعي جيداً أن هذا الأمر كان موضوعاً شائكاً لي.

ازدادت خطواتي سرعة، ثم توقفتُ فجأة. كان بعض الأطفال قد كفوا عن اللعب بسببي. «تشونغ فو» كان خلفي بمسافة كبيرة متوقفاً أمام أحد المحال بفضول غريب.

داهمتني رائحة المطر وكأنها بمثابة تحذير تحول إلى هلع في نفسي. فلو هبت عاصفة أخرى الآن، فأين كان سيمكننا الاحتماء منها؟ لكن فكرة أن أظل عالقاً لفترة أطول في ذاك الزقاق، مُعرضاً نفسي لخطر أن يتعرف عليّ أحد ما، جعلتني أفقد هدوئي. زعقت منادياً على «تشونغ فو». طلبت منه، بينما كان الأطفال ينظرون إليّ بعداء، وخشية: «فلتأتِ فوراً!». عندئذ، راح يركض نحوي، ربما لأنه كان يحسب أني أريد أن

أُريه شيئاً غير عادي. أصابني الندم: فماذا كان بوسعي أن أريه حتى أبرر فعلتي؟ شرعت في النظر حولي: أمِن الممكن ألا يوجد شيء في الجوار قادر على أن يروق لخيال «تشونغ فو»، وعلى أن يبرر تصرفي في الوقت ذاته؟

كنتُ على وشك الاستسلام حينما أضاءت أمام عيني صورة ما: كان ثمة وجه بعينين واسعتين لوزيتين، ولِفرط سوادهما كانتا تبدوان وكأنهما قد طُليتا باللون الأسود، أو لعلهما كانتا كذلك حقاً، وأنف ظريفة مدكوكة عند أعلاها، وشفتان صغيرتان مستديرتان لطفولتهما، وشعر أسود قصير يتدلى فوق الجبهة. لم يكن هناك أدنى شك على أصولها الصينية، رغم أن لهجتها كانت لهجة زقاقي نفسها: لهجة نابوليتانية جميلة بحروف صائتة مفتوحة كمراوح النساء في الزمن القديم. لم يكن يزيد عمرها على أكثر من خمس أو ست سنوات. أمسكت بيدها: «ما اسمك؟».

هزت رأسها بقوة، وفعلتُ الشيء نفسه حينما وجه إليها «تشونغ فو» السؤال ذاته ولكن باللغة الصينية. سألَتْه بنبرة تبدو ظاهرياً عدائية، ولكنها كانت تنم في الحقيقة عن ذعر شديد للغاية: «ما... ماذا!!!؟».

***

كنت قد اتصلت بـ«تشيزاري أفوليو» في اليوم السابق على الزيارة، وسألتُه: أيمكنني المجيء عندك؟

«ليتك تفعل؟».

«سآتي بصحبة صديق؟».

«من يكون؟».

«رجل صيني».

«أهو صيني فعلاً؟».

«إنه صيني حقيقي».

«أيمكن الوثوق به؟».

أبديت تبرمي: «أفووو! كُفّ عن الثرثرة!».

كان «تشيزاري أفوليو» قد رحل عن «إيلفا» في اليوم نفسه الذي عرضوا عليه فيه مبلغ مئة مليون ليرة كمكافأة لنهاية الخدمة، بالإضافة لمبلغ آخر لتصفية معاش تقاعده. كانت له مشروعات خاصة به، كان يرغب في أن يبدأ نشاطاً يمتلكه هو، وأن يصبح مستثمراً. فقد كان يقطن في زقاق «لاكوست»، والذي كان يُطلق عليه أيضاً زقاق «ستورتو أل سانتواريو» تكريماً للولع الجماعي هناك بصناعة القمصان، والفانلات ذات الجودة العالية. إلا أن زقاق «لاكوست» كان مشهورا أيضاً بتزييف كافة المنتجات وتقليدها. كانت زوجة «أفوليو» صانعة بارعة للفانلات، وتتقن جيداً عمل أشياء أخرى، لأنها كانت قد عملت في شبابها في مصنع لفساتين الزفاف، وفي بعض الورش المتخصصة في تصنيع المنتجات الجلدية (كالقفازات والحقائب). لكن، بصرف النظر عن الخبرة، فقد كانت موهبتها، التي كان يعترف بها الجميع، هي ما وضعتها في مرتبة عالية بين العاملين في هذا المجال (كانت جميع النساء التي قامت بتجنيدهن للعمل معها من الباطن قبل أن تشترك مع زوجها في تأسيس نشاط خاص بهما، يطلقن عليها «المعلمة»، وكن يفخرن علنا بانتمائهن إلى «مدرسة السيدة أفوليو»).

أقصدُ أن النجاح كان ينتظر منذ فترة الفرصة المناسبة فقط للهجوم

على الزوجين. بمجرد أن دخلت الملايين جيبه، اشترى «تشيزاري أفوليو» بعض الماكينات، والأدوات، واستأجر ورشة كبيرة تحت الأرض وقام بتأثيثها في وسط المنطقة الصناعية، وانطلق بقوة نحو التصنيع الكامل لبعض المنتجات في ورشته، أو التصنيع الجزئي لمنتجات أخرى كان مضطراً لأن يتشارك في تصنيعها مع ورش، وأزقة أخرى عبر نظام صارم، ومحسوب قائم على خطوط للإنتاج والتركيب.

وكما تعرف، فقد باتت صناعات ما تحت الأرض في «نابولي» بمثابة الراية المميزة للمدينة. إنها راية تخفق عالياً فوق الأطلال التي تحيط بنا، لتحتفي بالعمل، وبالجهد الحثيث لجحورنا المنتجة. أرأيت! فلقد صار الزقاق منتجاً، ليس فقط للجرائم الكبيرة والصغيرة، بل للبضائع غير الشرعية، والمزيفة إلى أقصى ما تتخيل، ولكنها، رغم هذا، تظل بضائع بديلة لتلك التي لم تعد تنتجها المنظومة الصناعية الشرعية التي تعاني التردي المتصاعد منذ زمن طويل.

لبثت أسابيع أشرح لـ«تشونغ فو» هذا التشابك الرائع للوقائع الذي جعل من إغلاق أبواب أي مصنع كبير سبباً في مولد مصنع صغير آخر غير شرعي، أو أكثر، في إطار مثالي من الإحلال، والإبدال الإنتاجي. قلت له يوماً، بينما كان يدون سريعاً كلمة بكلمة: «بهذه الطريقة والسرعة فسينتهي بنا الأمر ونجد أزقة نابولي وقد باتت تنتج آلات لصب المعدن، وعربات مسلحة، وسنجدها قد ارتقت إلى مستوى أفضل قطاعات إنتاج البضائع». كتب ما قلته له حرفياً: آلات لصب المعدن، وعربات مسلحة. نبهته بشيء من القلق من ولعه المفرط بتدوين كل شيء: «فلتنتبه! أن ما قلته كان على سبيل المبالغة، أي أنه مجرد قول، أو

مبالغة مجازية». سألني، وقد شعر بالإهانة، ودون حتى أن يرفع عينيه من على دفتره: «هل تشونغ فو رجل غبي؟». استمعت لقوله في صمت.

من جانب آخر، لم تكن تلك المرة الأولى التي تحدث مثل هذه المشادة الودودة بيننا؛ رغم أني، وكما تعلم، كنتُ في تلك الأيام أعمل من أجله (وهكذا أيضاً روزاريا)، حيث كنا نقوم بجمع المعلومات عن موت الصناعة النابوليتانية، التي كان قد أبدى اهتماماً شديداً بمعرفة أخبارها: «I am very much interested in».

وها هو موجز مختصر للملاحظات التي أعطاها الزوجان «بوونوكوري» إلى السيد «تشونغ فو» الجاسوس المزعوم لحساب جمهورية الصين الشعبية. تبدأ الملاحظات من عام 1981. في الأعوام العشرة السابقة على هذا التاريخ، كانت نسبة مشاركة القطاع الصناعي في المنظومة الاقتصادية المحلية قد هبطت من نسبة 38٪ إلى 23٪، وكان قطاع المصانع هو الأكثر تأثراً بهذا الانخفاض، بنسبة صافية تصل إلى 8,4٪. لقد اختفى ألف وثلاثمئة مصنع (بنسبة سالبة تبلغ 15٪)، وحوالي اثنا عشر ألف وظيفة (بنسبة سالبة تبلغ 17٪). هل تغير المنحى في عام 1989؟ كلا، لم يتغير شيء. في غضون ما لا يزيد على ثمانية أعوام، تعرضت خمسمئة وثلاث وأربعون شركة للموت، في مقابل تأسيس تسع وسبعين فقط. لذا، فإن معدل موت المصانع في «نابولي» كان يصل إلى نسبة 47٪، في مقابل 10,4٪ فقط لتأسيس مصانع جديدة: كان الأمر بمثابة انهيار حقيقي.

جعل هذا الأمر أحد الدارسين ذائعي الصيت، مثل «جينارو

بيوندي»، مدير معهد الجغرافيا الاقتصادية في جامعة «فيديريكو سيكوندو»، يبدو وكأنه على وشك أن يشد شعره من الدهشة: فأكد في مستند ما، قدمتُ أنا و«روزاريا» نسخة منه لـ«تشونغ فو»، بأن عملية القضاء على الصناعة في «نابولي» قد بدأت بهدم هياكل ما يمكن أن نطلق عليه القاعدة الصلبة لقطاع الصناعات المحلية. فكيف سينتهي بنا الأمر إذن؟

حينما كتب الأستاذ «بيوندي» هذه الأشياء لم يكن مصنع «إيلفا» قد بُعث به إلى الجحيم بصورة نهائية بعد؛ كان سيحدث هذه عقب فترة وجيزة، ومعه لائحة طويلة من الوحدات الإنتاجية الكبيرة، والمتوسطة، والصغيرة، التي كانت تشكل العمود الفقري لاقتصاد المدينة. كلها ذهبت إلى الجحيم بمباركة النقابات نفسها، والأحزاب كلها، ومن بينها تلك التي كانت تعلن منذ شهور قليلة آنذاك عن أنها تقوم على خدمة الطبقة العاملة. ولم يحدث جراء هذا سوى بعض القلاقل فقط التي لم يكن يمكن الحيلولة دون وقوعها.

***

كان تبقى على موعدنا مع «أفوليو» ثلاث ساعات على الأقل، وكنت أتساءل: كيف كان لنا أن نقضي كل هذا الوقت. في نهاية شارع «أسطمبول»، الذي كنا قد بلغناه منذ فترة وجيزة؟ كان يوجد باب «بورتالبا»، وكنيسة «سانبيترو مايلا»، وميدان «المستشفى» أو ميدان «ميراليا» بالتحديد، الذي كان أبي يعمل على مقربة منه. كان المصنع الأم يقع خارج المدينة في «كازوريا»، ولكن كانت القطع المنفصلة للنعوش تُنحت، وتُركب، وتُلمع هناك بجوار المستشفى.

لم يكن مصنعاً كبيراً، ولا صغيرا، وكانت له مقار تجارية عدة أيضاً في المناطق الأخرى الباقية لإقليم «كامبانيا». طيلة خمس سنوات كنت قد عملت أنا أيضاً في ذاك المصنع عاملاً على آلات التشغيل. في عام 1965 كان عمري حينها سبعة عشر عاماً، وكنت فخوراً وقتها بحصولي على درجة خبير إصلاح ماكينات. كنت أرى أبي فقط في المساء (كنت أعمل في «كازوريا»، وليس بقرب المستشفى مثله). لفرط صمته الشديد كان يحييني بشق الأنفس، ولتعويضي عن ذاك، كان سرعان ما يعطيني قطعة من الخشب، وبعض أدوات النحت الحديدية، ولكن، دون أن ينظر إليّ. فإضافة إلى صمته الشديد، كان أبي رجلاً خجولاً أيضاً.

عندئذ كنت أنكب على العمل في الحال: أحدق في قطعة الخشب المُثبتة في المقبض، وأبدأ في نزع بعض القُشيرات المتموجة منها محاولاً أن أجعل الأزميل يمر بخفة على سطح شجرة الكستناء. وها هي قشرة واحدة، فاثنتان، ثم ثلاثة، فأربعة، فخمسة: نادراً ما كانت اللعبة تدوم لأكثر من هذا. كان أبي دائماً وتقريباً ما يتدخل بعد المحاولة الخامسة. كان يقول: «فلتتمهل لحظة!»، ثم كان يضع يديه على كتفي. كان يمسك بيدي، ويجعلني أقبض على الأزميل كما كان يريد هو محاولاً أن يعلمني ببضع كلمات قليلة، وبنبرة خافتة، وبصوت ناعم غير حاد ولا قاطع مطلقاً. كان قُربه مني يدفعني للاضطراب: كنت أتنشق رائحة سنوات عمره، وكنت أشعر نحوها بالألم والشفقة. كان ذاك الطقس الشعائري يمنح كِلينا شعوراً بالرضا: أحسب أن وهم تعليمي شيء ما كان يعوضه عن الأسى، الذي كان ينتابه لكل تلك الأشياء التي لم يفلح في منحي إياها. لم يكن يسألني شيئاً عن جديَّ اللذَين كنت أعيش لديهما. كان

يعتبرني رجلاً بالغاً انتهى أمر تربيته. في لحظة معينة كان يأخذ الأزميل من يدي، ويدعوني إلى المقهى لاحتساء القهوة. كنت أعترض على دعوته قائلاً: «لكن الوقت متأخر، هكذا لن يكون باستطاعتك الخلود إلى النوم».

كان سعيداً حينما كنت أقول له هذا، حتى عندما كان يتظاهر بعدم الاستماع، أو في أسوء الأحوال، عندما كان يجيبني قائلاً: «يا «فيتشي» فلتهتم لأمر نفسك فقط!».

قلتُ لـ«تشونغ فو» «أترى هذا المقهى؟ كنت أرتاده كثيراً في صغري بصحبة أبي قبل أن يتوقف عن العمل. كان المقهى قد ظل على حاله كما كان في الماضي، وكنت أتساءل: كيف لشيء مثل هذا أن يحدث رغم مرور كل تلك السنين؟. فعلى الأقل قد بقي شيء جميل على حاله في هذه المدينة: إن الزمن قليل الأهمية، فلا يضعك أبداً في موضع الاتهام، بل على العكس، إنه يتيح لك أن تهرم داخل عاداتك وطباعك. لم يُستبدل فيه شيء سوى ماكينة صنع القهوة الإيسبرسو. أعرف لما بقيت الماكينة القديمة في ذاكرتي، فقد كان يوجد في أعلاها ملاك بأجنحة مفرودة وقد أوشك على التحليق».

ما إن بلغنا ميدان «سان دومينيكو ماجوري» حتى راحت تمطر من جديد، بل ترذّ ماء، وبخاراً وكأن مرذاذاً ينثره في الهواء. فتحنا مظلاتنا. كان «تشونغ فو» يسير وهو في غاية التركيز لملاحظة كل شيء: كانت رأسه تبدو وكأنها مرتكزة على نوابض ارتدادية، كانت تدور في كافة الاتجاهات بطريقة متقطعة، ومفاجئة، المرة تلو الأخرى. في شارع «المحاكم»، أو قبله بقليل، فتحتُ أمامه أبواب العشوائية، والتردي، مما

أصابه بالإعجاب، والدهشة. أعطى صدقة لأحد الشحاذين المُقعدين ظنا منه بأنه مقعد حقاً (كنت قد حاولت مراراً أن أنهيه عن فعل ذلك، ولكن دون نجاح)، مما دفعه أن يطلق بتلقائية أربع أو خمس تأوهات «آوه...» جهيرة، عميقة، وصادقة. في ما بعد، توقف طويلاً وكأنه يبتهل في صلاة أمام مستودع متهالك منذ قرون، يُباع في جوفه ذي الأبعاد غير المحددة، وذي الضوء الشديد الخفوت كل ما له صلة بالورق: كتل كبيرة، وأوراق، ولفائف، وصناديق، وعلب، وكارتون. لبثت على مسافة كافية تاركاً له الفرصة لكي يستنفد مشاعره إلى النهاية: لا أحد يدري، فلعل ذاك المتجر كان يستدعي إلى ذاكرته ذكريات بعيدة، وحنيناً، أو ربما شعوراً بالاشمئزاز، فمن يدري؟

لبثنا لوقت طويل دون أن نتبادل ولا حتى كلمة واحدة، وتفصل بين كل منا مسافة، بينما نسير باتجاه شارع «ريتيفيلو». على مقربة من الشارع الكبير، توقفت لأنتظره. كانت السيارات تنطلق بسرعة صاروخية كالسفن الفضائية في حرب النجوم مصيبةً المارة غير الحذرين، والمنتظرين عند حافة الرصيف، بأنصال حادة من الماء والطين. انفجر «تشونغ فو» غير الراضي عن الموقف في سلسلة معتادة، وطويلة من التأوهات «آوه...»، بينما كانت نظراته تتعلق بي، وفمه مفتوح على مصراعيه كالبيضة.

تناولنا بعض الشطائر في «سانتا لوتشيا» قبل أن ننطلق سائرين نحو الكورنيش. لم يُعلّق على المشهد (كانت الغيوم قد خفتت حدتها، أو لعلها أخذت مكانها في أعلى السماء فوق قمم بركان «فيزوف»). كان في حالة تركيز شديد في فكرة خاصة به، أو لعله هاجس يؤرقه

كان يدفعه لأن يمعن النظر في الرصيف، الذي كان لا يزال مبللاً وأسود اللون. قطع صمته فقط عند وصولنا إلى قلعة «أوفو»، ليؤكد لي أنه قد كذب عليّ بشأن حياته الخاصة.

سألته في قلق: «ماذا تقصد؟».

قال إنه لم يكن حقيقياً أنه لم يتزوج من قبل، ثم توقف فجأة، وأمسك بذراعي، وتنهد. لقد كانت تلك التجربة الأسوأ في حياته، كان يخجل منها. أحنى رأسه، فجعله شعره الأسود والأشعث يشبه القنفذ. واصل النظر إلى الأرض، ثم راح يشرح لي: «إنها كانت تنتمي إلى الشمال الأقصى للصين، كانت مُدرسة للتربية الرياضية، وكانت امرأة ذات عزيمة قوية».

رفع رأسه وأشار بمظلته المغلقة إلى البحر، وإلى الأفق بطريقة مبهمة. ذات يوم هربت. هربت هكذا، دون رسالة، أو وداع، أو اعتذار، أو لاشيء على الإطلاق، مما جعله في أول الأمر يظن أنها تعرضت لحادث، فتوجه إلى الشرطة، وطفق يبحث عنها، ثم أدرك في ما بعد الحقيقة. ماذا حدث؟ لا شيء. كانت قد تعبت، وعثرت على بديل آخر، ولعلها قامت حتى بتغيير هويتها، وهذا ليس بالأمر المستحيل في بلد يبلغ تعداد سكانه ملياراً وثلاثمئة مليون نسمة.

آه من النساء! كانت «روزاريا» قد ارتابت منذ البداية في هذه الكذبة. كان «تشونغ فو» قد صرح بأنه أعزب عنيد حين دعته زوجتي ذات مساء إلى العشاء في بيتنا. بل كانت هي من سألته: يا «تشونغ فو» ألديك عائلة، وأطفال، أو رفيقة؟

أكد حينها بقوة: «آوه...». في ما بعد، نفى الأمر، وتحاشيت أن أعلق

على ما قاله. من ناحية أخرى، ماذا كان عساي أن أقول: يا «تشونغ فو» يؤسفني هذا؟ هذا هراء. في هذه المواقف، إن الشيء الوحيد، والأمين، والمهذب الذي يمكن أن نفعله هو الصمت. التزمت الصمت، وأنا أفكر بالطبع فيه، في محاولة مني أن أكوّن في رأسي من المعلومات القليلة التي بحوزتي نموذجاً مفترضاً لحياته يقترب من الحقيقة. رحت أضع تلك المعلومات في عمود، معلومة فوق الأخرى، محاولا جمعها: أ + ب + ج + د... كانت طريقة ما لتقودني إلى الحقيقة. كان تقريباً في مثل عمري: يصغرني بعامين فقط. كان قد وُلد في الريف في شمال «بكين» لوالدين مزارعين فقيرين جداً، وسرعان ما أظهر في صغره استعداداً كبيراً للدراسة، مما أدى به لأن يكتسب الحق الأبدي في الحصول على حقل لزراعة الأرز مع بقية الأعضاء الآخرين لعائلته.

ما إن بلغ الخامسة عشرة حتى بُعث به إلى «بكين» لدى ابنة عم عجوز لأمه. في السادسة عشرة انضم إلى الحزب الشيوعي، وسرعان ما انخرط في صفوف حركة «الحراس الحمر»، التي تستلهم أفكارها من «ماوتسي تونغ»، والتي قامت بإحداث ثورة داخل الثورة. في الثامنة عشرة عُين للمرة الأولى في أحد المصانع كتقني للفرن العالي، ولكن كانت اهتماماته تنزع نحو السياسة وليس الصلب، ولذا بدأ يتقلد في هذا المجال بالتحديد المناصب، التي راحت، رويداً رويداً، تغدو أكثر حساسية وأهمية، مما جعله يحظى بالتقدير.

عند هذه النقطة بالتحديد، يصيب الاضطراب والحيرة بطاقتي التعريفية لـ«تشونغ»، مما يفتح الباب أمام كافة الافتراضات، ومن بينها أيضاً تلك الأكثر غموضاً. أعرف بالتأكيد أن في لحظة معينة من

حياته تقلّد «تشونغ فو» منصباً كبيراً دُعي من أجله ليستقر في مكتب بالعاصمة. إلا أن الترقية، إن صح تسميتها هكذا، لم تدم لوقت طويل. هل دخل في صراع سياسي، وفكري مع أناس أكثر نفوذاً، وحماية منه؟ حتى هذا الافتراض لا يمكن تجاهله. في مرات عديدة لم يتردد في أن يكشف لي أنه استعدى أناساً كثيرين في بلده (ولكنه لم يرد إضافة أي شيء آخر عن هذا الموضوع).

نظرت إليه بطرف عيني، كان على وجهه تعبير غاية في الهدوء يكاد يكون ملائكياً، ضحكت في نفسي: مَن يدري متى يكذب «تشونغ فو»، ومتى يقول الصدق. من يدري كيف كان شكل أحاسيسه. فكرت بالأمر: هل كان شكلها أسطوانياً، أو لم يكن لها شكل مطلقاً.

بعد «بكين» أعرف يقيناً أنه عاد لعمله الأول في صناعة الصلب («كم هو صعب يا بوونوكوري أن تبدأ من الصفر بعد ثلاثين عاماً»).

لكنه، ما إن ارتدى بزة العمل في مصنع الصلب حتى بُعث به في مهمة إلى «الهند»، ثم في ما بعد، أُرسل إلى «تايلاند»، و«بولندا»، و«المجر»، و«سنغافورة»، و«مصر». لكن، ظل الغموض على حاله بين كل رحلة وأخرى. أقصد أنه كلما ظن أنه سيعود للعمل في المصنع مجدداً كان يجد نفسه، على العكس تماماً، وقد قبع في أحد المكاتب المظلمة، لينفذ مهاماً لم يكن يريد الإفصاح عنها. حينما يبعثون به إلى الخارج ضمن الوفود الرسمية يقوم بمهام العضو غير العادي: أي أنه يمثل عين الحزب، أو ما شابه ذلك.

في الليلة السابقة على قيامنا بتلك النزهة النابوليتانية، كنتُ قد سألته صراحةً: هل ينبغي عليك يا «تشونغ فو» عقب نهاية هذه المهمة أن

تقدم تقريراً مفصلاً عما فعلته، ورأيته، وسمعته؟

لم يسبب له سؤالي الحرج مطلقاً، وأجابني بأنه لم يكن معنياً رسمياً بتقديم أي تقرير مكتوب. سيكون عليه، على الأكثر، تقديم بعض المعلومات الشفهية. وعلى كل حال، لم يكن ثمة ما يمنعه في نهاية كل رحلة من أن يقدم تقريراً مطولاً، ولكن، لم يكن هناك دائماً من يهتم بقراءة تلك التقارير. خلال الفترات الأخيرة، خاصةً، كان الحال ينتهي بالتقارير لتُركن على الأرفف، ثم تُترك هناك ليصيبها العطن. إنها خسارة حقيقية، لأنها في أحيان كثيرة كانت تشتمل على معلومات، وتعليقات على درجة كبيرة من الأهمية، ولكنها فقط، كيف أعبر عن هذا؟ كانت تعكس وجهة نظر بالية، تحمل حنيناً للماضي، ولأناس –كما كان يتم التلميح إليهم بصراحة وبوضوح– لم يكونوا يريدون الاستسلام أمام الخيارات الجديدة التي قررها الحزب، والحكومة في ما يتعلق بالتحول الاقتصادي الكبير، والتحديث. أيمكننا أن نعتبر رجلاً من هذا النوع جاسوساً؟ لم يكن هو بالتأكيد يعتبر نفسه كذلك: ودليله على هذا أنه كان يتحدث بحرية عن عمله. يا لك من مسكين يا «تشونغ فو»! ففي نهاية الأمر، إنك أيضاً قيد التسريح مثلي تماماً.

وحيث إنه كان يتكئ على الدرج المواجه للبحر، ابتسمتُ له ابتسامة كبيرة ودودة، ولكنه لم يلحظها لانهماكه في كتابة لا أدري ماذا في دفتر ملاحظاته.

***

لكي نصل إلى أذرع الأخطبوط كان علينا ركوب الحافلة، مما أسعد «تشونغ فو»، الذي قال بأن هذه كانت الطريقة المثلى لقراءة قلب

المدينة. كانت أذرع الأخطبوط تتمثل في الأزقة التي تتسلق في مسار متعرج، أو مباشر، باتجاه شارع «فيتوريو مانويلي»، الذي يعتبر بمثابة الإطار الجميل الذي يقطع، عند منتصف الساحل، الطفلة البركانية للتل الذي يعلو مدينة «نابولي». كان اللقاء مع «أفوليو» قد رُتب لينعقد عند نهاية إحدى تلك الأذرع، بل عند نهاية أحد التفرعات الصغيرة لها، التي لم أكن أعرفها قبل ذاك اليوم، ولم أسمع عنها أبداً. بمجرد أن هممنا بالصعود، اشتعل «تشونغ فو» حماسة. كان ضوء النهار الخافت، جراء ضيق الزقاق، سبباً لدهشة كل من يغامر بالدخول في جوفه، وأحياناً ما كان يسبب التوتر، لأن كل شيء يتغير فجأة، مما يجعلك تدرك أنك قد اخترقت أحشاء عالم آخر.

سألتُ عن المكان. كان هناك حتى مَن لا يعرف اسم الزقاق الثعباني، الذي كان علينا التوجه إليه. قالت إحدى العجائز بشكل قاطع: «لا يوجد هذا الزقاق في هذا الحي»، رغم أنها كانت قد وُلدت، وهرمت في ذاك المكان. آخرون كانوا قد سمعوا عنه من قبل، ولكن بشكل مبهم. وجدنا، في النهاية، مَن استطاع أن يقدم لنا معلومات مفصلة عنه. كان رجلاً في الأربعين من عمره يقف على باب أحد المحال الصغيرة لبيع اللحوم المملحة. كان المتجر من فرط صغره يشبه الدمية أو النماذج المصغرة، ولكنه، رغم هذا، كان نظيفاً، ومرتباً، ويدعو للثقة، بل وفاخراً إذا ما قارناه بالمكان الذي كان يتواجد بداخله. وللحق، كان «تشونغ فو» هو من لاحظ التناقضات، التي كثيراً ما كانت تتسم بها تلك الأزقة، التي كانت، في أحيان كثيرة، قادرة على إبراز بعض مظاهر الأناقة الشديدة. كانت تلك المظاهر كالحلي الثمينة التي تزين

رداء مهترئاً، وربما لهذا السبب بالذات، كانت تلك الحلي تزداد لمعاناً، وبريقاً.

رحنا نسير في مسار متعرج لفترة طويلة، وبين الفينة والأخرى، كان «تشونغ فو» يطلق بصوت خافت بعض تأوهات التعجب الطويلة لأحد ما: «آوهوهه...». ولكنها، كانت تتعلق بأمور شخصية، ولم تكن تخصني مطلقاً.

بلغنا أحد الميادين التي كانت تتقاطع عنده بعض الأزقة في ما يشبه شكل النجمة المثلثة: زقاقان يتجهان إلى الأعلى، وآخر إلى الأسفل، وهو الزقاق الذي كنا قد أتينا منه. كان بعض الأولاد يلعبون بجوار أحد الأبواب الفخمة. توقفوا جميعاً فجأة رافعين رؤوسهم إلينا، وتوقفت أنا أيضاً على الفور. كانت ثمة ضوضاء، أو مزيج من الجلبة قد أيقظتني من حالة سبات، بل من غيبوبة حقيقية كنت غارقاً فيها، ربما لفرط تركيزي. كثيراً ما كان يحدث لي هذا، أن أغفو داخل أفكاري الأكثر إلحاحاً عليّ، فأمحو نفسي بنفسي إلى أن يدفعني شيء، ولو صغير جداً (حتى ولو كان شيئاً لا يمكن الشعور به)، بعنف فجأة إلى الاستفاقة من جديد.

توقف «تشونغ فو» أيضاً، وراح ينظر إلى الأعلى باتجاه الطريقين اللذين يتقاطعان أمامنا. لم يكن هناك مارة، وكانت الشرفات والنوافذ مغلقة بحرص.

لم يدم الانتظار طويلاً، تصاعدت الجلبة مجدداً باتجاهنا وكأنها طرقات حصى ترتطم بالرصيف، أو كرات زجاجية تتدحرج مسببةً رنيناً. أسند «تشونغ فو» ظهره بقوة إلى الحائط، أما أنا، فلم أستطع أن

أفعل شيئاً أفضل من أن أقلده. تحولت الجلبة إلى صخب شديد؛ فلم تكن تلك كرات زجاجية تتدحرج على الرصيف، بل فرقعات من اليأس واللعنات.

كان يهرع مندفعاً بحذائه الكبير ذي البراغي مصدراً حشرجات بدلاً من الكلمات. كان رشيقا، ولكنه ضخم البنية في الثلاثين من عمره، تخضب جبهته الدماء، وتتوهج في عينيه ومضات من الكُره الممتزج بالخوف. مر كالشهاب، أو ككلب تطارده كلاب أخرى. كان يطارده رجلان، أحدهما يقبض في يديه على سلاح ناري. كانت تفصل الرجل المُطارَد عنهما عشرون متراً فقط: لعله كان أكثر رشاقة من مطارديه الأكثر ضخامة، والأقل شباباً منه، بوجوههم البنفسجية، ومعاطفهم القاتمة اللون، والمفتوحة أزرارها، مما زاد ركضهم قتامة، وعنفاً، كانوا وكأنهم يُحلِّقون في الهواء بأجنحة سوداء تحفظ توازنهم.

تلاشوا تماماً في لمح البصر. أما نحن، فقد لبثنا منتظرين في توتر شديد، وعلى قناعة تامة بأن مشهداً مثل ذلك لم يكن لينتهي إلا بمأساة. لكن، من يدري! فُتحت إحدى النوافذ، وسُمعت بعض الأصوات، كانت امرأة تهتف بقوة زاعقة على أحد ما، راح الأطفال الذين شاهدوا معنا المطاردة في الابتعاد سوياً. اختفى أي أثر للرجل المُخضب بالدماء، لقد ابتلعته المدينة، ولفته برتابتها الصماء.

تنبهت إلى أن «تشونغ فو» كان قد فتح أزرار ياقة قميصه الأبيض، وأرخى عقدة ربطة عنقه. كان قد فعل هذا خفية، أو على أي حال، دون أن أراه. عثرت على القوة الكافية لكي أقول له شيئاً، جملة تناسب الموقف الذي كنا فيه، وحتى أعرف إذا ما كان هادئاً. حينئذ، مد ذراعه،

وأمسك يدي اليمنى، وهزها طويلاً، كمن يحييك، ويهنئك على شيء مّا. قال: «تشونغ فو أوكي، كل شيء أوكي». لكن، كان بياض عينيه يبدو لي وقد تحول إلى اللون الأصفر، بينما كانت حبات العرق تبلل جبهته.

أفلحنا في العثور على الزقاق الثعباني، والورشة التي كانت تسند ظهرها إلى نتوءة صخرية عالية للغاية في الطَفْلة البركانية، التي تقبع فوقها الطريق الكبيرة. أدركت على الفور أن الورشة كانت متصلة ببعض الكهوف المنحوتة في الصخر، وأنها كانت بمثابة مكان «سري».

كان الفناء رحباً، وبسيطاً، أما الجدران فكانت مطلية باللون الأبيض، وتنتشر فيها بعض النوافذ الصغيرة بشكل عشوائي غير منتظم بالتناقض مع كل قواعد العمارة. كان يبدو وكأنه فناء أحد السجون. قلت: «أبحث عن أفوليو، عن تشيزاري أفوليو».

هزت المرأة رأسها: لم تكن تعرفه، أو كانت تتظاهر بعدم معرفته، وكانت تقف في وسط الفناء وهي تتابع بنظرات عدائية كل تحركاتنا: لم تكن تنوي الانصراف مطلقاً. دنوت من أحد الأبواب العديدة للدخول إلى الأقبية الأرضية الداخلية، لم أختره مصادفة، فقد كان مصنوعاً من الحديد، ويبدو مُصفّحاً، وكان مطلياً أيضاً باللون الأبيض، ويطل على الجانب الأيسر للمبنى. لم تكن هناك يافطة، ولا جرس، أو هاتف للتحدث مع من بالداخل.

طرقت الباب بثبات بسُلاميات أصابع إحدى يدي، ولكن دون عنف. واصلت المرأة ملاحقتنا بنظراتها المعتمة والفضولية. فُتح الباب بسرعة، وداهمني ضوء شديد، قلت: «أبحث عن تشيزاري أفوليو».

«من يريده؟».

كان الضوء يبهر عيني: كان ينبغي أن يكون ذاك أخاً له، وُضع قصداً هناك لكي يعيق الزائرين غير المنتظرين. أدركت بصعوبة أن من تحدث كانت فتاة صغيرة، لن يتجاوز عمرها الخامسة أو السادسة عشرة، ولكن، كان يصعب التعرف عليها بسبب الضوء الشديد لمصباح الإضاءة، ولأنها كانت قد واربت الباب لبضعة سنتيمترات قليلة فقط. ذكرت لها اسمي، فأوصدت الباب في وجهي دون أن تطلب مني حتى الانتظار.

تطلب الأمر دقيقتين على الأقل حتى فُتح الباب من جديد، وتمكنت من التعرف على الهيئة الضخمة لزميلي السابق في العمل، «تشيزاري أفوليو»، دون أن تنبهر عيني تلك المرة من ضوء المصباح. ألقى بذراعيه حول عنقي بشكل استعراضي (كنت أتوقع هذه الحركة منه)، وكاد أن يفعل الشيء نفسه مع «تشونغ فو». في ما بعد، قادنا إلى قبوه شديد الحماية.

سمعت كيف أحْكَم غلق الباب بسلسة من الأقفال، بينما كان ثمة ضوء لامع من النوع المُشتَت ينير صالوناً واسعاً له جدران مطلية بالفورميكا الفاتحة اللون. على يسار المدخل، كانت تلتصق بالجدار بعض التماثيل النسائية لعرض الأزياء، التي كانت تبدو وكأنها نساء حقيقيات يتبادلن الحديث في ما بينهن. بعضها كانت تغطيها الثياب، والبعض الآخر كانت عارية بشكل يثير الضحك. كنت مندهشاً، كما يحدث عادة، حينما ندخل إلى مكان كل شيء فيه مختلف تماماً عما كنا نتوقعه، وننتظره. ليس معنى هذا أنه كان لدي بعض التصورات،

والافتراضات عن طبيعة المكان، الذي كان «أفوليو» قد استقر به لمزاولة نشاطه الجديد، بيد أن ذاك المكان كان لا يتواءم مع طبيعة شخصه، على الأقل كما كنت أعرفه أنا: فقد كان رجلاً فظا قليلاً، ومتسرعاً، وذا ذكاء متواضع، وكريماً إلى حدّ ما، وبه رغبة شديدة للنجاح، ولتأكيد الذات، ولربح المال خاصة. في كل الأحوال، لم يكن ينزع أبداً نحو الأناقة، ورغم هذا، كان قبوه فريداً، وغريباً، وأنيقاً.

كان المكان يبث بلا ريب شعوراً بالهيبة، لرحابته بالتأكيد، وللارتفاع الشديد لسقفه –لا يقل عن خمسة أمتار– والذي كانت تمر به أنابيب ضخمة للتهوية ذات لون فضي تتفرع في اتجاهات متعددة. كان «أفوليو» يبدو سعيداً حقاً لرؤيتي، كان يردد قائلاً آه... «إيلفا»...«إيلفا»، أتحسب أني لا آسف له؟ وأني لا أفكر أبداً في الماضي؟ وحيث إني لم أكن أفعل شيئاً آخر سوى لف رأسي لأتطلع إلى كل ما حولي بتعجب، كان هو يطلب مني بألا أنخدع بكل ما أراه، فكله دخان وسراب، يا «بورونوكوري» إنه كله دخان.

كان يوجه إليّ بعض الضربات الخفيفة بقبضة يده على ذراعي. سألني كيف انتهى الحال بفلان وعلان، وإلى أي نقطة وصلنا في عملية التسريح والتصفية: «لقد رحلت دون أن آخذ معي أي تذكار، قطعة من حديد الزهر أو الصلب، بينما آخرون... أتظن أنني لا أعرف؟... هناك من رحل آخذاً معه بيتاً كاملاً... إيههه، فلننس الأمر!».

كان «تشونغ فو» يرنو إليه كعادته دائماً بتعبيرات لا يمكن فهمها، ولكن، لم يكن الحال هكذا بالنسبة إليّ، فقد بدأت أعرفه، وأعرف عواطفه، وأحاسيسه المتوارية خلف قناعه. لعله لم يكن يتوقع أن ينتهي

به الحال إلى أن يأتي إلى مكان بهذه الغرابة، والغموض، ولا أن يُستقبل بهذه الحرارة. أما بالنسبة إليّ، فقد كنت متحاملاً بما فيه الكفاية على «تشيزاري أفوليو» لكيلا آخذ على محمل الجد فوراً تنهداته وشكواه. فقد كنت بحاجة إلى الوقت لكي أعي فعلاً أنه لم يكن يتظاهر، وأنه كان حقاً في مأزق، وأن وجودي في ورشته الغريبة تلك لم يكن يمثل له فرصة للتباهي بنفسه أمامي، بل على العكس كان فرصة للتنفيس عما به.

في الحيز الكبير من الهواء الثقيل والرطب جراء وجود مصدر غير مرئي للحرارة، سمعتُ موسيقى نائية معلقة في الهواء، وبعض الأصوات المختلطة أيضاً، وغير المحددة، ولكنها كانت بالتأكيد أصواتاً نسائية. أكانت تصدر من مكبر للصوت؟

كان هذا افتراضي الأول. لكنني تراجعت، وقلت إن هذا لم يكن ممكناً. فإضافةً إلى أن الموسيقى، والأصوات كانت تُسمع بالكاد، فقد كانت أيضاً متقطعة، تجيء وتروح، لتعود مجدداً، ثم سرعان ما تتلاشى ثانية في السكون.

في الجدار المواجه لجدار التماثيل، كان يوجد سلم مائل يقود إلى مكان بالأسفل غير مغلق، ولكن، كان ضوءه شديد الخفوت، فلا يمكن رؤية ما به. بيد أن «أفوليو» كان يقودنا إلى ناحية مختلفة تماماً: نحو مكتبه الكائن في دور علوي تم بناؤه فوق السلم الذي يهوي إلى العتمة في الأسفل. أكانت الأصوات والموسيقى تنبعث من هناك، من تلك العتمة؟

لم يكن مكتبه أقل فخامة من باقي المكان. كان ثمة جدار زجاجي كبير من البلور الشفاف من جانب واحد فقط، كان يتيح للمكتب رؤية

الصالون بالكامل: فيرى مَن بالأعلى مَن يدخل ومَن يخرج، مَن يجلس على المقاعد ومَن يتطلع إلى ما حوله بحذر، ومَن يحاول تجاوز أي من الأبواب الموصدة. أما لِمن بالأسفل، فكان الجدار الزجاجي يبدو وكأنه مرآة كبيرة حاجبة، لم تكن عين قادرة على اختراقها، ورؤية ما خلفها.

جلس خلف أحد المكاتب الفخمة الكبيرة، تحسس حواف المكتب في محاولة منه أن يجعلنا ندرك أهمية دوره، ووضعه. «أتحسب أن هذا يروق لي؟»، كان يقصد البذخ الذي كان مضطراً إلى أن يحيط نفسه به، «لم أكن أرغب أبداً في أن أعيش في هذا البذخ، ولكنه فُرض عليّ».

حتى تلك اللحظة لم أكن قد تفحصته بعد بدقة: بيد أن زرَّي كُميّ القميص أيقظا اهتمامي بشخصه. كانا فصين ذهبيين تتوسط كليهما قطعة صغيرة من الياقوت، ولكنها ليست بالضئيلة. ما إن لمح نظراتي حتى أراح كوعيه على المكتب حتى يمكنني تفحص الياقوت بيسر. كان يرتدي فوق القميص الأبيض كنزة صوفية ناعمة ذات لون سماوي فاتح، أنيقة للغاية بالنسبة إلى وجه قاس كوجهه. كان يتسم بسخرية: مني؟ من العالم أجمع؟ من «تشونغ فو»؟

لم أستطع أن أفهم بعد، وازداد فهمي سوءاً. للأسف، إني لا أتلقف الأحداث دائماً بشكل حاذق وسريع. غالباً ما أتردد، فألِفّ وأدور حول الحقائق الواضحة دون أن أراها. في تلك اللحظة لم أنتبه أن في عينيّ «أفوليو» لم يكن يبرق نور الغطرسة الفاحشة، بل ومضات من اليأس، وأن زرَّي القميص لم يكونا دليلاً على الخيلاء، بل كانا صرخة إنذار. كنت أحسبه آنذاك، على العكس، مشحوناً بالعداوة: من يظن أن بوسعه التأثير فيه بالياقوتتين، وببذخه، وبما يبديه من ثقة كبيرة في النفس؟ كان

في الوقت ذاته يقول إنه يحسدني: «إني أحسدك يا بوونوكوري. وبما أني على استعداد لأن أسرّ لك بالكثير من الأمور، فسأقول لك إني لطالما حسدتك دوماً...».

توجه إلى «تشونغ فو» ليسأله لا أدري ماذا عني، بيد أن اهتمام «تشونغ فو» كان منصباً على شيء آخر. كان رف طويل من البلور يمر خلف ظهر «أفوليو»، من الجدار إلى الجدار الآخر، وكانت مجموعة من الحاجيات الجلدية المختلفة معروضة فوقه: حقائب كبيرة وصغيرة، وحقائب للتجميل، وأحزمة، وحتى بعض حقائب السفر الصغيرة ذات الأناقة الواضحة. طلب من «أفوليو» الإذن حتى يستطيع الاقتراب من الرف الزجاجي، مما جعل «أفوليو» يقفز في الحال من مقعده.

أضاء كشافين صغيرين كانا ينيران الرف، ودفع «تشونغ فو» نحوه. كانت نظراتي (غير الراضية بوضوح عما يحدث) مُعلقة باستمرار به: كان «أفوليو» يدرك هذا، ويبدو أنه كان يعاني من جراء ذلك، والدليل على هذا نظراته المتكررة التي كان يطلقها، كل حين، نحوي، والتوتر الذي كان يحاول به قراءة تعبيرات وجهي، وجمودي العابس. لم أستطع أن أفهم بعد. لبثت هكذا مندهشاً، إلى أن قام هو أيضاً بالتحديق في عيني مباشرة بثبات، وأكد لي أنه يدرك صعوبة وضعه، وحرجه؛ بل، والأكثر من هذا، أنه أخبرني بأن وضعه ذاك كان ربما يجعل مَن لا يعرفون حقائق الأمور يحكمون عليه بطريقة قاسية. قال: «أنت يا بوونوكوري لا يمكنك أن تحكم عليّ دون أن تعرف حقائق الأمور».

خرّ جالساً خلف مكتبه مجدداً. كان من الواضح أن ذاك المقعد يمنحه القوة، وكان السطح الواسع للمكتب المغطى بالزجاج السميك باستثناء

الحواف (أهي مغطاة بالجلد الطبيعي؟ أو نصف الصناعي؟) يغرس بداخله شعوراً بالأمن، والهيمنة على الأشياء.

«أتحسب أني لا أعرف ما أتعرض له من مخاطر؟».

كان إبهامه منتصباً إلى الأعلى، بينما كانت سبابته مصوبة نحوي كالسلاح الناري. أتحسبني لا أعرف ما سيحدث؟ وأنهم ربما سينزعون جلدي حياً، أو يلقون بي صريعاً في إحدى الطرقات لتلتهمني الفئران، وليشاهدني المارة، الذين سيمنعهم فضولهم الشديد من الركض إشمئزازاً من المشهد؟ إني أعرف كل شيء مسبقاً يا «بوونوكوري». لن يكون بوسع أحد القول، وأنت من بينهم، إني تصرفت كرجل أبله. لقد تصرفت بالطريقة الوحيدة التي أُتيحت لي. لقد كانت السذاجة الحقيقية في البداية؛ كانت السذاجة هي أننا صدقنا فعلاً أن بوسعنا السير فوق أقدامنا فقط –أقدامي وأقدام «رومينا» زوجتي– وأن بوسعنا أن نخطو خطوات صغيرة، خطوة وراء خطوة، مُعتمدين على القيمة الرفيعة لعملنا، وعلى دقتنا، وعلى التوفير، وعلى الليالي الطويلة من السهر في العمل. كل هذا هراء. لم يمر شهر واحد حتى نُصب الشرك الأول لنا. أتفهم ما أريد قوله يا «بوونوكوري»؟ أتفهم مَن أقصد؟ إن بـ«نابولي» مُحسنين كثيرين، ورجالاً لا يطلبون منك أكثر من أن يغطوك بالذهب (وفي ما بعد سيأتي يوم نتحاسب فيه بهدوء...).

كان الأمر وكأنه قد ضغط على أحد مفاتيح الإضاءة. فقد أضاء في رأسي ألف مصباح، وبات واضحاً كالشمس أمامي، فجأة، وبصورة مفصلة، كل ما لم أكن أفهمه حتى تلك اللحظة. حتى أني رأيته أمامي، وهو يحاول بشتى الطرق أن يتملص منهم (كلا شكراً، ليس هذا مناسباً،

أُفضل العمل بطريقة أخرى، أنا... على قدميّ... خطوة خطوة...): واحد، اثنان، وثلاثة من الرجال الغلاظ الذين يلاحقونه ليرغموه على قبول بعض الهبات، والقروض، والتمويل، والرعاية. ثمة صنوف شتى من الرعاية، كل صنف منها أكثر جشعاً من الآخر: يا سيد «تشيزاري» يمكن لصبرنا أيضاً أن ينفذ، لا يمكنك أن ترفض نعمة الله.

أحتى الزرّان وقطعتا الياقوت المثبتتان فوق فصين ذهبيين كان ذاك مصدرها؟ والمكتب الذي كان يسند عليه في تلك اللحظة راحتيه وهو يومئ بحركات توحي بالتملك؟ والأثاث، والإنارة، والتماثيل؟

انتابني فواق مر المذاق. ماذا كنت قد تناولت مع «تشونغ فو» قبل هذا بقليل، وكان يصعد من جوفي ليبلغ حلقي؟

لا أستطيع القول ما إذا كان «تشونغ فو» قد أدرك في الوقت ذاته مثلي حقيقة وضع «تشيزاري أفوليو». لا أظن هذا، ففي الوقت الذي كنت أنا و«تشيزاري» نثرثر، ونتدارس بينما يجلس كل منا على أحد جانبي المكتب، كان «تشونغ» قد توقف بإعجاب شديد أمام أحد المعاطف الجلدية، الذي كان يرتديه «المانيكان» الذكر الوحيد الموجود في ذلك المكتب، وطلب منه بفظاظة معرفة سعره مستغلاً توقفنا عن الحديث: (how much?).

أجابه «أفوليو» بتعال، وبتبرم، بأنهم لا يبيعون قطعاً منفردة، ثم أضاف بأن هذا الطراز لم يكن متوفراً منه في المصنع آنذاك قطع أخرى سوى ذلك المعطف، والذي لم يكن من الممكن بيعه، لأنه كان العينة الوحيدة الباقية.

كانت المسألة تبدو منتهية، ولكن «تشونغ فو» أفلح في أن يصيبني

ويصيب «أفوليو» بالدهشة الشديدة. أكد بأنه لم يكن يرغب في معرفة ثمن قطعة واحدة فقط من ذلك الطراز، فقطعة واحدة لم تكن لتفيده بأي شيء، بل كان يريد معرفة الثمن الإجمالي لمئة قطعة، بل لمئتين، أو ربما لأكثر من مئتين، لم يكن يعرف بالتحديد، كان عليه أن يستفسر...

لبثت لوقت طويل في صمت مطبق: هل كان ثمة مغزى وراء تصرف الرجل الصيني؟ ماذا كان يدور برأسه؟ دفعتني أصابع «أفوليو» التي كانت تطرق بعصبية على المكتب إلى أن أقول شيئاً: أيبدو لك أن هذا وقت مناسب للمزاح؟ نهضت من على المقعد، واقتربت منه ومن المانيكان (ذي الوجه الغبي والمثير للغيظ). أسندت كلتا يدي على كتفي «تشونغ فو»، ورحت أهزه قليلاً وبخفة. لم أعامله أبداً دون احترام من قبل، وكان تصرفه ذاك قد أصابني بالذهول. كنت أرغب في أن أعتذر له فوراً، ولكن بدا لي أن الشيء الأكثر إلحاحاً آنذاك هو تهدئة مُضيّفنا، الذي كان لا يزال يطرق بأنامل أصابعه فوق اللوح الزجاجي للمكتب.

رحت أقول: «أنا لا أصدق هذا»، ولكن، سرعان ما قاطعني «تشونغ فو» قائلاً: «في الواقع إني لستُ مهتماً شخصياً بهذه الصفقة، ولكن، ربما يكون الأعضاء الآخرون في الوفد الذي أنتمي إليه مهتمين بها، ألا يبدو لكما هذا أمراً محتملاً؟».

كان قد شعر بالإهانة، كان يدل على شعوره هذا عيناه اللتان كانتا تبدوان وكأن الجفنين قد ابتلعاهما، وصوته الحاد، وإنجليزيته التي أخذت فجأة طابعاً بيروقراطياً غير ودود.

فاجأتني كلماته ولكن ليس بشدة. كانت قد بلغتني أخبار من

مصادر عدة أن بعض أعضاء الوفد الصيني كانوا ذوي اهتمامات تجارية (لنسميها هكذا). كانت المصادر تشير إلى اسمَين تحديداً، وهما الساحر المعالج «بيي شانغ»، وإلى رئيس الوفد «هو كواي ميي»، ولكن كان كل شيء يشير إلى أن المعنيين بالأمر لم يكونا هذين فقط.

أكان «تشونغ فو» الجاسوس، الرجل المثالي، وأحد الأعضاء السابقين في الحرس الأحمر لـ«ماو»، والرجل الذي يدون ملاحظات عن كل شيء، وعن كل إنسان، ينتمي إلى تلك الثلة ذات الاهتمامات التجارية؟ لعل ذاك التساؤل، الذي راح يتشكل بداخلي، بدأ في الوقت ذاته يبدو جلياً على تعبيرات وجهي. لكن، «تشونغ فو» راح يهز رأسه في علامة على النفي، بل بلغ به الحد إلى أن يقول لي: «أخشى يا بوونوكوري أنك ما زلت لا تفهم جيداً...».

قلتُ له فلننس الأمر، ولكنه أجابني بأننا لا ينبغي مطلقاً أن ندع الأمر وشأنه. شرح لي أن الحكومة الصينية كانت على استعداد أن تغمض كل أعينها في ما يخص تلك الأمور، حتى أنه كان مكلفاً بمهمة واضحة وصريحة، وهي مراقبة كل تلك الأشكال الصغيرة من التهريب التي يمكن التساهل معها، ولكن، شريطة ألا تؤدي تلك الممارسات إلى حدوث فضائح أو احتجاجات. أعترف بأن شرح «تشونغ فو» أعاد السكينة إليّ، كما يحدث عادة حينما نخشى من أن نجد وشاحاً لنا وقد تمزق، ولكن يتضح في الحقيقة أنه سليم تماماً، وقد اتسخ بالكاد جراء مرور بعض حبيبات التراب فوقه. شرحت الأمر لـ«أفوليو»، وأفلحت سريعاً في أن أهدئ من روعه. كان قد كف منذ برهة عن الطرق بأصابعه على المكتب، لكنه عاد مجدداً للطرق بينما كنت أتكلم،

ولكن بإيقاع يزداد بطءاً كلما واصلت شرحي له، ثم كف نهائياً حينما علم أن الصفقة يمكن أن تتم حقاً. قال وكأنه يعتذر: «يا بوونوكوري إن مئتيْ معطف من جلد البقر أو جلد الكبش الجيد ليست مزحة».

لا أدري لِمَ أثارت جملته تلك فيّ الضحك، ولكن الأمر الأجمل أنه أخذ يضحك معي هو أيضاً.

قادنا من جديد إلى الأسفل ليعرض على «تشونغ فو» نماذج أخرى من المعاطف. أنار إضاءة المكان المعتم، الذي كان يمكن بلوغه عبر هبوط درجات السلم، خمس درجات بالتحديد، بجوار الممر الصاعد، والمُعلَّق الذي يؤدي إلى مكتبه في الأعلى. وجدنا أنفسنا مجدداً في قاعة كبيرة مستطيلة، كانت تشبه ممراً شاسعاً، وعميقاً، لا يقل طوله عن خمسة عشر متراً، وعرضه عن أربعة أو خمسة أمتار. كانت الأرضية ذات لون أبيض لَبَني، مغطاة بالمطاط المطبوع على هيئة دوائر. كان خلو المكان من الأثاث يزيد من اتساعه بشكل يثير الانزعاج: فلم تكن هناك مقاعد، أو كراس، ولا طاولات، بل بعض المرايا الرفيعة للغاية، والشديدة الارتفاع فقط، حتى أنها كانت تكاد تلامس السقف، وكانت تملأ الفراغ بصور متعددة لنا، فكان الأمر أشبه بصور متكاثرة تحاول أن تلتقي معاً، الواحدة مع الأخرى، بينما تخطو كل منها فوق ما يشبه رداء من الحليب المُتخثر.

كانت توجد خمسة أبواب، أحدها واسع جداً ومكون من أربعة مصاريع. كان ثمة باب آخر، ولكنه ذو حجم عادي، إلى الأمام قليلاً في الجدار نفسه الذي يلاصق النتوءة الطفلية التي تقبع فوقها الطريق البانورامية لمدينة «نابولي». كان الباب الثالث يقع في نهاية الممر، في

مواجهة الخمس درجات التي تقود إلى المكان. أما البابان الأخيران فكانا في الجدار الأيمن المواجه للفناء.

أدركت حينها في الحال، وبطريقة محددة، مصدر الموسيقى، والأصوات النسائية التي سمعتها سابقاً. نظرت إلى الباب ذي المصاريع الأربعة: كان مصدرها من خلفه بالتأكيد، ولكن ليس على مسافة وجيزة، وربما ليس من مكان ملاصق للمكان الذي كنا فيه. كانت بطريقة ما تبدو وكأنها صادرة من قاع بئر عميقة: كانت أصوات خافتة، ولكنها كثيفة الصدى. فكرت أن مصنع الزوجين «أفوليو» قد بُني ربما داخل أحد الكهوف الطفلية، وأنه ينتمي حقاً، وليس مجازياً فقط، إلى جوف الأرض النابوليتانية.

توقفت عند وسط الممر محاولاً أن أمدّ أذني بقدر المستطاع، حاولت أن أستثير «أفوليو» بينما كان يهم بفتح الباب الأول، قلت له: «إن رائحة نسائية نفاذة تعم المكان هنا، حتى أنها لفرط قوتها تصل مباشرة إلى جوف الرأس».

بشكل ما كان ما أقوله حقيقياً: لا أظن أنه مجرد وهم، أو إيحاء تسببه أصوات صادرة عن اسطوانة، أو مذياع، أو عن أي شيء آخر (كانت موسيقى مبهجة، رغم أنها كانت لأصوات مبهمة نتيجة لبعد مصدرها).

رمقني في قلق، أجاب بشكل حاد، ودون أية سخرية: «فلتنس هذا!». قادنا إلى ما يشبه أحد المخازن، انتظر عند الباب حتى أدخل أنا و«تشونغ»، ثم قام بإغلاق الباب توخياً للحذر.

كان مكاناً رحباً يفصله عن الفناء مجرد حاجز بسيط، ورغم عدم

وجود أية نوافذ به، كان يسري بداخله هواء شديد على هيئة تيارات لا أحد يدري مصدرها. كانت الكمية الكبيرة للجلد تبث رائحة قوية، تمتزج فيها المواد الكيميائية بالكحول، وبالعَرَق، وبالنفط، وبالقذارة، وكانت تنتشر أيضاً رائحة النساء التي كنت قد تنشّقتها سابقاً، سواء كانت حقيقية أو مجرد إيحاء. كان قضيب من الصلب اللامع يجتاز المكان بأكمله، من أقصاه إلى أقصاه، ومعلقة عليه مجموعة كبيرة من قطع الثياب، وكانت هناك أيضاً مجموعة كبيرة من لفائف الجلد المدبوغ المُعد للحياكة.

طلبت من «أفوليو» ما إذا كان يمكنني الانتظار في الخارج في الفناء، أو حتى في صالون الدخول. تمتمت قائلاً: «كل هذه الرائحة الشديدة في هذا المكان المغلق...».

سألته هذا، وكنت أعلم مسبقاً إجابته. ولكن، كم من أشياء تُقال، وتُفعل، رغم علمنا من البداية أنها بلا أية نتيجة؟ قال بنبرة آسفة كمَن يريد أن تُغفر له خطيئته المُكره، رغم كل شيء، على ارتكابها: «يا بوونوكوري لا أستطيع. عليّ أن أحترم بعض القواعد مهما كلفني الأمر. أستحلفك بأن تقول إنك تفهمني!».

أجبته بأنني كنت أفهمه. فرغم جشعه، وحبه للمظهرية، وزيفه، يظل «تشيزاري أفوليو» في النهاية إنساناً طيباً، ومستعداً لتقديم العون، وغير قادر على الاستسلام تماماً إزاء الأوضاع غير الشرعية، التي هيمنت عليه دون أن يدري تقريباً.

فكرت أنهم، عاجلاً أو آجلاً، سيقتلونه حقاً خوفاً من حنينه إلى العودة إلى الحياة العادية.

-25-

ستبقى تلك الجولة في قلب المدينة، بل في داخل أحشائها، وجحورها، وثقوبها السوداء، التي تأوي إليها الحياة طمعاً في الملاذ، والنماء، عالقة طويلاً في أحاديثنا، ولاسيما في حنين «تشونغ فو»، الذي كان يرفع، بين الفينة والأخرى، ذراعيه إلى الأعلى مرددا: «آه... يا نابولي، كم أود أن أحملك معي إلى الصين!».

ظل يحيطني علماً بالعلاقات التجارية بين «تشيزاري أفوليو» من جهة، وبين «بيي شانغ» و«هو كواي ميي» من جهة أخرى، ولذا فلم أتعجب مطلقاً حينما رأيت ذات يوم «أفوليو» وهو يصل إلى المصنع وحقيبة سيارته مملوءة بالمعاطف الجلدية، وظل «أفوليو» يجلب الكثير من تلك المعاطف في الأيام التالية.

كان أمراً جميلاً، أو يكاد، حيث كان كل شيء يحدث في وضح النهار، وكأن تلك التجارة باتت أكثر الأمور اعتيادية وشرعية في العالم.

في منتصف شهر يناير، تقريباً، بدأ الصينيون في الرحيل. عشنا ما بين حفلات عشاء، ودعوات، وتنهدات: كانت بمثابة سلسلة من المراسم المتتالية. كانت قد نشأت صداقات، كانت عجلة الأيام القاسية التي لا تتوقف عن الدوران تهدد وجودها. «لكن، تشونغ فو لن يرحل الآن، ففي الوقت الحالي سيبقى في نابولي، سينتظر إلى أن يأتي الوفد الجديد، الذي سيشهد كل مراحل تفكيك المصنع إلى النهاية. لكنه لن يلبث في نابولي كل هذا الوقت، فسيكون مضطراً للرحيل قبل انتهاء العمل..».

لا أعرف كيف خطر برأسي أن أقول لـ«تشونغ فو»، ذات مساء، إنني كنت قد وقعت، جزئياً (جزئياً، أو كلياً، فليحاول هو أن يعرف)، في غرام فتاة أصغر مني عمراً، ابنة لأحد زملائي السابقين في العمل، والذي رحل عن الحياة منذ سنين مضت. تلقى ما أخبرته به على أنه دليل إضافي على قوة صداقتنا؛ لم يعلق على الأمر، قال فقط إنه كان يأسف لهذا: لعله كان يقصد أنه يأسف لأني كنت غارقاً إلى أذني في فوضى عاطفية، أو لعله كان يقصد بأسفه «روزاريا»، التي كان يكن لها، منذ المرة الأولى التي اصطحبته فيها إلى البيت، تعاطفاً شديداً، وواضحاً، كافياً لأن يثير بداخلي غيرة حقيقية، لولا حجمه الصغير، والبشع تقريباً.

في المساء السابق على رحيلهم، أرادوا أن يدعوني إلى عشاء شكر تم تنظيمه في القاعة العامة الخاصة بأماكن إقامتهم. حضر العشاء كل من «روزاريا»، و«كريستيانا»، وكان هناك بالطبع «تشونغ فو». نهض «هو كواي ميي»، كرئيس للوفد، من مقعده، ورفع كأسه لتبادل النخب، داعيا الجميع إلى التزام الصمت. كنت أشعر بشفتي «كريستيانا» في أذني بينما كانت تقوم بترجمة كل كلمة لي. كان «هو كواي» يمسك بكأس في إحدى يديه، وبسيجار في اليد الأخرى، وكل حين كان يسحب نفساً. وجّه إليّ الكثير من الإطراء. مع كل إطراء كان يرشقني بنظراته السوداء اللامعة، ويمد كأسه في اتجاهي. أتصور أنه قد استعد طويلاً لإلقاء ذلك الحديث. قال لي، في المجمل، أشياء جميلة لا حصر لها، ورغم عدم اقتناعي الشديد بها لكنها أسعدتني (كنت على وشك أن أقول لك إنها أثّرت في مشاعري،

ولكني منعت نفسي: فلتقرر أنت...).

وصل الوفد الثاني إلى «بانيولي» في اليوم التالي. لا أدري لم، ولكني كنت أتوقعهم مختلفين عن زملائهم الآخرين، أحسب للطريقة التي تحدث بها «تشونغ فو» عنهم أكثر من مرة، مؤكداً على أنهم أناس أكثر تأهيلاً وتعليماً (فهم مهندسون، وكيميائيون، وفيزيائيون، وتقنيو كهرباء، وميكانيكا على درجة عالية من الخبرة). بيد أنهم، على عكس هذا، بدوا لي نسخة مطابقة تماماً لإخوانهم الذين رحلوا تواً (رغم أن هذا يمكن أن يبدو غريباً، كان بعض منهم يجلسون ساكنين في مقاعدهم في الحافلة التي كانت على وشك الرحيل، بعيون مغرورقة بالدموع، ومن بينهم «بيي شانغ» الذي كان قد تعلم القليل من اللهجة النابوليتانية، فراح يودع الجميع قائلاً: «الوداع يا واليوني -يا شباب-»).

حينما قُدِّم إليّ الوافدون الجدد تفحصتهم بعينين ناقدتين للغاية، وخائبة الأمل، ماعدا أربع فتيات أو خمساً من بينهم (فكل الصينيين دون الستين عاماً يبدون لي جميعا فتياناً) أثرن فضولي بشكل خاص في البداية، ولكنهن عموماً سيسببن لي خيبة الأمل مثل الآخرين في ما بعد. كان لديّ آلاف الأسباب لكي أكون أقل تعاطفاً، وتجاوباً معهم. كان السبب الأول هو أن مصنع «إيلفا» هو ما قام بدعوتهم لمراقبة صحة عمليات تفكيك آلات الصب، أي ليراقبوني أنا شخصياً، ويراقبوا قراراتي، وبطاقاتي، ومشروعاتي التنفيذية.

ذات مساء أفضيت إلى «تشونغ فو» بما يكمن في صدري: فقد كنت على يقين أنه كان سيتفهم مخاوفي، وهكذا كان. عقب العشاء كنا نلتقي كثيراً في وسط «بانيولي»، وفي بعض الأحيان كنا نذهب لنجلس

في المقهى، وأحياناً أخرى، عندما يسمح الطقس بذلك، كنا نذهب لنتمشى (ثم كنت أصطحبه بسيارتي إلى المصنع). كان «تشونغ فو» يهوى السير على الكورنيش، وكان يعتبر الطريق الساحلية المؤدية إلى «بوتسوولي» بمثابة العجيبة السابعة، لما تتسم به من امتزاج تلقائي بين الطبيعة والمصنع (آنذاك، ورغم أن المصنع كان قد كف عن نفث دخانه، ولكنه كان لا يزال منتصباً بكل هيبته وسطوته).

كان «كارلو مارتينيز» كثيراً ما يشارك في تلك الجولات، التي غالباً ما كنا نقوم بها بنفس هادئة بلا هموم، مما كان يجعلنا ننزلق، رويداً رويداً، إن لم يكن نحو النعاس، فنحو الصمت، والتأمل الذاتي. «في ما تفكر؟» كان «مارتينيز» يسألني دوماً هذا السؤال (أليس العجائز هم من يكونون أقل صبراً، وأكثر انتباهاً؟).

كنت أقول إنه ذات مساء أفضيت بما في داخلي إلى «تشونغ فو» و«مارتينيز» وأنا في حالة مزاجية سيئة للغاية. كانت فترة من أكثر الفترات اضطراباً قد بدأت، ولعلها كانت الأشد اضطراباً على الإطلاق. في ذاك الصباح، كان قد فُكك الجزء الأول من آلة الصب، وسرعان ما بدأ الصينيون في إثارة المشاكل، ومعارضة بعض أوامري الخاصة بالعمل، والصراخ في بعض العمال التابعين للشركة، التي كانت قد نالت مناقصة تفكيك آلات الصب، بناءً على اقتراحي الشخصي، ولكن دون أية محسوبية. كانت تلك الشركة، وأولئك العمال يعرفون جيداً أداء هذه المهمة: كنت قد رأيتهم وهم يعملون حينما وصلت آلة الصب إلى «بانيولي»، وكانت وقتها جديدة لم تُلمس بعد، وكان أولئك العمال، وأنا معهم، مَن قاموا بتركيبها قطعة وراء قطعة.

أخذت «تشونغ فو» تحت ذراعي: كنا على مسافة قليلة بعد ميدان «بانيولي»، وكان يمتد على يسارنا شاطئ واسع من الرمال السوداء، كانت تلمع في نهايته شرائط فضية من الزبد البحري. كان ثلاثتنا يرتدي صدرية صوفية، وسترة فوقها، ولكن الطقس لم يكن بارداً بتاتاً، حتى أننا كنا ننتظر بفارغ الصبر هبوب الريح، التي كانت تصل على فترات متقطعة من خلف منطقة «نيسيدا»، إن لم يكن من وسط الخليج نفسه.

منذ أن أطفأ المصنع كل نيرانه أضحت «بانيولي» أكثر ريحاً. في الماضي كان الهواء يظل ساكناً باستمرار لعمق يصل إلى كيلومترين أو ثلاثة، وكان حاجز متين من الهواء الراكد يسهم في رفع درجة الحرارة العامة للحي بأكلمه، بل لكل المنطقة الشمالية للمدينة. منذ بضع سنوات عادت تيارات الهواء، والرياح الشمالية إلى حالها في الزمن الفائت، بيد أنها لم تكن ريحاً شمالية حقيقية، بل نسيماً بديعاً لطيفاً.

كان «تشونغ فو» قد أدرك منذ برهة أنه كان لدي شيء ما خاص أود أن أسأله عنه، توقف، وقال: «Speak, please (تكلم من فضلك!)». حتى حينما كان يرغب في أن يكون ودوداً، ومشجعاً، كانت نظراته لا تفارق غموضها.

فلتستمع يا «تشونغ فو»! إنك قد عرفتني، وقد درستني جيداً (لو تعرف كم مرة رأيتك فيها وأنت تتفحصني شعرة شعرة).

حتى أدخل مباشرة إلى لب الموضوع، أرغب في أن أخبرك أني أعيش فترة سيئة، أو لعلها فترة يمكن أن نقول عنها إنها حساسة فقط. ماذا عليّ أن أطلب؟ أرغب فقط أن تقول لأصدقائك الصينيين بأن يتركوني أعمل في هدوء، وأن يثقوا بما أفعله، لأنني أريد أن تُفكك آلات الصب

بطريقة مثالية أكثر مما يتمنونه هم أنفسهم. بالنسبة إليّ، إن الوصول لتلك النتيجة هو وسام شرف لي، إنه بمثابة رهان، أو موعد ختامي مع عملي. إن أردت فيمكنك اعتباره وداعاً بين رجل وتقني آلة صب، إن «بوونوكوري الإنسان يودع بوونوكوري التقني. يا تشونغ فو إن يدي ممدودة لكم، أهذا واضح؟ إن هذا هو ما أرغب في أن تشرحه لأصدقائك، الذين أمد إليهم يدي، فلا حروب، ولا مناوشات. ينبغي عليهم أن يثقوا بي، لأن في مثل هذا الموقف، ولأسباب واقعية، فلا أحد آخر بوسعه أن يكون في صفكم مثلي أنا..

أتحسب أنه علّق على كلامي بطريقة مّا؟ أبداً، بل ساد صمت مطبق. أذكر أن «مارتينيز» رمقه باستياء لصمته الشديد (كان كلامي قد أثّر في مشاعر الرجل العجوز، رغم أنه كان يعرف منذ فترة كيف كنت أفكر في ذاك الموضوع، وكيف أنني قد وضعت قلبي وجهدي في تلك الآلة). بيد أنه لم يكن يعرف «تشونغ فو» كما كنت أعرفه أنا، ولم يكن يعرف طريقته الحذرة على الدوام في التصرف، وفي الإجابة أيضاً عن الأسئلة، التي كنت أوجهها إليه. فالحقيقة هي أن «تشونغ فو» كان قد علق في مشكلتي بقدر ليس أقل مما فعله «مارتينيز»، وهذا الشيء يمكنني أن أؤكده قطعاً وبلا شك.

***

وفعلاً لُبّي طلبي: فاليد الممدودة تنال دوماً شيئاً مّا. في اليوم التالي مباشرة، بدا لي أن الصينيين يتصرفون معي بطريقة مختلفة، كانوا أكثر رقة، ووداً (لم يضيّع «تشونغ فو» وقتاً، وقام باستدعائهم في ساعة مبكرة). كانوا يمررون من يد إلى أخرى بطاقات التفكيك التي

أعددتها، ويستفسرون مني عن بعض الإيضاحات، وكانوا يهنئونني، ويشكرونني باستمرار حتى بدون مناسبة. بعد الظهر عقدنا اجتماعاً في القاعة العامة الملحقة بثكناتهم. قدموا لنا بسكويتاً، وشاياً، مما أصابني بالحرج، لأن اللقاء تحول إلى اجتماع رسمي (كان حاضراً فيه أيضاً المهندس «لوناردي»، وبعض التقنيين من الشركات التي ربحت بعض المناقصات من الباطن) لتحديد المعايير التي كنا سنستخدمها في الأيام اللاحقة في تفكيك الآلة. أراد المهندس «لوناردي» أن أبدأ أنا بالحديث أولاً، وأن أعرض الأفكار الإرشادية للعملية.

عرضت عليهم خارطة كبيرة للقطاع الأرضي لآلة الصب، وأشرت إلى أن نقطة البداية ستكون عند المنطقة المنحنية للآلة. في اليوم السابق كان قد نُزع الغطاء الواقي عن ذلك الجزء؛ وكان علينا آنذاك تحرير كل القطع من القاعدة المثبتة فوقها مُتبعين مساراً يتجه من الأعلى إلى الأسفل، بمحاذاة الحصائر المتحركة، حتى نصل إلى القاع عند الختامات.

كانت الآلة مكونة من قطع متعددة، بعضها منفصل، والبعض الآخر مثبت بالبراغي، وفي ذاك الجزء بالذات كنا سنجد بعض الصعوبات، فمن الأفضل الإفصاح فوراً عن هذا. قلت إن البراغي هي الشوكة التي ستقض مضجعنا، لأن بعضها سيأبى تفكيكه. أتعرفون ما هي البراغي، أعني براغي أجزاء الآلة؟ سأشرح لكم الأمر فوراً. إنه برغي نصفه محزز على شكل لولب يبلغ طوله خمسة وأربعين سنتيمترا تقريباً، وقطره ستة سنتيمترات، وله رأس ضخم يتم تثبيتها فوق وردة حديدية تُسمى وردة القَطْع. هل هذا واضح؟ إن الأجزاء تُعشَّق بالمنحنى بهذه الطريقة. ولكن، ماذا يحدث في ما بعد؟ يحدث أن قطرات من الصلب السائل

المُصنَّع كل يوم ينتهي بها الحال لأن تتراكم كمخلفات فوق رؤوس البراغي، ثم تواصل تراكمها مكونةً، في بعض الحالات، ما يشبه الغطاء، الذي ينصهر، ويتحد مع البرغي، أو، على الأقل، مع الجزء البارز منه. هذه هي المعضلة، فكيف لنا أن نفكّ البراغي في هذه الحالة؟ إن العامل لا يستسلم بسرعة، يأخذ أنبوب الأكسجين، ويحاول أن يُنقص من حجم الغطاء الجاثم فوق رأس البرغي، وبعد أن يُغرق قضيب البرغي بسائل مُضاد للأكسدة، يحاول أن يُدخل رأس البرغي في مفتاح الطرق. لكن لا ينجح الأمر دائماً، وحتى حينما ينجح، لا يؤدي دوماً الطرق الاهتزازي بالقضيب إلى أية نتيجة، حينئذ ينبغي اتخاذ قرار ما. أحد الاحتمالات هي قطع رأس البرغي ومعها الجزء المحزز، ولكن، في الحقيقة، لا تخلو تلك العملية من الأخطار كلياً، فيمكنها أن تُلحق الأذى بقوس الآلة. ينبغي على من يتحكم في أنبوب الأكسجين أن يكون عاملاً خبيراً، وحريصاً على ألا يلحق الأذى بالقوس، أو...

توقفت عند هذه النقطة، تنفست الصعداء، وحاولت أن أتأكد من أن الجميع كانوا على درجة كافية من التركيز في ما كنت على وشك أن أقوله، وحينما أبصرت «تشونغ فو» يومئ بقوة بالموافقة، استأنفت حديثي مجدداً. أو.. يصبح من الضروري أن يتقدم لتنفيذ المهمة إنسان مجنون. هل فهمتم جيداً؟ لقد قلت إنساناً مجنوناً. أقصد شخصاً ينحت، ويعمل بالجلاخة، وبالأزميل، وبالمبرد ليعيد بناء رأس البرغي بطريقة دقيقة للغاية، وليعيد تشكيله كما كانت حالته الأولى، حتى يمكننا أن نفكّه بواسطة مفتاح من نوع مئة وخمسة وثلاثين ميليمتراً، والذي يمكن أن نقول عنه إنه يمثل ضمانة لنا، حتى لو كان

الأمر يتعلق بضمانة جزئية وغير كاملة.

قلت هذه الأشياء بعد أن فكرت ملياً فيها. كنت أعرف أن إحدى نقاط الخلاف المحتملة مع شركة «ستيل ووركس» كانت ربما ستتعلق باستخدام أنبوب الأكسجين، وأنا، في المجمل، كنت إلى جانب الصينيين، أي إلى جانب الطرف الذي كان يريد أن يُحظَر استخدام أي أنظمة تدخُّل عنيف في عملية تفكيك آلة الصب يمكنها أن تُعرض، ولو بنسبة ضئيلة جداً، وحدة الآلة للخطر. حين هممت بالجلوس كنت قلقاً: لعلي تكلمت كثيراً، وتركت نفسي تتمادى في المبالغة، وجعلتهم يصدقون أن أحداً مجنوناً موجود فعلاً هناك بالداخل لأداء تلك المهمة: أنا. أبصرتُ فتاة صينية ضئيلة جداً تدنو من الطاولة، كانت تبدو لي طفلة، كان شعرها مشدودا إلى الخلف، وفي وسط رأسها فرق يبدأ عند الجبهة، وينتهي عند مؤخرة الرأس، حيث تتدلى ضفيرتان رفيعتان للغاية. ملأتْ قدحي شاياً من جديد، ودعتني أن أُدخل يدي في صينية البسكويت، والذي فهمت بطرف عيني أنه كان مجلوباً من الشرق. ترددت طويلاً قبل أن أقرر تذوق أحدها. أعترف بأني لا أحب الطعام الصيني، مهما قال عنه الكثير من زملائي. إنني شديد الريبة، وهذا أيضاً، لأنهم، ودون مواربة، يتصرفون كالبهائم على المائدة: يضعون أصابعهم في أفواههم، يأكلون ويدخنون في الوقت ذاته، ويتجشأون بتلقائية شديدة. بإيجاز، كنتُ أرفض عن طيب خاطر تناول ذاك البسكويت لولا وجود تلك الفتاة الصغيرة المنتصبة أمامي، التي لم تكن تنتظر أي شيء آخر سوى أن أقضمه. كانت شديدة الود إلى درجة منعتني من أن أخيب أملها. كانت تبدو وكأنها طالبة مدرسية تنتمي إلى عائلة طيبة، بينما في الحقيقة،

وكما أُتيحت لي الفرصة لأكتشف ذلك في تلك الأمسية، كانت شابة متخرجة، كيميائية، ابنة لأحد عمال صناعة التعدين، الذي لقي حتفه في أحد مصانع الصين الشرقية في حادث عمل.

كانت تعرف القليل من الإيطالية التي كانت قد درستها خلال وقت فراغها «فقط لمجرد أن الأمر كان يستهويها» (كانت تلك كلماتها). كانت تعمل على السبائك المعدنية من الناحية الكيميائية، ولاسيما على سبائك الصلب. شرحت لي: «إن الأمر في النهاية يبدو وكأنها تطهو: الكثير من هذا، والكثير من ذاك، فيصير الحساء جاهزاً».

قالت لي بأني كنت أُذكرها بأبيها، أو بالأصح، فإن تشبثي بالمصنع، وبآلتي التي أمضيت معها عمري، كان يستدعي إلى ذاكرتها بعض نظرات أبيها، وبعض لحظات صمته، وبعض نصائحه. لكن، مع وجود فارق واحد، فقد كان أبوها عاملاً بسيطاً، لذلك كان يبدو عند عودته إلى بيته كالكلب الضال من فرط اتساخه، وإرهاقه، وسوء هندامه، أما أنا فكنت أشبه تقريباً الممثل السينمائي بسلوكي، وبتصرفاتي المتكلفة، وبثيابي الغربية الأنيقة.

ذات مرة في البيت تناقشت أنا و«روزاريا» طويلاً حول ما حدث في ذلك اليوم: أخبرتها كيف كان الاجتماع، والشاي، والبسكويت، وحدثتها عن الفتاة الصينية ذات الضفائر. قلتُ في نهاية المناقشة بطريقة استعراضية: «من المحزن حقاً الشعور بالشفقة لإنسان مّا. ما زلت غير معتاد على مثل هذه الأشياء».

كان هذا صحيحاً. ففي ذات الوقت الذي أفلحت فيه كلمات الفتاة الصينية في بث الدهشة، والرضا فيّ، نكأتْ بداخلي أيضاً بعض

الجراح. فمن يدري ماذا قال لها «تشونغ فو»، وماذا قال للآخرين، ليحفز الجميع لكي يشعروا نحوي بهذه المودة المثيرة للشفقة. لكنني سأكون سفيهاً بشعاً إن قلت إنني كنتُ أفكر لاسيما في أمر كرامتي المجروحة قليلاً، بينما كنت أبوح بهذه الأشياء إلى «روزاريا». لقد كنت في الحقيقة أفكر في شيء آخر تماماً، فمنذ أن بدأتُ أتردد على «مارشيلا»، بصورة ولو متقطعة كثيراً، تبدّلت علاقتي بزوجتي دون أن ندري. فقد دفعني إخفائي عنها لأمر بتلك الأهمية المؤكدة إلى أن ألتزم صمتاً امتد ليشمل بقية الأمور الأخرى في حياتي، مقللاً بهذا، إلى أقل درجة ممكنة، من قدرتي على التواصل معها.

لقد صار الأمر هاجسي الأكبر. كنت أشعر بأني مراقب منها، ولعلها كانت تعزو تردي حالي المتصاعد إلى الظروف، وإلى خيبة أملي المهنية، وإلى ذاك المصنع اللعين الذي كان على وشك الاختفاء. ماذا سيحدث في اليوم الذي ستكتشف فيه الحقيقة؟ كنت أقول لنفسي إنه، عاجلاً أو آجلاً، سيأتي هذا اليوم، وسيكون حينها غَرَق السفينة قد اكتمل وبلا رجعة.

كيف تركتُ نفسي لتغرق في فوضى مثل تلك؟ كيف أخفيت شيئاً لم يكن موجوداً في الحقيقة، إلا في ذاك المخبأ الحصين المكين للخيال الذكوري المضطرب، في ذاك الجوف المعتم الذي تغلي فيه وتفور أشد رغباتنا سرية؟

لم تعلق «روزاريا» بأي شكل مطلقاً على لقائي مع الفتاة الصينية خلال ذلك الاجتماع، لكنها أبدت سعادتها، لأني أخبرتها عنها معتبرة هذا –قالت هذا بشكل واضح– بمثابة ندم عما فات، بل يكاد يكون

بعثاً جديداً من جانبي. قالت فقط بنبرة مازحة لكي تشجعني: «إن ضفائر الفتيات غالباً ما تبث الخوف قليلاً في قلب الزوجة المسكينة».

لم يكن بوسعها أن تقول شيئاً أسوء مما قالته.

قبل أن تُعرى الآلة الكبيرة لصنع ألواح الصلب من غطائها العلوي، لتخرج من الصندوق الذي كان يحتويها وكأنها جسد أنثوي مُتعرج، أعاد السيد «بوونوكوري» بحماسة شديدة، كحماسة أيام الصبا، اكتشاف ولعه النائم بالتصوير الفوتوغرافي. هكذا، ذات صباح، استطاعت «روزاريا» أن تجدني، وبريق تعجب يلمع في نظراتها، بينما كنت أخرج من الحجرة المظلمة مُسلحاً بكل عتادي القديم النفيس.

كان «تشونغ فو» هو من حفزني، إنها لحظتك يا «بوونوكوري»، فمَن غيرك يمكنه أن يوثِّق اختفاء آلة صب «بانيولي»؟ في بعض الأحيان، كان مُقنعاً (بفضل حماسية الشديدة أيضاً): كنا نقول إن كل قطعة تُنزع كانت تترك فراغا وراءها، فراغا، فاثنين، فخمسة، فعشرة، ويزداد الأمر بطريقة منتظمة وبشعة، يوماً وراء آخر، فيتحد كل فراغ مع الآخر، ليُخلق في النهاية خواء كبيراً متماسكاً. كانت تلك الفكرة المحورية التي سيتناولها التحقيق الفوتوغرافي: إنه الخواء الذي يحل رويداً رويداً محل الامتلاء، فيلتهمه، ثم تتهاوى في النهاية جدران المبنى نفسها، وسقفه، مما يؤدي إلى شيوع الدمار في كل حدب وصوب.

قال الصيني المفضل لديّ: «إني أحدثك بهذا لأنه يصب في مصلحتي أيضاً بالتأكيد، وهذا شيء لا أنكره». ذات يوم طلب مني أن أهديه شرائط أفلام التصوير التي كنت سألتقطها: فعلى أي حال ماذا كنت ستفعل بالأفلام بعد أن تطبع نسخة لك من الصور التذكارية؟

أفلح في إقناعي، ربما لأنني لم أكن أطلب شيئاً أفضل من أن يقنعني،

أو لعله أفلح لأنني كنت مقتنعاً شخصياً بهذا منذ فترة. رحت أتحرك باستمرار برفقة آلة تصوير صغيرة موضوعة في جيب سترتي، متأهباً لالتقاط الصور في أية لحظة. علاوة على ذلك، نقلت إلى مكتبي جزءاً كبيراً من معداتي الثقيلة، وتركتها هناك (معرضاً إياها إلى بعض الخطر)، رغم أني غلّقت الأبواب بالأقفال.

قلتُ، في وقت آخر، إن عام 1994 كان عامي الأسود. أما 1995 فلم يكن أقل سوءاً من سابقه. بل، على العكس، في ما يخص بعض الأمور (أو كلها؟)، كان أسوأ من سابقه بكثير. بات الغضب خارج أسوار المصنع أكثر وضوحاً من ملاءة سرير حمراء نُشرت تحت أشعة الشمس لكي تجف. في شهر مارس كان الأمل في إصلاح أوضاع المئات من العمال المُستبعدين من قانون المعاش المبكر يواجه طريقاً مسدودة (كان يتم حساب عشر سنوات إضافية من العمل كمنحة لمن أكمل الخمسين من العمر)، لأن القانون كان يُطبق فقط على كل من وُلدوا قبل، وحتى، عام 1946. أما بالنسبة إلى الشباب، فالمستقبل الوحيد، والبسيط الذي كان متاحاً أمامهم هو الفصل من العمل. أظن أن هذا يوضح بالطبع شعور الجموع، التي كانت مرابطة خارج أبواب «كورروليو»، والحدة التي كانت تتسم بها الاجتماعات المتكررة، التي كانت تنعقد في الساحة المواجهة لمبنى مجلس المصنع (كان مبنى مقاماً بجوار جسر السكة الحديدية، غير بعيد عن موقع مطاعم الشركة).

كان المناخ العام يوحي، على الأقل، ظاهرياً، بأن الجميع كان ضد الجميع. لن نتحدث عن مجلس النقابات، حيث لم تكن التناقضات تفرّق بين كل نقابة وأخرى فحسب، بل كانت تشق صف النقابة من داخلها،

ولاسيما واحدة منها وهي نقابة «فيوم»[8]، التي انقسمت إدارتها إلى فريقين: «المتراخون» من جانب، و«المتمسكون» من جانب آخر، أو بين «المستعدون للتفاوض»، و«المتصلبون» الذين كان يتزعمهم «ألدو فيلو» الذي حدثتك عنه من قبل، والذي سأحدثك عنه خلال الصفحات التالية، التي سأكرسها كلها تقريباً له.

كان أعضاء مجلس المصنع التسعة في اجتماع دائم، يدخنون سيجارة وراء أخرى، ويصرخون. أما في الساحة فكان يحتشد باستمرار العشرات والعشرات من العمال في مجموعات متفرقة: يدخنون، ويصرخون هم أيضاً. كانوا يشكّلون ما يشبه ثعباناً ضخماً، غالباً ما يكون سميكاً، وأحياناً أخرى أقل سمكاً، وكان يمتد ليصل إلى بوابات «باب كوروليو»، وأحياناً ما كان يتجاوزها.

ذات يوم أوقفت النقابات العمل داخل المصنع بأكمله، أرسلني المهندس «لوناردي» إلى مجلس المصنع لألتمس معلومات عما كان سيحدث في اليوم التالي. كان العمل في تفكيك آلة الصب قد بدأ منذ فترة قليلة، وكان ذاك التوقف المفاجئ سيضع الجميع في ورطة ولاسيما الصينيون، الذين راحوا يهددون بتطبيق بعض العقوبات.

أوقفتُ السيارة في الجهة الشمالية من المصنع حتى أجتاز مشياً الطريق الإقليمية التي تقسمه إلى جزأين. تسللت بين الجموع وبين مجموعات من الرجال المتقدي الحماسة، الذين ما إن كانوا يلحظون وجودي بينهم حتى يستولي عليهم الصمت فجأة. وجّهت التحية لعاملَين كنت أعرفهما منذ فترة: ردا على تحيتي بالكاد؛ رجل ثالث

(8) نقابة العاملين بصناعات الفلزات. (المترجم)

اقترب مني، وأسند يده على كتفي بطريقة ودودة. كان أحد أقرباء «روزاريا»، ابن عم لها.

همس في أذني: «إننا كلنا هنا معارضون لتفكيك المصنع إلا إذا تم هذا وفق ظروف معينة، وضمانات محددة، فلتنضم إلى صفوفنا!».

لم أجب بشيء. بعد أن اجتزت حاجز الدخول إلى منطقة البحر الخاصة بالمصنع حيث كان يوجد هناك مقر النقابات، سمعتُ خلف ظهري بوضوح وبطريقة مثيرة للغضب صوت أحد مّا كان يردد... يردد سباباً شريراً، ومهينا لي.

توقفت، ولكن دون أن أدير ظهري. كان قد قال: «أيها الوغد»، أو لعله قال: «أيها الوغد الحقير». لا أعرف ما الذي أوقفني، ليس الخوف بالطبع، بل كان شعوراً باليأس، وبالخواء، وبالأسى العميق، ولعلها أيضاً الشفقة، وإن أردت فالتعاطف أيضاً. كنت أشعر بكل هذا نحو مَن سبّني، ونحو نفسي، ولم يكن لدي أي خيار آخر سوى أن أدير ظهري، وأرد له السباب، أو أن أواصل مسيري متظاهراً بعدم سماعي لما قاله.

لا أدري إن كان تجنبي للعراك خياراً حكيماً: ففي نهاية الأمر، لعل العراك كان سيفيد كلينا معاً، لعله كان سيجعلنا أقل هماً، أو، من يدري، ربما أكثر تيقظاً أيضاً. لكنني لم أستدر، واكتفيت بتلقي السباب، لِمَ؟

فكرت ملياً في هذا لأيام وأيام، دون أن أفلح في أن أعطي نفسي إجابة مؤكدة. أعترف لك بأنني لا أعرف إلى الآن ما السبب وراء تصرفي بهذه الطريقة.

على أقصى تقدير، يمكنني أن افترض شيئاً ما، لعله الخجل. أقصد، بكلمات أخرى، أنني لم أردّ على الرجل سبابه، لأنني كنت أخجل من

الفكرة المهووسة التي كنت أحملها بداخلي، تلك الفكرة السخيفة في أن أجعل من تفكيك آلة الصب عملاً فنياً كبيراً لي، إنها نهايتي الرائعة، أقصد أنه أمر خاص بي فقط.

بيد أني أستطيع أن أؤكد لك أنه لم يكن لرسائل التهديد القديمة أي أثر في قراري بتحاشي العراك. كنت قد كففت عن التفكير فيها منذ فترة طويلة، فقد اقتلعتها من ذاكرتي، وهذا أيضاً لأن تلك الرسائل كانت تعبر عن حالة نفسية مغايرة تماماً للحالة التي كانت تلهب نفوس العمال، الذين كانوا يحتلون الساحة المواجهة لمجلس المصنع. إن تلك الرسائل كانت تعبر عن فكرتين ثوريتين بقدر ما هما مستحيلتي التحقق: فكرة المقاومة النشطة، أو ربما المسلحة، من جانب العمال لمواجهة كل مشاريع تفكيك المصنع؛ وفكرة الدفاع المبدئي عن كل المنشآت التي تُعتبر بمثابة ممتلكات للعمال لا يمكن التفريط فيها. كانت الرسائل تمثل وجهة نظر مختلفة تماماً عن المناقشات الدائرة داخل النقابات، ومن بينها أفكار «ألدو فيلو»، التي كانت تعتبر الأكثر تطرفاً: نعم للتفكيك، ولكن، ليس وفق التقدير المطلق للإدارة، وليس قبل الاتفاق مع رؤساء الشركة على طرق، واستراتيجيات محددة، وتسوية أوضاع الستمئة عامل تقريباً (اليائسون) المستبعدين من قانون المعاش المبكر.

إن شرحنا موقفه بهذه الطريقة فسيبدو وكأنه كان يسعى لتحقيق الحد الأدنى من متطلبات العمال. لكن، لم يكن الأمر هكذا في ظل تلك الظروف، ودليلي على هذا أن النقابتين الأخريين «تشيزل»، و«ويل»[9]

(9) تشيزل «Cisl» (الاتحاد الإيطالي لنقابات العمال) و «ويل» «Uil» (الاتحاد الإيطالي للشغل) و«تشي.جي.إلّ» «Cgil» (الاتحاد العام الإيطالي للشغل) هي أهم التنظيمات النقابية العمالية الإيطالية. (المترجم)

كانتا تريان ضرورة البدء في عمليات التفكيك، ولكن، مع التحقق، في ما بعد، أثناء العمل، من المشاكل التي ستحدث. وكان يتفق مع الرأي نفسه، تقريباً، نصف نقابة «تشي. جي. إلّ»، التي، كما حدثتك سابقاً، كانت قد انقسمت على نفسها إلى فريقين: «المهادنون» و«المتمسكون».

أتسألني مع أي جانب كنت أقف في هذا الجدال؟ مع الجانب المعتدل بالطبع من مجلس المصنع، كان الجميع يعرف هذا، ليس لأني رجل حريص بطبعي، ولكن، لأن كل شيء بداخلي كان يدفعني نحو هذا الاتجاه. أذكر اليوم الذي اقتحم فيه مكتبي مجموعة من أولئك الثائرين المساكين بينما كنت أراجع أحد برامج العمل مع بعض الصينيين، ومع اثنين من مندوبي شركة «سيديرمونتاجي». طلبوا مني أن أوقف الاجتماع على الفور، وأن أُخلي المبنى. لن أنسى أبداً النظرات المذهولة، والمذعورة أحياناً للصينيين. أتذكّر الشمس التي كانت تدلف من النافذة، لتسقط على النصف الأسفل لأجساد المقتحمين، بينما كان نصفهم الأعلى يقبع في الظل. أذكر الغضب الأعمى الذي أبقاني متحجراً في مقعدي، والذي أدى بالطبع إلى تغير تعبيرات وجهي، ونظراتي بطريقة سيئة لم تكن تُنبئ بالخير قط، مما دفع أحد المُضربين إلى أن يحذرني: «يا بوونوكوري حذارِ مما تفعل! إننا لا نمزح».

أجبته: «وأنا أيضاً لا أمزح. هذا يعني أنني لن أبرح هذا المكان».

في تلك اللحظة خرج من الغرفة ممثلو «سيديرمونتاجي»، وتبعهم الصينيون، لم يبق في الغرفة أحد سوانا، أنا وهم، ولكني كنت أكثر منهم حمية، ولبثت متشبثاً بعنادي المائل إلى العصبية.

كان الصمت يثقب الأرضية، ويهز الأوراق المبعثرة على مكتبي: نظرنا بثبات، وسكون إلى أعين بعضنا بعضا لدقائق ولدقائق دون أن يغمض لنا جفن (إن لم يكن لدقائق ولدقائق، فلقد دام الأمر على أي حال لوقت طويل). كانت مهمة شاقة للغاية لا يقدر عليها إلا رجال جبابرة، أو أناس ذابت عقولهم وتلاشت. خرجوا الواحد تلو الآخر، وتركوني وحيداً مقتنعين بأنه لا أمل في عودتي إلى صوابي. لم أتزحزح من هناك، مندهشاً من غضبي الشديد، وتائها كأني في جوف غيمة من التراب الخفيف تجعلني أقف في منتصف الطريق بين اليقظة والسبات. لا أستطيع الزعم إن كنت قد نمت حقاً أو لا، لا يمكنني نفي هذا على كل حال. حينما نهضت كان قد مر وقت طويل بالتأكيد، وكان الصمت الشديد يهيمن على داخل المبنى وخارجه.

كان أول شيء فعلته هو أني فتحت النافذة على مصراعيها: كانت الشمس قد ارتفعت عالياً في السماء، كانت لها من القوة ما يكفي لأن تلسع الجلد، ولكنها على ارتفاعها هذا كانت أشبه بأنف كلب ودود. كان المصنع بأكمله يتلألأ كاللهب، وكأنه مصنوع من مرايا، ويبرق بشدة في مستهل الربيع. لو لم أكن غاضباً حانقاً لكنت قلت إنه ربيع سعيد، ومرح، وضاحك منا جميعاً ومن الهدوء، الذي كان يسود المكان جراء الإضراب.

***

سأجيب بالترتيب عن الأسئلة الأربعة التي وجهتها إليّ.

1) كان «ألدو فيلو» (نحمد الله على هذا) رجلاً قوي البنية للغاية، يميل منذ تلك الفترة إلى السمنة (نقاط ضعفه: المعدة والبطن).

قامته ليست طويلة، ولكنْ له رأس مُلتحٍ معتز بنفسه، وقسمات وجه مألوفة حادة، يكاد يكون وسيماً، بل إنه وسيم بأنفه المدببة المستقيمة، وفمه المتلألئ الصارم، ونظراته العميقة، التي، غالباً، ما تكون مفرطة في الجمود والصرامة.

أتسألني إن كان يتمتع بالقدرة على جذب الناس حوله التي ينبغي أن يتسم بها القائد. لا أعرف مطلقاً، ولكني أحسب أنه في هذه الأزمة كان قادراً على أن يؤثر بشكل كبير على العمال، رغم أنه لم يكن يتمتع لا بجاذبية حقيقية، ولا بقوة إقناع. لقد كان رجلاً شجاعاً، تجده دائماً في الصفوف الأولى لأي صراع (على الأقل، ذات مرة، وخلال إحدى مظاهرات عمال الصناعات المعدنية والهندسية لمصنع «إيلفا»، قامت الشرطة بالاعتداء عليه بشكل لا يُنسى في وسط «نابولي»).

2) كان قرار إيقاف كافة الأعمال داخل المصنع قد اتخذ بصورة مفاجئة من قبل مجلس المصنع في مجمله. ولكن، في أحيان كثيرة، كانت قرارات التوقف عن العمل تصدرها الجهة النقابية ذات المواقف الأكثر تصلباً، ألا وهي «فِيوم» (التي يقودها «فيلو»)، التي باتت، بشكل متصاعد، تنزع نحو مبادرات لا تأخذ في الاعتبار موافقة الآخرين، ولاسيما العمال «الذين كانوا بلا ضمانات»، أي بلا مستقبل.

3) كان الصينيون يهتمون بأمورهم، وبحماية مصالحهم فحسب. كان «تشونغفو» فقط هو من يبدي، من حين لآخر، بطريقة حذرة وسرية، بعض الأفكار الشيوعية الثورية، التي كانت قد ظلت

كامنة بداخله. حينما كان يراني عصبياً، ومتعجلاً كان يوصيني بالتحلي بالحكمة ذاكرا لي بعض حِكَم الرفيق «كونفوشيوس» (لم يكن يذكر «ماو» أبداً، بل المعتدل «كونفوشيوس» فقط). قال لي ذات مساء: «إن قليلاً من عدم الصبر يفسد مشروعاً كبيراً».

«أهو من قال هذا؟».

«أجل بالضبط».

قلت «أعرف أني مخطئ بالتأكيد، وأعي هذا. ثم، إن الأمر يتعلق بزملاء يكافحون من أجل مستقبلهم، ومن أجل حياتهم، في مدينة لا تَعِد بشيء لأحد. أعرف كل هذا جيداً، ولكني أحياناً أفقد صبري. لا أود هذا، ولكني رغم هذا أفقده. إن هذا جزء من الواقع، فلا شيء في هذا العالم، ولاسيما الأشياء البالغة الضخامة، إلا وينتهي به الحال إلى الفساد. فكلما ازدادت الأشياء ضخامة ازدادت نهايتها فساداً».

بشأن هذا الموضوع، أجد من المُلّح أن أوضح لك أنني كنت أيضاً مُستبعداً من قانون المعاش المبكر، لأنني وُلدت عقب عام 1946، ولذا فكنت أنا أيضاً بلا ضمانات على الأقل نظرياً. بيد أن حالتي كانت تختلف كثيراً عن حالة العمال الآخرين، الذين كانوا في الموقف السيئ نفسه، لأن الإدارة كانت تعدني رجلاً لا غنى عنه لعملية تفكيك المصنع: فقد كنت تقنياً يحظى بالتقدير، وكنت أحد أعضاء فريق إدارة عمليات التفكيك؛ فلم أذق قط ذل الإحالة إلى صندوق البطالة؛ وكانت الإدارة تظهر تقديرها لبراعتي المتزايدة في مجال الحاسوب (كنت حينها قد بدأت اكتشاف عالم التصميم الصناعي الشديد التعقيد). كنتُ، بإيجاز، قد بدأت خطواتي الأولى لكي أغدو رمزاً «لمصنع «إيلفا» الذي يُفكك

نفسه بنفسه»، كما كتبت إحدى الجرائد؛ كنتُ رجل التفكيك بامتياز، والذي كانت أصابعه ستكتب الفصل الأخير، والحاسم لعملية القضاء على التصنيع بالمدينة: اختفاء مصنع إيلفا ببانيولي.

لا أعرف إذا كان هذا الحدث سيبقى كما يقولون حياً في تاريخ «نابولي». إن افترضنا حدوث هذا، فأود أن يُذكر اسمي، واسم بضعة آخرين ساهموا في تحقيق هذا، إن لم يكن مصحوباً بالإعجاب، والعرفان، فعلى الأقل، بالاحترام، مثلنا مثل من شارك بأقصى جهد له وأغلاه في إنجاز المهمة الملقاة على عاتقه.

4) أتطلبُ مني أن أقدم وثائق حول الصراعات التي جعلت من المرحلة الأولى لتفكيك المصنع، وهدمه عملية صعبة، ومضطرمة الأحداث. أحسب أن لك الحق في أن توقظني من سباتي: كانت خيوط عديدة قد تشابكت معاً آنذاك. أنا، على سبيل المثال، كنت واحداً من المتعجلين (لم نكن في الحقيقة كثيرين)، وأظن أنني شرحت لك أكثر من مرة سبب هذا. آخرون، مثل «فيلو»، كانوا معارضين تماماً لأي تسرع في التنفيذ: كانوا يقترحون النقاش، ووضع القواعد، والتخطيط، وكانت تلك طلبات معقولة، وغير معقولة في الوقت ذاته في ظل تلك الظروف. على كل حال، كان اقتراحهم ذلك يخفي وراءه رغبة مهووسة في إرجاء الأمر، وتعليق الحدث –أي هدم المصنع، واختفاؤه المادي التام– الذي كان الجميع يعايشونه وكأنه النهاية الأليمة.

أود أن تفهمني جيداً. كان يمكن لآرائنا أن تختلف، كما كانت في الحقيقة؛ وكان يمكن لطباعنا، ولأمزجتنا أن تحرضنا على القيام بأشياء سيئة، كما كانت تدفعنا، بالفعل، نحو رغبات، ومخاوف، وأفكار

مختلفة. ولكن، كل هذا لم يكن يمنعنا من أن نعايش هذا الانتقال، وهذا التحول النهائي بالهلع الوجودي نفسه. فعقب هذا لا شيء سيكون كما كان. قال «ألدو فيلو»، في مساء أحد الأيام، بينما كان يقف فوق العربة، التي كان هو وأعضاء مجلس المصنع الآخرون يخطبون من فوقها إلى العمال المحتشدين: «إذا اختفى المصنع فلا شيء سيكون كما كان في السابق».

كان صوته أجشّ، ويغطي وجهه قناع من التعب، والإرهاق، أما العينان فكانتا لامعتين، وثابتتين لتعكسا عناده، ومثابرته. لم يستطع أن يتجنب التلعثم في الكلمات، ولكن أفكاره برزت واضحة في وسط تلك المعمعة الخطابية: كنا عند نقطة النهاية لحياتنا المهنية، ولم تكن الشركة ترغب حتى في الاعتراف بحقنا في أن نعبر عن رأينا حيال الطريقة التي يتم التخلص بها من مصنع «إيلفا» «بانيولي».

عند هذه النقطة بالذات ينبغي عليّ أن أكون واضحاً، ومحدداً، لأنه، كما تقول أنت، في أحيان كثيرة، تكون التفاصيل هي كل شيء. في هذه الحالة، تتعلق التفاصيل بالصراع القديم بين أعضاء مجلس المصنع، الذي عاود الاشتعال من جديد عقب قرار الإدارة بإعادة سبعين عاملاً من المُحالين لصندوق البطالة إلى المصنع، لاستخدامهم في عمليات تفكيك الآلات وهدمها.

أعلن ممثلو نقابتي «تشيزل»، و«ويل»، وجزء من نقابة «تشي. جي. إلّ» موافقتهم، رغم أن السبعين عاملاً كان سيُنتقون من بين المحالين إلى صندوق البطالة بناءً على تقدير مكتب شؤون الموظفين فقط، ودون أية ضمانات تتعلق بالأعمال التي كانوا سينفذونها.

«إن هذا أمر خاطئ»، هدَرَ زاعقاً «ألدو فيلو» وسط تأييد من كانوا يتفقون معه. لا أحد عليه أن يستأنف العمل إلا بعد الوصول إلى اتفاق محدد مع الإدارة، التي ينبغي عليها أن تقبل الاتفاق معنا على مشروع عام للتفكيك، والهدم، يتضمن قواعد محددة لمكافحة حوادث العمل (وهذا بسبب طبيعة الأعمال الجديدة التي سيُكلف بها العمال)، ويتضمن خاصة حلاً شاملاً لمن «لا مستقبل له». لقد تحدثت قليلاً عن صراعات اشتعلت مجدداً، بيد أني لن أكتفي ببعض جمل المواساة، وإسبال العين. فقد كانت المقاعد، والتحف تتطاير في الهواء أثناء الاجتماعات؛ وكان يُكال سباب أكثر حدة من بعض السكاكين المحظور استخدامها.

لم تكن تلك المرة الأولى. ولكن، حسب قول البعض، كانت المرة الأسوأ، حيث كان الغضب يبلل جباه الجميع بالعرق، ويمتص من أعماقهم أسوأ ما كان يكمن فيها.

لم أك حاضراً معهم، ولكن لكثرة ما سمعته من حكايات تعبر كل منها عن رؤية مختلفة، وتُلقي الضوء على تفاصيل لم يلحظها الآخرون، أخالني وكأنني كنت هناك بينهم.

حمل رجل ضخم زميلاً له ورفعه، ثم أبقاه معلقاً في الهواء لفترة طويلة. كان هناك صراخ، ولكمات، وبعض الدموع جراء الغضب، أو الألم، أو الإذلال، فما أهمية ذلك؟ حتى أن أحدا مّا كان يبكي بصوت مرتفع، ودون أي وقار. ها هي شهادة مختصرة لـ«ألدو فيلو» عما حدث:

لم أشعر باليأس قط من قبل مثلما شعرت به في تلك المرة. إنني لست

إنساناً عنيفاً، ولكن إن اعتدى أحد عليّ فسأرد بشراسة، ولعلي أندم على هذا في ما بعد. كنت أعرف أن الحق معي، وأنني على صواب، ولكن، في الوقت نفسه، كنت أشعر بأن مَن كان عليه أن يؤيدني، ويعضدني كان قد تخلى عني، وتركني وحيداً، ولاسيما حزبي الذي كان يبدو وكأنه قد تلاشى، أو لعله كان موجودا فقط لكي يصل إلى حل وسط لا يُغضب المنافسين. من المريع حقاً أن تكتشف نفسك دوماً وحيداً، بل منبوذاً، وقد أُسيء فهمك. لكنني كنت أقول إن الحق معي، وأنني كنت أحاول أن أدافع عن القليل الذي بقي... كانوا يجيبونني بكلاّ، إنك مخطئ. في أحيان كثيرة، لم يكونوا حتى يجيبونني مطلقاً...

أما بالنسبة إلى النقابات، فمنذ سنوات ثمة تياران مختلفان يتعايشان في صفوف نقابة «فِيوم» الموجودة داخل المصنع، أو حتى تلك التي على المستوى الإقليمي: فهناك تيار ثوري متشدد في تأييد حقوق العمال، وتيار آخر «مهادن» مع الإدارة. كنا ننشق على أنفسنا، ونتشاجر، ولكن، سرعان ما كنا نتحد ثانية عقب هذا. بيد أن الجرح في تلك المرة كان أكبر من كل مرة... كان غائراً للغاية...

لم ينته الأمر فعلاً عند هذا الحد. زحف مئة من العمال يترأسهم «ألدو فيلو» باتجاه مبنى الإدارة، اجتازوا البوابة الزجاجية الكبيرة، انقسموا إلى مجموعات توزعت على الطوابق المختلفة، وأصدروا أوامر إلى المديرين الصغار والكبار بإخلاء أماكنهم. في ما بعد، راح الجميع، ومن بينهم «ألدو فيلو» بضخامة بنيته التي ترافقه دائماً باعتزاز، يحملون إلى الخارج فوق أكتافهم مقاعد، ومكاتب، وخزانات، وحاسبات،

وملفات. كان نقلاً للأثاث أقرب شبهاً برقصة متناغمة، وحزينة، وصامتة، كان بمثابة موكب جنائزي.

لم يكن مكتبي بعيداً. لا أذكر بعد مَن نبهني لما كان يحدث: قفزت داخل سيارتي، وهرعت لأرى. كان قد احتشد جمع غفير من الناس حول أطراف ساحة الإدارة، ومن بينهم بعض الصينيين، الذين كانوا يشاهدون الأمر بتعبيرات لا يمكن سبر أغوارها. كانت غيمة حالكة من الصمت تلف كل شيء.

حينما أُخلي المبنى بأكمله، أبصرت «فيلو» يرتقي فوق مقعد بينما كان العمال يلتفون حوله للإنصات له. اقترب جميعنا، ومعنا المديرون المُبعدون من المبنى (كان المديرون الكبار قد فروا). قال: «أعرف جيداً أن تلك المكاتب، والمقاعد، والخزانات ستعود غدا إلى أماكنها. إننا كان نود أن نوجه رسالة قوية، وقد وجهناها: إن هذا المصنع قد قُتِل، ولم يتبق منه سوى جثمانه، ولا تزال الإدارة ترغب في إملاء القوانين، وإهمال حقوقنا، وآرائنا حيال طريقة دفن المصنع. إنهم يستحقون الطرد، وهذا ما أردنا قوله، إنهم غير جديرين بالمناصب التي يشغلونها. سيعود كل شيء غداً بالتأكيد إلى مكانه: إنهم هم مَن يقبضون على يد السكين. حسناً، فلتواصلوا عمليات تفكيك المصنع وهدمه، ولكن، فلتعلموا جيداً أننا لن نترككم وشأنكم قبل أن يُصان مستقبل الجميع».

.

-27-

توجهت إلى المستشفى عقب أسبوع من دخولها إليه. كنت قد تكلمت مع «مارتينيز» على الهاتف، وأخبرني عن أحوالها التي كانت تبعث على القلق، لأنهم لم يكونوا يستطيعون تشخيص دائها بالضبط (كان «مارتينيز» يعلم أخبارها بانتظام من الممرض، ومن أم «مارشيلا»، التي كانت تهاتفه باستمرار). حاولت الاتصال بها ولكن دون جدوى، لذا قررت الذهاب إلى المستشفى على أمل أن أجدها وحدها.

كانت قد فقدت كثيراً من وزنها، ولكنها كانت هادئة. سألتني إحدى الراهبات عند مدخل الممر الذي يؤدي إلى غرف المرضى: «أأنت أحد أقربائها؟». كانت همهمة الأصوات تملأ أذني؛ كنا في الوقت المخصص لزيارة المرضى، وكانت ثمة حركة ملحوظة. غالباً ما تصيبني الرائحة السكرية المسببة للغثيان بنوع من الخمول والنعاس: إنها تُبطئ كل إيقاعاتي. أجبتُ بنعم، لأنني لم أكن أعرف ماذا أقول: كانت كلمة «نعم» مرتبكة، وكان يمكن للراهبة ألا تصدقها بسبب الطابع غير الرسمي للمحادثة.

سألتْ الراهبة بإلحاح: «أأنت أبوها؟».

أومأت بحركة غامضة، كان يمكن تفسيرها هذه المرة أيضاً على أنها موافقة. عندئذ، قادتني إلى مدخل غرفة مكتظة بالناس (كان بها ما لا يقل عن عشرة مرضى).

قالت الراهبة لها بصوت خافت «يا مارشيلا! زيارة من أجلك». رأيتها تمد رقبتها نحو المدخل، فتحت عينيها على وسعهما، ولم تستطع

إخفاء ابتسامة متلألئة من السعادة. لحسن الحظ، لم تنطق بشيء، أحسب بسبب وجود الراهبة، التي كانت مترددة في الانصراف. ما إن اقتربتُ منها حتى أخذت يدي بسرعة، وشدت عليها.

قالت: «كنت أنتظرك؟».

«أكنت تعرفين بمجيئي؟».

«بالتأكيد كنت أعرف»، ثم أضافت: «إنني أعرف كل شيء مسبقاً. في هذه الأيام لم أفعل شيئاً آخر سوى التفكير في القَدَر. إنه موجود. إن كل شيء قد كُتب مسبقاً».

كانت على الفراش المجاور لها امرأة في الخمسينات من عمرها، نحيفة، وهزيلة للغاية، شعرها بلون القش وكأنه صرخة ألم على وجه شديد الوهن يقف في برزخ أقرب إلى السماء منه إلى الأرض. لم تكن تفعل شيئاً سوى التطلع إليّ، وكانت عيناها حزينتين، وثابتتين، وعليهما ابتسامة غامضة بلا أية تلقائية تدفعها إلى أن تفتح بصورة متقطعة شفتيها المتسخة جوانبها باللعاب. كانت ابتساماتها ترغب في مشاركتنا الموقف. سألت نفسي إن كانت «مارشيلا» قد حدثتها عني مطلقةً العنان لخيالها في وصف حقيقة علاقتنا. لم تكن «مارشيلا» تدرك كيف بات موقفي صعباً كزوج كتوم، ومدان بأن يعيش في انتظار أن يقدم توضيحاً لزوجته، وأنه مهما كانت طبيعة التوضيح فإنه كان سيُخلّف آثاراً غير متوقعة، وربما مدمرة على حياتي كلها.

ليس هذا لأني كنت أخشى تصرفاً أحمق، وشريراً من «مارشيلا» هدفه جرح «روزاريا»، وقَلب زواجي رأساً على عقب. فلم يكن هناك داعٍ للخشية من تصرفاتها نحو الآخرين، بل كان ينبغي الخشية من

اضطراب شخصيتها، وسطحيتها، ومن التصرفات التي كانت يمكن أن تصدر عنها دون قصد، أو حتى دون وعي بتاتا.

أمضينا الوقت كله في الحديث عن القَدَر: فمنذ فترة صار القَدَر أحد موضوعاتها المفضلة، وقد تحول الآن إلى نوع من الهوس. كانت تدّعي معرفتها أشياء كثيرة قبل حدوثها، أحياناً، بأيام، وفي أحيان أخرى، بساعات، أو بدقائق فقط. «على سبيل المثال، يمكن أن يحدث أن أعرف، تماماً، الأشياء التي على وشك أن يُخبرني بها الآخرون». اعترضت قائلاً: «ولكن، لا علاقة لهذا بالقدر. هذا يعني أنك تستطيعين القراءة في عيون الناس».

كلاّ، فلم تكن تقرأ فقط في عيون الناس، بل كانت تعرف الأشياء التي كانت على وشك أن تقع، والتي لم يكن بوسع أحد أن يمنع حدوثها، لأنها لم تكن مجرد احتمال فقط، بل كانت أمراً ضرورياً واقعاً لا محالة. حينما رقد أبوها على الفراش جراء تلك الحمى الشديدة اللعينة كانت قد أدركت على الفور أنه لم يكن لينهض ثانية أبداً، وأن الموت كان قد فتح ذراعيه على وسعهما أمامه، وهذا ما حدث فعلاً، رغم أنها آنذاك كانت مجرد طفلة صغيرة فحسب. راحت تنتظر أن يموت، يوماً وراء الآخر، بإيمان يقيني بتحقق النبوءة.

بينما كانت تتحدث عن أبيها راحت تشد على يدي بقوة، حتى أنني لم أك قادراً على إبعادها عنها، رغم محاولاتي المتعددة. كانت تكلمني بينما كانت تتكئ على جانبها مولية ظهرها نحو السيدة ذات الشعر الأصفر المتمددة في الفراش المجاور، والتي كانت بدورها هي الأخرى مضطجعة على جانبها، وتتابع بنظراتها كل حركاتنا، ولاسيما حركات

أيادينا المتشابكة، والهائمة على حواف الفراش، بجوار النصف الأعلى لجسد «مارشيلا».

وبّختني طويلاً لأنني لم أخبرها مسبقاً بوصولي: كانت تود التزين، ووضع مسحوق الوجه، وتصفيف شعرها، حتى تبدو أمامي امرأة لا يمكن مقاومتها. سألتني عن «روزاريا»، لم تفعل هذا من قبل، وطلبت مني أن أبلغها تحياتها.

***

سمحوا لها بالخروج من المستشفى عقب أيام قليلة فقط، وبطريقة يكتنفها غموض كثير، وفق رأي «مارتينيز»، وذلك لأن تصريح الخروج كان مصحوباً بدعوة جديدة لها بالعودة إلى المستشفى مجدداً عقب شهر، وذلك لإعادة إجراء بعض الفحوص، والتحاليل، التي كانت نتائجها غامضة.

لم أعد أعرف في ما أفكر، فلا أفكر بشأنها، ولا بشأني أنا. كنت أتبرم في الظلام. كانت «مارشيلا» تملأ فراغاً بداخلي، إنه أمر غير قابل للنفي، رغم أنه لم يكن بوسعي أن أحدد أي فراغ كان هذا. كانت شخصيتها تثير فضولي بوجوهها الكثيرة، والمختلفة، وغير المتسقة معاً. كانت تثير فضولي أيضاً تجاربها المفرطة في الغرابة، التي ظلت بلا أي مردود، على الأقل، في ما يتعلق بعدم نضوجها، الذي بقي على حاله لم يتغير، وكأن ثمة درعاً يصونه. كان الأمر يتعلق بمجموعة متشابكة من التناقضات، والتي، كما هو معروف، لها سحر خاص رقيق، ولها عبير لاذع قادر على أن يصيب بالحيرة أرواحاً كثيرة، ولاسيما ما يُطلق عليها بالأرواح البسيطة كروحي أنا (على الأقل أعتبرُ نفسي هكذا).

كنت أسأل نفسي عن «مارشيلا»، فمن تكون هي في الحقيقة؛ كنت أفكر فيها أكثر مما كنت أحب أن أعترف به لنفسي، وكنت حائراً في تحديد المغزى المستتر وراء جوانب شخصيتها الأشد غموضاً. كنت أقول إنها متحررة، وقحة، ولكن سرعان ما أراها تتوسل إليّ بنظراتها، تلتمس دفءاً، وحناناً. إنها متشائمة دون أن تدري، ولكنها عاطفية أيضاً، شرسة ولكنها هشة في الوقت ذاته.

ذات يوم، حاولت أن أشرح لـ«مارتينيز»، الذي عبر بقسوة شديدة عن رأيه في طريقة حياة الفتاة وتصرفاتها، وقلتُ له: «فلتنتبه جيداً! في رأيي، إن كل أخطائها تعود إلى السبب نفسه: البحث عن تلك الحماية التي لم تمنحها إياها الحياة بشكل طبيعي. فماذا تظن أنها تريد من كلينا؟»

تمتم العجوز: «فلننس الأمر. فهذه المسألة تخصك أنت وحدك فقط».

كان حكمه عليّ شديد القسوة أيضاً. فحتى وإن افترضنا حقاً أني بلا أي ذنب، كما كنت أدّعي بكل ما أُوتيت من قوة، بيد أني لم أفعل شيئاً للحيلولة دون أن تتحول ظواهر الأمور إلى دليل اتهام ضدي. فلم تكن تلك، على الأقل، مسؤولية هينة، ولا يمكن إلقاؤها على عاتق آخرين. إن الناس في «بانيولي» يثرثرون عني...

لم يقل لي هذا الشيء أبداً من قبل. أصابني الأمر بغضب شديد، مما جعل «مارتينيز» يحاول على الفور التراجع عما قاله. قال إنه لم يكن ثمة شيء محدد، فلا أحد أتى إليه بهدف النميمة، ولم ينقل هو شيئاً أبداً إلى آخرين. كان يقصد فقط أن يحذرني من خطر قائم، أو من احتمال خطر

يمكن أن أتعرض له. من ناحية أخرى، لم يكن لهذا الاحتمال أهمية في حد ذاته، بل كانت أصداؤه التي ربما تصل إلى أسماع «روزاريا» هي ما تثير القلق. قال بصوت عميق، وبنبرة ليست عالية، ولكنها مؤثرة: «إن زوجتك ملاك من الملائكة، إنها امرأة قوية، ولكنها ساذجة. ثقتها بك لا حدود لها: إنها تحسبُ أنك أقرب إلى مصاف الآلهة. سيُمثل لها هذا الأمر خيبة أمل لا تستحقها: سيكون لها بمثابة الكارثة».

قررت فجأة أنني لن أرى «مارشيلا» بمفردها مستقبلاً. كان علينا أن نلتقي في ذاك المساء في بيتها، في غياب أمها، حيث كانت تريد أن تطهو لي لتُكذب عملياً ما قلته عنها، بأنها لا تجيد عمل أي شيء بدءً من أفران الطهي. هاتفتها لكي ألغي الموعد، فراحت تبكي حتى قبل أن أستطيع أن أقدم لها تبريراً لهذا. قالت: «أتبحث عن أعذار، يا بوونوكوري إنك لا تود رؤيتي، إنك تخشى من أنني، آجلاً أو عاجلاً، سأفلح في إغوائك، إنك لا تريد أن أغويك أنا».

لم أجب بشيء. كان لهاثها يصيبني بالقلق: كان صدرها كشفاط يمتص كل أفكاري. ورغم هذا، نجحت في أن أظل ثابتاً على موقفي، ولم أستسلم للرغبة، أو للشفقة.

في ذاك المساء كنت على وشك أن أعترف بكل شيء إلى «روزاريا»، لأتحرر من وطأة ثقل بات فجأة لا يُحتمل.

لَم لم أستطع؟ أخشى أنه الخوف، لكيلا أتعرض للتحقيق المؤكد الذي كان ستجريه معي زوجتي، والذي كان ليصيب كلينا بالحرج، أو ربما، لكيلا أخيب أملها، أو أجرحها، أو، في أسوأ الأحوال، لكيلا أكون مضطراً على أن أقر بأن براءتي في تلك الواقعة لم تكن فوق مستوى

الشبهات، كما كنت أزعم لها. أترى كيف أنني لا أتردد مطلقاً في التحدث إليك عن كل هذا، وأنا أدرك، كما تقول أنت، أنه إذا ما قرر المرء، في لحظة معينة من حياته، أن يفرغ ما في جعبته فعليه أن يفعل هذا بأمانة شديدة إلى النهاية (وبصبر أيضاً، لأن، في بعض الأحيان، ربما يُساء فهم الأمانة، فتبدو وكأنها حب للمظهرية)، وإلا فمن الأفضل له أن يتراجع تماماً عن هذا الأمر.

من ناحية أخرى، إن ما سأقصه عليك ليس على الإطلاق شيئاً إضافياً زائداً، ولا نوعاً من الإصرار المفرط على تفاصيل قليلة الصلة بموضوعنا. فإن كان عليّ أن أكون حاضراً بكاملي في هذا الكتاب فينبغي أن يكونوا حاضرين فيه أيضاً معي «روزاريا»، و«مارشيلا»، و«مارتينيز»، والمصنع الذي يختفي، و«بانيولي» التي كانت تُبدل ملامحها؛ وينبغي أن تكون أنت أيضاً حاضراً برغبتك في سرد كل الأحداث مستخدماً إياي في هذا، وينبغي أن تكون حاضرة في الكتاب أيضاً قصتي المتواضعة كرجل له نقاط ضعفه، وأحقاده، وآلامه. فلا معنى إذن لأن أخفي ما حدث في تلك الليلة بيني وبين زوجتي!

أدركَ «مارتينيز» على الفور أنه كان أمام رجل قد تهشمت أعصابه إلى قطع متناثرة. تقطبت جبهته تماماً، كما يفعل في اللحظات التي يقرر فيها أن يوبخني، بيد أنه لم يقل شيئاً، اكتفى فقط بإظهار تعبيرات عدم الموافقة على وجهه موفراً عليّ كلماته.

لم تكن تنتظرني على العشاء، ولكنها لم تسألني كيف تغيرت خططي فجأة. جلسنا حول الطاولة، وتناولنا الطعام في صمت، وبتؤدة. عند النهاية فقط سألتني، ولكن برقة، ودون أي شعور بالإهانة: «أليس

لديك ما تخبرني به؟».

كنت أفكر بينما كنت أهز رأسي: ها هو الوقت قد حان لأكشف لها عن كل شيء. يا «بوونوكوري» فلتأخذ فوراً يدها، ولتفصح لها عن كل ما يثقل على قلبك. بيد أني لم أتفوه بشيء مطلقاً، بل إني أغفلت الأمر، وألهيتها، وقضينا ليلة غرامية متوترة، ومنهكة. كانت «روزاريا» حذرة، وطيعة في الوقت ذاته: كانت عيناها تنطقان بأسئلة متواصلة، وتلاحقانني في كل مكان. في لحظة ما، لا أذكر متى، تمتمتْ قائلة: «إنك لستَ طبيعياً: ثمة توتر، وعنف شديدان، إنك تخفي عني شيئاً مّا».

توقفت فجأة: «ماذا يمكنني أن أخفيه عنك؟».

لّمحتْ بنبرة مازحة زائفة: «أن لك عشيقة على سبيل المثال».

«أتحسبين إنني سأكون نهماً هكذا مع زوجتي لو كانت لي عشيقة؟».

أجابتني بصوت جاد تماماً هذه المرة، بل وأجش قليلاً: «لَمَ لا؟ إن الندم أحياناً يدفع المرء إلى عمل أشياء غير متوقعة».

فكرت مجدداً: هيا «بوونوكوري»! ها هي فرصة ثانية سانحة. فلتنتهزها بشجاعة، فلتقل لها كل ما كان على طرف لسانك: إن الأمر يتعلق بحقائق جارحة قليلاً، وسترى أنها لن تصيبها بألم شديد. قل لها كل شيء! إن تلك الفتاة لمجنونة؛ تزعم أنها تحبني؛ فلتساعديني لكي نعيدها إلى صوابها...

فكرت: حسناً، هذه المرة سأفصح لها حقاً عن كل شيء. لعلي رحت حينها أتمتم ببعض الأشياء، وأخذت بيدها بين يدي، وشددت

عليها، ثم ذكرت لها اسم «مارتينيز» لأدخل في صلب الموضوع... إن هذا كل ما أذكره، على افتراض أنه حدث حقاً. لقد غرقت في النعاس على الفور وكأنني كنت تحت تأثير مخدر فوري.

في اليوم التالي كانت «روزاريا» ما زالت تضحك: لم أرَ رجلاً من قبل يفقد وعيه هكذا فجأة. كنتَ تبدو وكأنك جثة هامدة يا «بوونوكوري»، حتى أنني قرّبت أذني من قلبك، وقلت لنفسي بعد أن عاد إليّ الهدوء، آه إنه لا يزال ينبض.

-28-

منذ أن شرعنا في تفكيك آلة الصب كنتُ قد اعتدت الخروج من المنزل في الصباح الباكر للغاية: كنت أحاول بهذه الطريقة تجنب حشود العمال حول بوابات المصنع، الذين أرغموني أكثر من مرة على التوقف معهم قليلاً، قبل أن يتركوني أنصرف (ثرثرة، وثرثرة، وثرثرة إلى ما لا نهاية). ولكن، كان هذا فقط السبب المُعلن لاستيقاظي المبكر، وقد كانت حجة ملائمة لتهدئة روع غريزة الأمومة، والحماية، والسلطة الكامنة داخل «روزاريا». كانت المسألة في الواقع تتعلق بنعاسي، والذي كان عادة شديداً، وعميقاً في الماضي (كانت هي دائماً من تحضر لي القهوة في الفراش، وفي أحيان كثيرة كانت تدغدغني خلف أذني لكي أستيقظ من سباتي العنيد). ولكن، لم تكن شدة نعاسي هي المشكلة بل مدته.

عادة ما كنت أغط في النوم فوراً عندما تشرع هي في القراءة، ثم كنت أستعيد وعيي ثانية عند الفجر، وأحياناً قبل الفجر بفترة، بأعين مغمضة في الظلام، ولكنها مشبعة، ومستريحة، وكأنني نمت لثماني ساعات متواصلة، وليس أربعاً أو خمساً بالكاد في الحقيقة.

كنت ألبث لبرهة ساكناً لأستمع إلى أنفاس زوجتي، ثم كنت أنسحب بحذر من الفراش، وأذهب إلى المطبخ. ذات مرة، حدث أن خرجتُ، وكان الظلام لا يزال حالكاً: رحت أهيم في الشوارع النائمة حتى وجدت نفسي، ودون أن أدري كيف، في «بوتسوولي» عند الساحة الواسعة لرسوّ القوارب الكبيرة. كان الظلام لا يزال مهيمنا.

أوقفت السيارة: شعرت بنفسي منهكاً. رحت أفكر: يا إلهي إذا ما رأتني «روزاريا» الآن!

أحنيت رأسي فوق عجلة القيادة، وقد غلبني نعاس بلا أحلام، قصير، وعميق كوثبة في الفراغ.

عقب اجتيازي لبوابات «باب كورروليو»، وعندما يسمح لي الوقت، كنت أقف عند النقطة التي تبدأ عندها الطريق المؤدية إلى ورشة الصلب. كنت أهبط من سيارتي، وأسير بخطى سريعة نحوها (لم يكن هذا مشياً رياضياً، بل شيئاً آخر شبيهاً يثير الضحك). بين ورشة الصلب، وآلة الصب كانت قد وُضعت رافعة مجنزرة ضخمة تبلغ حمولتها خمسمئة طن قادرة على بلوغ ارتفاعات تصل إلى تسعين متراً تقريباً: كان التحديق ولو قليلاً في نقطة نهاية ذراع الإطالة لعمود الرفع، التي كانت مثبتة بأسفلها سلة متحركة تسع عاملَين بداخلها، يصيب المرء بالدوار.

كانت السلة هي مقصدي، النقطة المحورية لكل جولاتي الصباحية. فعاجلاً أو آجلاً كنتُ سأرتقي عالياً في السماء فوق سلة تلك الرافعة: كنت قد حصلت على وعد بهذا؛ بل كنت أنا السبب في عدم الوفاء بالوعد إلى الآن، كنت أنا مَن يضيع الوقت بعذر أو بآخر، أبسبب الخوف؟ فليحمني الله منه! ومما أخاف؟ كان خوفي الوحيد هو أن أتسرع في خوض تجربة كنت أنتظرها طويلاً، ورغم أن «تشونغ فو» كان قد تحداني أن أوضح المغزى من وراء هذا الانتظار، ولكني لم أكُ قادراً على شرح الأمر.

كنت قد تمتمت بتلقائية ببعض الكلمات: أتبغي وضع السماء مع الأرض؟ أو تبغي وضع كائن فوق كائن آخر؟ أتوقع... أتوقع... أتوقع

أن أستعيد بعض الثقة بنفسي. كان «تشونغ» قد أجابني قائلاً بأنه لم يكن ليستطيع تقليدي أبداً، ومطلقاً: لقد كان يعاني من دوار الأماكن المرتفعة، كان الفراغ سيبتلعه كدوامة بحرية. كنا ننتمي إلى برجين مختلفين من أبراج الحظ: وربما لهذا نشأت بيننا صداقة وتفاهم شديدان. كان هو ينتمي إلى الأرض، أما أنا فإلى السماء. أكد لي «تشونغ فو» بقناعة شديدة أنه إذا ما ارتقى إلى الأعلى داخل سلة الرافعة، فعاجلاً أو آجلاً كان سيلقي بنفسه منها، ويقضي نحبه. أتريد أن يموت «تشونغ فو»؟

كنا نتحدث كثيراً عن رحلتي إلى الأعلى فوق ورشة الصلب، وآلة الصب؛ وكان من حين لآخر يتذكر الأمر، ويسألني إن كنت قد حددت موعداً لهذا. كنت أجيبه بكلاّ، وكان هو يشد على كتفي بتعبيرات راضية قائلاً: أحسنت! فلتنس الأمر!

ولكن، ذات يوم، قفزت داخل السلة مع أحد عمال الشركة التي ربحت المناقصة، وجعلته يحملني معه إلى الأعلى. كانت بصحبتي آلة التصوير التي لا تفارقني أبداً، وطفقت سريعاً في التقاط الصور هكذا بشكل عشوائي، ولمجرد الزهو بما أفعله. كان الرجال في الأسفل يضحون أكثر ضآلة بسرعة؛ لم يكن «تشونغ فو» يكف عن تحيتي، وهو يهز يده بوجهه الصغير ذي العظام البارزة، والشكل الهندسي (يشبه المثلث المقلوب)، الذي كان يحدق باستمرار في السلة.

كان الأمر أشبه بالارتقاء داخل مصعد مفتوح. أبصرت على الفور البحر، و«نيسيدا»، والجسور التي كانت تقطع كالسكاكين المياه الشاحبة. كلما صعدت عالياً كانت مداخن المصنع تبدو وكأنها تدنو

مني؛ كانت أشبه برجال منتصبين يزحفون متوعدين نحو ميدان تغمره الشمس. كانت تلك المداخن تستدعي إلى ذاكرتي رجالاً حقيقيين، عمالاً كنت قد عرفتهم في الماضي، ثم لم أعد أراهم، لأنهم ماتوا، أو انتقلوا للعيش بالخارج؛ أو لعلهم تركوا ورشة الصلب لسبب أو لآخر. عادت إلى ذاكرتي أسماء، ووجوه شتى. كان لي علاقة قوية، إن لم تكن صداقة، بأحدهم: كنا قد تبادلنا بعض الزيارات العائلية بصحبة زوجتينا. في إحدى الأمسيات، أتى الزوجان إلى بيتنا، وجلبا معهما سترة صوفية لابني البالغ من العمر آنذاك أربع سنوات. كانت سترة قد حيكت بالإبرة في المنزل، وكانت قد راقت كثيراً لـ«روزاريا». كانت زوجة «دي باسكال» امرأة شاحبة، بل بيضاء، وكانت بشرتها لفرط بياضها تصيب من يراها بالانزعاج. كانت شقراء أيضاً وترتدي نظارات لقصر نظرها. لكن، لا ينبغي أن ننخدع بهذا، فبرغم هذا كله، كانت امرأة جميلة جداً، حتى أن «روزاريا» في ذاك المساء هاجمتني قائلة: فلتقل لي، إنها تروق لك بشدة. أجبت بكلاّ، إنها بيضاء جداً، لكن «روزاريا» لم تصدقني، وأفهمتني بأنها لا ترغب في رؤيتها ثانية. بيد أن ما حدث كان العكس، فلقد اختفى الزوجان تماماً، ولم نرهما أبداً بعد تلك الأمسية. بين عشية وضحاها اختفى «دي باسكال» من المصنع. عقب بضعة أسابيع حاولت الاتصال به في المنزل، ولكن لم يجبني أحد لا في ذلك المساء، ولا في الأيام التالية له.

كانوا قد أعطوني هاتفاً لاسلكياً لكي أستطيع التحدث مع عامل مقصورة التحكم الموجودة بالأسفل. حينما كنا على ارتفاع خمسين متراً طلبت منه التوقف: كنت أنوي فحص سقف آلة الصب للتحقق

من براغي الاتصال، حيث كان من المتوقع العمل عليها باستخدام أنبوب الأكسجين. وللحقيقة، كان تفكيك تلك الصفائح يخرج عن إطار تخصصي، ولكني كنت أدس أنفي في كل مكان متمتعاً بحماية المهندس «لوناردي»، وقبل كل شيء بحماية الصينيين الذين كانوا يرغبون في أن أكون أنا فقط من يتحدث معهم. كانت لهم ثقة عمياء بكلمتي. والأكثر من هذا، كان «تشونغ فو» قد أقنعهم بأنني، إضافة إلى كوني الرجل الأكثر إحساساً بالمسؤولية، فقد كنت أيضاً الأكثر مهارة، وتأهيلاً في الجانب الإيطالي، على الأقل، في ما يخص آلة الصب. أحياناً، كان المهندس «لوناردي» يسخر مني بروح طيبة: «لقد بات مصيرنا جميعاً معلقاً بيديك. لقد صرتَ أنت مصنع «إيلفا»، وقد صرتَ أنت شركة ستيل ووركس: يا بوونوكوري ماذا تشعر، وأنت تعتلي القمة هكذا؟».

كان يمزح، رغم أن أصابعه لم تكن تمسك بالفراغ، بل كانت تقبض على شيء حقيقي ملموس، لأن صورتي كانت تنعكس داخل هذه السخرية، وكأنني «نرسيس» يتطلع إلى صورته في بركة الماء المشهورة.

كنت حريصا دوماً على صورتي، وعلى مكانتي، ولم تحرمني الحياة بالتأكيد من أن يقر لي الآخرون بتلك المكانة على النحو الذي يرضيني. بيد أن المكانة الشرفية الرفيعة التي بلغتها، ولاسيما عقب وصول الوفد الصيني الثاني، كانت هائلة، وزائفة، ومفرطة إلى درجة كانت تسبب لي شخصياً الإحراج. كنت أجد نفسي في موقف حافل بالتناقض: فقد كنت أعيش في حالة من الخيلاء، واليأس في الوقت ذاته. ذات مساء، قام شاب نحيف، بوجه يشبه وجه الفأر، في الخامسة والعشرين

من عمره، يعمل ضمن أفراد مجموعة الاستقبال. بمناداتي قائلاً «أيها المهندس بوونوكوري».

«ماذا؟».

كنت على وشك أن أثور غضباً فعلاً. ولكن، كانت نظرة واحدة كافية لكي أدرك أنه لم يكن يقصد تهكماً، أو شراً، بل، لم يكن الأمر أكثر من تملق دون وعي.

استغرق فحص سقف الورشة دقائق قليلة، ثم تكلمت بالهاتف، وطلبت أن أُحمل إلى أقصى ارتفاع يمكن أن يصل إليه هذا القفص. ابتسم مرافقي في السلة في علامة على الموفقة. كان عاملاً له عمري نفسه تقريباً، له جسد أشْعَر من قرد، بعينين عذبتين كعيني طفلة. كنا نعرف بعضنا منذ فترة طويلة، كان أحد من قاموا بتركيب آلة الصب عند وصولها من شركة «إيتال إمبيانتي». قال: «أعرف أنك تبغي بلوغ الجنة. ولكن، هذه اللعبة لا تعلو أكثر من تسعين متراً».

كانت تكفيني. قلت: «إنها تكفيني»، وأريته آلة التصوير لكي يفهم أنني كنت أرغب فقط في تقليد طيور النورس، وأن أحظى مثلها بالتطلع إلى المشهد من أعلى.

عما قليل لن يتبقى هنا شيء: كانت بعض القطع قد نُزعت من آلة الصب، كان الفراغ يزحف كداء عضال نهم يلتهم، يوماً بعد يوم، المريض.

كان موقع الرافعة ووضع السلة يجعلان من مشهد التلال الأفضل لزاوية رؤيتي. أبصرت فجأة شارع «نووفا بانيولي» أسفل قدمي، رأيت المارة، والسيارات، والترام. كان لدي انطباع بأنني لو أصابني

الجنون، أو الدوار، وألقيت بنفسي من أعلى لسقطت بين الناس: لعلي لو استطعت التحليق لتشبثت بالمدخنة الكبرى الخاصة بطرد أدخنة الاحتراق.

كنت أعرف جيداً تلك المدخنة الطوبية، وقمتها المطلية كرقعة الشطرنج باللونين الأبيض والأحمر، بينما طلاء شبكي يلفها كأنها جورب على هيئة شبكة حيكت بشكل غير منتظم. كنت أعرفها جيداً، لأني، منذ فترة قليلة مضت، أُتيحت لي الفرصة لتأملها من بيت «مارشيلا» من الطابق السادس لبناية تلتصق بها من الخلف. كانت «مارشيلا» تبغضها: وتتذكر عندما كانت -في طفولتها- تجلب لها داخل البيت جبالاً من الرمال السوداء، والرمادية. قالت لتصيب كالصاعقة حماستي الواضحة: «لقد قتلت أبي: فكيف لها أن تروق لي؟»،

كيف استطعت أن أنسى ذلك؟ كان أبوها صديقاً لي، أو، على الأقل، رفيقاً طيباً في العمل، كان بمثابة رجل أسطورة منحه الله، حسب قول كثيرين في يوم وفاته، كل شيء -الجاذبية، والجمال الجسماني، والذكاء، والإنسانية- عدا حسن الختام. حين بلغتْ الثمانين متراً توقفت السلة: قيل لي في الهاتف: أيكفي هذا الارتفاع؟ لم يكن لديّ اعتراض، ولكنني طلبت أن أقرر أنا لحظة العودة.

كنا قد بلغنا ارتفاعاً مثالياً. فلو زاد ارتفاعنا لبدت المساحة التي يشغلها المصنع ناقصة أمام أعيننا: أما من هذا الارتفاع فكانت تبدو مستطيلة للغاية، حتى أنها كانت تبث شعوراً بالاتساع الشديد، وكأنها بلا نهاية، أو كأن بين البحر في الجهة الجنوبية الغربية والتلال في الشمال الشرقي كانت تمتد ساحة صناعيةٌ لا حدود لها، مسطحة، ورمادية

كالمقبرة، رغم أن الشمس كانت تبرق مشتعلة فوق قمم الأفران العالية المنطفئة، مما كان يعطي إيحاء بأنها لا تزال على قيد الحياة.

فكرت أن قروناً عدة ستمضي قبل أن يفلحوا في هدمها بالكامل، وفي اقتلاع جذورها المتغلغلة لأمتار وأمتار في أحشاء الأرض برفقة خزانات المياه الجوفية، والأحواض، ومستودعات القطران، والنفط، وأسلاك كهربائية ضخمة، وأنابيب المياه التي كانت تنقل المياه المضخوخة من البحر. للأسف، لم أجلب معي المنظار المكبر لعدسة آلة التصوير: كنت أستطيع أن أصور فقط مساحات كبيرة معاً. من ناحية أخرى، كان قرار القفز في السلة، بعد كثير من الوعود والتأجيلات، قرارا مفاجئاً أُتخذ على سبيل المزاح تقريباً. كنت بجوار الرافعة حينما استشارني رئيس عجوز لأحد الأقسام، يتبع الشركة المتعاقدة على تنفيذ المناقصة، ومعروف عنه السخرية الشديدة: كان قد قال لي بأن الرافعة مغرمة بي، وأنها كانت تذرف الدمع كل مساء على كتفه سائلة إياه: أهذا الـ«بوونوكوري» مصاب بالعجز الجنسي؟

ضحكتُ. كنا أصدقاء. ضحكتُ، وقلت له بأن يخبر الرافعة بأن تتهيأ. ذهبت إلى المكتب، أخبرت المهندس «لوناردي» بأنني كنت سأذهب لأتفحص سقف آلة الصب، أخذت آلة التصوير، ووضعت الخوذة فوق رأسي، وعدت إلى رئيس القسم.

وجهت آلة التصوير نحو الجسر الجنوبي، حيث كانت راسية به سفينة يجاورها جسر الرفع الضخم المسؤول عن شحن السفن وتفريغها. كانت آلة الصب سترحل من هناك متجهة إلى «ميشان». استرجعتْ ذاكرتي فيلما كنت قد شاهدته في شبابي، وجعلني أبكي: كان يحكي

عن رجل يشاهد رحيل امرأته على متن قارب دون أن يكون بوسعه عمل شيء لإيقافه. ثم صوبت العدسة على أحواض تنقية مياه البحر؛ ثم على ساحة تجميع القطع الحديدية القديمة، التي كان مُقاماً عند طرفها، وعلى بعض خطوات من الساحل، مستودع للمتفجرات.

لبثت ألتقط صوراً إلى أن نفدت الشرائط التي كانت بحوزتي أمام النظرات المنتبهة، والجادة، أحياناً، والمتهكمة، أحياناً أخرى، لرفيقي أشْعَر الجسد. تحدث لمرة واحدة فقط: كنت قد برزت مرةً أكثر من اللازم من الصندوق، فأمسكني من ذراعي: «أتريد الموت؟».

أجبته متبرما: «كلاّ».

ولكنه ألح: «ثمة طرق عديدة للموت، لا أظن أن هذه هي الطريقة الأكثر هدوءاً، والأقل ألماً».

اعترضت قائلاً بأن الكثيرين لا يرونها مؤلمة إلى هذا الحد، ولفتُ انتباهه أن كثيراً من المظليين يتنافسون على من يكون آخِر من يفتح مظلته قبيل الاصطدام مباشرة، فساعتها تصير لحظة تأخير واحدة كافية لكي يصبح طبق الأُمليت جاهزاً. يزعمون أن الموت بهذه الطريقة جميل، لأنه تصاحبه مشاعر شتى عنيفة.

ابتسمت له، وقلت: «أسألك المعذرة! فلا ينبغي أن تُقال هذه الأشياء لرجل يزاول عملاً مثل عملك».

«ولِمَ لا؟».

رحنا نتحدث عن الدوار. أكد بأنه لا يعاني من الدوار، ولكنه كان يعرف كنهه، وأعراضه: إنه بمثابة فقد للإرادة، فيصير العقل ضبابيا، ثم يبدأ العالم في الدوار حولك بينما أنت ثابت في مكانك، أو يحدث أن

تدور أنت في اتجاه معاكس لدوران ما حولك، مثلما يحدث حينما نفرط في الشراب، أو حينما تبدأ رأسك في الرقص: ترقص قليلاً في البداية، ولكن تزداد السرعة دوماً أكثر فأكثر، وحينما تجد نفسك داخل سلة على ارتفاع سبعين، أو ثمانين متراً، ورغم علمك بأنه لا ينبغي عليك النظر إلى الأسفل، ولكنك تبدأ في إطالة النظر، والتشبث بسور السلة بطريقة يزداد عدم توازنها باستمرار...

بينما كان الرجل يشرح تذكرتُ «تشونغ فو» ودواره. وَعَدتُ نفسي بأن أسأله عن هذا الأمر في المساء ذاته: يا «تشونغ» ماذا تشعر بالضبط وأنت تواجه الفراغ؟ أسيكون بوسعك حقاً أن تلقي بنفسك إلى الأسفل إذا ما أرغموك على ارتقاء ذراع عمود يعلو بك لتجد «ميشان» كلها تحت أقدامك؟ كان القلق يغمرني عندما طلبت منهم بالهاتف أن يعيدونا إلى الأرض، انتابني إحساس بالدوار في رأسي يشبه تماماً ما يحدث حينما أحتسي الخمر، لعلي عانيت دوماً من الدوار دون أن أدري، سألت مرافقي ما إذا كان داء الخوف من الفراغ يمكن أن يصيب الناس فجأة، وفي سن متقدمة.

نصحني بهدوء بأن أقعد القرفصاء في السلة، وأن أكف عن الكلام.

***

كان «تشونغ فو» قلقاً يراقب السماء كمن يخشى هبوب العاصفة. لم تكن ثمة علامات واضحة على هبوبها، ولكن البحارة المتمرسين يصدقون ما تنبئهم به فطرتهم أكثر من تصديقهم للبارومتر الزئبقي. من ناحية أخرى، كنت أنظر إلى ما حولي باضطراب متزايد: كان كل شيء على السطح يبدو أنه يسير على ما يرام، ولكن ماذا كان يحدث أسفل

سطح الماء؟ كان عمال الشركات التي ربحت المناقصات يتمتمون بأشياء ولاسيما باتجاه الصينيين، وكان الصينيون بدورهم يبدون اعتراضات متواصلة؛ أما المهندس «لوناردي»، في ما يبدو، فلم يكن يشغل باله سوى أمر واحد فقط وهو التعجيل بالعمل. كان يحذرني باستمرار: «يا بوونوكوري إن الخطر المحدق بنا هو البطء في التنفيذ، إنني لا أنسى أنك، ككل المحبين للكمال، لا تحب العجلة في العمل».

لم يكن مخطئاً بتاتاً، وأنا أول من يقرّ بهذا: إن السلحفاة هي حيواني المفضَل، والوحيد الذي أحب أن يُشبّهني الناس به. أحب فيها درعها، ونظراتها الحادة، ولاسيما بطئها، وهي سمة مهمة في عائلتنا منذ أن كان أبي يعاني منها بدرجة ليست بأقل مما أعانيه أنا (كانت الزهور، وأوراقها، والملائكة تُولد بشق الأنفس من بين يديه، ولكن، إذا ما نظرنا إلى الأمر بنتائجه فما أجمله من عناء!).

شرعنا في إخلاء المصنع بدءاً من طابقه الأرضي. كانت شركتان تنفذان هذا في الوقت نفسه: شركة لتفكيك أعمال النجارة والحدادة، والأخرى لتفكيك الأجزاء الميكانيكية. كان العمل يسير وفق التنظيم التالي: في قمة الهرم كانت توجد شركة «سيديرمونتاجي»، التي كان يقوم مديروها كل صباح، بمعاونة من مجموعة تقنيين تابعين لمصنع «إيلفا»، بتوزيع برنامج خاص بالعمل على كل آلة قيد التفكيك. أما بالنسبة إلى آلة الصب، فيمكن القول بأنني كنت نقطة الاتصال الرسمية، أقصد أن الصينيين كانوا يتلقون مني برامج التفكيك، التي أعدها المسؤولون في قمة الهرم. في الصباح، وأثناء ما يشبه الجمعية العمومية للقطاع، كنت أقوم بشرخ كيفية سير العمل في ذلك اليوم: في

أي مكان سنعمل، وكم عدد فرق العمل اللازمة، وما المعدات الثقيلة المُستخدمة، والنتائج المُنتظرة. وبناءً على التقرير الذي كنت قد أعددته أنا، كان الصينيون يقسمون أنفسهم بدورهم إلى مجموعات مختلفة لمتابعة فرق العمل الإيطالية، ولمراقبة أن كل شيء كان يسير بالمطابقة لما هو مُشار إليه في «كتاب الخطوط الإرشادية».

تبدو الحكاية بهذه الطريقة وكأنها مرت دون أي عوائق، ولكن الحقيقة غير ذلك: في كل صباح، كانت ثمة معركة حامية ينبغي علينا مواجهتها. فلسبب أو لآخر، كانت مسألة «مطابقة الأعمال لما هو مشار إليه في كتاب الإرشادات» تتعرض لبعض المآزق، ولكن، للحقيقة، لم يكن الأمر يتعلق دوماً بأشياء لا يمكن التساهل معها. ولكن الصينيين المسؤولين عن المراقبة لم يكونوا يفرِّقون بين خطأ وآخر: كانوا يوقفون كل فريق العمل، ويستدعونني على عجل، ويجتمعون في ما بينهم وكأنهم في ما يشبه مجلس حرب. حينما يكون الخطأ غير ذي أهمية: أي أن إصلاحه لم يكن يتطلب التدخل بأنبوب شعلة الأكسجين؛ أو لم تتعرض أي قطعة مهمة للكسر، أو للتشوه كان من اليسير إقناعهم بالتراجع عن اعتراضاتهم. أما عندما كان يتعلق الخطأ بمشكلة مهمة، أو تكاد تكون كذلك، فلم تكن ثمة وسيلة لحل الأمر إلا بالطرق الرسمية. كان من الضروري عقد اجتماع، والنقاش معهم، والإنصات إلى توبيخهم الواقع لا محالة (لاسيما حينما كان المهندس «لوناردي» حاضراً معنا)، سواء تعلق الأمر بخطأ أُرتكب فعلاً، أو كان على وشك الوقوع.

إذا ما استثنينا الحالات التي كان يلزم فيها التدخل بأنبوب شعلة

الأكسجين، لم تكن احتجاجاتهم أكثر من مجرد تمثيل فحسب: فهم يؤدون دور المراقب الصارم، رغم أنهم في النهاية كانوا يصيرون مهادنين، ومتفهمين. أما حينما كان يقتحم المشهد أنبوب الأكسجين، ساعتها كان يختفي المسرح. فقد كان الأنبوب بمثابة شبحهم الأسود، لأن عمال الشركات المسؤولة عن التفكيك لم يكونوا يفعلون شيئاً آخر سوى تحديهم في هذه النقطة بالذات، وكانوا، في أحيان كثيرة، يصرحون للصينيين علناً بهذا: لو كنا المسؤولين عن الأمر ما أرهقنا أنفسنا في اقتلاع ولو برغي واحد صغير كالدودة، بل كنا سنقطِّع كل أجزاء الآلة إلى شرائح صغيرة بالسكين الأكثر حدة، والأشد قطعاً في العالم، فالشعلة الناتجة عن احتراق الهيدروجين والأكسجين معاً لقادرة على قطع لوح من الصلب (يصل سمكه إلى أربعة وعشرين سنتيمتراً) أشبه بقطعة خبز مصنوعة من الزبد.

حاولت مراراً، ولكن سدى، أن أشرح لهم (في اجتماعات عُقدت خصيصاً لإلقاء بعض الدروس عليهم) بأن هذه الطريقة لم تكن صحيحة؛ وأن فن التفكيك لأكثر تعقيداً من نقيضه، أقصد أن مَن يُفكك عليه أن يأخذ في حسبانه دوماً ذلك النقيض. قلت لهم إن التفكيك يحدث لأن ثمة حاجة سريعة إلى إعادة تركيب ما فُكِك دون أية صعوبات، وكأننا أمام قطع الجهاز عندما كانت جديدة قبل تركيبها للمرة الأولى. إن هذا يعني أن أثناء عمليات التفكيك ينبغي التفكير دوماً في العملية العكسية، ينبغي أن يكون حاضراً دوماً أمامنا قلق، وسعادة مَن يتولى التركيب أو، العياذ بالله، غضب، واضطراب من يقوم بالهدم.

حينها أعلنوا اقتناعهم بكلماتي، ولكن كان إعلانهم ذلك يشبه

الطمأنة التقليدية للبحارة: عقب فترة، وأحياناً عقب سويعات قليلة، كانوا يعودون إلى ما كانوا عليه، ومعهم الصينيون المساكين، لأنهم حاولوا لمرتين، أو ثلاث أن يستخدموا القوة لفك أحد البراغي دون أن ينجحوا.

ولكن، لنعِ الأمر جيداً! فلم يكونوا مخطئين في كل الأحوال. كانت ثمة نقاط، كان يبدو مستحيلاً إزالة الركام عنها دون اللجوء إلى أنبوب شعلة الأكسجين. كان «تشونغ فو» نفسه يتفق معي في هذا حينما كنت أتحدث معه وجها لوجه بشكل منفرد.

كان السبب في هذا أن الآلة لم تكن مثالية التصميم لتحول دون تراكم القطرات التي تتساقط من الألواح في أماكن شتى بدلاً من تجمعها في مكان مخصص لذلك. للأسف، تنبهت إلى ذلك في تلك اللحظة فقط، وكان ذلك عيباً يبعث على الأسف، فلعله لم يكن من الصعب تصميم نظام وقاية، وتنفيذه مما يدفع الشركة المصنعة لتوجيه الشكر لنا.

أذكر أنه حينما أخبرت «تشونغ فو» بحسرتي على هذا، صوب على الفور إصبعه نحوي: ها هو، أترى؟ ينبغي عليك أن تأتي إلى «ميشان». هناك سيكون بوسعك تحقيق كل أحلامك. سيمكنك أن تُظهر قيمتك الحقيقية.

لم يكن الأمر هكذا تماماً، ولكني لم أخبره بذلك. بيد أني أظهرت له كل إعجابي بتلك الآلة، التي كانت قد أحدثت ثورة تقريباً في منظومة تصنيع الصلب، لأنها أتاحت تبريد المعدن السائل، وتجمده مباشرة في ألواح.

سأشرح لك. في الماضي، كان الصلب يتجمد في القوالب، ثم

يُستخلص في ما بعد منها على هيئة ألواح، التي كانت تُعرض للتسخين في الفرن، ومن ثم يتم إعادة تشكيلها. لقد وُلدت الألواح مع آلات الصب الجديدة، ولذا فيمكن اعتبارها بمثابة ابنة، أو أخت لها. أأُخطئ حينما أعتبر مشهد جريانها ملتهبة فوق الحصيرة المتحركة كأحد أجمل المشاهد الموجودة على الأرض، التي تعيد إليك صفاءك مع العالم، وتعيد إليك الثقة في الإنسان، إن كنت يوماً فقدتها.

يعيبها بالتأكيد فقدانها لبعض المخلفات، ولاسيما في البداية، حين تكون عملية تجمد الصلب في بدايتها. لا أود القول الآن إن استخدام أنبوب الأكسجين في تنظيف الحصائر المتحركة من الركام يمثل إهانة لا تُحتمل للآلة. فمن الناحية العملية، كان الأمر سينتهي بقطع رأس البرغي الذي أصابه الضرر لإرغامه على الخروج من مكانه، ولكن المسألة المهمة لم تكن مجرد الضرر المادي فحسب، فالصينيون، وأنا شخصياً، كنا ندافع عن مبدأ الحفاظ على وحدة الآلة بأي ثمن، وإلى أقصى حد ممكن.

ولكن ما هذا الحد البشري؟ في هذا العالم هناك دائماً شيء ما يمكن عمله لحل مشكلة تقنية، إنها مسألة وقت، ومثابرة، وموهبة: كم هي الصعوبات الشديدة التي لم يقدر هذا الثلاثي الرائع على إيجاد حل لها؟.

رحت أفكر في الأمر دون توقف، بدأب مهووس مريض، يمثل، حسب رأي «روزاريا»، أكثر الجوانب غموضاً في شخصيتي. ففي حالات ثلاث بالتحديد بدا لي اللجوء إلى شعلة الأكسجين لا مفر منه: لذا فضلت أن تُترك تلك الحالات الثلاث دون حل مقترحاً على العمال مواصلة العمل، ومن ثم العثور على حالات أخرى محتملة مثيلة،

وعندئذ كان من الممكن مواجهتها كلها بقرار واحد. أثناء النهار كنت منكباً فقط على دراستها. حتى في المساء، عند رجوعي إلى بيتي، لم أكن أنساها. كنت قد عدت إلى عادتي القديمة في التصميم، أمام نظرات زوجتي المُختلَسة، التي لم تكن تستطيع استيعاب مغزى تصميمي لكل تلك البراغي، ورؤوسها، والمسامير في أوراقي، ولذا كانت تغدو دوماً أكثر بروداً وعصبية (ليس من عادتها السؤال عن شيء، وكانت ستفضّل الموت على أن تسألني عن شيء أتردد في أن أقوله لها).

في النهاية اقتنع الصينيون أيضاً أننا دون الأنبوب الأكسجيني لن نخرج أبداً من ذاك الموقف، وأخذوا يمارسون ضغوطاً حتى لا يضيع وقت آخر. لبثت إذن وحيداً مع ترددي، ورغبتي العنيدة. إنها فعلاً هكذا «رغبة عنيدة» رحت أغذيها، شيئاً فشيئاً، داخل رأسي دون أن أؤمن بها تماماً (وكأنها كانت تتعلق بمشروع حقيقي فعلاً)، ولكنني لم أكن أعتبرها أيضاً مجرد لعبة فحسب.

قررت حينئذ البدء في العمل. في الأيام السابقة كنت قد جمّعت في مكتبي كل شيء يمكن أن أحتاجه: الخوذة، وبزة العمل، والقفازات القصيرة والطويلة، والأزاميل، والمبرد، والجلاخة، وكشافاً كبيراً للإضاءة، وأشياء أخرى شتى من غير المفيد أن أعددها لك الآن.

لم أخبر أحداً بعودتي في ذاك المساء إلى المصنع (ماعدا الحراس المسؤولين عن الدوام المسائي). كنت أتوقع العمل منفرداً، وفي هدوء مطلق، وتركيز كامل. سار الأمر في البداية على هذا النحو فعلاً.

وضعت كل الأدوات جانباً في نظام شديد، ودنوت من أول البراغي الثلاثة، التي قررت إعادة بنائها من جديد. كان يقع في المنطقة الأولى

للقطاع السفلي، بين القطعة الثالثة والسادسة، أسفل الحصيرة ذات المحرك. كانت منطقة خافتة الإضاءة أسفل المنصة التي ينتهي عندها القوس.

لم يكن من السهل بالنسبة إليّ العمل في ذاك المكان منفرداً: فلمَ أبدأ بالنقطة الأشد صعوبة؟ قررت أن أبدأ بالبرغي الثاني الذي كان يقع على مسافة كبيرة أمام الآخر، في بداية الممر المتوسط، بجوار حصيرة أخرى بمحرك (كانت هناك اثنتا عشرة منها).

جلست هناك بجوارها بِنيّة أن أستريح قليلاً قبل أن أنهمك في العمل، كنت أرغب أن آخذ وقتاً ليصفو ذهني، كما يفعل الرياضيون عادة في بداية المباريات. قلت لنفسي إنه كان عليّ العمل في هدوء، وببرود ساخر. إن ما أفعله كان مجرد محاولة: كان يمكن أن يكون النجاح مصيرها، أو الفشل أيضاً. كان الشيء المهم هو ألا يتحول الأمر إلى مسألة شرف، أو غيظ، أو حتى مسألة زهو. كان ينبغي أن يظل الأمر مسألة شخصية خاصة، مهما كانت نتيجتها.

كان مشروعي بسيطاً، بل تافها من منظور ما، ولكنه كان شيئاً محفزاً لشخص مثلي يهوى الإبداع والاختراع. كنت قد قررت أن أنظف البراغي من كل المخلفات التي كانت قد تراكمت عليها، لإعادتها إلى حالتها، وهيئتها الأصلية. أما إذا كان الصلب السائل قد التهم البرغي تماماً؟ كان هذا احتمالاً بعيداً جداً، ولكنه ليس مستحيلاً. في تلك الحالة، كانت المشكلة هي إعادة تشكيل البرغي من جديد. ألم أكن ابناً لأحد النحاتين الفنانين؟ في المجمل، لم يكن عليّ أن أنحت ملاكاً، بل برغياً بسيطاً فقط، حتى ولو كان مكانه في مكان البرغي القديم نفسه

بالضبط: فلا مليمتر يميناً أو يساراً.

أكان بمقدوري النجاح في هذا: لم يكن لدي أدنى شك. كانت بي بعض الشكوك، ولكن، في ما كان سيحدث لاحقاً، حينما كان عليّ أن أفك البراغي التي أعدت تشكيلها بصبر، وبالاستعانة بكل الوسائل التي كانت في حوزتي، بدءً من أكثرها قوة وهو مفتاح الطرق.

كانت بحوزتي أيضاً المفاتيح المطاطية ذات الهواء المضغوط، وأنبوب شعلة الأكسجين لاستخدامه في حال فشل مهمتي. لم أصطحب تلك الأدوات عمداً، ولكنها كانت موجودة هناك بجوار الآلة، وقمت أنا فقط بترتيبها بجوار أدواتي الشخصية عبر تنظيم بدونه لا يستطيع «بوونوكوري» الطيب التحليق عالياً.

من ناحية أخرى ألم يكن يحدث الشيء ذاته لـ«بوونوكوري» الأب؟ فالويل كل الويل لِمَن كان يلمس أدواته دون إذن منه. كان قد صنع لنفسه رفاً ذا أسنان مدببة كأسنان الشوكة، بارزاً للأعلى، ومثبتاً فوق ما يشبه العربة الصغيرة التي كان يحركها بإحدى قدميه. كان يضع الأزاميل، ويأخذها دون حتى أن يرى موضع يده، وبالثقة ذاتها التي تنزلق بها أصابع عازف البيانو فوق لوحة المفاتيح.

تنهدت، وشرعت في العمل. رسمت خطوطاً بالقلم على جوانب كومة المخلفات بعد أن أخذت بعض القياسات بواسطة المتر المعدني لتحديد مكان رأس البرغي المغمور بالضبط. عقب هذا بدأت العمل سريعاً بالأزميل، كي أحدث شقاً مستقيماً، وعميقاً، بمحاذاة الخطوط المرسومة بالقلم، لكي أحدد المكان الذي سأُجري فيه تدخلي الأول. كان ذاك المكان هو الأبعد عن مركز الآلة، فقد كنت أخطط للاقتراب،

رويداً رويداً، من هدفي عبر نقاط ومحطات ذات مسار دائري.

قمت بتنفيذ الشق بسرعة شديدة، وشرعت على الفور في عملية التنظيف الفعلية، والحقيقية، مستخدماً أزميلاً بلسان عريض بالتناوب مع أزميل آخر برأس على هيئة برغي.

كانت بداية جيدة. بعد فترة ما أفلحت في التغلب على شظية كبيرة، وأحسست بالاطمئنان يعود إلى نفسي. كلما عملت كلما زاد انفصالي عما حولي، وكانت كل حواسي في تركيز شديد في ذلك الهدف الوحيد، رافضة دونه الأشياء الأخرى، وكأنها كادت تطرد تلك الأشياء بعيداً عني. من ناحية أخرى، ما هي تلك الأشياء التي أُسدل عليها ستار من الضباب؟ كانت عملية التسريح الجارية قد نكأت جروحاً، وفراغات في كل مكان: كانت الثقوب الكبرى تقع عند جوانب مبنى الورشة، وقد اختفتْ منها أعمال النجارة، والحدادة، والسقف، وأنابيب التوصيل. كانت ثمة صناديق كبيرة مغلقة، ومختومة مُعدَّة للشحن مبعثرة في كل مكان. كان هناك قفص كبير من الخشب لا يقل ارتفاعه عن ثلاثة أمتار، وطوله عن خمسة، وسمكه عن مترين، وثغره مفتوح على وسعه يتطلع إليّ. لو حدقت فيه كثيراً لانتهى بي الأمر إلى أن أزأر كالأسد الذي أُصطيد، ويوشك أن يُبعث به إلى حديقة الحيوانات. ولكن لمَ كان عليّ النظر إليه؟ لم يكن به شيء مغرٍ، بل على العكس. قررت أن أتحاشى النظر إليه بكل الطرق: إلى درجة أني حين أدرت وجهي ناحيته غطيت عينيّ واضعاً يداً عليهما.

لم أكن أعرف منذ متى وأنا أعمل في ظل حالة من فقدان الذاكرة، إلى أن رفعت رأسي فجأة على يقين مني بأن ثمة من كان يراقبني.

كان جالساً القرفصاء على مسافة أمتار قليلة مني، مسنداً رأسه على ركبتيه، وأنفه أكثر استطالة من المعتاد، ووجنتاه أشد بروزاً، وعيناه أكثر انحساراً داخل تجويفيهما. كانت تلف «تشونغ فو» غيمة من الدهشة، ولكنها كانت دهشة حزينة.

شرح لي أنه كان هناك منذ فترة. وقد وصل، ثم أتى بخطواته البطيئة الهادئة كصيني صغير الحجم -مثل الطائر تقريباً- ليجلس على بعد خطوات مني دون أن أدرك شيئاً.

اعترفت له بأني كنت أنتظره حقاً، ولم يكن هذا مجرد قول فقط، رغم أني لم أكشف له عن نيتي في العودة ذاك المساء إلى المصنع، وفي العمل على آلة الصب. كنت متأكداً إذن أنه لم تكن تخفى عليه نواياي، ولذا فقد كنت أعرف أنه، عاجلاً أو آجلاً، كان سيأتي لزيارتي.

أومأ «تشونغ فو» بالموافقة. أقر بأنه اكتشف وجودي من الأنوار الكهربائية المضاءة منذ فترة في الورشة، طمأن رفاقه المندهشين، وهدّأ من روعهم قائلاً لهم بأنه «بوونوكوري»، ثم سرعان ما تحرك ليتحرى الأمر. بيد أنه اكتفى بالتوقف عند المدخل، فقد كان عليه أن يعود على الفور إلى أكواخ إقامتهم، لأنه كان ينتظر مكالمة مهمة، ثم عاد ثانية بعد المكالمة.

رحنا نثرثر بصوت خافت بينما كنت أواصل أنا العمل بالأزميل: كنا نتكلم قليلاً، ونصمت قليلاً. كان «تشونغ فو»، كما هو واضح، على علم بخطتي بخصوص البراغي: كنا قد تحدثنا عن هذا الأمر مرات عدة على أساس أنه افتراض نظري، ونفى كلانا احتمال اللجوء إلى تلك الطريقة في العمل طريقة رسمية معترف بها. بيد أنه تجنب أن يوجه

إليّ أسئلة، ولبث في صمته قاعداً القرفصاء بعينين تشبهان الجندول، وبتعبيرات (ليس معتادة) من الحزن ينطق بها وجهه.

قدّم إليّ قطعة حلوى بمذاق العرقسوس الصيني: كان نهماً لأكل هذه الحلوى، ولكنه كان يحاول ألا يفرط في تناولها، إلا أثناء لحظات الكآبة، حتى يبث في نفسه شعوراً بالسعادة. قلت له كلا، وشكرته، ولكنه ربما لم يستطع حتى سماعي. لم يفتح فاه.

مر وقت طويل، وكنت قد نسيته تقريباً، حينما برز «تشونغ فو»، لا أدري من أية هوة، وسألني فجأة: لِمَ تفعل كل هذا؟

أجبته بأني لم أكن أعرف، ولعله لم يكن ثمة سبب محدد. كان السؤال الخطأ في الوقت الخطأ: كنت غاضباً بشدة. ذكّرته بأني آنذاك كنت تقنياً مسؤولاً عن التفكيك، وأنه كان يروق لي العمل بأفضل ما بوسعي. ساعتها لم يعقب على كلامي بشيء. صمتنا لبضع دقائق، ثم عاد ثانية إلى التحدث، وقال: لكن لم يطلب أحد منك هذا! لم تكن ثمة نبرة عداء في صوته، بل على الأكثر نبرة تعاطف: كان صوته صوت رجل تحاصره الظنون.

في تلك اللحظة كنت على وشك استعمال «الجلاخة» لأُسوي سطح المنطقة التي نحتها بالأزميل، ولكنها كانت ستُحدث جلبة شديدة، ولذا فقد فضلت أن أنحيها جانباً. كنت قد قمت بعمل جيد، فلقد قل حجم عَلَق الصلب ليبدو أشبه بنتوءة ذات أجناب حادة الميل.

لم يطلبه أحد مني بالتأكيد. قلت، ولكني لست عاملاً تنفيذياً بسيطاً، ليست لي عقلية مَن يكتفي فقط بطاعة الأوامر. إنني تقني، رجل معتاد على اتخاذ القرارات، والشعور بالمسؤولية. هل أنت يا «تشونغ فو»

تعمل فقط ما يطلبه منك رؤساؤك؟ هيا، أتتحدث أنت يا من تسوِّد تقارير وتقارير لم يطلبها أحد منك، وربما لا يحلم أحد حتى بقراءتها؟ إننا متشابهان يا صديقي العزيز، فكلانا عبد لإحساسه بالمسؤولية. لعلنا رجلان من الطراز القديم.

ثبّتُ فوق أنفي النظارة الحاجزة للأتربة، وشغلتُ الجلاخة: للحظة تمنيت أن يستغل الصخب الشديد الصادر عن الجلاخة لينصرف مصطحباً معه كآبته، التي كان يحاول بشتى الطرق إغراقي فيها معه. كان شيء قد حدث بالتأكيد له: عادة ما كان إيجابياً ومشجعاً. تذكرت أن في تلك الليلة كان قد تلقى اتصالاً هاتفياً مهماً، حسب وصفه. مِن الصين؟ ومَن اتصل به؟

كانت الجلاخة تقتلع من قشرة الصلب شظاياً كبيرة على هيئة نجوم صغيرة مضيئة، في الوقت الذي كان يؤرقني فيه الندم، وكنت أتمنى في الحقيقة ألا ينصرف.

عند لحظة معينة لم أستطع مواصلة المقاومة. توقفت عن العمل، وأدرت وجهي ناحيته. كان قابعاً هناك منطوياً على نفسه ساكناً جامداً مثل تمثال. قلت أوكي... أوكي، ثم أعدت تشغيل الجلاخة.

ظل بجانبي إلى آخِر لحظة، أي طيلة الليل، وراح، رويداً رويداً، يخرج من جموده. كان عملي هو ما استحوذ عليه منذ اللحظة الأولى التي بدأ فيها يتفحصه بشيء من الاهتمام.

بعد عملية الصقل عدت إلى استعمال الأزاميل، والمبرد الخشن. عقب الطَّرَقات الأولى بهذه الآلة راحت جوانب النتوءة تصير أكثر انحداراً، وراح شكل النتوءة نفسها يصير اسطوانياً أكثر. بقليل من الخيال كان

يمكن رؤية شكل البرغي، ولعل هيئته كانت ستخرج للنور عما قليل.

لمحته فجأة على مسافة خطوة مني. كان يحدق في عَلَق الصلب وكأنه يكتشفه للمرة الأولى، سألني بصوت حانٍ إن كان يمكنه مساعدتي. ابتسمت له قائلاً: كلا، شكراً، فقد كان يمكنه فقط أن يستخدم المبرد بدلاً مني، ولكن كانت يداه قد صارتا رقيقتين إلى درجة تمنعني من أن أكلفهما بعمل كهذا. كنت قد تفحصتهما طويلاً، كانتا نحيفتين، وشفافتين، وناعمتين، ورقيقتين حتى أنه كان بوسعه أن يُقرضهما إلى أحد عازفي البيانو، أو أن يقرضني إياهما، إليّ أنا! كلا بالتأكيد. لم يكن حتى بوسعه أن يقرضهما إلى أبي، الذي كان فناناً حقاً.

لم يغضب، بل أفلحت في أن أجعله يضحك، ولكن هذا لم يمنعني من أن أعيد التفكير ثانية في ما حدث له. ولكي يقوم بعمل شيء مفيد، قرر العودة إلى كوخه حيث كان يحتفظ فيه ببعض زجاجات الجعة، وبعض الفاكهة: ألم يكن هذا ما كان كلانا بحاجة إليه؟ اختفى فجأة.

كانت عضلات ذراعي تؤلمني: كان من الحكمة التوقف عن العمل لفترة راحة قصيرة. نظرت إلى الساعة. كلا... كانت الساعة الثالثة صباحاً، كان الوقت يسخر مني. ولقد كان رهاني أسير قبضته.

شعرت بوطأة وحدتي المفاجئة. لم يكن «تشونغ فو» ليعود سريعاً: لم تكن ثكناتهم تبعد كثيراً عن آلة الصب، ولكن الصيني كان يقطع المسافة على قدميه، ولم يكن لديّ أدنى شك في أنه سيكون مُحملاً خلال عودته بالجعة، والفاكهة، والبسكويت، وحلوى من بلده، ومن يدري أي شيء آخر.

قبل انصرافه كان قد غمرني بكلمات جميلة: إن كل مَن بالثكنات

هناك في الأسفل يحبونك كثيراً يا «بوونوكوري». إنك إنسان ذو كفاءات متعددة، وجدير بالثقة. نحن الصينيين نؤمن كلنا بالعبقرية البشرية إنك، باختصار، ستنجح بالتأكيد في فك البراغي متجنباً استعمال الشعلة الأكسجينية.

ولكني لم تكن لدي الثقة نفسها في العقل البشري، ولاسيما في نجاح رهاني الشخصي، بل إني كنت أميل للاعتقاد بصحة الافتراض الذي كان يشير إلى فشل كل الجهود التي بذلتها، بل كانت تلك الفكرةَ الوحيدة التي صاحبتني طيلة الليل وحتى تلك اللحظة. لم أكن أفعل شيئاً آخر سوى أن أردد على نفسي: لن تفلح يا «بوونوكوري»؛ أراك وقد تأزم موقفك... وسُمْعَتك... لمَ تورط نفسك بهذه الطريقة في رهان لا معنى له؟

فلتكن أميناً مع نفسك: إن شعلة الأكسجين لم تكن هي البديل الشيطاني الذي يظنه الصينيون وأنت معهم: يكفي أن نستخدمها بحرص في قطع رأس البرغي فقط، ولا شيء آخر. ولكنك لم ترد سماع أية مبررات. كنت ترتعش متلهفاً من فرط رغبتك في امتطاء صهوة رهانك، وفي القيام بالتجربة، على يقين منك بأن رجلاً مثلك لم يكن لديه أي خيار آخر، فإما التجربة أو الغرق في الشكوك، وفي الخزي.

تحققت من القياسات: كنت قد وصلت إلى حد لم يعد بإمكاني العمل فيه وبالي مشغول بأشياء أخرى، أو أن أترك ليديّ وحدها المسؤولية كلها، وقرار التنفيذ، فقد كان عليّ أن أقوم بإجراء تعديل طفيف على المحور الأسطواني مُحركاً إياه باتجاه الناحية اليمنى لبعض المليمترات.

أفلحت حينها في رؤية البرغي، وقد تحددت معالمه، سواء كان هذا خيالاً، أو حقيقة واقعة.

تحت الضوء الأصفر الشاحب والخافت للورشة، كان ثمة شيء يلمع وكأنه مصنوع من البلور من أثر السائل المعدني الذي كنت قد بللته به. كان شيئاً هيئته لا تزال غير مكتملة، ولكنه كان آخذاً في الولادة من بين يديّ، وقد كنت مخطئاً حينما حسبته بلا أي جمال رقيق.

كانت مشاعر أبي تتأثر أيضاً مثلي في هذه المواقف. فحينما كانت وَرْدته على وشك التفجر، والخروج من مادة صنعها ذات الهيئة غير المكتملة، ورغم أنها كانت لاتزال سجينة جزئياً فيها، لكنها كانت تبدو منتفخة، وواضحة المعالم للغاية. لم أشعر أبداً من قبل بأنني أشبهه كما شعرت في تلك اللحظة، حينما كنت منجذباً إلى الولع نفسه الغبي للثمرة نفسها الغبية لعملنا، وإلى الشعور نفسه بالفخر، وربما إلى الخوف نفسه الذي صاحبه طوال حياته ليس بدرجة أقل مما يصاحبني الآن، الخوف من النجاح مصادفة فقط، والخوف من ألا نكون فعلاً على مستوى النتائج التي حققناها (كم مرة سمعته يردد: لا تنخدعوا بالأشياء التي أعملها، فعادةً ما تكون أعمالي أفضل مني، إنني لست جديراً بها).

كما كنت أتوقع، عاد «تشونغ فو» محملاً بالكثير من الأشياء على كتفه: حقيبة ظَهْر عسكرية، وخوذة، كانتا تجعلانه شبيهاً بأحد أفراد المشاة في الحرب العالمية. تناولتُ شيئاً لكيلا أخيب أمله؛ أما الجعة فقد احتسيتها بنهم، لأن العمل كان قد أصابني بظمأ شديد: كان عليّ أن أرتدي قناعاً فوق أنفي وفمي، ولكنني نسيت.

أولجت رأس البرغي في مفتاح الطرق في الساعة الرابعة صباحاً بالضبط: نظرت إلى الساعة حينذاك، كنت فاقداً الثقة بنفسي إلى درجة البكاء، وكنت على يقين بأني أهدرت مجهوداً، ونعاساً، وقدراً كبيراً من كرامتي. قلت لـ«تشونغ فو»: «لن نحركه أبداً. أبداً...».

كنت مقتنعاً بهذا، ولكني سأكذب إن لم أُقرّ أن حديثي كان يحمل في ثناياه بعضاً من الإيمان بالطالع وبالفأل السائد في تلك الأزقة التي أتيت منها. إنه جزء لا يتجزأ من طبيعتي المتأصلة. فليس بعائلتي علمانيون (أو ملحدون) بشكل ثوري إلا «روزاريا» التي يثير الإيمان بالطالع، وبالسحر غضبها، إلى درجة أن كل ما يتعلق بما وراء الطبيعة بات موضوعاً محظوراً.

رددت بصوت أجش على وشك البكاء: «لن يستسلم أبداً». كان «تشونغ فو» يرمقني بنظرات غائبة، وحزينة (ماذا حدث له بحق السماء؟ كان قد خلع سترته، وشمّر أكمام قميصه حتى الكوعين ظناً منه بأن ثمة عملاً بانتظاره يحتاج إلى القوة.

ثبّتُ البرغي، ولكن لم يكن في عيني ذاك الإحساس بالتعاطف الذي كان يغمرهما حينما كنت أُشكّله بالمبرد، وأصححه، وأُكمله، وأصقله. فكرت: إنك وغد، أعرف أنك تحترق لهفة إلى فضحي، وتسميم حياتي. ولكن، إياك أن تتوهم كثيراً: إني لن أستسلم بسهولة. أتبغي الحرب؟ فهي الحرب إذن...

بيد أنه لم تندلع أية حرب، فقد استسلم فوراً تقريباً: أصدر ضجيجاً غريباً يشبه الحشرجة، ولم تكن ثمة شكوك حول معنى ذلك. بللته أكثر بمادة مُذيبة، وقمت على الفور بمحاولة اقتلاعه، بينما «تشونغ فو»

يذوب في تأوهاته المتواصلة «آوه...» من سعادة سرعان ما انفجرت متحولة إلى صرخة حقيقية في ما بعد بقليل حينما تغلبت نهائياً على البرغي.

رحت أحدق في النتيجة بنظرة تائهة: لم أكن سعيداً، أو تعيساً. كنت مندهشاً فحسب. كنت أرغب في الجلوس في مكان ما مسنداً رأسي بين يدي. كان ليسرني مناقشة الأمر مع أبي، ولكن كيف كان لي أن أبدأ حواراً كهذا في حضور «تشونغ فو»؟ أخبرت رَجُلي العجوز: سيسنح لنا الوقت للثرثرة عن كل هذا؛ ولكن ليس بوسعي الآن. أما بالنسبة إلى «تشونغ فو»، فلم يكن هناك مفر من أن أحتسي الشراب، وأتناول الطعام، ومنه تلك الحلوى بطعم العرقسوس التي كانت تجعله يفقد صوابه.

قال إنه لم يكن لينسى أبداً تلك الليلة، وأنه كان سيحملها معه إلى الصين، وأنه كان سيقص حكايتها حينما يبلغ الشيخوخة بشرط أن يجد مَن هو على استعداد لسماعها. كان يضحك مثل طفل: كان يقول: يا «بوونوكوري» أتعرف أني أكثر سعادة منك؟ لم يكن يبدو لي هذا أمراً طبيعياً (ففي أعماق نظراته، وحول فمه أيضاً، كان لا يزال حاضراً ظل لقلق غامض شديد لم يفارقه أبداً، وكنتُ متأكداً بأنه كان لا يطيق صبراً حتى يكشف لي عنه، رغم أنه كان يعتقد بأن اللحظة المناسبة لذلك لم تكن قد حانت بعد).

استسلم البرغي الثاني قبل السابعة صباحاً بقليل.

أما البرغي الثالث فقد تركته وشأنه، كان سيُقتلع بواسطة أنبوب الأكسجين، لأن قواي كانت قد خارت.

اصطحبت «تشونغ فو» إلى ثكنته بسيارتي. وحيث إنه كان لا يزال يخفي عليّ مشكلته لحرجه أكثر منه لرغبته في كتمان الأمر، حاولت أن أشجعه: «يا تشونغ فو أينبغي عليّ حقاً أن أخمن ما حدث؟»).

كان بحاجة فقط إلى سؤال تشجيعي. لقد اتصلوا به من «بكين»، وطلبوا منه الرحيل بشكل عاجل، وأن ينسى أمر إيطاليا، ومصنع «إيلفا»، و«نابولي»، وآلة الصب، وكل الأشياء الأخرى، لأنه كانت هناك حاجة إلى وجوده في مكان آخر. أبدى اعتراضاً: لقد كان يقوم بمهمة دقيقة وحرجة، ألم يخبروهم بذلك أعضاء الوفد السابق الذين عادوا إلى موطنهم؟ ألم يسلِّموا المستندات التي ائتمنها عليهم مصحوبة بآلاف التوصيات؟ أكان عليه أن يستخلص أنه حتى في هذه المرة أيضاً لم يقرأ أحد شيئاً، كان يبدو له أمراً لا يطاق أكثر من مجرد كونه يدعو إلى الاكتئاب. أمن الممكن ألا يُسمح له بأن يُكمل أية مهمة؟

كان قد أفضى بما في صدره لوقت طويل، ولكن لم يغير هذا من الأمر شيئاً، وظلت ردودهم صارمة كما هي، حتى أصابه الإنهاك، وأعلن لهم الجملة الجامعة المانعة التي لا مفر منها «السمع والطاعة».

منحوه أربعة أيام من الوقت، وكان عليه أن يتفاوض أيضاً لنيلها.

-29-

أَجَل، لقد أُقيمت حفلة وداع. كان يبدو أن جميع من في الثكنات كانوا أصدقاء لـ«تشونغ فو» ويقدرونه كثيراً، فقد أعرب جميعهم عن أسفهم لرحيله المفاجئ، ولكن من يدري ما إذا كانوا يشعرون بهذا حقاً. أهذا ممكن حقاً؟ سألت «تشونغ فو»: هز أكتافه، ففهمت بأنه كان يفضل ألا يتكلم في هذا الموضوع. تم توجيه الدعوة إلى «روزاريا» أيضاً، ولكن حينما أخبرتها بالأمر كان رد فعلها سلبياً وغريباً، وإجابتها فورية ومفاجئة: «مستحيل»: بدت لي إجابة قاطعة غاضبة. نظرتُ إليها متعجباً: كنت أحسب أنها تتعاطف مع «تشونغ فو»... إنه يُكِن لك تعاطفاً كبيراً، وسيكون حزيناً لغيابك... ففي نهاية المطاف سنذهب هناك لتوديعه...

سألتني بنبرة متعجلة، ومراوغة عمن سيحضر الحفلة من الجانب الإيطالي بالإضافة إلينا. فهمت حينئذ أنها كانت ترتاب في أحد أعضاء فريق الاستقبال –تنورة من التنورات الكثيرة في فريق العمل– التي ربما تُهدد كمالي وولائي كزوج.

كانت تلك المرة الأولى التي تنكشف فيها غيرتها دون مواراة، وسرعان ما سألت نفسي مضطرباً عما سيحدث إن علمت بعلاقتي غير الشفافة تماماً مع «مارشيلا» (لاسيما، إذا نظرنا إلى الأمر كما يبدو ظاهرياً). رغم هذا، فقد أفلحتُ في طمأنتها، بل وحتى في جعلها تبتسم من نفسها، ومن شكوكها.

بدأت الأمسية في هدوء، وكآبة، ثم راحت شيئاً شيئاً تصير أكثر

حيوية مع وصول المدعوين من أقسام أخرى، على سبيل المثال، من الفرن العالي رقم خمسة والخاضع هو أيضاً للتفكيك، أو من مركز الهدم الذي ظهر للوجود منذ فترة قليلة، وبات مثاراً لاهتمام الجميع من داخل المصنع وخارجه. وصل أيضاً مدعوان هنديان، لتتضاعف الطاقة الكهربائية العالمية للأمسية.

أجلسوني أنا و«روزاريا» على طاولة «تشونغ فو» نفسها بعد أن أوضحت دكتورة الكيمياء ذات الضفائر الرفيعة وابتسامة الطفلة، أولاً بالصينية، ثم بإيطالياتها المترنحة، أن «تشونغ فو» لم يكن هو نجم الحفلة الأوحد، بل كان ثمة أحد آخر ينبغي على الجميع التصفيق له: ألا وهو السيد «فينشنسو بوونوكوري»).

احتسيت أنا و«روزاريا» الشراب في تلك الأمسية، فلم يغب الكحول بالطبع: لم يأتِ أحد بيدين خاويتين، وكان بالجميع ما يشبه الرغبة في الترنح، وفي عدم التكلّف، وفي الشعور بالسرور. كانت تلك الحفلات تنعقد بشكل مضطرد، وبحيوية متزايدة (ليس فقط في أكواخ الصينيين) مصحوبة بالنميمة عن الزيجات المتحطمة، وعن الفرار نحو تجارب بلا أمل قادرة، رغم هذا، على ملء حياتك فجأة، وجعلها أكثر ترنحاً.

كانت لدي حكايات كثيرة لأرويها، ولكن ما الهدف من ورائها؟ كنت سأُلحق فقط الضرر بأناس لا يستحقون مني هذا، ثم إن حكايتي تكفي وتزيد، رغم أنه يمكنك اعتبارها غير مكتملة، ولكنها كافية، بل تزيد. أعني إنها كافية لتشهد على أن في تلك السنوات لم يستطع الجميع، بل قليلون فحسب، أن يحافظوا على اتزانهم، وألا يفقدوا

صوابهم، وألا يكونوا مرغمين على الهرولة وراء هذا الاتزان إلى أن تنقطع أنفاسهم، كما حدث لي.

كان «تشونغ فو» فقط هو من لم يحتس الشراب، لم يضحك، لم يرقص، رغم أنه لم يُبدِ أن مزاجه كان سيئاً. ظل منفرداً، وحينما أعطته «روزاريا» علبة تحتوي على تذكار مشترك منا، قطعة من النحاس محفور عليها مشهد المصنع، و«نيسيدا»، وخليج «بوتسوولي» بأكمله حتى رأس «ميزينو»، بدا لي وكأنه على وشك البكاء، أو كان متأثراً للغاية حتى أن أنامله كانت ترتعش بينما كان يتسلم لفافة الهدية وينزع غلافها، ويرفع غطاء العلبة ذات اللون الأزرق القاتم.

رحل في اليوم التالي، ولكن حينما وصلت إلى المصنع كان قد انصرف. سلمتني الفتاة ذات الضفائر مظروفاً به خطاب منه باللغة الإنجليزية، أُعيد كتابته لك كلمة كلمة.

أيها الصديق العزيز السيد «بوونوكوري»، أخشى أنني كنت أمس متعجلاً، وفاتراً أثناء انصرافي عنك، وعن زوجتك. للأسف، فلم أكن أشعر بأني على ما يرام (فصحتي، كما يُقال، ليست من حديد). أعتقد أن الوقت لم يفت بعد لطلب العفو منكم عبر هذه السطور القليلة، وأن أذكّرك بتقديري، وعرفاني لك لكل ما فعلته من أجلي، ومن أجل الشعب الصيني بأسره، دون أن يكون لك مصلحة تجنيها من وراء هذا. إنني بالتأكيد لن أنسى أبداً هذا ما حييت، كما آمل ألا تنسى أنت عرضي لك بأن تنتقل إلى الصين مع زوجتك المحبوبة للعمل من أجل هذا البلد، الذي لا تزال المشاكل تعمه بالتأكيد، ولكنه أحد البلاد القليلة

التي تعرف كيف تكون دافئة، ومضيافة مع الأصدقاء.

في الأيام اللاحقة على رحيله شعرت بوحشة شديدة له: كنت قد اعتدت عليه إلى درجة أنه كان يبدو لي أمراً مستحيلاً أننا لن نرى بعضنا، مرة ثانية. كنت أتحدث عنه كثيراً مع «كريستيانا» المترجمة، وكنت أوجه إليها أسئلة كثيرة عن شخصيته، وعن المعاني الكامنة وراء بعض تعبيراته، وتصرفاته، وعن معنى أن يكون المرء صينياً، وهو الأمر الذي كان يبدو لي، في أحيان كثيرة، وضعاً غريباً وكأنهم أناس قادمون من كوكب آخر ولا يتواءمون مع عالمنا.

قبل رحيله بأيام عديدة، كان «تشونغ فو» قد أهداني مجموعة من حكم «كونفوشيوس» مترجمة إلى اللغة الإيطالية (لا أدري كيف استطاع الحصول عليها ومَن ساعده في هذا) التي كانت قد بدت لي في الحقيقة مملة للغاية، رغم أنها، لحسن الحظ، تتسم بالإيجاز. ولكن، أصابتني حكمة معينة بالدهشة إلى درجة الاضطراب، وقد كان هو من أشار إليها أثناء حديثنا عن طموحه السياسي الذي لم يتحقق، والذي كنتُ قد عزوته أنا –حسب رأيه، لكرمي الشديد– إلى حسد منافسيه في الحزب له، وطموحهم، وخبثهم، ومكرهم. كانت الحكمة تقول: «إن رامي القوس كالحكيم، عندما لا يصيب سهمه قلب هدفه عليه أن يبحث عن السبب في نفسه». (راودتني رغبة في التهليل قائلاً: «أحسنت يا كونفوشيوس»، فانفجر «توشنغ» في الضحك).

إن مسؤولية إخفاقاتنا تكمن في الأغلب بداخلنا. فكم من مرة خلال حياتي الزوجية الطويلة رددت لـ«روزاريا» تلك الحقيقة؟ كم

مرة حذرتها: إنك مخطئة، إن حدث شيء ما فليست هذه مسؤولية فلان أو علان، حتى لو كان فلان هذا، أو علان وغداً شريراً، فأنا من أخطأت، ولم أكن أنا على مستوى المسؤولية...

إذن، لقد كانت المشكلة دوماً هي أن نكون على مستوى المسؤولية. كانت تلك المشكلة هاجسي القديم، والذي كان يستولي على «تشونغ فو» أيضاً. من نواح عديدة، لا يشبه كل منا الآخر مطلقاً، ولكن، كما نبهتني أنت إلى هذا، فعلى الأقل، في هذا الأمر بالذات، كان كلانا بوسعه أن يعتبر الآخر مرآة له.

أضحى التفكيك عِلماً كاملاً محدداً، وكان يبدو وكأنه يُنفذ على السبورة عبر معادلات جبرية. كلما كنا ننزع مربعات، ومستطيلات، واسطوانات، كنا ننقلها أسفل سقيفة قطار التصفيح (مخزن الشرائط)، حيث كانت الشركة التي ربحت مناقصة أعمال التغليف قد اتخذت مقراً لها هناك.

نقلنا القوس كاملاً كما سلّمته لنا الشركة المُصنعة في الماضي. كان قطعة حديدية ضخمة الأبعاد (يبلغ مداها عشرة أمتار)، ولكننا جعلناه يصل مباشرة إلى جسر الرفع. حتى آلة التقويم بأجزائها المختلفة وصلت إلى جوار السفينة لتُغلّف هناك في أقفاص خشبية متينة بُنيت خصيصاً على مقاس كل قطعة، أو مجموعة قطع.

كنت أتولى دور المشرف. يا «بوونوكوري»! في مَا تفكر؟ كان كثيرون يوجهون إليّ هذا السؤال. كان غالباً ما يبدو على وجهي الشرود. أتطارد السحب؟ كنت أجيب بكلاّ، بل إن رأسي ينفجر بالأرقام: أرقام الارتفاع، والسُّمك، والعرض. للحقيقة لم تكن برأسي

أرقام فحسب، بل وأشياء أخرى أيضاً.

كانت قطع كثيرة تصل إلى عملية التغليف متسخة بالمخلفات، والصدأ، والشحم كنا ملزمين بتنظيفها حسب بنود العقد (فليس الصينيون بلهاء). كان عليّ أن أُشرف على هذا العمل أيضاً: نُظفت جيداً، وعادت جديدة، دون أية مخلفات أو تراكمات. كنت أصعد، وأهبط من السفينة، أحياناً، دون سبب حقيقي، فقط لمجرد رؤية جوفها الضخم الذي كانت ستُوضع به الصناديق ذات الأبعاد المقررة سلفاً وفقاً للأماكن المتاحة بالسفينة.

حينما لم أكن في غاية التركيز كنت أجن غضباً، فأصرخ، وأكيل اللعنات. ساعتها كان ثمة مَن يردّ على سبابي، فكنت أصب عليه جام تهديدي، ووعيدي، وكلمات أخرى كبيرة. عادةً، ما كنت أرجع إلى صوابي في الحال: كنت أقول لنفسي، يا إلهي إني لست شديد الثرثرة، ولست رئيساً لأحد، إني لست...

أذكر إننا كنا في شهر مايو لعام 1995. كانت السفينة راسية بالجسر الجنوبي، وساكنة بلا حراك في الهواء الذي كان يبدو اصطناعياً من فرط حرارته. كانت الأقفاص، والصناديق قابعة متراكمة في مستودع الشرائط، وبجوار السفينة، وأسفل سقيفة آلة الصب التي لم تُلمس بعد. كانت على كل منها أختام زاهية سوداء اللون تشير إلى أنها بضاعة متوجهة إلى ميناء «شانغهاي». لا أدري لَمَ لمْ تكن بي رغبة في البكاء فقط، بل وفي الضحك أيضاً. كنت أقول لنفسي: يا للشيطان، إلى الصين!

لم تكن الشمس تبرق فقط على آلتي قيد الذوبان: كان المصنع بأكمله

قد أخذ يشتعل –إن أقررنا أولاً بأنه يمكن مقارنة التصحر بالحريق– بفضل عمل الهدّامين الأولين الذين ظهروا للوجود على مسرح المصنع منذ وقت قليل.

كانت المجموعة قد بدأت عملها منذ فترة وجيزة، وكانت الأشياء قد سارت على هذا النحو. ولمّا كانت الإدارة على وشك توقيع عقد مناقصة مع إحدى الشركات الشمالية المتخصصة في الهدم، التي كانت تعمل في تلك الأيام في «ساليرنو، فقد طلب رئيسان من رؤساء الأقسام بأن يتوجها إلى هناك كمُراقبَين. عادا ليؤكدا أنه برغم أن تلك الأعمال كانت تعد أعمالاً جديدة تماماً على عمّالنا، لكنهم كانوا بالتأكيد قادرين على القيام بها بعد أن يكتسبوا بسرعة الكفاءة اللازمة. طلبا أيضاً أن يُوضع العمال فوراً قيد التجربة تحت إشرافهما، وإدارتهما. عقب اجتياز الاختبار بنجاح (هدم سقيفة القطاع «أ.ب.ر» حيث كانت تتم غَربلة المعدن المتهشم)، ظهرت للوجود على الفور أول فرقة لنا متخصصة في الهدم.

أرسل إليك بمناسبة تلك الواقعة شهادة «نيكولا مارتوني»، التي جمعتها أنت شخصياً في حينها، ثم اطلع عليها هو الآن، ووقّع على الموجز الذي أعددته أنت. من ناحيتي، أود أن أؤكد لك فقط أن «مارتوني» كان أحد أبرز الشخوص في مغامرتنا كـ«مُسرِّحين» لأنفسنا (إنها المهمة التي لا يزال تنفيذها مستمراً إلى الآن، ولذا فلا يمكننا سوى التفكير بريبة في تلك الفترة الطويلة للغاية التي استغرقها التسريح، مع الأخذ في الاعتبار المسؤولية السياسية التي تقع على كاهل الإدارة، تلك المسؤولية التي تبدو وكأنها راحت تسقط وتتلاشى). إنه

رجل، كما تعلم، جلد، وقوي، وتكشف عيناه الزرقاوان، والباردتان عن شخصيته الصلبة، والصلفة. أعترف لك أن كلماته، وحكاياته، وتحليلاته، ولاسيما اتهاماته، أصابتني كلها بالصدمة. لقد صدمتني، وأقنعتني. أقصد أني مقتنع أيضاً بأن الحرب على مصنع «إيلفا» لم تنته بعد مطلقاً، وأن سبب هذه الحرب، اليوم وأمس ودوماً، هي أراضي المصنع السابق، وأراضي المصانع المجاورة له، فقيمة أصولها لا تقدر بمال، ويود الكثيرون أن يضعوا أيديهم عليها ليحققوا أرباحاً عقارية هائلة مجدداً على حساب «نابولي»، بل على حساب الإنسانية جمعاء، كما كتبت إحدى الجرائد:

اسمي «نيكولا مارتوني» وعمري اليوم، في عام 2001، خمسون عاماً، ولي زوجة وابنان بالتبني من أصول كولومبية. فقد توجهت إلى كولومبيا أنا وزوجتي بمجرد أن أبلغونا بأن «إيريكا» قد خُصِّصت لنا. كانوا قد وصفوا لنا الطفلة بالتفصيل الدقيق في الخطاب: لون عينيها، وبشرتها، والأمراض التي أصابتها، ووزنها، وكيف تم العثور عليها. كانت قد تُركت في الطريق وعمرها سنتان ونصف السنة فقط: كانت مخلوقة صغيرة مرعوبة، حملتها بعض الأيادي الرحيمة إلى نقطة الشرطة، أفلحت في الفرار من مركز الشرطة، ولكنها اصطدمت بباب زجاجي لم تكن تراه (لا تزال تحتفظ إلى الآن جراء تلك الحادثة بأثر الجرح في جبهتها). علاوة على كل تلك المعلومات، أرسلوا لنا صورة صغيرة لها شبيهة بالصور التي تستخدم في مستندات تحقيق الهوية: فأحببتها أنا وزوجتي في الحال.

أذكر أنني في تلك الأيام، أي في شهر ديسمبر لعام 1990، كنت قد شاركت منذ فترة وجيزة في آخِر عملية إحراق للكوك التي أُغلق المصنع عقبها.

كنت عملياً رجلاً حراً بوسعي التغيب عن المصنع المحكوم عليه نهائياً بالإغلاق دون أن أتعرض للجزاء. لم أكن أبداً رجلاً جزعاً، فلم أخش أبداً المستقبل، ولم أكن أخشاه ساعتها. لم أكن مرعوباً، بل آسفاً، أو لنقل حانقاً جراء ما حدث، وما كان على وشك الحدوث حينها. كنت بحاجة فقط إلى رحلة طويلة، ولفيض من المشاعر. أخبرت زوجتي بأن تعد الحقائب، لأننا سنذهب إلى كولومبيا لنأخذ «إيريكا» بين أحضاننا.

وسافرنا فعلاً، ولبثنا في كولومبيا خمسين يوماً، قطعنا خلالها البلد من أقصاه إلى أدناه بصحبة «إيريكا»، التي لم تكن تصدق عينيها بعد كل تلك المستجدات التي هبطت عليها من السماء. منذ إرسالنا لطلب التبني الأول، كنا في الحقيقة قد أعربنا عن رغبتنا ليس في تبني طفل واحد فقط بل اثنين، ولد وبنت، حتى يظلا معاً حينما يشبان عن الطوق لأنهما ينتميان إلى العرق نفسه. إلا أنهم أخبرونا عندما أعطونا «إيريكا» بأنه سيكون علينا الانتظار لفترة ما يمكن أن تصل إلى سنة، أو أكثر، للحصول على الولد.

انتظرنا مرور فترة شهر ونصف الشهر دون أن يحدث شيء، ثم أدركنا أنه لم يكن أمامنا خيار آخر سوى العودة، لننتظر هناك ذلك الوقت الطويل اللازم وغير المفهوم. عرضوا عليّ في مصنع «إيلفا» العمل بشكل مؤقت في مصنع الصلب بـ«تارنتو»، ثم كانوا سيقررون

في ما بعد كيف سينتهي أمري. قبلت، ولم أك أتخيل أبداً أنني سأظل عالقاً بمصنع الصلب بـ«تارنتو» لثلاث سنوات كاملة إلى أن أتى أمر من «بانيولي» بأن أعود لأكون ضمن أعضاء الفريق، الذي كان قد بدأ تنفيذ أعمال الهدم منذ فترة وجيزة. كان يرأس الفريق صديق عزيز لي، هو رئيس قسم الفرن العالي، وكنت سأُعين نائباً له.

في تلك الأثناء، وصل إلى بيتنا «خوان جوفاني». كنا قد سافرنا إلى كولومبيا ثانية لكي نأخذه: أنا وزوجتي و«إيريكا»، التي عانت أثناء السفر إلى كولومبيا، والإقامة فيها، وكانت تطلب منا بإلحاح دائم أن «نعيدها إلى البيت» أي إلى إيطاليا.

بعد التبني الثاني كان وجودي في «تارنتو» قد بات أمراً لا يمكن احتماله، وكان يجب أن أعود إلى «نابولي» لأن زوجتي كانت تلح على هذا بشدة، بل وكان يلح عليه أيضاً ضميري. قد أكون رجلاً متهوراً قليلاً، ولكني لم أتخلّ عن مسؤوليتي تماماً. وعدت فعلاً بفضل الهدم، بفضل صديقي القديم «أنطونيو دامبروزيو» خاصة، الذي بذل كل الجهد لكي أكون بجانبه، والذي لا أكف أبداً عن شكره وعيناي تتضرعان إلى السماء لأن المنية قد وافته، ولم يعد بعد معنا في هذا العالم.

أذكر أن أول عمل مهم اشتركت فيه كان عملية نقل رافعة يبلغ وزنها ثلاثمئة طن فوق منصة عائمة. كان ينبغي أن تتوجه الرافعة إلى «بيومبينو»، لأن مصنع الصلب هناك كان قد ابتاعها: كانت رافعة شحن خاصة بجسرنا على هيئة هيكل ثابت يستند على قضبان حديدية. نقلناها دون أن نفككها إلى المنصة العائمة، التي لم تكن، رغم ضخامتها، مستقرة ثابتة أثناء إبحارها، فكانت طريدة لنزوات البحر.

لم يتصور كثيرون أننا سنفلح في هذه العملية، بيد أن «دامبروزيو» كان رجلاً خبيراً بعمله، ولذا لم يكن مُتخيلاً أن يخطئ في حساب أمر كهذا. بإيجاز، فقد سار كل شيء على أحسن ما يرام.

توفي «دامبروزيو» عقب شهر من هذا. كان أمراً مفاجئاً، وبشعاً: كانت صداقتنا تعود إلى عملنا معاً في الفرن العالي الذي كان مكاناً مناسباً للتعارف، وللتعلم، وللتقدير المتبادل. ولمّا كنت نائبه، فكل مسؤولياته وقعت على عاتقي. لذا، فقد حل دوري لكي أغدو رقم واحد في القسم الذي يضم مئة وعشرين فرداً (بعد أن كانوا خمسين في الأصل) مُقسمين إلى فرق. ورغم أننا كنا كثيرين، لكننا كنا نعمل وسط صعوبات جمة، سيما وأن المعدات التقنية اللازمة لإتمام العمل كانت تنقصنا: فقد قامت «ستيل ووركس» ببيع كافة الأدوات الصالحة للاستخدام (عربات النقل، والرافعات، وأنابيب الأكسجين). في الفترة ما بين نهاية عام 1994 والشهور الأولى لعام 1995، كنت أنا شخصياً من أشرف على نقلها عبر البحر. وإضافة إلى بعض المعدات الصغيرة (كآلة تقطير الأمونيا، على سبيل المثال) فقد بيعت خزانات، وأنابيب، ومُرشحات بالحصى، وجسور رفع، وعربات قطر حديدية، ووسائل للرفع، ومخارط، ومثاقب، والله وحده يعلم أي أشياء أخرى بيعت كلها بطريقة «عاين واشترِ!».

ولكي ننفذ عمليات الهدم، كان علينا، أولاً، وقبل أي شيء آخر، أن نرتب كل القطع الحديدية القديمة في المصنع حتى يتوافر لدينا، إن لم يكن الأثاث المناسب، فعلى الأقل، الأغراض التي لا غنى عنها.

كانت المفحمة هي المُعدّة الكبيرة الأولى التي طلبوا منا تفكيكها.

كنا في ربيع عام 1995، وكانت آلة الصب، والفرن العالي رقم خمسة قيد التفكيك. كان المصنع لا يزال منتصباً حينها على أقدامه كلها، وكان يبدو وكأنه على وشك الانهيار المفاجئ من أعلاه إلى أدناه.

كنا نعمل بِجد، وبمشاعر متأثرة أيضاً: ففي نهاية الأمر كانت تلك المعدات تحمل معنى ما لكل واحد منا. ناهيك عما كانت تنطوي عليه تلك الأعمال من مخاطر، رغم أنه لم يكن هناك أي تساهل مع أي عمل مرتجل، فكل شيء كان يجب أن يُنفذ وفق برامج مفصلة، ومدروسة بعناية. بشكل موجز، قبل بدء العمل، كان كل فريق يتسلم خطة عمل تقنية، وخطة أخرى لمراعاة شروط الأمان، وكان رئيس كل فريق مُلزماً بقراءتهما على كل رجاله. كنا نعدّها بعناية فائقة مدركين حجم الخطر المحدق بنا في حالة وقوع أية حادثة.

لا تزال لديّ كل تلك الخطط، والبرامج محفوظة: تحتوي على وثائق تقنية للكارثة مصحوبة بتحليل دقيق، ومفصل، لحظة بلحظة، لكل طرقة مطرقة، ولكل انهيار، ولكل تفكيك.

كان لكل فريق واجبه المحدد، والمعين. ولذا فقد كان هناك فريق يعمل في الطابق الأرضي في الجزء المُرقط. وكان ينبغي أن يكون للأجزاء المفككة الحجم نفسه، والأبعاد: 1,60 × 0,50 × 0,80، وأن تكون على هيئة قضبان مُقطعة بواسطة أنبوب الأكسجين، أو على هيئة ألواح، أو أن تكون آلات قد أُنتزعت منها أجزاؤها النحاسية (يعد النحاس من الشوائب في صناعة الصلب، وكانت تلك الأجزاء المعدنية ستذهب إلى مصنع آخر للحديد).

كانت هناك أيضاً فرق تعمل في أنفاق الأنابيب الجوفية لكي يستعيدوا

الأجزاء النحاسية، والمحركات الكهربائية من الآلات الموضوعة في جوف الأرض، وكان يُطلق عليهم «فرق حيوان الخلد»، بينما كانت هناك فرق أخرى تعمل في الهواء على جسور الرفع، وعلى الرافعات.

في النهاية كان ثمة فريق آخر مهمته استعادة المعدات الخطرة من الورش المُفككَة (مثل أنابيب غاز الميثان، والأكسجين، والأسيتيلين، والنتروجين) وفريق آخر يُطلق عليه «فريق الخدمة» كان يتولى توزيع المواد المضادة للحوادث، والحفاظ عليها، وصيانتها.

إضافة إلى المفحمة، كنا قد بدأنا أيضاً تفكيك الصهاريج، التي يبلغ ارتفاعها ما يقرب من الثلاثين متراً، وتحتوي على المواد المُحسِّنة (فحم الكوك والجير) ثم رحنا بعدها نفكك مصنع الأكسجين.

يمكنني أن أواصل حكايتي لكم: فما الشيء الذي لم نفعله، ولم نهدمه، ونقتلعه من جذوره في عام 1995، وبالطبع في الأعوام التالية، حين شهد مسرح مصنع «إيلفا بانيولي» أول انفجار بالديناميت، وما أعقبه من انهيار للأعمدة، وللهياكل، لم يكن حتى بوسع المطرقة المطاطية النيل منها؟

إنهم يتهمو ننا بأننا قمنا بتنفيذ العمل بهدوء، وببطء. إنه هراء. الحقيقة هي أننا شرعنا في هدم المصنع متأخرين بأربع، أو حتى بخمس سنوات، بالنسبة إلى الموعد المحدد لغلق المصنع.

لو كانت البلدية استطاعت شراء تلك الأراضي فوراً لكان من الممكن مواصلة عملية التسريح على مراحل، بحيث كانت تتسلم البلدية، شيئاً فشيئاً، قطع الأراضي التي طُهرت، وباتت جاهزة لاستخدامات جديدة استقرت عليها جماهير المدينة.

كلا! بالتأكيد لم نكن نحن من نفذنا العمل ببطء.

***

كنت أسير شارداً عندما أبصرت على يساري عموداً من التراب يرتفع عالياً. توقفت: كنت مرعوباً، أو بالأصح مذهولاً، لأني لم أسمع أي ضجيج، فقد حدث هذا فجأة دون أن أدري بتاتاً السبب وراءه. طفقتْ غيمة التراب تتقدم نحوي، فدعتني غريزتي لأن أفر من أمامها. بيد أني لم أحرك ساكناً، ولبثت متسمراً في مكاني أتطلع لما كان يحدث وكأنني أحد حراس المراقبة الذين لا يتزحزحون عن مكانهم ضحية لأداء واجبهم. رغم سماعي لصوت مكبر صوتي يطلب مني الابتعاد عن المكان سريعاً (كان يردد: ابتعد عن هنا، ولتهرب باتجاه مبنى الإدارة)، ولكنني كنت مترنحاً إلى درجة أني مشيت، أجل في ذلك الاتجاه، ولكن ببطء شديد وكأن ثمة جموع تراقبني متأهبة للضحك عليّ، والسخرية مني.

لحسن الحظ، نجحت في أن أتحاشى الغيمة التي اكتفت بلمسي (كنت أركض حينذاك): كانت كومة كبيرة من الضوء الأصفر المبهر قليلاً، وكانت تتدحرج فوق نفسها مدفوعة من الريح التي كانت تهب بشدة حينها.

حين بلغت مبنى الإدارة كان ثمة جمع غير قليل من الناس عند الساحة. تحريت الأمر، وعرفت: كان قد هُدم جزء شاسع من المفحمة. كيف استطعت أن أجهل هذا الأمر؟ إذن، لم يكن الفرن العالي، وآلة الصب فقط قيد التفكيك: بل كان المصنع بأسره، وقد راحت الاهتزازات، والقشعريرة تدب في أوصاله. قالت سكرتيرة أحد المديرين: «لقد أخذ

العمل منحى جاداً». نبهتها بأن جزءاً كبيراً من آلة الصب كان مفككاً، وملقى على الأرض، فأجابتني قائلة: «أجل بالتأكيد، ولكن الانهيار والهدم شيئان آخران».

لم أقل لها شيئاً، وقد أصابتني الحيرة، فهل يمكننا أن نعتبر الهدم أكثر مأساوية، أم عملية تفكيك بطيئة، ومنهكة. ذهبت بصحبة بعض الزملاء لرؤية ما تبقى من المفحمة. أخذ كل منا قناعاً مضاداً للأتربة، وتحركنا في مجموعة في ذلك الاتجاه. لم يكن قد تبقى الكثير، إضافة إلى الأنقاض. كانت بعض الثقوب قد حُفرت في المبنى في سلسلة من النقاط الإستراتيجية حتى تُدك الأجزاء الداعمة التي يرتكز عليها، ثم أُستخدم الأزميل الهوائي، والذي كان منتصباً هناك ساكناً، شامخاً، مُصوَباً نحو هدف تخيلي يقع فوق رأسي مباشرة. كان الأزميل مثبتاً فوق عربة مجنزرة كافية وحدها لتستدعي إلى أذهاننا مشهد عملية تدميرية.

دنوت من المكان بقدر ما استطعت، ولكني لبثت أتفحص الأزميل وكأنني عابر سبيل عادي، وفضولي، قاده قدره إلى هنا بمحض الصدفة، أو عن عمد في منطقة لا يُسمح بالدخول إليها إلا للعاملين فقط. لم يكن فضولي سببه عدم معرفتي بقوته الهائلة في الحفر، والاختراق، التي يرجع الفضل فيها إلى نظام متعدد الديناميكية، تسيطر عليه شحنة من النتروجين، فلم تكن ثمة أسرار تخفى عني في تلك الآلة، ولكن لم يكن هذا ليقلل من استعدادي، في ذاك الصباح، لأن أُصاب بالدهشة من كل شيء تقريباً.

في ما بعد، ذهبت لأزور «نيكولا مارتوني» لكي أسأله بعض المعلومات حول برنامج الهدم؛ ثم قمت بعدها بعمل شيء غريب

بما فيه الكفاية عن عاداتي وشخصيتي: هاتفت البيت، وتحدثت إلى «روزاريا». حكيت لها بنوع من التأثر، والتوتر ما حدث لي: انهيار المفحمة، والتراب، وحالة الارتباك الشديد التي استولت عليّ، وكيف أني لم أستطع الفرار رغم الموقف الطارئ، ومبنى الإدارة، وكلمات السكرتيرة («إن الانهيار شيء مهم، أتمزح؟»)، وتأثُّر الناس، والأزميل فوق العربة المجنزرة. قلت لها أيضاً إن يوم الإثنين التالي ستقوم فرق الهدم بالهجوم على وحدة التلبيد، لذا فقد كان من الضروري ابتياع منظار يتيح لها، ولي، بشكل ما، متابعة كل عمليات الهدم الكبيرة، التي كانت ستحدث، من شرفة مطبخ بيتنا.

كانت «روزاريا» تنصت إليّ دون أن تعلق بكلمة واحدة، وحتى دون أن أستطيع أن أشعر بأنفاسها، إلى درجة أنه في لحظة معينة انتابني شعور بالحرج المفاجئ، واعتذرت لها: لعله لم يكن عليّ إزعاجك في هذه الساعة، ولكن كنت بحاجة شديدة لكي أبوح بما يكمن بداخلي إلى أحد ما، وأن أقص مغامرتي الصغيرة. وحيث إنها واصلت صمتها، سألتها: آلو، ألا تزالين على الهاتف؟ حينها فقط أجابت: أجل بالتأكيد، فلتواصل!

قالت هذا بنبرة ليست ودودة، أو غاضبة: كان صوتها مفعماً بالتردد، أو لعله الخوف. كان شيء بداخلها يدفعها لأن تكون حذرة، ومرتابة معي، ولكن، في الوقت ذاته، لم تكن تود أن يكون حذرها، وريبتها ظاهرين كثيراً، أو عدائيين. إلا إنني لم يكن لدي مبررات كافية لكي أشكو منها: فمن كان سواي المسؤول عما كان يجيش داخل روح امرأتي؟

ألقيتُ التحية عليها: قلتُ لها إذن إلى اللقاء في المساء، لكنها لم تجب، أو لعلي لم أمنحها وقتاً كافياً، فقد أغلقتُ سماعة الهاتف فوراً.

كانت الأمور تسير على هذا النحو: فحتى تلك اللحظة لم أكن أشعر بالرغبة في أن أرنو بعيني خارج السور المحيط بي، وأن أنظر حولي، وأن أقيس رحابة الكون الفسيح. أما الآن، وقد راحت آلة الصب تتفكك كقطع الميكانو بين يديّ طفل، وأمام التشققات الشاسعة في جوفها، وهياكلها التي أضحت أكثر خواء، وهيئتها التي باتت أشبه بقشرة فارغة، تملّكني شيء جعلني أرفع عينيّ اللتين كانتا تنظران إلى الأسفل فقط، وبفضل غيمة من التراب ذي أشعة منعكسة صفراء كثيفة، أدركت أن آلتي لم تكن تمثل سوى مشكلة صغيرة مقارنةً بأمر شاسع هائل أمامي.

***

لقد طلبتَ مني على الهاتف: «فلتغمض عينيك، ولتصف لي مشهد آلة الصب الخاوية بالكامل، أو تكاد، ولتصف لي مشهداً ظل عالقاً بداخلك أكثر من أي مشهد آخر، وسيظل مصاحباً لك لفترة طويلة، أو ربما إلى الأبد!».

كلما تقدم بنا الحوار وجهتَ لي أسئلة غريبة، ومحرجة. غالباً ما تصيبني بالخوف قليلاً: تبدو لي كمن يبحث عن شيء دون أن يعثر عليه. أعرف جيداً أن قرارك بكتابة كتاب عن «بانيولي» كان نتيجة أنك تشعر بنفسك داخل هذا التسريح مثلي، أو ربما حتى أكثر مني. أعترف لك: أحياناً يبدو لي أني أفهمك، وأحياناً أخرى لا. آمل أن يأتي يوم تسمح فيه بأن نتبادل الأدوار قليلاً حتى أستطيع أن أوجه لك بعض الأسئلة

الغريبة، والمحرجة. أوجه أنا إليك الأسئلة: أليس هذا من حقي، ألا يبدو لك؟

والآن أصل إلى آلة الصب، إلى الفراغ الكبير. أجل، ثمة مشهد يعود ليتراءى أمام عينيّ كثيراً، إنها سلسة مشاهد، وليس مجرد مشهد واحد. إن الأشياء تتابع على هذا النحو.

ها أنا أقبع في مكتبي، وليس لديّ شيء أفعله. لقد بدأت في تلك الأيام التحديق في الفراغ دون أن أفكر في أي شيء محدد، فقد انتقلت بكاملي داخل الأشياء التي أراها أمام عينيّ، حتى أني أمسيت مجرد نظرة لا أكثر. نظرة مطلقة.

ها أنا في أصيل أحد الأيام الأخيرة للربيع، والجو حار، ونافذة مكتبي مفتوحة على مصراعيها، ولكن لا يحمل المصنع إليّ سوى صمت شديد، بل أنه شعور يشبه الخمول والنعاس، تلك الرغبة في النوم الخاصة بالأشياء، وبي، وبالحاجيات، وبالعالم أجمع. رحت أتثاءب، ولكن انطباعي يوحي إليّ بأن هذا يحدث بالتزامن مع تثاؤب كل الأشياء حولي، مع المصنع، أو، عن الأقل، مع أجزائه التي تستطيع عيناي إدراكها. أنحن متعبون؟ أجيب على نفسي بنعم: إننا متعبون.

أنهض من على مقعدي، وأشعر بعظام ظهري المتألمة تجذبني وكأنها تريد إيقافي، ومنعي من الانصراف. أتوجه إلى باب الخروج ناوياً العودة إلى المنزل. ولكن، عند خروجي لا أسير نحو السيارة، بل نحو سقيفة آلة الصب، أو بالأصح، نحو ما تبقى من تلك السقيفة. فلم يعد بها باب للدخول، بل مجرد جمالون هائل يستند إلى لوحين كبيرين من الصلب ويبدو كأرابيسك هندسي يستحضر إلى أذهاننا رسوماً لقلم

رصاص خبير متمرس على ورقة بيضاء. توقفت عند المنطقة التي يمكن أن نعتبرها مجملاً الخط الفاصل بين المنطقة الخارجية المزعومة للورشة، وتلك الداخلية.

أنظر حولي غير مصدق وكأنني أشهد عرضاً سمعت عنه من قبل، بل حُكي لي عنه، ولكنني لم أستطع قبل تلك اللحظة أن أراه بعينيّ. لم أك متأثراً: كان عدم تصديقي للأمر متجمداً، ومتأملاً، كالتأمل الحسابي. لم تكن للسقيفة أجناب، أو سقف، فقد بقي فقط الهيكل السميك للدعائم الرافعة. الآن، وقد هيمن الخواء على الملأ تقريباً، تبدو أبعاد المصنع وكأنها قد تضاعفت عشر مرات، حتى أنها باتت تبث إحساساً بالرحابة، والقوة يبعث على الانزعاج، والحرج في ذلك الموقف.

تهيمن على مركز السقيفة السابقة الرافعة ذات حمولة الخمسمئة طن، التي ارتقيت فوقها إلى الفردوس. إنها تجثم منذ فترة هنا بالداخل: منذ أن أُخليت الجبهة الشمالية بأكملها، مما أتاح لها التقدم فوق عجلاتها المجنزرة القوية مختالةً، وقادرةً، رغم ضخامتها، على اجتياز ألف نتوءة والتواء بالطريق. ليست هي الرافعة الأكبر في العالم (هناك رافعات ذات حمولة تصل إلى ألف طن وأكثر، ولكنها كما يُقال تشبه ناطحة السحاب)، ولكن لديها وفرة من العضلات. كانت ذراعها هي التي قبضت منذ بضعة أيام على البوتقة، ووضعتها بحركة بطيئة، وحذرة، مباشرةً داخل القفص الخشبي فوق منصة متحركة.

وها نحن هنا، الآن، كل منا في مواجهة الآخر. لا أحد هنا سوانا: أنا، والرافعة، وهذا الهيكل الذي لا أستطيع التعرف عليه، ولا هو يعرفني أيضاً. لعله فَقَدَ قدرته على التعرف على الأشياء، فَقَدَ روحه، والكلمة،

والإحساس (أجل، كان الضوء الأحمر للغروب قد أنار الهيكل فجأة، ولفترة وجيزة، ولكن، سرعان ما انطفأ نهائياً وبلا رجعة، أكان ذاك وداع الموت؟).

لعل تلك هي الصورة التي ستصاحبني إلى الأبد: من بوسعه أن يقول هذا؟ أنا، والرافعة، وهيكل السقيفة الشبيه بقفص متهدم قليلاً للطيور. إنها صورة عديمة الأهمية، ولكن أيوجد أفضل من الأشياء الصغيرة التي لا تُذكر لكي تبث فينا الشعور بالقلق؟

إن لم تكن تكفيك هذه الصورة، أو إنك رأيت أنها ليست مُرضية بما فيه الكفاية، فهناك دائماً صورة رحيل أول سفينة متجهة إلى «شنغهاي»: بينما يدوي صفيرها أووووه، أووووه، أووووه وثلة من الناس على الجسر، البعض منهم يذرف الدمع دون أي وقار (لست أنا، أقسم على هذا، لعلي كنت أبكي داخل خلجاتي، رغم أن «كريستينا» تحكي عن هذه اللحظة بشكل مختلف عما أفعله أنا).

لكني سأُحدثك عن كل هذا عما قليل، فقد أوشكت على الوصول إلى تلك الأحداث. وليس هذا لأن ما يفصلنا عنها ذو أهمية كبيرة، فحسب ما أذكر كانت تلك أياماً خاوية جداً، إلى درجة أني كنت في أحيان كثيرة أذهب بدافع الفضول لأتفحص الفرن العالي رقم خمسة، وعملية تفكيكه التي كانت تنفذها مجموعة من التقنيين من بينهم «مارتوني»، و«لو بريستي». كان كلاهما متشبثاً بآلته بقدر ليس أقل من تشبثي أنا بآلتي، وكانا مُتشربين بالفخر التقليدي لفئتنا، وبالتعالي الذي يدفع عامل الفرن العالي، خطأ وفق رأيي، لأن يعتبر نفسه أعلى درجة من أي زميل آخر له في المصنع (وللحقيقة، يعتقد عمال ورشة الصلب

أجمعهم الشيء ذاته عن أنفسهم: فثمة تنافس خفي، ولكن، في أحيان كثيرة، يغدو هذا التنافس أمراً علنياً جلياً أمام للجميع).

كان كل شيء يُناقش في هدوء، وصفاء وكأن العاصفة التي على وشك الهبوب لا تشغل بالنا كثيراً، حتى أننا كنا نمزح أيضاً، مثلما حدث حينما طلب «لو بريستي» من رئيسيْ القسم، اللذَين كانا على وشك أن يعودا إلى الهند، حيث كانا قد أقاما هناك حتى فترة وجيزة مضت، أن يشرحا كيف كانت النساء الهنديات من الناحية... كيف أشرح لك هذا؟ من ناحية الحميمية الغرامية («هل هن دافئات؟»، أو «متأججات؟» «كالحديد الزهر؟» «ولكن، أي نوع من الحديد الزهر: المتجمد البارد، أو ذلك السائل المضطرم؟»). لم يكن الاثنان يكتفيان فقط بإرضاء «لو بريستي»، والآخرين، معطين إياهم كافة التفاصيل، ولكنهما كانا في أحيان كثيرة يتشاجران في ما بينهما، لاختلافهما الطفيف في الرأي (لم يعودا إلى الآن من الهند، حتى أن الجميع راح يشك في أنهما سيعودان أبداً).

قبل رحيل السفينة الأولى إلى «شانغهاي»، التقيت «مارشيلا» مصادفة، كان بمثابة لقاء صادم كما سأشرح لك عما قليل. قبل ذلك بأيام قليلة، وخلال إحدى زياراتي الفضولية للفرن رقم خمسة، كان «لو بريستي» قد سألني عن أخبارها. كان قد فعل هذا أمام الجميع غامزاً، ولامزاً بطريقة مثيرة للغضب. أجبته بتبرم، ولكن بحرص: «ماذا تظن أني أعرف؟ إنك أنت خالها: أما أنا، والمسكين مارتينيز فنحن نبذل ما في وسعنا».

لحسن الحظ لم يرد، ربما لأنه نخشي أن أواجهه بمسؤولياته، وبعدم

مبالاته التامة بأخته، وبابنتها. اكتفى بالنظر إلي بعينيه المغرورقتين بالشهوة الساخرة، التي كانت دائماً وتقريباً ما تصاحب تعبيرات نظراته المعتادة، بل وتعبيرات وجهه الذي نحتته التجعدات الناعمة، و«الفاجرة»، كما كانت تقول جدتي عن بعض الرجال المختالين المتأنقين.

لم أتعرف عليها على الفور. كانت تقف أمام «ساندومينغو» بصحبة أصدقائها القدامى، حثالة «بانيولي»، وبعضهم كان متورطاً مع عصابات الجريمة المنظمة في الحي. كانوا يتباهون بدراجاتهم البخارية اللامعة، وبستراتهم الجلدية، وبأصواتهم المتغطرسة. أما هي فكانت ترتدي ملبساً ضيقاً إلى درجة أنها لو كانت عارية لصارت أكثر احتشاماً. كانت أيضاً قد صبغت خصلة من شعرها باللون الأخضر.

تعرفت هي عليّ أولاً. جذبت انتباهي لها بنظرة طويلة، وصارمة إن لم تكن عدائية؛ بعدئذ، أدارت وجهها إلى الناحية المقابلة وظَهْرها لي. كانت الرسالة واضحة: كانت ترغب في ألا أتوقف، وألا ألقي السلام عليها حتى.

ماذا عليّ أن أقول لك؟ أصابتني رؤيتي لها بألم شديد في قلبي، وبأسى، كان يبدو لي ساعتها أنني لن أقدر على السيطرة عليه: كنت أود أن أهجم على هذه الحثالة، وأن أجرها من بينهم من أذنها. لحسن الحظ، لم أفعل شيئاً من كل هذا. أطعت رغبتها، وأدرت عيني إلى مكان آخر، وأسرعتُ خطاي بحرص على ألا أعطي انطباعاً عني بأني ألوذ بالفرار.

لا أريد حتى أن أحاول أن أصف لك الساعات التي تلت ذاك اللقاء؛ وما كان يدور برأسي من خواطر، تارة على هيئة ومضات سريعة، وتارة

أخرى كالصخور الجاثمة الثقيلة. كانت بي رغبة شديدة أن أتصل بها على الهاتف، وأن أتحدث إليها، وأن أُسيء معاملتها، وأن أواجهها بجحودها، وبنكرانها للجميل، وبغضبي، رغم علمي أن مكالمة كتلك كانت ستصبح خطأ لا يغتفر، وكانت نتائجها ستكون وخيمة عليّ، وعلى اتزاني العقلي، وعلى حياتي. فلو كانت «مارشيلا» قد قررت أن تفسد حياتها، وأن تضيع نفسها، لم يكن عليّ أن أُعرّض نفسي للخطر، وللمشاكل من أجل إنقاذها. لقد دامت تلك اللعبة وقتاً طويلاً. إلا إنني ما كنت ألبث أن أصل لقرار لا رجعة فيه حتى كان يطرأ عليّ شيء جديد، فكرة عابرة، أو ذكرى، أو شعور بالأسف، ليضع فجأة ظلالاً من الشك على ما قررته سلفاً.

في النهاية، وعلى كل حال، أفلحت في السيطرة على نفسي بينما كنت في طريقي إلى البيت، وبعد أن أظهرت لـ«روزاريا» الود، واللينة، واستمعت لصوتها طيلة المساء، والذي، لا أدري كيف، راح يحكي، ويحكي، دون أن يصيبه التعب: حكايات تافهة، أو أقل تفاهة عن الأصدقاء، والأقارب، والنقابة، والبلدية، وعملها، وعملي، ولاسيما عن ابننا، الذي لم يرتكب إحدى حماقاته المعتادة هاجراً الفتاة الطيبة التي كان قد خطبها... بإيجاز، كان ثمة نهر غزير من الكلمات، وكأنها قد شعرت بحاجتي الماسة إلى الاستماع لثرثرتها عن أي شيء إلى ما لا نهاية.

كان الشيء الوحيد الذي فعلته هو الاتصال في اليوم التالي، في الصباح، بـ«مارتينيز»، وحكيت له عن لقاء اليوم السابق دون أية مبالغة، بل إني تجاهلت أن أروي له بعض التفاصيل الشائكة (على سبيل

المثال، الوجوه العنيفة لأولئك الشباب، ومن بينهم عشيقها السابق، ودراجاتهم البخارية اللامعة كأنصال السكاكين، وسوالفهم الطويلة التي يهدفون من ورائها بث الخوف في القلوب، وملبس «مارشيلا» المثير). شرحت له بصراحة تامة عن شعوري الشديد بالانزعاج -بل بالألم، والأسى، والحزن- من مجرد التفكير في ما يحدث لها، وقراري بعدم التدخل مطلقاً.

قال لي بأنه كان يتفق معي، وإنني ينبغي أن ألتزم بقراري ذلك، وإنه كان سيحاول أن يفعل شيئاً، وأن يتحدث معها، أو حتى يهددها، على افتراض بأن روح «مارشيلا» الذاتية التدمير لم تكن قد أفقدتها بعد قدرتها على الإنصات للآخرين.

كانت المرارة تملأ صوته: لم أنظر له من قبل على أنه رجل عجوز -كان كِبر عمره أمراً لا معنى له أمام حيويته الشديدة، وسرعة بديهته- ولكن، في ذلك المساء، على الهاتف، بدا لي أنني أتحسس بيدي الإنهاك، وخيبة الأمل، لرجل لم يعد قادراً على أن يحتفظ بعلاقة طيبة مع الحياة، أو لعله لم يعد يحبها.

رغم أن «مارتينيز» قد اختفى، ولو قليلاً، عن المشهد الذي تدور فيه حكاياتي، ولكني أرغب أن أوضح لك أن هذا لا يعني مطلقاً أن علاقتنا في تلك الفترة تعرضت للتوقف أو للتباعد. حتى حينما دخل «تشونغ فو» إلى حياتي بقوة آخذاً معه القسط الأكبر من وقتي فلم أكف أنا و«مارتينيز» عن اللقاء بشكل مستمر، ومنتظم. لقد بات هو وزوجته جزءاً لا يتجزأ من دائرة أصدقائنا (الصغيرة)، رغم أنه ينتمي إلى جيل بعيد عنا. لم أحك لك شيئاً عن الأزواج، والزوجات، الذين ينتمون إلى

هذه الدائرة، ولكني أخشى أن الحديث عنهم سيكون بلا معنى، لأن ليس لهم علاقة، من قريب أو بعيد، بالمصنع، أو بالتسريح، ولا حتى بالحي بعض الأحيان.

إن العلاقة مع الزوجين «مارتينيز» ذات طبيعة مختلفة عن تلك التي تربطنا بالآخرين، فهي لا ترتبط بالمآدب، أو بالذهاب إلى المصيف معاً، أو بالاستحمام في البحر تحت ضوء القمر، أو بالخيام والإقامة في المخيمات، أي إنها، باختصار شديد، لا تستند إلى أهواء، وخيلاء مرحلة منتصف العمر. ولكن، حتى ولو لم نكن نذهب إلى قضاء العطلة معاً، أو حتى كان خروجنا معهما للتنزه أمراً نادر الحدوث، ولكنهما كانا الزوجين اللذين كنت أنا و«روزاريا» نتقاسم معهما أشياء أكثر للحديث عنها، أو، على الأقل، الأشياء الأكثر أهمية. أبوسعي التأكيد أنني أحبهما للغاية؟ إنني أحب وقاره الصارم، وماضيه الثري بالعمل السياسي والمدني، ويديه الصغيرتين الصلبتين، وشعره الأسود والأبيض الكثيف، الذي لم يفلح الزمن في صبغه باللون الأبيض، إلا قليلاً، وصوته الحازم، وكلماته السلسة، التي بمقدوره الحفاظ على سلاستها حتى حينما يكون تحت وطأة الريبة، والانفعال. وأحب زوجته أيضاً، لأنها تشبهه، رغم الاختلاف الشديد لطبيعتها ولمزاجها عن طبيعة زوجها ومزاجه.

لعلك الآن تدرك بشكل أفضل حيرتي أمام «مارتينيز»، الذي بات فجأة متعباً، ومكتئباً. أكُلّ هذا سببه تلك الفتاة؟

قلت له: أأنت مرهق ومكتئب! يمكنني أن أفهم أن تصيب حالة نفسية كتلك رجلاً مثلي (فهذا يمثل جزءاً من طبيعتي)، ولكني لا أستوعب أن تصيب «كارلو مارتينيز». إذن.. ها أنا ذا لكي أسألك إن

كان بوسعي عمل شيء...

بدا لي أني سمعت ابتسامته. إن «مارتينيز» لاعب متمرس للعبة «المقشة» الورقية: قال لي إنه كان يمكنني زيارته في البيت في ذلك المساء، إن كنتُ أرغب في لعب مباراة تحد من مبارياتنا التاريخية. إنه لا يعرف أي لعبة أخرى سوى «المقشة»، التي تعلمها حينما كان شاباً، وكان وقتها نقابياً مسؤولاً، وزعيماً. يقول إن من لقنه أسرار تلك اللعبة كان مهندساً عبقرياً في الرياضيات، غريب الأطوار ونصف فيلسوف، وكان يعمل في «إيلفا» في الخمسينيات المنصرمة.

لكننا لم نلعب الورق في ذلك المساء: ثرثرنا دون توقف، ولاسيما عن «مارشيلا» لأنه في لحظة معينة راح يقول بنبرة هادئة بأنه كان يحتفظ بسر حرج ومُرّ عنها. سألته حينئذ: مُرّ... كيف؟ كان لي صوت من يحاول أن يتحكم في نفسه بأكبر قدر ممكن: كان صوتاً بارداً جداً. كان كلانا يرتشف الخمر، وكان أحدنا مسترخياً على المقعد الوثير، والآخر على الأريكة في غرفة المعيشة.

تبرمت قليلاً. في ما بعد، قال إن الممرض كان يرى أن الفتاة بحالة سيئة جداً. راح يتنشق عبق الخمر كما يفعل خبراء تذوق الخمور وهو يرجه في الكأس. عقب صمت طويل، وبينما كنت أواصل تظاهري بالتحكم الشديد في النفس، سألته إن كانت «مارشيلا» ستموت. اعترض: ماذا تقول! لقد قلتُ ببساطة إن الممرض يرى أن حالتها سيئة (ولكن، كان وقع ذلك الإيضاح النافي والمحدد، وتلك الكلمات عليّ أشد قسوة مما لو كان أخبرني بالحقيقة)، أحنيت رأسي ليس لتأثري، رغم أنه كان ربما يبدو هكذا. كلا، فقد كان يغمرني شعور بالاستياء من

نفسي، لأن ذاك الخبر تركني بارداً متيقظاً، بدلاً من أن يُلهب جلدي، وروحي. فكرت أنني ربما لست أكثر من مجرد إنسان دنيء. وبما أن «مارتينيز» كان يحدق في مشحوننا بالتوتر، رحت أتمادى في كيل الاتهامات لنفسي: إنك دنيء، وكاذب. كان العجوز يعلم بالأخبار منذ أسبوع، ولكنه آثر ألا يخبرني بها حرصاً على مصلحتي. هذا ما قاله على الأقل. شرح لي أنه حسب قول الممرض فإن «مارشيلا» ستعيش طويلاً، ولكن، بشرط أن تحيا حياة منتظمة ومصونة. لكن الفتاة ما أن عرفت بالحقيقة حتى قامت بأسوأ رد فعل يمكن تخيله، كما سنحت لي الفرصة أن أكتشف هذا شخصياً.

كان قد قام هو بالتدخل، وتحدث مع أمها ومعها، ولكن، نتيجة تحذيراته كانت واضحة للعيان: فقد قررت «مارشيلا»، وفق ما قالته هي شخصياً: «أن تستمتع بحياتها طالما سمحت لها قواها بذلك».

قال: يا «بوونوكوري» لا يمكنك أن تتخيل كم تصيبني هذه القصة بالإحباط. ثمة أشياء كثيرة غير مفهومة حولنا تسحقنا وطأتها. فلتفكر في قدر العداء الذي أضمرته الحياة لهذه العائلة التعيسة: في البداية كان الأب، ثم الفتاة... فلأي سبب هذا؟ فأمام كل هذا، وأمام هذا الزمن الحالك، وغير المفهوم، وأمام المصنع، الذي يختفي، وغروب كل الأشياء التي آمنت بها... يبدو لي أحياناً أنني أضعت حياتي هباء. لا جدوى من القول إن هذا ليس صحيحاً، وأنني فعلت كل ما حسبته صحيحاً من الناحية الإنسانية، والسياسية، والأخلاقية، وأنه لم يكن لدي أدنى شك في خيارتي، رغم أن الوقت أثبت في ما بعد عكس هذا. وحتى لو

رددت هذا لمرات لا حصر لها فسيظل ذاك الشعور بعدم الجدوى باقيا بداخلي..

يا لـ«مارتينيز» المسكين. لم أكن مخطئاً إذن حينما شعرت به على الهاتف، وللمرة الأولى، عجوزاً زاهداً في كل شيء.

لم أجب بشيء. وماذا كان بوسعي القول؟

***

رحلتْ أول قطعة من المصنع صوب «شانغهاي» في منتصف سبتمبر. من يدري لم تتزامن الأحداث المؤلمة دوماً لتصيبنا جملةً. كان يوماً جميلاً عاصفاً يختتم فترة من المطر، والعواصف التي طهّرت السماء من كل دنسها. كانت جزر الخليج تبدو جلية وكأنها مرسومة على خارطة معلقة في الأفق: لم أر حدودها واضحة هكذا من قبل في حياتي.

كانت قد مرت ثلاثة أشهر منذ اليوم الذي حدثني فيه «مارتينيز» عن حالة «مارشيلا» الصحية. لم أقابلها أبداً في ما بعد، ولم أترك نفسي تنهزم أمام رغبتي في الاتصال بها، ولكني لم أكف يوماً عن سؤال «مارتينيز»، وآخرين عن حالتها.

كانت قد تقمصت الشخصية تماماً، ولم تكن تخرج كثيراً من البيت، وحينما كانت تخرج كانت تفعل هذا فقط لتظهر نوعاً جديداً من الإثارة: شعر مصبوغ بألوان شتى، تارة مجعد أصفر، وتارة أخرى ناعم أسود وطويل، وأحياناً أخرى بعض الخصل مصبوغة باللون الأخضر الفاتح الزاهي، والذي ربما كان شعراً مستعاراً، وثياب مكشوفة ذات فتحات واسعة، وقرط بالأنف، وتنورات قصيرة غاية في الخلاعة،

وأساور، وعقود. كانت تتردد بصورة أقل على «بانيولي»: فقد اتسع محيط جولاتها؛ غالباً ما كان يأتي أشخاص من أماكن مجهولة ليصطحبوها. كانت تطلق ضحكاتها عالياً بينما تعانق أرداف مرافقها على متن الدراجة البخارية الجديدة للغاية.

فكرت يوماً في أن أكتب لها رسالة: كنت على استعداد لدفع أي ثمن لأعيدها إلى صوابها. لحسن الحظ لم أفعل شيئاً من هذا. لو فعلته لكان جنوناً عديم الجدوى، ولحسن الحظ أني أدركت هذا في الوقت المناسب.

أُخطرت برحيل سفينة الشحن قبل الموعد بأسبوع. فلمَ لم يخطروني قبلها بخمس دقائق فقط، الوقت الكافي بالكاد لكي أركض سريعاً إلى الجسر الجنوبي، وألقي تحية الوداع على تلك القطعة من حياتي التي على وشك الرحيل إلى الصين؟ كانوا سيوفرون عليّ فترة العد التنازلي التي لا تُطاق، والتوتر الذي أصابني، وأصاب المسكينة «روزاريا» أيضاً، والتي كانت تشاهد معي في ذلك المساء من شرفة المطبخ السفينة الراسية على الجسر، ونحن نتبادل في ما بيننا المنظار الذي كنت قد ابتعته منذ فترة وجيزة.

إنها امرأة شديدة الفضول: فلم تكن مشاهدتها -للمصنع، والسفينة، والجسر، والرافعة، والسقيفة، والأنقاض- أمراً عاطفياً فحسب، بل كانت مصحوبة بالتأمل، والتفكير أيضاً. كان كل همها منصباً على أن تسألني عن معنى هذا الشيء وذاك، بل وحتى عن العَلَم الذي كانت تحمله السفينة: هذه ليست سفينة صينية مطلقاً؛ بل إنها إيطالية، أو أنا مخطئة؟

لقد كانت فعلاً سفينة إيطالية برٌبان، وطاقم إيطاليين. قلت لهم ذات صباح بينما كانت رافعة الجسر تضع في مخزن السفينة قفصاً مكتوبا عليه بحروف كبيرة (CONTRACT N. 94TPJZA451016CL DESTINATION SHANGHAI CHINA)، وكان الشيء ذاته مكتوباً أيضاً في كل مكان، حتى على أصغر الأشياء حجماً: يا شباب! بلّغوا تحياتي إلى «شنغهاي»، وحاولوا ألا تَغْرقوا: لا أسألكم هذا خوفاً عليكم بل على الشحنة. في الليلة قبل الأخيرة من فترة العد التنازلي، سألتها مجدداً بنبرة تجمع بين الجد والسخرية: «يا «روزاريا» أنذهب إلى الصين؟». ولكنها أعطتني الإجابة نفسها: «إنك مجنون فعلاً. إن كنت ترغب فلتذهب أنت، سيعني هذا أن أهميتي لديك أقل من أهمية آلة الصب...».

في يوم رحيل السفينة أتى إلى الجسر المهندس «لوناردي» أيضاً، ولا أعرف لِمَ بعث حضوره فيّ الدهشة والحرج، كان وكأنه قد عثر عليّ في مكان لَم يكن ينبغي لي أن أكون فيه. كان بصحبة بعض الصينيين، الذين كان يتحدث معهم بإنجليزية طليقة. أشار إليّ بالكاد بالتحية، ثم راح ينظر إلى شيء آخر.

كنت بصحبة «كريستيانا» التي لن أَكِلّ أبداً، ولن أمِلّ من الثناء عليها لذكائها، ولإنسانيتها، ولتحفظها، ولأسلوبها الرائع في العمل. كنا قد أصبحنا صديقين حميمين. أحسب أنها استطاعت في هدوء، وسرية أن تفهم أشياء عن «بوونوكوري» أكثر من «بوونوكوري» نفسه.

كانت هي من عرضت عليّ أن تصحبني إلى الجسر، وقبلتُ دعوتها على الفور مدركاً ودون أن أفكر في الأمر بشكل واضح أنها كانت

الشخص المناسب في اللحظة المناسبة. دوى صفير صفارات الإنذار أولاً. داهمني بغتة، وبث القشعريرة في جسدي. حينئذ طَوَّقَتْ «كريستيانا» كتفي بذراعها، وهمست لي بأنه ربما كان يمكننا الانصراف. قالت إن الوداع القصير أفضل.

ابتسمت لها دون أن أجيب. كنت أتفق معها، ولكني لم أتحرك من مكاني. نظرتُ باتجاه «لوناردي»: كان لا يزال يناقش بإنجليزية طليقة مع الصينيين دون أن يلتفت نحوي. كنتُ أرى هناك بعض مجموعات من الأفراد، بقع سوداء ساكنة جامدة تحت الشمس وكأنها لجماد بلا حياة.

لمحتُ أن على مقربة مني كان يقف تقني في القسم مساوٍ لي في الدرجة، ولكني لم أكن سعيداً مطلقاً برؤيته. كان عليّ أن أكون صريحاً تماماً، فسأقول بأني كنت دائماً اعتبرته وغداً، وأعلم بالتأكيد أنه يظن بي الشيء نفسه. ورغم هذا كانت عيناه مغرورقتين بالدموع: من كان يتخيل هذا؟ يا إلهي، فكرت أن الأمور هنا ستسوء حقاً.

في الأفق البعيد كان شبح التل الذي يركض باتجاه «بوتسوولي» وكأن مقص قد قَطّعه وحزّزه ليبدو كسور كقلعة لونه أصفر وأخضر، يقف منتصباً فوق رؤوسنا، وكان صفاء السماء يبرز بحدة الحواف المحزَّزة للتل بينما يعلو تدريجياً صوب حصن المدينة، في ما وراء البنايات الضخمة للأكاديمية الجوية. أجل، فكرت بالأمر، لم أكن أنا من اخترت أن أشهد رحيل السفينة من مكان كهذا، كبرج الحمام؟ تذكرتُ «روزاريا»، التي كانت قد أكدت لي أنها كانت ستحضر «المراسم» (من يدري لِم أطلقت عليها هذا الاسم) من شرفتنا: ها هي السفينة ترفع

خطافها، ويلوّح الناس بمناديل في أياديهم، وسرعان ما تسلك مقدمة السفينة طريقها إلى عرض البحر: في أي ناحية تقع الصين؟ ولكن، لم يكن المنظار كافياً لإيضاح كافة التفاصيل الصغيرة: ظِلي، على سبيل المثال. بيد أني كنت أعرف أنها كانت ستبحث عني، وأنها، رغم كل شيء، كانت ستحاول جاهدة أن تجدني؛ وكانت ستقرّب عدسة المنظار، أو حتى تهزّه كما تفعل أحياناً مع التلفاز حينما تخفت الصورة، أو تختفي، أو حينما يحل الصقيع.

دوّت صفارات الإنذار مرة أخرى، وداهمتني القشعريرة مجدداً. التفتُّ نحو «كريستيانا». حسناً، أومأتُ لها بالموافقة، الآن يمكننا الانصراف فعلاً.

بوسعي القول إن قصتي تصل هنا إلى نهايتها، وإن كل ما تبقى ليس أكثر من مجرد أشياء ثانوية، أو نتائج لما حدث سلفاً. ولكن، سيكون هذا بمثابة مخرج سريع غير أمين يعينني على التملص من أسئلة كثيرة، عامة وخاصة، بحاجة، رغم عدم سعادتي بها، إلى بعض الأجوبة المُقنعة (فماذا حدث لـ«مارشيلا»؟ وهل اكتشفت «روزاريا» الحقيقة؟ هل تم تفكيك المصنع وهدمه؟ ولحساب مَن تم هذا؟). لقد حذرتَني، يوماً، بأن العالم لا ينتهي أبداً أمام أنفي، فهناك دوماً أشياء أخرى في ما وراء آلة الصب.

ثمة أشياء أخرى بالطبع. رغم أن الشهور، بل السنين، التي أعقبت هذا كانت واهنة شاحبة: على الأقل حتى مستهل عام 1998، حينما سُمع صوت الديناميت للمرة الأولى. خلف ستار عملية التسريح البطيئة، باتت، رويداً رويداً، أكثر وضوحاً للعين المؤامرات الخفية الناتجة عن الصراع الشديد للغاية الذي كان (ولا يزال إلى الآن) هدفه استغلال أراضي سهل «كوروليو». كنا وكأننا نستمع إلى صليل صاخب حقيقي لسيوف تتضارب.

هل تُخصص الأراضي كلها تقريباً لتتحول إلى متنزه، كما كان المدافعون عن البيئة الأكثر تشدداً يرغبون؟، في البداية كان مجلس البلدية، والعمدة ينزعون نحو حلّ يغلب عليه الطابع البيئي: أي خلق مساحة خضراء شاسعة، في إشارة واضحة إلى معارضتهم لعمليات التدمير البشعة، التي تعرضت لها في الماضي كل منطقة خليج «نابولي».

ولكنهم لم يضيعوا وقتاً طويلاً قبل أن يصححوا من طموحهم المفرط، ويتجهوا نحو حل وسط معقول: أجل، منتزه كبير، ولكنه مُزود ببعض المنشآت، التي من شأنها خلق بعض التطور، وفرص عمل بديلة لتلك التي فُقدت جراء غلق مصنع الصلب.

هل سيأتي يوم ويُنفذ فيه هذا المشروع؟ أسيحدث يوماً أن تنبت فوق هذه الأرض المجروحة، القاحلة، البقعاء، المهملة زهور وأعمال جيدة؟ (ولكن هذه قصة أخرى يفضلون ألا يقتربوا منها بتاتاً).

***

في ختام عام 1998 كنا قد تخلصنا من مئة وخمسة وسبعين ألف طن من المخلفات المتنوعة، واثنين وستين ألف طن من الهياكل المعدنية، وخمسمئة ألف طن ومئة من المواد الكهربائية، وخمسة وأربعين ألف طن من الإسمنت المسلح المُهشَّم. كان علينا، نظرياً، أن ننجز مهمتنا خلال نهاية عام 1999، ولكن، لم يكن أحد منا يراهن بشيء على نجاحنا في تحقيق هذا، كان يبدو لنا أمراً مستحيلا أن يأتي اليوم الذي لن نجتاز فيه تلك الأبواب، وذلك المكان الذي كنا نُصرّ على أن نُسميه مصنعاً، حيث كنا نتوجه إليه كل صباح (سواء كان هذا أمراً جيداً، أو سيئاً، فقد كان حينها في المصنع خمسمئة وسبعون عاملاً، كان منهم أربعمئة وخمسة وستون يعملون فعلياً، ومئة وخمسة مسجلون في صندوق البطالة، ويتم استدعاؤهم للعمل بالتناوب في ما بينهم). كنا قد أنجزنا ما يزيد على نسبة ثلاثين في المئة من العمل الإجمالي. إني أسألك: هل تعرف ماذا يعني مصنع مُعتدَى عليه، ومدمر، وخاوٍ من أحشائه، ومتهدم بنسبة ثلاثين ونصف بالمئة؟ كان الأمر يصيبني بالدهشة لاسيما

حينما كنت أعود إلى البيت، وحينما كانت الظلال تبدأ في التمدد وقت الغروب، وكان الثرى يعلن عن حلول المساء جالباً إلى حلوقنا رائحة، أو مذاقاً غريباً لرماد مُبلل، أو لحريق أُخمد منذ فترة وجيزة. غالباً ما كان يبدو أن ثمة كلاباً تعوي بداخله.

لقد كنت دائماً أتخيّل أن ثمة كلاباً تعوي بين الأنقاض، لعلي شاهدتها يوماً أثناء صباي في فيلم سينمائي، كانت داكنة اللون، ضئيلة، منزوعة الشعر، وبخيشوم مدبب... وأنقاض كثيرة، إنه تزاوج بين عنصرين لا يمكن نسيانه أبداً.

ذات يوم، انزلقتْ إحدى الآلات القاطعة للمعدن والمزودة بأنبوب أكسجين أسفل غطاء شفط بخار وحدة التلبيد، بينما كانت تقوم بهدمه. لقد حدث هذا أيضاً، وعلّق جميعنا على الأمر قائلين الشيء ذاته: أرأيت؟ ها أنت تهدم مكان عملك، وليس هذا كافياً، بل إنك تتعرض أيضاً للإصابة بسوء شديد، فأين العدل في هذا العالم؟

كلما حاولنا تحطيم المصنع بالمطرقة الكبيرة ازداد مقاومة: أكنتَ ترغب في فكّ كل براغيه، وتحويله إلى قطع ضئيلة! كان يبدو لا نهائياً، وجباراً خارقاً. كان الأمر وكأن ما كنا نقتلعه منه نهاراً يقوم هو بإعادة بنائه في صمت ليلاً، فيبدو في الصباح التالي أكثر شموخاً، ووعيداً من ذي قبل، بمداخنه، وبأروقته التي تشبه أروقة الكاتدرائيات.

كنا نقول جميعاً الشيء ذاته: فإما أن يصل الديناميت هنا، أو لن ننتهي من هذا الأمر أبداً. كانت فكرة استخدام الديناميت تدور في رؤوسنا منذ أشهر عديدة: كانت بمثابة شبح أكثر منها حقيقة واقعة.

كانت بنايات المصنع حينها لا تزال تُخفي عن الرؤية منطقة

«نيسيدا» أمام القاطنين في المنازل المواجهة للسور الكبير له بمحاذاة شارعي «ديوقليتسيانو»، و«بانيولي». كان المشهد من تلك النوافذ، والشرفات يتبدل من ساعة إلى أخرى، ولكن، خلف كل مبنى كان ثمة بناء آخر يحجب الرؤية بدوره. بيد أن الجميع كان يدرك أن اللعبة كانت على وشك الانتهاء: فخلال شهرين، أو ثلاثة كان البحر سيخرج من مخبئه. كانت الجرائد تتحدث عن هذا الأمر وكأنها معجزة على وشك الحدوث: كان هذا سيعوض أناساً كثيرين عن معاناتهم الشديدة في منازلهم التي لا يدخلها الهواء، والمعرضة للسخام، وللأتربة، وللروائح المنبعثة من مدينة الحديد. لقد بات البحر الذي يبلل شواطئ «بانيولي» جائزة ورمزاً.

كانت النتائج الكبرى قد حققناها في قطاع التلبيد، أي في المنطقة التي تقع في الجزء الغربي للمصنع، حيث كانت تتم عملية الصهر. كانت قد دُكت كلها تقريباً، كما كانت المفحمة قد هُدمت بأكملها تقريباً أيضاً، حيث كنا قد أفلحنا في تفكيك أضخم المنشآت حجماً، التي كانت لا تزال قائمة هناك: مقياس الغاز الذي كان يصل ارتفاعه إلى ثمانية وستين متراً، وعرضه ثمانية وثلاثين.

كنتُ قد تركت شركة «ستيل ووركس» لأعود إلى العمل لحساب «الشركة المساهمة لبانيولي». ذات يوم استدعاني «لوناردي» إلى مكتبه، ودون أن يرفع رأسه عن الأوراق التي كان منهمكاً في قراءتها على مكتبه، طلب مني أن أستريح. كيف «أستريح»؟ كان عادة ما يقول لي: فلتجلس يا سيد «بوونوكوري»، أو كان يقول بصوت فظ، وساخر معاً، بل وبود أيضاً: لمَ تقف منتصباً هكذا؟ ولكن، في تلك المناسبة،

كان صوته ذا نبرة شديدة الرسمية فقط، وبارداً كمَن يريد أن ينأى بنفسه عن شيء ما.

في الحقيقة، كنت أنتظر، عاجلاً أو أجلاً، قراراً بالفصل، ولكني كنت أحسبه سيأتي في ما بعد، أثناء رحيل السفينة الأخيرة آخذةً معها آخِر قطعة من آلة الصب.

كان قد قرر الكفّ عن القراءة، وراح يرمقني بعينين قاسيتين تقولان: إن «ستيل ووركس» لم تعد بحاجة إليك؛ والآن فلتعد إلى العمل لحساب «الشركة المساهمة لبانيولي»، ولك الكثير من التحية: عمل آخر، ومكتب آخر، ومديرون آخرون. وفعلاً، ما إن بدأ حديثه حتى كانت نبرته تعبر عن هذا: كانت نبرة جافة، وقاطعة. سحقاً! بل كانت أكثر قسوة، حتى أنه ندم من فرط قسوته. كان من الواضح أنه لم يكن يتفق مع القرار الذي فُرض عليه بالتأكيد رغم اعتراضاته. لكن، لفرط خجله، لم يستطع أن يُعلمني بالنبأ إلا بأسوأ الطرق.

كان قد غير من نبرته فجأة: قال عذراً، فليس من السهل أن يكون أحد في مكانه. نهضت. لكنه لم يقل لي شيئاً. رحت، شيئاً فشيئاً، أخطو نحو الباب: لقد علمت بما كان ينبغي عليّ معرفته، ولم يكن ثمة داعٍ لبقائي هناك بالداخل. قال، انتظر! توقفتُ، ولكن دون أن أستدير نحوه.

لعل تصرفي لم يرق له، حتى أنه لم ينبس بكلمة أخرى. حينئذ، كنت قد تعبت من الانتظار، ففتحت الباب، ودون أن أستدير، أغلقته ورائي برقة. أُكرِّر: برقة.

أفلح «لوناردي» في أن يجعلني أبقى بجانبه شهرين آخرين، ولكن

لم يكن هذا ما أريد. كنت أنتظر أن توجه «ستيل ووركس» الشكر لي بالتزامن مع إعادة إرسالي إلى العمل لحساب «شركة بانيولي المساهمة». بحق السماء، لم أكن أرغب في المال، بل في مجرد شهادة صغيرة يقوم الأغبياء مثلي بوضعها داخل إطار جميل، وتقوم الزوجة بعرضها على الأصدقاء، أو حتى مجرد ورقة صغيرة مكتوب عليها أي عبارة جميلة: شكراً لك يا «بوونوكوري» على كل ما فعلته من أجلنا؛ أو فلتعرف أننا قد ثمنّا كثيراً الجهد الذي بذلته، وذكاءك...

ماذا كانت ستكلفهم كتابة كلمتين جميلتين بحقي، ولاسيما بحق ذكائي؟ أعترف لك بأن هذا كان سيبثّ فيّ سعادة لا حدود لها بقدر ما كانت خيبة أملي. قاموا في «شركة بانيولي المساهمة» بوضعي على الفور أمام حاسوب لكي أرسم الخرائط اللازمة لتخطيط عمليات الهدم. كنت باختصار الذراع المطيعة لعقل اسمه «بيلّوسغواردو» (النظرة الجميلة) (لا جدوى من أن أوضح هنا أن نظرته لم تكن جميلة مطلقاً، بل كانت مظلمة، ومستبدة)، ولكن، في المقابل، كان هو الرجل ذا السلطة الأعلى من الناحية التقنية بين كل أعضاء الفريق المسؤول عن محو المصنع، وتطهير أراضيه، مما أتاح لي أن أعرف مبكراً، وبدقة شديدة، توقيت اتخاذ قرار اللجوء إلى ما اُتفق على تسميته، بثقة شديدة، بالعنصر «د» في عمليات الهدم، أي الديناميت، ولكن ليس عبر شحنات صغيرة محدودة، بل بكل قوته التدميرية.

كانوا قد اتصلوا لأول مرة بشركة «غاربولي» التابعة لمجموعة «إيري» في العام السابق، أي في عام 1997. كانت شركة «غاربولي» تعمل في مجال الإنشاءات الكبرى، مثل الطرق، والجسور، والأنفاق،

أي باختصار، كان لديها خبرة فائقة. كان عليها أن تتولى إنجاز كل شيء تاركة فقط لعمالنا مهمة تنفيذ بعض الأعمال البسيطة، وغير الخطرة، مثل عملية حفر الثقوب التي كان خبراء المتفجرات سيعبئونها في ما بعد بالديناميت.

وُضع برنامج تفجيري من شأنه أن يؤدي مباشرة إلى كسر سيقان الديناصورات الضخمة التي كانت لا تزال حينها ترتفع في السماء في تحدٍ: برج البيزومتر، ومدخنة البطارية الخامسة، وبرج الإطفاء (كان بمثابة وحش عملاق يبلغ وزنه ألف وخمسمئة طن، وكان يقوم بتبريد فحم الكوك الخارج من الأفران بواسطة مضخة مياه فائقة القوة)، ومدخنة البطارية الأولى، والثانية، وبرج خلط الحجر (يبلغ وزنه ثلاثة آلاف وأربعمئة وخمسين طناً من الإسمنت والطوب، وارتفاعه خمسة وأربعين متراً) وأشياء أخرى.

أتذكر أنه كانت ثمة نقاشات طويلة تدور في المكاتب الأكثر سرية في المبنى (وليس فقط) حول ما إذا كان ينبغي تسوية هذا أو ذاك المبنى، أو هذه أو تلك المدخنة أولاً بالأرض. كلما كانت الأنباء، والتوقعات تتسرب، شيئاً فشيئاً، كنا ننكب نحن أيضاً على مناقشة الخطط «الدُنيا»، وكأننا صرنا مُخططين متحمسين في عشية إحدى المعارك الحامية.

بين عامي 1997 و1998 كان الديناميت هو الهم الجماعي لكل «بانيولي»، كان هو الموضوع الأول، والشغل الشاغل، الذي يتحدث عنه الجميع، حتى الأطفال، والعجائز، حتى «روزاريا» كانت تسألني باستمرار إن كان علينا أن نخشى أكثر من الآخرين، لأننا كنا نقطن في مكان مرتفع، في الطابق السادس؛ ولعلها سألتني يوماً قبيل الانفجارات

ما إذا كان من الأنسب الهبوط إلى الأسفل، أو حتى الذهاب لزيارة أحد ما في الطرف الآخر للمدينة.

أخيراً أُعلن الحكم النهائي: كان برج البيزومتر هو أول من سيتعرض للتفجير، وكان سيحتاج إلى شحنة منخفضة من المتفجرات، ما بين الأربعين والخمسين كيلوغراماً، مُقسمة إلى مئة وأربعين شحنة، وموزعة على شكل دائرة في قاعدة المبنى. كان سيتم اللجوء لاستخدام شحنات أكثر قوة فقط في الأيام التالية على الانفجار الأول، عقب التأكد من نجاح التجربة، لنصل إلى شحنة قدرها مئة وثلاثون كيلوغراماً من النيتروغليسرين، وقطن البارود لازمة لتدمير برج خلط الأحجار، والذي يُعدّ المرحلة الأكثر صعوبة في العملية برمتها.

حتى عضلاتنا أصابها التوتر جراء الانتظار. كُلف «نيكولا مارتوني» بالعثور على صفارة إنذار المصنع، التي لم تُستعمل منذ فترة لا يمكن تذكرها، والتي كان نباحها لستة عقود متوالية من الزمن يضبط إيقاع الحي بأكمله لست مرات يومياً.

عثر «مارتوني» فعلاً على مخبئها: في المحطة الكهربائية. كانت مغطاة بالشحم، والأتربة، ولذا فقد كلّف رجاله بإصلاحها. كان ينبغي عليها أن تزعق مجدداً ثلاث مرات: المرة الأولى قبل التوصيل الكهربائي بربع الساعة؛ والثانية قبله بدقيقة لتُعلِم الجميع بأنه لم يبق على الانفجار سوى لحظة واحدة؛ وفي النهاية تدوي للمرة الثالثة والأخيرة عقب الانفجار، وبعد إتمام التفتيش على الشحنات بغرض التأكد من انفجارها كلها.

كانت عشية التفجيرات حافلة بالأحداث، فقد كان التوتر واضحاً في «بانيولي»، ويعبر عن نفسه، وكأنه على خشبة المسرح. في الأيام

القليلة السابقة على الانفجار أُلصقت بعض المنشورات، التي كانت تدعو الناس إلى التزام الهدوء، وتنبئهم بموعد الانفجار باليوم والساعة.

حسبتُ أن من واجبي تصوير برج البيزومتر، رغم أن ذلك المبنى، في الحقيقة، لم يثر فيّ يوماً أية مشاعر خاصة، فقد كان جسداً غير منسجم، فكله رأس بلا خصر، لا أعرف مَن صممه، على أي حال كان مهندساً معمارياً من أولئك المؤمنين بأنه لا مكان للخيال في المصانع.

كان البرج ذو الألف طن يبلغ ارتفاعه اثنين وخمسين متراً، ومحيطه عند الرأس حوالي عشرين متراً، أشبه بفِطر هائل مثل تلك التي تنتصب في البراري القاحلة منذرةً بالشر، وحيدة، يعرض عنها الجميع. بينما كنت أقوم بتصويره، رحت أفكر في حياته المتأزمة والمنفصلة، رغم أنه قد بُني خصيصا ليخدم فرناً عالياً مزوِداً إياه بماء التبريد. إنه لم يكن أكثر من مجرد خزان هوائي، ولكنه كان مُنكفئاً داخل كآبته، ووحدته الساخطة، تتطلع إليه كل البنايات الأخرى المحيطة بريبة، مثله مثل الجار الذي لا يلقي التحية أبداً، ربما لغطرسته، أو لفرط شروده.

حُدِّد موعد التفجير في الساعة الخامسة عشرة والنصف من يوم الخامس والعشرين من شهر فبراير. كان سيحضر المشهد مسؤولون، وصحافيون، وسياسيون، وبعض خبراء البراكين، الذين، كانوا حسب ما سمعت، قد وضعوا أجهزة لاستشعار الهزات الأرضية في بعض المنازل المجاورة لمنطقة برج الضغط العالي لقياس مدى قوة الموجة الاصطدامية.

في ذلك اليوم لم أتناول وجبتي. لم يكن الطقس جميلاً: كان للسماء حالتي المزاجية نفسها، رمادية، منتفخة، ثقيلة، يغطيها حجاب من

الضباب الساخن رغم الشتاء. أذكر بدقة شديدة نعومة الهواء، والرياح الشرقية التي كانت تبدو وكأنها مرهم وُضع على جرح، والمصنع الذي كان يغط في سبات رطب.

كانت الساعة وقتها الخامسة عشرة، أو أقل قليلاً، حينما شرعت في صعود الدرج المائل الذي كان يرتقي إلى مداخن قطار التصفيح (يقترب ارتفاعه من الثمانين متراً). كان الدرج الآيل للسقوط حديدياً، وتمتلئ درجاته بالثقوب -نطلق عليه «السلم الشبكي»- ويتيح لك النظر إلى الأسفل، وقياس المسافة التي تفصلك عن الأرض مترا وراء متر. كان ذلك الفراغ أسفل الكعبين، والذي يزداد عمقاً، شيئاً فشيئاً، يصيب من يتسلقه بالتوتر الذي كثيراً ما كان يتحول إلى شعور بالغثيان. وبالفعل، وبما أن أناساً كثيرين صعدوا معي السلم فقد سمعت من بينهم فتاة تصدر صوتاً كالعواء، كانت تردد: «ما... ما... ما...». كان معها كل الحق، فقد راح السلم منذ وقت ليس بالقليل يتأرجح، بينما كان المهندس «كاباسّو» يوصينا بأن نسير في طابور متعرج، وأن يقف كل منا على مسافة من الآخر حتى لا تتعرض درجة منفردة من درجات السلم لثقل شديد.

كان أغلبهم أناساً غريبين عن المصنع أتوا تحديداً لمشاهدة انهيار برج البيزومتر. بيد أن كُلاً منهم كان يزعم أن لديه سببا «أَسْمى» من مجرد الفضول يدفعه إلى أن يكون هناك. فعلى سبيل المثال، كانت الفتاة التي تردد: «ما... ما... ما...» طالبة فرنسية اسمها «مارلين»، وكانت تقوم بإجراء بحث لنيل شهادة التخرج من الجامعة يتناول موضوعه تسريح «بانيولي». كانت تتردد على المصنع منذ فترة طويلة، ولكني،

للأسف، لم ألتق بها من قبل: كانت على معرفة تامة بمصنعنا، وكانت تعلم ماضيه وحاضره أكثر مما كنت أتخيله أنا نفسي. وكان معنا شاب يحمل حقيبة سوداء ضخمة قدَّمه إليّ المهندس «كاباسو» (الذي كان يستقبل الضيوف، ويرحب بهم) على أنه مؤلف موسيقي مشهور لم يكن من الممكن أن أجهل اسمه، بل والأنكى من هذا، أنه لم يكن بمقدوري إلا أن أكون أحد معجبيه المتحمسين (أحسنت يا «كاباسو» فقد فعلت كل ما بوسعك كي أبدو بمظهر سيء للغاية). أما اليوم، أعرف جيداً من هو «دانييلي سيبي»، ولديّ بعض اسطوانات له، وأعتبر نفسي أحد معجبيه. ولكن، حينها، مَن كان يسمع عن اسمه؟

حتى «سيبي» كان لديه أسباب لا حصر لها تبرر وجوده هناك: فهو عاشق للتقاليد العمالية، ومنذ فترة كان يحاول التعبير عبر الموسيقى عن ضجيج العمل، وحبه، والولع به، والألم الذي يتملكنا نتيجةً للأشياء التي تضيع بلا رجعة جراء الزحف الفوضوي، والعنيف للزمن. كان «سيبي» ضيفاً لـ«كاباسو» الذي لم يكن، في الحقيقة، الرجل المسؤول عن العلاقات العامة في «شركة بانيولي المساهمة»، على الأقل، من الناحية الرسمية، ولكن، كان يتولى هذا الدور في الواقع لطبيعته المضيافة، إن لم يكن لولعه، وميله إلى هذا الدور. كان أرشيف المصنع، الذي كان مسؤولاً عنه في تلك الحقبة، بمثابة منتدى يتردد عليه باستمرار صحفيون، ومعماريون، ومدرسون، ومصورون، ورحلات مدرسية، وكان «كاباسو» يرافقهم، ويرشدهم في زيارات تفقدية: يا أولاد ها هي ورشة الصلب التي تختفي، فلتفتحوا أعينكم على وسعها جيداً إذا كنتم ترغبون أن تحكوا يوماً لأولادكم عن شيء ذي قيمة...

حتى أنا كنت أتسلق الدرج متجهاً نحو السطح الهائل، الذي كانت ترتكز عليه المداخن الأربع الخاصة بآلة التصفيح، والمطلية باللونين الأبيض والأحمر مثل رقعة الشطرنج، كضيف على المهندس الشاب (فقد كان آخِر من عُيِّن في المصنع قبيل إعلان توقفه عن العمل). كنت حينها كثير التردد على الأرشيف، ولذا فقد دعاني «كاباسّو» في ذلك الصباح لكي أكون ضمن «فريقه».

لقد عرفتَه جيداً، ولست في حاجة بالتأكيد إلى أن أُذكّرك بوجهه المتسخ دائماً بالكروماتين الأسود (لكنها، في الحقيقة، لحيته غير المهذبة على نمط الرجال الذكوريين العظام)، وعينيه الماكرتين، المتأهبتين للتملص، والفرار، وانفتاحه الجميل على العالم بأسره، والذي يدفعه على الفور إلى أن يكون ودوداً مع الجميع، مما يجعل الجميع، وبطريقة تكاد تكون إجبارية، يتصرفون بود معه.

كنت، في الحقيقة، أشعر ببعض الحرج وسط كل أولئك الأغراب (كان هناك أيضاً مصورون يتبعون أناساً أحسب أنهم مهمون لدلائل عديدة، ولكني لم أجرؤ على السؤال عنهم)، لذا حينما بلغنا سطح قطار التصفيح كان من دواعي سروري حقاً أني وجدت هناك جندياً بسيطاً مثلي وسط تلك الشخصيات المهمة: إنه «جينّارو دانوبيو» أَتَذْكُرُه؟ لقد حدثتك عنه حينما تناولنا حكاية قطار التصفيح الذي تم تركيبه في «تايلندا» على أطراف إحدى غابات النخيل.

بدا «دانوبيو» سعيداً أيضاً برؤيتي، كان يقف بجوار درج السطح يتطلع إلى المشهد، إن كان يمكننا أن نطلق كلمة «مشهد» على قمم منشآت المصنع، التي كانت لا تزال كلها منتصبة حينذاك. أشار إليّ

بالاقتراب منه، كان هو أيضاً في عام 1998 يعمل في الأرشيف، كان الذراع الأيمن (وللحق فقد كان الذراع الأيسر أيضاً) لـ«كاباسّو»، فقد كان يسيطر على الأرشيف بفضل خبراته في الحاسوب، بصفة خاصة ولأن «كاباسّو» كانت لديه أشياء أخرى لينشغل بها.

له جسد يابس، ووجه سامي الملامح قليلاً، والنظرات العميقة لعامل شيوعي قديم آمَنَ عن يقين تام بالنضال من أجل عالم أفضل، وأكثر عدلاً، وإنسانية، ورغم أن الأمور أخذت منحى آخر، لكنه لا ينوي مطلقاً التنازل عن مبادئه. سرعان ما ذكّرني بهذا أيضاً في ذلك اليوم: يا «بوونوكوري» فلتكن الأمور واضحة، إنك رجعي قذر، أما أنا فمؤمن متزمت بالمساواة، وشيوعي نادم؛ عقب هذا التوضيح للحقائق بمقدورنا أن نتناقش...

كان يعرف بأنني كنت سأصل، وكان ينتظرني، فقد كان يشعر هو أيضاً ببعض الحرج وسط كل أولئك الأغراب، رغم أنه كان يعرفهم جميعا (فقد مروا كلهم، بالتأكيد، أكثر من مرة على الأرشيف، وكان قد دعا جميعهم إلى احتساء القهوة وفق المراسم الصارمة المتبعة دوماً في كافة الأقسام. ففنجان القهوة يسبق أي شيء آخر –مَن هو اليوم العامل المسؤول عن المقهى؟– إن قدح القهوة بمثابة عبارة الترحيب، أو بمثابة دليل شاهد على الكرامة الإنسانية والمهنية؛ إنه يحكي لنا أن هذا المكان لم يكن مصنعاً عادياً كأي مصنع آخر، إنه معبد لا يمكن لأحد الدخول إليه دون أن يتذوق على الفور طعم غليون الصداقة، والسلام، والشجاعة).

بعد أن بات واضحاً لكلينا أنني رجعي قذر، وأنه إنسان يشعر بالحنين

إلى الماضي لا يمكن القضاء عليه، تركنا نحن أيضاً أنفسنا لنتأمل رقص أحد الصقور فوق رؤوسنا. كان قد جذب اهتمام الجميع، وكانت إحدى الفتيات تتأوه خائفة كلما كان الصقر يوحي بالانقضاض، كما كانت تغريه فطرته بذلك، ولكن كانت خبرته تمنعه. وها هو وقد ولى وجهه مجدداً نحو الضباب، والرياح الشرقية، مفروداً كالسهم، إلى أن تلاشى عن أعيننا وكأن شيئاً قد سحره. كان هذا الصقر يحلق في بيته في مصنع «إيلفا»، فقد اتخذ له عشاً منذ فترة في أحد الشقوق، بين أنقاض الفرن العالي رقم أربعة على ما أظن، الذي لم يُبَع، بل لقد أُتخذ قرار ببقائه في مكانه إلى الأبد كأثر حي شاهد على نفسه.

وجدت نفسي أتطلع إلى برج البيزومتر: فبشكل ما كان العد التنازلي قد انطلق: بقي من الوقت عشرون دقيقة، كان سيتحول إلى غيمة كبيرة من الركام الإسمنتي. من يدري كم تكلف بناؤه: مالاً، وجهداً، وحسابات، ومشروعات. وحيث إن «دانوبيو» كان يتفحص نظراتي فقد كنت مضطراً لأن أعترف له بأني كنت أشعر ولو قليلاً باليأس، لأن الظروف كانت تضع في اختبار صعب طبيعتي المحافظة، وجذوري كإنسان فقير كل دمار له يُعدّ جريمة، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بمنشآت لا تزال صالحة للعمل، أو بمصانع تكلف بناؤها مبالغ طائلة.

فكرت أن الانهيار الذي كنا على وشك مشاهدته لم يكن مختلفاً عن أي مشهد موت آخر، فالجماد والإنسان يمكنهما أن يتشابها أكثر مما نتخيل: دارت بخاطري مشاهد أحد الأفلام، التي كانت تُظهر رجلاً قاعداً فوق الكرسي الكهربائي، وبجواره القائم على تنفيذ حكم الإعدام، ومن خلفه ووراء حاجز زجاجي ثمة جمهور متشوق لرؤية

كيف تتجعد، وتتلوى قسمات وجهه في لحظات الألم الشديد، ولحظة الوداع، والرحيل عن الحياة. أكان البرج ينظر إليّ؟ كلا، بل كنت أنا من أحدق في البرج: أما «هو» فكان يقف في خيلاء، منتصباً بكرامة، بقبعته الضخمة فوق رأسه، منتظراً مصيره. تفحصت المساحة الشاسعة الفاصلة التي خُصّصت للإحاطة بالبرج، وكان يقف على حدودها جمع غفير من مديرين، وعمال، وأناس وفدوا من الحي والمدينة، وخبراء متخصصين ذائعي الصيت، ومسؤولين، وفضوليين عاديين: كان الجميع بجوار الحاجز الفاصل، فرادى، وجماعات، برفقة وحدتهم الموحشة.

أتذكر لحظةً قلت فيها لنفسي بأنه كان يمكنني الانصراف حتى دون أن أنتظر إتمام المراسم؛ فإذا لم يكن ذاك الحكم بالإعدام ينطوي على أي عمل بطولي فكان من الأجدر أن أوفر على نفسي عناء مشاهدته. ولكن شعوراً غامضاً دفعني إلى البقاء، إحساساً ما بأن شيئاً ما غير متوقع كان سيحدث، لعل شيئاً ما سيقع ليُخرج تلك الجنازة من تفاهتها الكئيبة.

سألت «دانوبيو»: أتظن أن شيئاً ما غير عادي سيحدث؟ لم يجب. خمس دقائق قبل الانفجار (كان قد سبق هذا دوي صفارة الإنذار، الذي جعل الجميع ينتفضون في أماكنهم، رغم أنهم كانوا ينتظرونه) رأيته يتمتم بكلمات مع الموسيقي الشاب، قال له شيئاً في أذنيه، وأومأ «سيبي» بالموافقة، ولكن، ليس على الفور، بل بعد أن فكّر في الأمر برهة من الزمن.

أعترف لك بأنه ليس من الهين عليّ إعادة بناء الأحداث بطريقة دقيقة. ينقصني تسلسل الوقائع: لا أتذكر وفق أي تسلسل حدثت،

وكأن تأثر مشاعري، والديناميت، والدوي الهائل للانفجار قد أدت إلى تحطم ذاكرتي أيضاً تاركة لي بعض شظايا لذكريات مشتتة.

سأحاول أن أذكر لك الشظايا الرئيسية لتلك الذكريات، وسيكون عليك أنت أن تقرر ترتيبها، وتسلسلها.

في لحظة معينة عثرت بين يدي على منظار، فرحت أرنو به إلى الجموع التي كانت في الأسفل. أصابني تجمد الجميع، وسكونهم التام بالدهشة: كانوا كالتماثيل، أو كالجماد، أجساد بلا روح. بتأثر شديد تعرفت بين تلك الأشباح غير الحية، الساكنة بلا حراك، على صديقي «كارلو مارتينيز». كان يرتدي ملبساً أسود، وكأنه في حداد على قريب له. كان مثل بقعة سوداء ضئيلة، لعله كان يتعمد هذا، أو ربما لا، تحت تلك السماء الرمادية الرصاصية التي لن يستطيع أحد نسيانها.

ثم إني أتذكر الصمت. لم يكن الأمر يتعلق فقط بالصمت الذي كان يستولي علينا، نحن المشاهدين من أعلى سطح قطار التصفيح. كان يبدو لي وكأننا على متن سفينة هائلة عابرة للمحيطات في وجود تلك المداخن الأربع التي كانت تنبثق من أحشاء المصنع متحدية بلونيها الأبيض والأحمر كآبة السماء. كان الصمت يرتفع من الأسفل كالتراب المالح، والمر قليلاً، والذي يشبه المُخدِّر الذي يبث فيك شعوراً بالنعاس.

رغم أني لا أعرف أن أخبرك بالتحديد متى حدث هذا، ولكني، في لحظة ما، رأيت الموسيقيّ يفتح الحقيبة السوداء التي لم يكن قد انفصل عنها أبداً حتى تلك اللحظة. كان يقف بجواره المهندس «كاباسو»، و«جينارو دانوبيو»، وكان كلاهما يرقبان حركاته. كان وجهاهما يبدوان في الظاهر بلا أية تعبيرات، ولكن في الحقيقة كان التوتر واللهفة

يتملكانهما. بيد أن «سيبي» لم يُخرِج ما بداخل الحقيبة. آثر الانتظار. حينئذ، دنوت منهم لاكتشف أنه كان ثمة آلة نفخ موسيقية شبيهة بالساكسفون داخل الحقيبة السوداء.

أتذكر بأني ظننت حينها أن «سيبي» كان سيعزف، إنه يرغب في العزف، لقد طلب منه «جينارو» في أذنيه أن يعزف، وبعد أن فكر لوهلة وافق.

الشظية التالية واضحة بكل تفاصيلها ما عدا جزءاً واحداً فقط: هل دنا «سيبي» بشفتيه من الساكسفون ثلاثين ثانية قبل الانفجار، أو بعده؟ بل أن «سيبي» نفسه لا يتذكر هذا بالضبط (فقد هاتفته، وتناقشنا طويلاً عن الأمر، ولكن دون أن نصل إلى أمر قاطع في هذا). فلنقل أنه راح يعزف عقب الانفجار على الفور، في هذه الحالة، فإن تسلسل الأحداث يكون على النحو التالي. كلما اقتربت لحظة التفجير كان الصمت يتجمد أكثر فأكثر على المنطقة بأسرها، ليمسي وكأنه سطح هائل من الطعام اللزج.

أخرج «سيبي» الساكسفون من الحقيبة، ودنا من الدرج، كانت أصابعه قد أخذت أماكنها على لوحة المفاتيح، إنه يتطلع إلى الفراغ، ينظر باتجاه برج البيزومتر الذي كان على وشك الانهيار. حسب ما اعترف به هو، فإنه لم يكن يفكر في شيء، كان يشعر بالخواء بداخله، كان منشغلاً تماماً بالحدث الذي كان على وشك أن يقع. بقي من الزمن ستون ثانية، يدوي صفير الإنذار ثانيةً، قصيراً، وحاداً. انتفضنا جميعاً من أماكننا لنعود، مجدداً، وعلى الفور، إلى حالة الانتظار. بقت عشرون ثانية... عشر... خمس... أربع، ثلاث، اثنتان، واحدة...

يترنح البرج للحظة وكأنه رجل سكير، يبدو حقاً كالإنسان بتلك القبعة الغريبة فوق رأسه، ينهار: سقطة صامتة، مجرد امتداد للدوي الهائل الناتج عن انفجار الديناميت.

في هذه اللحظة تقريباً راحت أنغام المغني الدولي تتساقط من ساكسفونه الغامض المنفرد على الجمع الغفير في الأسفل (أنغام تكاد تكون حانقة، متألمة، يائسة). رفع الكثيرون رؤوسهم: لا ريب أن الموسيقى كانت تصدر من الأعلى، ولكن، من أي مكان بالتحديد؟ أشاروا إلى أماكن متعددة؛ هناك من ألقى التحية ملوحاً بقبضة يده؛ كان الكثيرون يذرفون الدمع، وبعض منهم كان يتشنج، ويحشرج من فرط البكاء. وأخيراً استطاعوا تحديد مكان «سيبي»: ها هو الرجل الذي يعزف: ها ساكسفونه يبرز بلونه الفضي في مواجهة السماء الحالكة، ها هو في الأعلى فوق قمة آلة التصفيح، أتراه؟..

حان دوري لأقول لـ«دانوبيو» بأن عليه أن يتحلى بالشجاعة. كان ثمة آلة تصوير فوق قطار التصفيح (لا أتذكر لمن كانت) تواصل تصوير كل حركاتنا، وسرقة كل لحظة من لحظات توترنا حتى النهاية. أما «سيبي» فظل يعزف طويلاً الأغنية نفسها، وتلك النغمات الجافة نفسها، والمتألمة: «أيها الرفاق، إلى الأمام! أيها الحزب العظيم، نحن العمال، زهرة حمراء قد أينعت فوق صدورنا، وإيمان وُلد في قلوبنا..».

همهمت بها أنا أيضاً مع «دانوبيو»، وحتى «مارلين»، ونفرٌ آخر من الشباب رددوها معنا بالفرنسية.

-31-

كثيراً ما نعتاد على كل شيء، حتى على الديناميت، حتى أن الأمر ينتهي بك إلى أن تنسى، أن في تلك الساعة، في ذلك اليوم، سيتعرض جهازك العصبي المتمرس إلى هزة عنيفة ثانية (أو لعله المخ، أو الأحشاء، فكل منا لديه نقطة ضعف)، ولحسن الحظ فثمة صفارة إنذار تدوي لتُذكرك بالأمر. فأينما كنت فلتول وجهك إلى الأعلى: إن غريزتك هي ما تدفعك إلى أن ترفع رأسك. ففي نهاية المطاف أليس كل شيء يأتي إلينا من الأعلى؟ الخير، والشر. فماذا بوسعك أن تفعل سوى أن ترفع عينيك إلى السماء؟

لشهر كامل تعرضت «بانيولي» لدوي صفارات الإنذار، كان العجائز يقولون: أترون؟ في أثناء الحرب كان يحدث الشيء نفسه، كانت صفارات الإنذار تدوي، ثم تعقبها القنابل، وفي النهاية صفارة أخرى تعلن عن انتهاء كل شيء.

عقب سقوط برج البيزومتر لم أشارك في أي مراسم تفجير أخرى: كنت أقول، فلينهار العالم بأسره، أما أنا فسأجلس أمام الحاسوب لأرسم الخرائط. ثمة صديق قديم يرافقني، فقد أرادت الحياة، التي تكون رحيمة بنا أحياناً، أن نجتمع معاً ثانية في المكتب نفسه. إني أتحدث عن «أرتورو سكوديري»، الذي كنت قد ابتعدت عنه قليلاً أثناء عملي لحساب «ستيل ووركس».

كان جسده قد امتلأ، وازداد بياض شعره، وقل سواده: كان قد بدا أكثر بطءاً، وتأملاً، بينما كان نور ساخر، لم أكن أعرفه فيه من قبل،

يضيء من حين لآخر نظراته القاتمة الرائقة وكأنها من حجر أسود مصقول. ونظراً إلى طول قامته فقد أضحى أيضاً ضخم البنية: أحياناً ما يُسهم وزن الجسم في صياغة الشخصية، وفي بث شعور بالهيبة.

ما إن رآني في مكتبه (حدث هذا قبل عام من الأحداث التي سأقص عليك نبأها الآن) حتى أراد سريعاً أن يطمئنني: إنني سعيد لأنهم وضعوك في هذه الغرفة، فقد كنت واثقاً بأن، عاجلاً أو آجلاً، يدا ما خفية كانت ستلم شملنا من جديد، أو، على الأقل، كنت آمل هذا، رغم أني أعرف أنه منذ الحين ستكون أنت الرجل الأول في هذا المكتب، وسيكون عليّ أن أتراجع خطوة خلفك في الحال.

لم تكن هذه طريقته في الحديث، كان من السهل إدراك أن ثمة شيئاً جديداً قد أصابه، سواء كان هذا الشيء مرارة أو مجرد سخرية فقط. لم أعقب بشيء. شد بحرارة على يديّ، وساعدني على أن آخذ مكاني وراء مكتبي الجديد المتعامد على مكتبه، حيث توجد أمامنا نافذة كبيرة تطل مباشرة على الجهة الجنوبية للمصنع.

كانت تبدو وكأنها شاشة عرض سينمائية ضخمة: كانت مقاعدنا آنذاك موضوعة بطريقة ترغمنا على مواجهة التسريح، والمنشآت التي تتهاوى يوماً بعد يوم كالقناني الخشبية في لعبة البولينغ. كان المصنع يتلاشى متحولاً إلى ساحة قاحلة قمرية تحت أعيننا المذهولة: لم أرَ في حياتي عالماً مُفتتاً هكذا من قبل.

عقب برج البيزومتر، قلت لك إن الدور حل على مدخنة البطارية الخامسة، ثم بعدها على برج الإطفاء الأول، ثم على برج خلط ركام الأحجار... ولكن، ما أهمية إعداد قائمة مُفصلة بأسماء القناني الخشبية

المتهاوية، وصوت دوي الانهيارات؟ أخيراً، في شهر سبتمبر، رحلت عبر البحر قطعة أخرى من تاريخنا: البرج الأول من برجيْ الشحن في الجسر الشمالي (وبعده بأسابيع قليلة فقط، رحل البرج الثاني أيضاً) بعد أن اشترتهما شركة ماليزية، كانت ستستعملهما في شحن الفحم، وخام الحديد، في مُجمع صيني آخر للصلب، هو مجمع «كيمامان». لم يكن هذان البرجان سوى رافعتين هائلتين على هيئة جسر، وكان ارتفاعهما يزيد على اثنين وثلاثين متراً، ووزن كل منهما على الألف طن.

بعد أن قامت شركة من «نابولي» بتفكيكه وتغليفه، شُحِن البرج فوق سفينة شحن ضخمة اسمها «أنكوراج» متخصصة في تلك النوعية من المهام. فلِمَ أحدثك عن هذا الأمر! لأنه حينما رفعت الـ«أنكوراج» خطافها، وأطلقت صفاراتها التقليدية معلنة الرحيل، التفتُ إلى «أرتورو»، فرأيته يحملق بثبات صوب البحر وعلى وجه تعبيرات متوترة، بل جزعة، كمن تراود خاطره ذكريات قاسية، لسبب أو لآخر. بيد أني لم أتساءل مطلقاً عما يمكن أن تكون تلك الذكريات، أو الخواطر، كان يكفيني أن أعرف أنه كان قد تولى طيلة حياته رئاسة قسم المفحمة متأرجحاً بين مشاعر الحب، والبغض نحو «زهرته الحريفة» تلك. لم أقل شيئاً، نهضت واقفاً، وخرجت.

في الممر المؤدي إلى المرحاض كان هناك (ولايزال إلى الآن) موقد كهربائي، وآلة تحضير القهوة، أي باختصار، كل ما يلزم لعمل القهوة. خيِّل لي أن من واجبي أن أُعدّ قدحين كبيرين من القهوة، لي ولـ«أرتورو»، وأن أقدمها له كدليل على صداقتنا، وتضامننا.

أخذت أعمل بجد، وجهد كبيرين، وبدرجة شديدة من التركيز

كافية لجعلي أفقد كل اتصال لي بالواقع المحيط، كنت أبتعد عن نفسي، كان أمراً يحدث لي مراراً. فكما حكيت لك، كنت أشرد، وأغيب عن نفسي، دون أن أفلح حتى في التذكر أين كنتُ، وماذا فعلت في تلك الفترة. عادةً ما يتعلق الأمر بفترات وجيزة: دقيقة، أو أقل. ما لبثت أن سمعت نشيش القهوة حتى عدت إلى الواقع: تنشقت عبقها الذي كان يداهمني، ويخترقني، ويبث بداخلي شعوراً بالسلام، والطمأنينة، تنفسته حتى امتلأت رئتيّ منه. أعادت القهوة السلام لـ«أرتورو» أيضاً، الذي راح يتطلع إليّ طويلاً وعلامات العرفان على وجهه. كنا نتقاسم المكتب ذاته منذ سنة كاملة، ولم يوجه لي سؤالاً واحداً شخصياً، ولكنه في ذلك المساء لم يستطع المقاومة: أحقيقي يا «بورنوكوري» أن لك عشيقة يزيد عمرها قليلاً على نصف سنوات عمرك؟

كلا ليس صحيحاً، مَن قال لك هذا؟ لم أك غاضباً، بل كنت هادئاً. الآن سأحكي لك كل شيء، ولكنه قال لي: ليس هذا ضرورياً على الإطلاق، كنت أريد أن أعرف فقط إن كنتَ على ما يرام، وإن كنتَ هادئاً ومطمئناً.

أخبرته بأنني الرجل الأكثر اطمئناناً في العالم بأسره، مددت يدي أمامه: فلتخبرني أنت إذا كانت أصابعي ترتعش، ثم سردت له حكايتي مع «مارشيلا»؛ بل نصف الحكاية، أو بالأصح اللاحكاية على الإطلاق... يا «أرتورو» ما ذنبي أنا؟ ورغم هذا، فالناس يثرثرون، ويخترعون، وأنا مَن يدفع الثمن. أجل، بالتأكيد، إن الفتاة تروق لي؛ وبالتأكيد، جعلتني أحياناً أفقد صوابي من أجلها. ورغم هذا؟ إنني لم أعد أراها منذ زمن طويل، أعرف أنها قد رحلت: لا أعرف أين، ومع مَن. ولكن، لايزال

الناس يثرثرون عني، مما من شأنه أن يفجر لي جحيماً مرعباً في البيت. أتفهم؟ إن مشكلتي الحقيقية هي «روزاريا»، إنها المرأة التي أهتم حقاً بأمرها، والتي لا أريد أن أفقدها لأي سبب من الأسباب.

لم أك يوماً أميناً مثلما كنت في تلك اللحظة: ولا حتى مع نفسي. أخيراً لقد كشفتُ عنها، عن الفكرة المختبئة، الأمل الدفين بين شقوق الخوف: أمل أن يسدل الزمنُ ستاراً من الصمت على اللاعلاقة، التي بيني وبين «مارشيلا» تاركاً «روزاريا» في جهلها المسالم بالأمور.

انتهى بي الأمر أن أَعِد «سكوديري» في ذاك المساء إن، عاجلاً أو آجلاً، سيكون النسيان مصير هذه المسألة التي أُسيء فهمها: فأنا نفسي لن أتذكرها، وكل شيء سيعود إلى حاله الأول.

لكن «سكوديري» قابل حماستي تلك بتعبير ينم عن الشك. سألته: «ألا تصدق؟ أجل، أرى جيداً أنك لا تصدق: إن قسمات وجهك تنطق بهذا»، رحت أردد هذا لمرات لا أتذكر عددها، بينما هو كان يعترض على أن هذا غير صحيح، وأنه كان يصدق أن الأمور كانت ستسير على هذا النحو...

بالطبع لم تسر الأمور هكذا، فمنذ متى وأمور هذا العالم تسير على النحو الذي توده أكثر آمالك طموحاً؟

قبيل نهاية العام، بينما كنت أتحدث مع «مارتينيز» على الهاتف، عرفتُ أن «مارشيلا» قد عادت، كانت في بيتها. سألته: «وماذا بعد». لم يعط «مارتينيز» إجابة، وكأنه قد ترك السماعة فجأة على الطاولة وانصرف. توسلت إليه: «أرجوك فلتشرح لي الأمر!».

«إنها مريضة».

«أحالتها خطيرة؟».

«جداً».

«أتعني أنه لا يمكن عمل شيء لها؟».

«يقول الممرض إنه لم يتبق لها سوى شهور معدودة».

«شهور؟».

«شهور، أيام، لا أدري».

«أتعتقد أن عليّ أن أذهب لزيارتها؟».

«يا بوونوكوري إني لا أستطيع أن أسدي لك نصحاً في هذه المسألة. فلتفعل ما تراه صحيحاً».

وقعتُ في حيرة شديدة. كانت الفكرة الأولى التي راودتني -ولكي أكون أميناً، كان اندفاعاً أكثر منه فكرة- هو أن أهرع إلى بيت «مارشيلا»، وأن أقول لها السلام عليك يا فراشتي، ماذا ألمّ بك؟ إنني هنا بجوارك. أما الفكرة الثانية، فكانت على النقيض تماماً: يا «بوونوكوري» لا يمكنك أن تدع المشاعر تتغلب عليك! أما الخاطر الثالث فكان يتعلق بـ«روزاريا». ولكن، في ما بعد، تمكن قلقي على «مارشيلا» مني: كانت تلك الفتاة تشعر نحوي بحب حقيقي، ولعلها لاتزال تكن لي المشاعر نفسها، فكيف يطيعني قلبي على أن أتخلى عنها في اللحظة التي يعلن فيها الأطباء أن مرضها لا شفاء منه؟

ثلاثة أيام من التردد، والخوف، استولت عليّ خلالها مشاعر قوية مفاجئة من الحنان، والأنانية. في النهاية، في اليوم الرابع، بعد خروجي من باب المصنع، توجهت بالسيارة صوب شارع «بانيولي». ما إن اقتربت من البرج ذي الهيئة الشبكية حتى راود مخيلتي وجه أب «مارشيلا»: يا

إلهي، كم كان يشبه وجه ابنته! كان رجلاً وسيماً للغاية، وكان رجلاً ساحراً على طريقته الخاصة أيضاً. كلما كنت أحاول استحضار ملامحه كانت تتبخر أمام عينيّ، أو بالأحرى، كانت تتراءى، وتتلاشى، ولم يكن بوسعي إيقافها، وجعلها تستقر أمامي. كان الأمر وكأنني أطارده: وجهه، وشبح جسده، وطريقته المتبخترة في المشي كمَن يخطو على أطراف أصابع قدمه. تمتمت: «أتفر مني؟ كأنك تحاول أن تتجنبني! كأنك غاضب مني! أتعرف، على أي حال، إنني، وابنتك، لقد حاولت فقط أن أساعدها».

في تلك اللحظة بدا لي أنني أراه بوضوح. لقد كان هو فعلاً، لكن، لم تكن تحمل نظراته أي عداء، بل كان يبتسم. كنت أحملق في فمه المفتوح قليلاً، أسنانه البيضاء المنتظمة كأسنان «مارشيلا»، التي تجعلها تشبه حقاً إحدى نجمات السينما حينما تتكلم، رغم أن أسنانها كانت أصغر من أسنان أبيها، وأكثر أنوثة وفتنة. كنت أفكر في الأشياء العديدة التي كانا يتقاسمانها، إضافة إلى ذاك الثغر المضيء. أهما العينان؟ أجل أيضاً، ولاسيما الشكل البيضاوي لهما، كان شكلاً فريداً لا يمكن أن تخطئه عين: الانحناءات نفسها، والظلال، إنها الحياة التي تكرر نفسها مرة أخرى وفق قوانين منطقية، في الظاهر، ولكنها، في الحقيقة، حافلة بالغموض. تساءلت أيضاً: هل من الممكن أن يرث أحد مصيره مثله مثل قسمات الوجه؟ كانت «مارشيلا» تسير متمايلة على أطراف أصابعها على طريقة «الإنجليزي»: كان معي الحق في أن أؤكد أنها، حتى في هذه المرة، كانت تشبه أباها، وهي تترك هذا العالم مبكراً بهذا الشكل القاسي، وكأن الأمر يكاد يكون لعنة؟.. لعله لم يكن لي أي حق في أن

أؤكد هذا، ولكني كنت على يقين أن تلك المصادفة، وتلك الظروف كانت ستغدو حديث الجميع حين ينتشر خبر ما كان على وشك الوقوع. حتى «مارتينيز» نفسه أشار إلى هذا بقلق شديد حينما أخبرني عن مرض «مارشيلا». رغم ثباته النفسي، وحرصه، لكنه كشف عما في قلبه، قال لي: أتفكر في الأمر يا «بوونوكوري»؟ إنه مصير الأب نفسه! رجل وسيم، ورقيق، وبقلب كبير كهذا، من يدري لِمَ يَموتُ دوماً من لديه أشياء أكثر تُقال، وسعادة أكثر ليمنحها لنا.

كان «الإنجليزي» قد عُين في المصنع قبلي بحوالي عشر سنوات: كنا في نهاية الخمسينيات، وكان قد تم التأمين على المصنع ضد حوادث العمل بما يغطي حالة وفاة واحدة كل يوم (في ما بعد، وأثناء فترة التوسع الكبرى، يُقال إن قيمة التأمين ارتفعت لتغطية ثلاث حالات وفاة في اليوم).

كان رجلاً يوحي بالثقة، وبالتقدير. ما إن تعرفه حتى تحسب أنه إنسان يمكنك أن تأتمنه على سر خطير، ويمكنك أن تأتمنه حتى على حافظة نقودك. لكن، كانت هناك حادثة مأساوية خاصة جعلته يعلو في نظري. كان خلال دوامه الرسمي في ورشة الصلب حينما حدثت إحدى تلك الفواجع التي لن أكف عن الحديث عنها أبداً طالما حييت. سقط رجل في بوتقة مغمورة بالحديد الزهر المضطرم، والكثيف كالمربى، بلونه الأحمر الياقوتي، والذي سرعان ما ابتلعه في صمت. سُمعت بالكاد طقطقة، وشُوهد بعض الدخان القليل، ودوامة خفيفة. لم يكن بمفرده مَن رأى في يأس ذلك المشهد، كان الجميع قد تحجروا في أماكنهم. قام «الإنجليزي» حينئذ بخلع سترته، وألقى بها إلى وسط

البوتقة، وكأنه يغطي جثماناً وهمياً، وكأنه يقول له: إنني معك، كلنا معك.

نتج عن تلك الحادثة نزاع نقابي شديد: كانت الإدارة ترغب في تصنيع تلك الشحنة من الحديد الزهر، لتتحول إلى صلب، وكأن شيئاً لم يحدث؛ بينما كان العمال يرغبون في أن تُوارى الثرى في مكان ما. كانوا يقولون: رغم أن كل أثر لزميلهم كان قد تلاشى في الحديد، ولكنه، على كل حال، كان حاضراً فيه، وكأنه قد منح روحه للحديد محولاً إياه إلى مادة إنسانية. أكد أبو «مارشيلا» في نقاش مباشر مع الإدارة «إن لهذا الحديد روحاً». تحدث كثيراً، وصاح، وجادل حتى أقر الجانب الآخر (أحسبُ خوفاً من حدوث فضيحة، أكثر منه اعترافاً بالخطأ) بأنه، في الحقيقة، لا يمكن اعتبار ذلك الحديد مادة صماء بريئة، فلم يكن مطلقاً مجرد حديد سائل منسكب من الفرن العالي، لأنه «قد تعرض بالفعل إلى عملية تحول مؤلمة وغير متوقعة».

انتصر. وُوري الحديد الثرى، وصار أبو «مارشيلا» ملاكاً للخير والعدالة.

***

كنت قد أوقفت سيارتي في شارع قريب من البناية التي تقيم فيها «مارشيلا»: كنت غالباً ما أفعل هذا، ظناً مني بأني أثير انتباهاً أقل حينما أسير على قدميّ مقارنةً بقيادتي للسيارة.

في ما وراء سور المصنع كانت تبرز قمم أشجار الكينا الكئيبة، التي كان قد أمر بزراعتها المهندس «سيغريتي» ضمن برنامجه لتطوير المصنع على المستوى البيئي أيضاً. كانت الأوراق الطويلة ذات لون أخضر

مائل للاصفرار، وتوحي بالمعاناة الشديدة. قطعت الطريق ببطء. على يساري كانت مباني شارع «بانيولي» غير المتساوية تتبادل أمامي، وعند نقطة ما غير محددة، في تلك المنطقة تقريباً، يتحول الشارع، لا أدري لِمَ، فيصير اسمه شارع «ديوقليتسيانو»، رغم أن شبكة الشرفات المطلة عليه لها الهيئة نفسها، وتسير في خط مستقيم، حيث النوافذ والأسطح تقع على بعد خطوة من مدينة الحديد، بل إنها تنتصب فوقها مباشرة.

أدركت فجأة أنني لن أذهب لزيارة «مارشيلا»، كان ينمو بداخلي، بسرعة شديدة، حاجز من اللامبالاة، إن لم يكن من العداء. كلما اقتربت من البناية غلب الحرص، ومصلحتي الشخصية على شعوري بالحنان. في النهاية، حينما أدركت جيداً كيف كنت سأتصرف في ما بعد، قلت في نفسي فوراً: لعلك حقير يا «بوونوكوري»؟

توقفت أمام بوابتها تماماً، ولكن في الناحية المقابلة من الشارع، رحت أقول لنفسي مجدداً: إنك حقير يا «بوونوكوري»، بيد أني هذه المرة قلتها بنبرة لا تحمل أي نوع من الشك: لقد كانت جملة إخبارية بسيطة ومؤكدة تنطوي على قدر قليل من الدهشة أيضاً.

كنت على وشك العودة مجدداً إلى السيارة عندما تعرف عليّ ميكانيكيّ يعمل في ورشة بجوار بوابة الفتاة، وأشار إليّ بالتحية.

بادلته التحية بإشارة غامضة، فردّ عليّ، لا أدري لِمَ، وهو يومئ بالموافقة. فجأة، لم أكن أعرف ماذا ينبغي علي أن أفعل. تظاهرت بالنظر إلى ساعتي كَمَن ينتظر أحداً ما تأخر، ثم رفعت رأسي بشكل غريزي باتجاه شرفات «مارشيلا»: لعل أمها لمحتني، أو لعلها أدركت بحاستها قدومي، وبعد أن رأتني عبر فتحات المصراعين الخشبيين الموارِبين

للشرفة، أخبرت ابنتها بذلك: ها هو، لقد أتى، إنه متردد بالأسفل، ينظر إلى ساعته، لقد أوشك على الصعود...

أشار إليّ الميكانيكي إشارة ودودة أخرى: كانت عيناه تقولان لي إنه يقف إلى صفي، دون قيد أو شرط. ضد مَن؟ أجبته بابتسامة مطاطة مصطنعة: بينما في الحقيقة لم أكن أشعر بشيء.

لم يكن هناك مارة بالطريق، كان الشارع يبدو ميتاً، باستثناء وجود بعض الميكانيكيين الذين كانوا يدخلون، ويخرجون من ورشهم، فيتفحصونني قليلاً، ويتجاهلونني قليلاً، وكأنهم يدركون قدر حرجي الهائل.

أسندت ظهري إلى سور المصنع السابق بينما كنت أردد على نفسي بغضب: إنك حقير، حقير، حقير، ولكن، كانت النتيجة هي إصراري على قراري، ورغبتي بالفرار، بدلاً من أن أضع تلك الرغبة موضع الشك. سألت نفسي حينئذ سبباً واحداً منطقياً لِم كان يحدث لي: يا «بوونوكوري»، لا يمكنك التخلص من الأمر بهذه البساطة، بل عليك أن تشرح لي!

ولكن لم يكن لديّ ما أشرحه، ولم أكن أعرف بماذا أردّ. نطقتُ غريزياً باسم «روزاريا»، قلت فلأهرب لحبي لها، لكيلا أهينها، لكيلا أفقدها. لكن، كانت هذه مجرد ذريعة فقط. فلن أحكي أبداً لـ«روزاريا» عن تلك اللحظات، لن أخبرها أبداً عن رغبتي الجارفة في الفرار بعد أن بلغت بوابة الفتاة، وعن هلعي المفاجئ من فكرة النظر إلى عينيها اللامعتين الناطقتين بمصير لا رجعة فيه.

لن أحكي لها أبداً، لأني أعرف أن «روزاريا»، حتى هي أيضاً،

ستحكم عليّ بقسوة بالغة: يا «بوونوكوري» إنك لم تكن هكذا في الماضي، فماذا دهاك؟

ماذا حدث لي؟

وإلى اليوم ليس بمقدوري أن أعطي نفسي إجابة عن ذاك السؤال. الله يعلم عدد المرات التي تساءلت فيها عن ذلك؛ والمرات التي أعدت فيها التفكير في تلك المسألة، وفي ذلك المشهد، في محاولة مني أن أفسر ما لا تفسير له. سأندم على فراري في ذلك الموقف طيلة عمري: سيكون هناك دوماً مَن ينتظر حلول الليل ليسألني عما دفعني لهذا التصرف الشرير. أما أنا، فلن يكون بوسعي، يوماً، وأبداً، الإجابة.

-32-

كانت كنيسة «سانتا ماريا ديزولاتا» مكتظة عن آخِرها كعلبة الكبريت؛ إلى درجة أنه كان هناك شجار في الخارج حتى الجسر، مئات الأفراد، لعلهم ألف أو يزيدون. فلمَ كل أولئك الناس في تلك الجنازة؟ من الصعب الإجابة. ربما لأنها «مارشيلا» -الشابة اليافعة، التي تبدو ظاهرياً غريبة عن المصنع، وعن ملحمته- التي باتت تمثل بموتها، ودون قصد بتاتاً، كل ما كان يملأ علينا حياتنا في الحي، ثم اختفى فجأة.

كانت هذه الجنازة كصخرة معلقة في رقابنا منذ عام 1999: كانت هي طريقتنا لنبكي المصنع الذي تلاشى، والقرن المنصرم، بل والألفية كلها، التي كانت بدورها تنطوي، وترحل. كان حدثاً مثالياً لِنُواري شيئاً ما رمزياً الثرى: ماضياً من الأمل، أفكاراً وعقائد؛ مشاعر وذكريات، وحيوات. قال كاهن كنيسة «سانتا ماريا ديزولاتا» أثناء العظة، وبعد أن قرأ بعض المقاطع من سفر الحكمة: «يا أهل بانيولي، لعل زمناً أفضل من ذاك المنصرم كاد أن يهل علينا. ليس هذا مؤكداً. إن التنبؤ به لأمر عسير، إن لم يكن مستحيلاً. لكن، من المؤكد أنه سيكون زمناً مختلفاً تماماً. فلنتهيأ روحياً لهذا الاختلاف حتى لا يكون علينا مكابدته فقط..».

لكن، قبل أن أتوغل في هذه المعمعة -الموكب، والدموع، والزحام، والجنازة، وآلات الغيتار، والغناء، كان وكأنه حدث يدعو للأمل، إن لم يكن للسعادة، وُلد من رحم الألم- وقبل أن أتحدث عن كل هذا (فأنا أيضاً مثلك، أحب الأشياء «المُفصّلة والمُحدَّدة»، مثلما تقول أنت)، أحسب أنه ينبغي عليّ أن أقدم لك إيضاحين، أو ثلاثة

ختامية ذات طابع شخصي.

هذان الإيضاحان، أو الثلاثة، ستحمل اسم «روزاريا» بالطبع. ذات مساء -كانت «مارشيلا» لا تزال على قيد الحياة- عثرت أخيراً على الشجاعة لأعترف لزوجتي عن علاقتي المعنوية للغاية مع الفتاة. كيف سارت الأمور في ذلك المساء؟ سيكون من الواجب عليّ في هذه الحالة أن أكون موجزاً، وسيكفيك أن تعرف بأني حكيت لها القصة التي تعرفها أنت دون أي حذف أو نقصان.

أنصتت «روزاريا» إليّ بتركيز شديد، ولكنها كانت باردة، بل في غاية البرود. كانت تحدق بثبات بعينيّ، وشفتاها مطبقتان، وممدودتان قليلاً. لم تعلق بشيء وكأن الأمر لا يعنيها بتاتاً، حتى أنها لم تشر إلى الموضوع في الأيام التالية. كان برودها، ونظرتها المنطفئة غير المكترثة يتحدثان نيابة عنها.

وافت المنية «مارشيلا» بعد بضعة أسابيع. حينما علمت «روزاريا» بنبأ وفاتها لم تبد انزعاجاً، أو ألماً، أخبرتني فقط بأنها لن تشارك في الجنازة، قالت بنبرة تهكم خفيفة تخفي وراءها شيئاً من الازدراء: «ستذهب وحدك».

لم أكن أتوقع منها هذا، مما دفعني إلى الإعراب لها عن دهشتي الشديدة، وخيبة أملي، لأنها راحت تتمتم بقسوة شديدة: «يا إلهي! أأنت قلق لهذا؟ أراهن أنك تفكر في ما سيقوله الناس».

لم أجب، ولكنها كانت قد أصابت الهدف، بيد أنها لم تكن تراعي جانباً آخر من المسألة كان يقلق مضجعي أكثر من أي شيء آخر: فثرثرة الناس التي كانت ستتزايد جراء غيابها كانت بلا شك ستعمق الصدع

بيننا. كنت أود الاعتراف بأخطائي، واستعادة ثقتها. ففي نهاية الأمر، إن كنت قد خالفتُ عهدنا على الإخلاص، فذنبي كان يمكن اعتباره، على أقصى تقدير، من النوع الذي يُغتفر: إنه خطأ إخفاء بعض الأشياء عنها. أما هي، فكانت تسعى إلى أن يكون الصدع غير قابل للإصلاح. لَمَ لم تكن تهاجمني، أو تهينني، أو تعلن أمامي أسباب غضبها؟ ولَمَ لم تكن تمنحني الفرصة، لأن أبرر لها ما حدث، ولكي أعتذر لها؟

أمضيت ليلة مليئة بالكوابيس. كنت أرى نفسي أمشي خلف عربة الموتى، بمفردي، وسط جمع غفير من الناس، هدفاً لوابل من النظرات العدائية. كان خجلي يدفعني، في أحيان كثيرة، لأن أحدق في الأرضية، وفي مقدمة حذائي. هل كنت على استعداد للتطلع إليه طيلة الجنازة؟ أكان وجودي سيغدو كحضور رجل أعمى، مذنب، بجوار نعش تلك الفتاة، التي كنت أشعر نحوها بوطأة مشاعر ندم لا حصر لها؟

لحسن الحظ شاءت الأحداث اتباع مسار آخر لم أكن أتوقعه حتى في تلك المرة. في تلك الفترة، كانت «روزاريا» تشارك بشكل مكثف في نشاطات البلدية: فقد قلت لك مرةً إنها كانت تهتم برعاية المسنين كمنسقة للمشروع «بوني»، الذي أظن أنك سمعت عنه كثيراً خلال زياراتك لـ«بانيولي». كانت تقوم أيضاً باستقصاء آراء أصدقائها العجائز حول التحولات العنيفة التي يتعرض لها الحي. كانت أحياناً ما تقوم بهذا العمل بشكل مباشر، وأحياناً أخرى كانت تساعد باحثي مدرسة «لابريولا» الثانوية، وأساتذتهم النشطاء، في الاتصال بأولئك العجائز، والاستماع إليهم.

في صباح يوم الجنازة أخبرتني فجأة بأنها ستشارك فيها هي أيضاً،

أخبرتني بهذا بنبرة حادة، وكأنها تتحداني، حتى توضح أن الأمر لم يكن يتعلق لا بمحاولة للمصالحة، ولا بشكل من أشكال الندم.

فكرت سريعاً بأنها استشارت أحداً، لعله أحد تعرفه في البلدية (منذ سنوات عديدة لدينا في «بانيولي» امرأة نشطة للغاية كرئيس للهيئة الإدارية للحي، لها ابتسامة جميلة، وعينان نفاذتان، وفصاحة في اللسان سلسة ومقنعة. إن «روزاريا» تحبها كثيراً، وعلى استعداد لعمل أي شيء من أجلها...).

ارتدت ملبساً داكناً ذا لون رمادي، ولكن به عناية شديدة في التفاصيل: البروش، والوشاح، والتنورة الشبيهة بالجرس التي تصل إلى الركبة، الجوربان، والحذاء بنصف الكعب، الذي يزيد من طولها بالقدر الذي تحتاجه فقط. كانت تتطلع إلى نفسها في المرآة، تمر بيديها على خصرها في تعبير لا يدل لا على الإعجاب أو الازدراء، ولكنه يكشف عن شيء من حب التظاهر الذي لم أعتده فيها. لم تكن بالطبع تجهل وجودي، ولكنها كانت تتظاهر بالشرود في تلك الغرفة. كنت أنا أيضاً أتظاهر بقراءة الجريدة فاتحاً إياها بطريقة تجعلها تخفي وراءها كل وجهي، لكن، كانت تكفيني حركة خفيفة من يدي لأختلس النظر، فتقع عينايّ عليها بغتة، ثم أختبئ مجدداً. مرةً واحدة التقت عينانا: كانت قد بدأت في التزين، ومن ثم كان بمقدورها مراقبتي من خلال المرآة.

كنت مضطرباً ومندهشاً. كانت تبدو لي امرأة مختلفة عن عادتها، أقصد أنها لم تكن تتظاهر عادةً. بيد أنها في تلك اللحظة كانت تُمثِّل، وأحسب أنها لم تكن تدرك ذلك أصلاً.

أبصرت شفتيها تتلونان بلون أحمر خفيف، وعينيها تتكحلان بالسواد، ووجنتيها تكتسيان فجأة نضارة الشباب. تساءلت إن كانت تتجمل لي، أو للآخرين؛ وسألت نفسي عن الأفكار التي تدور داخل رأسها، وفي لحظة ما -عندما باتت متألقة، ومتعطرة، لفتت انتباهي لها معلنةً عن تهيئها لاجتياز «الاختبار»- انتابني الخوف حتى من تلك الأفكار.

حينما وصلنا إلى بيت «مارشيلا» كان ثمة جمع غفير عند البوابة. في الناحية الأخرى من الشارع كانت عربة الموتى متوقفة، عربة «مرسيدس» سوداء، جديدة، تبدو وكأنها خرجت للتو من المصنع. أدركت أنها لم تكن جنازة عادية، شاحبة، متعجلة، وحافلة فقط بالمصافحات الحارة. كنت أتوقع حدوث هذا بشكل ما.

لكي أكون دقيقاً، لم أكن متعجباً من ذلك الزحام، وتلك المجموعات التي كانت تتدفق دون انقطاع من آخِر الشارع الممتد، الكئيب، والمستقيم كالنفق، بل، على العكس، كنت سأندهش إن حدث خلاف ذلك. فثمة أشياء تعرفها دون حتى أن تتخيلها، ودون أن تفكر فيها. شعرت بالراحة حينما أدركت أنني لست هدفاً خاصاً لفضول الناس، بل إن «روزاريا» هي من أثارت الفضول قليلاً لدى بعض الرجال، ياه... يا سيدة «بوونوكوري»، أتعرفين أنني كدت ألا أتعرف عليك؟ أهنئك، إنك في أحسن حال...

كان الباب المعدني العمودي للورشة المجاورة لبيت «مارشيلا» منخفضاً حتى كاد يلامس الأرض. التفتُ حولي بحثاً عن العامل الذي كان يعرفني، والذي تبادلت معه حواراً صامتاً في المرة الأخيرة، التي

أتيت فيها إلى هنا. لم أره مما كان كافياً لي لكي أتنفس الصعداء. كان أحد الأيام الأخيرة للشتاء، كانت سماؤه صافية، وريحه عاصفة للغاية، وباردة. فكرت في «مارشيلا»: من المحزن حقاً الرحيل بينما الربيع على وشك الحلول. بيد أني أدركت سريعاً أنها لم تكن ملاحظة رقيقة، ولا ذكية، فالموت هو الموت مهما كان الموسم.

فلا يتعلق الأمر هنا بعقبة حالت دون وصولك في الموعد المحدد، أو بحدث ما أصاب خططك بالاضطراب. إنك لا تفقد موعداً مع الشمس، مع الأمواج، مع روعة السماء، بل إنك تفقد الموعد مع نفسك، ومع الحياة. وها أنا أخيراً أقول لها وداعاً، داهمتني رجفة حزن غريبة حينما تذكرت حوض أسماكها -بينما هي تجلس على حافة فراشها ترتدي لباساً خليعاً، وتمتلئ عيناها بالمحبة لي، وبالأسى لحياتها، يا له من نذير!

أحد مّا دعانا إلى الصعود: كانت الفتاة لا تزال ترقد في فراشها، وعلى فمها ترتسم ابتسامة خفيفة مفعمة بالعفو، ومتهيئة لاستقبال كل من أتى ليلقي عليها تحية أخيرة. نظرت إلى عينيّ «روزاريا»، وأنا أهز رأسي بحزم. لم تقل شيئاً؛ استدارت، وسارت بتؤدة صوب البوابة. وقبل أن تضيع بين الزحام أطلقتْ نحوي نظرة بدت لي نظرة عطف أكثر من أي شيء آخر. لعله كان عليّ أن أتبعها. لم أحسب نفسي أبداً رجلاً جباناً، وها أنا للمرة الثانية أتصرف فجأة بجزع شديد، مخزٍ، بينما بالي مشغول فقط بأن أنأى بجهازي العصبي عن التعرض لانفعالات عاطفية شديدة. شعرت بنفسي مجدداً وحيداً، خائفاً، حقيراً، مثلما حدث تماماً عندما جئت أسفل البوابة نفسها، وقررت، بعد تردد طويل،

التراجع عن مهمتي: رؤية «مارشيلا» تحديداً، وتحيتها، ووداعها. لقد ساء حالك كثيراً حقاً يا «بوونوكوري»، ماذا دهاك، حتى دون أن تدري، حتى يسوء حالك إلى هذه الدرجة؟ حدثت نفسي بهذا بصوت ينطق بالهلع، بصوت ينبعث من داخلي.

أصابني وصول مجموعة من الشباب لم أكن أعرفهم بالشرود، كانوا أناساً يبدو عليهم أنهم غرباء عن «بانيولي». كانوا خمسة أفراد هبطوا من سيارة فخمة. لعلهم كانوا قادمين من «نابولي»، أو من «فووري غروتّا»، أو من منطقة أبعد من ذلك المكان الشاسع، المتلاحم، والمكتظ بالناس المُسمى بالمدينة المُقاطَعة؛ بل بالمدينة الإقليم، أي باختصار، مدينة «نابولي» اللامتناهية، التي لم يعد أحد يعرف أين تبدأ حدودها، وأين تنتهي.

لم يروقوا لي. كان يبدو على ملامحهم علامات لا تخطئها العين تشير إلى حياتهم الفاسدة، وإلى ترفهم المشبوه وبطالتهم الممزوجة بالثراء الفاحش. رغم هذا نظرت إليهم دون أي ضغينة، فإذا كانوا قد أتوا لحضور جنازة «مارشيلا» فهذا يعني أنها كانت مهمة بالنسبة إليهم. قدمت لهم نوعاً من الترحيب الصامت، فقد فكرت أن من يقف هنا فإنه يقف مع الرب، ومع تلك الفتاة المسكينة. دلفوا بثبات إلى داخل البوابة.

وصل أناس آخرون، ومن بينهم خال «مارشيلا» «تشيزاري لو بريستي». كان قوامه قد امتلأ، وكانت تفوح منه رائحة القهوة، والكرواسون، والكابوتشينو: فكم أكل منها واحتسى؟ رغم بدانته التي كانت لا تزال في بدايتها، فلم يفقد مطلقاً طبيعته الفاحشة قليلاً

كـ«دون جوان»، وكرجل عديم القيمة. كانت تحيته باردة؛ وكان سلامي أكثر برودة بدوره. شرعتُ في الفرار من ذاك المكان، فقد أصابني ضيق تنفس بطيء، جعلني أعيش تلك الجنازة وكأنني أحلم متأرجحاً بين لحظات من الصحوة والغفوة، والظلمة والغيبوبة الحقيقية.

مضى وقت طويل، ليس بوسعي أن أحدد قدره. أذكر أني صافحت أيادي كثيرة، وأومأت كثيراً برأسي لألقي التحية؛ وتمتمت مرات عديدة ملقياً السلام. برز «مارتينيز» من البوابة فجأة، وما إن رآني حتى ركض نحوي، وعانقني. لم يقل لي ولو كلمة واحدة، وكنت شاكراً له لهذا أيضاً.

بدأ الهواء يصبح أكثر دفئاً. لا أزعم أن الطقس لم يكن بارداً، ولكن ما إن كانت الريح العاتية تتوقف، ولو قليلاً، حتى كنت أغمض عيني طالباً العون من الشمس، التي كانت تداعب جبهتي، وعنقي، وشفتي بحنان كالأب. كنت أتظاهر باحتسائي لها، وكأنها شراب ساخن. في نهاية شارع «بانيولي»، عقب الميدان الذي يحمل الاسم نفسه بقليل، أبصرت بعض الأعلام الحمراء تبرز في الأفق. كانوا يتقدمون نحونا كمجموعة واحدة متماسكة، ولكن، لم يكن في وسعنا بعد التعرف عليهم. تذكرت أن أبا «مارشيلا» لم يكن فقط مجرد نقابي عنيد، على استعداد دوماً لأن يقدم روحه، وذكاءه لمناصرة القضايا العادلة، ولكنه كان ناشطاً شيوعياً متحمساً أيضاً، مقاتلاً أحمر قرمزياً، ورجلاً من الرجال القلائل الذين يقول عنهم أحياناً «مارتينيز»: «إنهم رجال لم ينقرضوا رغم مرور الزمن»، وليس كما حدث مع كثيرين آخرين تنقلوا بين كل درجات اللون الأحمر، والبرتقالي، والأصفر، لينتهي بهم الحال

جميعاً أخيراً إلى اللون الرمادي، أو حتى إلى درجة أدنى من ذلك.

تنشقت رائحة زهور بخور مريم البنفسجية اللون، والوردية حتى قبل أن أراها: ها هو الربيع يداهمني، التفتُ ناحية السيارة المرسيدس. كانت هناك زهور الخبازي، وزهور بيضاء أخرى لم أكن أعرفها وُضِعت جميعها في السيارة التي كانت ستحمل النعش. كانت باقات الزهور قد فُتحت، وبُعثرت بحيث تتحول إلى ما يشبه فِراشاً متعدد الألوان. كانت الجموع كلها ترنو صوب العربة المرسيدس: هدأ اللغط الصاخب التلقائي فجأة، وحلّق الصمت فوق رؤوسنا، وكأنه توبيخ، أو دعوة مفاجئة للعودة إلى الواقع.

أبصرت «روزاريا» ثانية. ظهرت وهي تتأبط ذراع زوجة «مارتينيز» بين الزحام الذي كان مرابطاً أمام البوابة، وما وراءها في بهو الدرج، والمصعد. كان على وجهها شحوب الموتى، ولاسيما جبهتها التي كانت تكتسي بلون أبيض غير طبيعي، بياض الزهور التي لم أستطع التعرف عليها، وبياض الألم الذي لا يمكن كبح جماحه. شيء ما على وجهها أخبرني بأنها كانت قد بكت: لعله مسحوق التجميل، وقد تشقق على وجنتيها. كانت عيناها الداكنتان أكثر لمعاناً من المعتاد، بينما منخرا الأنف حمراوين. تقدمت نحوي بثبات بعد أن انفصلت عن ذراع السيدة «مارتينيز». كانت قبضتاها مضمومتين، ويبدو عليها الحزن.

كانت قد اقتربت مني لكي تتكئ عليّ، حتى أني رحت بحركة تلقائية أقدّم لها ذراعي لكي تستند إليها. بيد أنها عادت إلى وعيها فجأة، فتصلب جسدها دون أن تتيح لي أن أقوم بحركة أخرى كما كنت أرغب.

أفقتُ من حالة السبات التي كنت عليها، فأبصرت وجه عامل الورشة المجاورة لبيت «مارشيلا». لا أدري من أين خرج، وكان ينظر إليّ مندهشاً للغاية، ومتحيراً هل يلقي عليّ التحية أم لا. لم يكن يرتدي رداء العمل، بل سترة، وربطة عنق. قبل أن أغيب عن نفسي، أذكر بأني ابتسمت له: طاب يومك، عذراً، إنه أنا، لكن، كما ترى، إنني هذه المرة أكثر شروداً، وذهولاً من المرة السابقة، ومُحركاتي كلها منهكة.

عندما وصل النعش كنت أرتجف من البرد: كان أزيز الريح الشمالية يلف المكان، فيرفع الورق، والتراب من الطريق إلى مسافة كيلومترين أمامي. كان سائق المرسيدس قد أوقف العربة بجوار البوابة مولياً مقدمتها نحو البحر، وكنيسة «سانتا ماريا ديزولاتا»، أما الباب الكبير الخلفي فكان مفتوحاً على مصراعيه، ومتهيئاً لاستقبال الضحية.

حينما بلغ حمَلة النعش الأربعة عتبة البيت علا من الزحام تصفيق صار، شيئاً فشيئاً، أكثر حماسة، وجلبة. توقف الأربعة («تشيزاري لو بريستي»، وعاملان آخران، كان قد عملا طويلاً مع والد «مارشيلا» في وحدة التلبيد حتى صاروا أصدقاء لا ينفصلون، وعم للفتاة، كنت أعرفه فقط رؤيةً، وكان يقطن في حي آخر بعيد عن «بانيولي») وهم يحملون ثقلهم على أعتاقهم وكأنهم مندهشون، وجزعون. انتفض «لو بريستي» وكأنه ينبه الجميع؛ وراح اثنان من حاملي النعش يفركان أعينهما جراء الضوء المبهر. في اللحظة التي بدأ فيها الموكب بالتحرك التقت عيناي بعيني أم «مارشيلا» للمرة الأولى.

كان يبدو وكأنها هرمت، وبلغ عمرها المئة عام، ورغم هذا، كانت لا تزال تبدو امرأة قوية تقبض على عنان مصيرها. أومأت برأسها لي

بطريقة غير ملحوظة، إشارة تدل على رضاها، وكأنها تحمل إليّ رسالة تفهّم: إني أفهمك، لست غاضبة منك مطلقاً، ليس الذنب ذنبك، فلتهدّئ من روعك...

لا أذكر إن كانت العربة المرسيدس قد قطعت مسافة مئتي متر تقريباً أو لا ونحن نقف بجوارها، حينما وصلت رئيسة الدائرة في البلدية، التي كان يبدو عليها الإنهاك. أخذتْ مكانها سريعاً خلف أم «مارشيلا» التي كانت تتصدر الموكب مع بعض الأقارب: زوج الأخت، وأخوها «تشيزاري لو بريستي»، وبعض أبناء عمومة «مارشيلا»، وأناس آخرون لم أرهم من قبل في حياتي.

كانت رئيسة الدائرة ترتدي ملبساً يكاد يشبه لباس «روزاريا»، ولكن كان يغطي رأسها وشاح معقود أسفل ذقنها. لم يكن لديّ أدنى شك أنها أتت إلى الجنازة بشكل رسمي لتقول للجميع إن «بانيولي» بأسرها كانت هناك بجوار الفتاة الفقيدة: يا «مارشيلا» إن «بانيولي» معك، وتذرف الدمع من أجلك؛ يا «مارشيلا» إنني «بانيولي» التي لا يستطيع قلبها أن يطمئن، أو يجد الراحة جراء كل المصائب التي انهالت عليها؛ إنك بجمالك، وبشبابك الغض، وبمصيرك الرهيب ترمزين إليها بطريقة مؤلمة. يقول الجميع إن الشباب لا يتذكر شيئاً، وإنهم لا يريدون التذكر، بل إنهم يفرون من الحي إن استطاعوا لذلك سبيلا، ولذا فإننا نشعر جميعاً بالحزن، ونبكيك مرتين: مرة عليك، ومرة أخرى للأشياء الأخرى التي يكشف لنا عنها موتك...

كانت تلك الكلمات جزءاً من الهواء الذي نستنشقه في تلك الأيام. في العام السابق كشف استقصاء سريع قامت به مدرسة «لابريولا»

الثانوية على عينة من عشرة طلاب، تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة، أن «العلاقة مع الماضي لم تكن تمثل لهم شيئاً». علّق الأساتذة على نتيجة الاستقصاء قائلين: «إنه يُنظر للحي على أنه منطقة للإقامة فقط، ولذا فإنهم يقضون وقت فراغهم في أماكن أخرى». أما المصنع، فلم يتبق منه في ذاكرتهم سوى ثرثرة مبهمة، وبعض الأقاويل العابرة («لقد تركت الحكايات التي يرويها الأجداد أثراً حقيقياً لدى طالب واحد فقط»).

كنت أقصد أن أقول لك فقط إنه عقب وفاة «مارشيلا» بسنة واحدة فقط توفي شاب آخر قتله شرطي، وفي جنازة ذلك الشاب –كان شاباً نصف ضائع، ابناً للاضطرابات الاجتماعية التي عصفت بالحي– كانت «بانيولي»، مرة أخرى، حاضرة، ومتماسكة. ورغم كل شيء، راحت تبكيه، وتبكي نفسها، والمصنع الضائع، والعنف المتفشي، وهشاشة آمالها في النهوض ثانية.

عندما اجتزنا البرج المرقط بدا لي أن العربة أبطأت من سيرها، فظننت أن أحداً ما من أقارب «مارشيلا» هو من طلب هذا. كان الموكب من خلفي يمتد مئات الأمتار، ويزداد طولاً مع توافد مجموعات جديدة أخرى كانت تأخذ مكانها بشكل منتظم في ذيل الموكب.

كانت الأعلام الحمراء قد ازدادت عدداً أيضاً: كانت تبدو وكأنها أسلحة انشقت عنها الأرض، سعيدة بأن أحداً قطع عليها استرخاءها الكئيب، وفرحة برياح الشمال التي كانت تتلاعب بها بقوة، دافعة إياها إلى الرفرفة، والغناء.

في ما وراء السور المحيط بالمصنع كانت تتراءى قمم بعض البنايات

التي نجت من إعصار التسريح. ما إن بلغنا أشجار الكينا المصطفة حتى أحنت رؤوسها متأثرة لمرور موكب «مارشيلا»، بُوركت أيها الريح الشمالية! أبصرتُ بعض الشبان المتوقفين في تلك الناحية من الطريق، تحت ظلال أشجار الكينا، يشاهدون في سكون، وجزع أليم مرور العربة الجنائزية: خلع أحدهم قبعته، وقام آخر بعمل إشارة الصليب. أثار دهشتي وجود رجل بينهم مختلف عنهم، أنيق، بشعر رمادي اللون، ناعم، ومصفف بعناية. أكنت أعرفه؟ لقد التقيته في مكان ما: لكن أين؟ ومتى؟

على يميننا كان أناس كثيرون، ولاسيما نساء وأطفال، يطلون من الشرفات، فضلاً عن بعض الأزواج، والأجداد، والآباء. برزت امرأة في منتصف العمر ترتدي روباً من شرفة في الطابق الثاني، وراحت تلقي زهوراً بيضاء، زهرة تلو أخرى، على العربة. تطلعت إليها كل الأعين لفترة طويلة خلال مرور الموكب، ورفعت أم «مارشيلا» ذراعها لتلقي التحية عليها، أو لعلها كانت تشكرها، ثم رأيتها تبكي للمرة الأولى بكاء شديداً.

متى تفحصت بدقة شديدة هكذا ذاك الطريق المستقيم كالكابوس؟ ففي ناحية منه ينتصب المصنع بسوره الرمادي، العسكري، المتسخ قليلاً كباقي الأسوار؛ وفي الناحية الأخرى ثمة صف من المباني غير المتشابهة: فمنها ما هو قديم ومتداع؛ وأخرى حالتها أقل سوءاً، ذات طوابق سبعة، أو ثلاثة، وفي بعض الأحيان طابقين فقط. ثمة فيلاَت أيضاً تنتمي إلى عصر مضى، تعلو أمام كل منها نخلة بديعة، بجذع متين؛ وسعف كثيف يشبه المظلة ويجود قطفه احتفالاً بمراسم أسبوع الآلام.

ولكيلا أغيب عن نفسي مجدداً، رحت أبحث عن ذاك الرجل ذي الشعر الرمادي، ولكني لم أعثر عليه. لم يؤثر في مشاعري مطلقاً مشهد أم «مارشيلا» وهي تنهمر في البكاء. أدركت فجأة بأني رجل حذر للغاية، حتى أنه حينما كانت صورة الفتاة تعود إلى مخيلتي كنت أفعل أي شيء لأبعدها عني. كان الأمر وكأننا عدنا إلى اللعبة القديمة: هي تحاول إغرائي، أما أنا فأقاومها.

كانت المرسيدس قد وصلت تواً إلى فيلا «أنجيليكا» التي يقارب ارتفاعها العشرة أمتار (مكونة من طابق أول، يعلوه طابق علوي صغير). رحت أحملق فيها بإصرار شديد رغماً عني. كانت داراً تمتلئ خيلاء، وكلفة، بلونها الأحمر القاني، الذي يضطرم في الأعين، وكأنه نار تنبعث من الفرن العالي إلى عنان السماء المفتوحة. حدقت فيها بقدر ما استطعت، إنها خاملة غريبة، تشبه الحمامات الرومانية بشكل يثير الشفقة، رمز لذاك التزاوج السياحي الصناعي الذي حدثتك عنه كثيراً. لبثتْ تلك الفيلا لفترة طويلة هدفاً لشرودي الطويل في اللاشيء الذي كنت أبحث عنه.

***

في نهاية شارع «بانيولي»، وقبل الدوران إلى شارع «إينيا»، لاجتياز جسر السكك الحديدية بـ«كومانا»، حدث شيء غريب أصابني بالدهشة، لاسيما لطبيعته الرمزية، أو، على الأقل، للقيمة الرمزية التي نسبتُها أنا إلى ذاك الحدث بشكل تلقائي، غريزي. فقد عصفت الريح لثلاث مرات متعاقبة، كل مرة كانت أعنف من سابقتها. أبصرت حاجيات مختلفة، قبعات، أوشحة، جرائد، وأعلاماً تطير بعيداً، وترتفع

عالية في السماء، لتهوي، ثم ترتفع ثانية أعلى، وأعلى من ذي قبل، وأناساً يسعون وراءها بشكل مضطرب، وكأنهم يحلقون خلفها، ويدورون في دوامة حول أنفسهم.

فمن أي جهة كانت تعصف تلك التيارات الهوائية الشديدة، التي كانت تبدو وكأنها تريد اقتلاعنا جميعاً، الجنازة بأسرها، من مرسانا الطبيعي؟ كان البعض يتحدث عن عاصفة بحرية، عن اضطراب مناخي حقيقي، والبعض الآخر أشار إلى حدوث هزة أرضية خفيفة. حينئذ، لم يفطن أحد لشيء. سُمع بعض الصراخ، وراح آخرون يرددون «يا إلهي... يا إلهي» حينما اشتد سوء الطقس: حتى «روزاريا» فقد اضطرت، رغماً عنها، أن تتشبث بي حتى لا تقع. ضممتها واضعاً ذراعي حول كتفيها، وشددت عليها بقوة حتى أنها احتجت –إنك تؤلمني... تؤلمني...– بيد أني لم أستطع أن أخفف من قوة عناقي لها. حينما أفلحتْ في التملص مني، نظرتْ إليّ بغضب: أجننت يا «بوونوكوري»؟ كانت عيناها تمتلئان غضباً: يا «بوونوكوري» لقد فقدت عقلك تماماً، لقد ساء حالك كثيراً... كثيراً جراء هذه القصة.

اجتزنا سالمين جسر السكة الحديدية الكائن بشارع «إينيا» دون أن يكون علينا تحمل مهانة الانتظار. كانت حركة السيارات قد أُوقفت منذ فترة في شارع «مايوري»، حيث تم تحويل مرور السيارات إلى مكان آخر: كان جمع غفير آخر قد احتشد أمام الكنيسة في انتظار وصول العربة، والموكب.

للأسف، ليس هناك متسع كبير أمام كنيسة «سانتا ماريا ديزولاتا»: فواجهتها الرائعة كانت بحاجة أمامها إلى ساحة جميلة مشمسة ذات

مزهريات، ومقاعد، وحينها فقط كان سيُمكن حقاً تثمين روعة الأعمدة الستة، التي تستند إليها القوصرة المثلثة للواجهة، والتي تمثل عنصراً تقليدياً في كل المعابد اليونانية الرومانية.

جلست أنا و«روزاريا» في الكنيسة في الصف الثالث، على بعد خطوات قليلة من النعش. حدث هذا مصادفة، وندمت على هذا في نفسي، ولكنني لم أستطع عمل شيء لكي أتجنب هذا الموقف. حينما بدأ القداس لم أجد شيئاً أفضل أفعله غير التحديق في الكاهن العجوز للغاية بوجهه الجميل العفي، رغم ما خلّفه الزمن عليه من آثار. كانت إيماءته هادئة متأنية كمن يؤدي طقساً من الطقوس، ولكن بدا لي في الوقت ذاته أن به رغبة شديدة في الإيجاز.

إلى جوار النعش كانت الشمعة الكبيرة الخاصة بمراسم التعميد والجنازة موقدة، أي عند بداية الحياة ونهايتها، ولهذا فعادةً ما تُزين برسم الحرف الأول والأخير من الأحرف اليونانية عليها: ألفا، وأوميغا، أي الدائرة التي على وشك الانغلاق.

لا أدري، فقد غرق كل الحاضرين في أفكارهم. لا أعتقد أنها كانت كلها أفكاراً حزينة. تفحصت بعض الوجوه في الجوار، وأقسم لك أنها كلها كانت هادئة مطمئنة، بل إنها كانت تكشف عن ابتسامات خفيفة. من ناحية أخرى، كانت «مارشيلا»، بلا شك، فتاة حزينة، ولكن هذا لم يكن يمنعها من السخرية، والضحك كثيراً. بل إني في مرات كثيرة شاهدتها وهي تكاد تنفجر من السعادة، حتى أن ذقنها كان يرتفع فجأة، ويتلألأ بريق في عينيها القاتمتين، وينفتح فمها على وسعه وكأنه يريد ابتلاع العالم بأسره، ثم تأتي صرختها في النهاية: قهقهة طويلة، حادة،

كجدول يغدو شلالاً، فيهوي مدوياً. كانت تضحك بحماسة شديدة، حتى أنها لم تكن لتقدر على الكلام: يا «بوونوكوري»... حينما... تنظر إليّ... هكذا... تجعلني... لو تعرف... كيف... أنت مضحك!

أحياناً، كانت تستمتع بتقليد الناس والأصوات، على سبيل المثال صوت أمها، أو صوت «مارتينيز». حاولتْ يوماً أن تقلد حتى صوتي، ولكني احتججت عليها، وقلت لها بأني لا أتحدث بتلك الطريقة. أردفت «مارشيلا» قائلة: حتى لو كان صحيحاً ما قلتَه، ولكن الأمر المؤكد أن أمي منذ أن رأتني في الصباح أقلدك لم تتوقف عن الضحك إلى الآن.

طلب منا الكاهن أن نتبادل التحية في ما بيننا، فشد كل منا على يد الآخر، وشددت أنا على يد «روزاريا»، ولكن دون أن تلتقي عينانا. علت في الكنيسة تمتمة كبيرة: قال كل منا شيئاً إلى الآخر، فكرت: من يدري ماذا كانت لتقول «مارشيلا» لو كانت حاضرة في جنازتها. كانت ستصبح فخورة، ومتعجبة، ومتحمسة، وكانت لتعلق قائلة: أترى يا «بوونوكوري»؟ حينما كنت على قيد الحياة لم أكن أساوي قطعة فلين عفنة؛ أما الآن، فيبدو وكأن ملكة هي مَن ماتت. أو كانت لتقول بصوت مشروخ من المرارة: فلتنتبه! إن كل هؤلاء الناس ليسوا هنا من أجلي. الله يعلم لِمَ أتوا: وبالأعلام الحمراء. أجل، لقد كان أبي شيوعياً سيء الحظ، ولكن ما شأني بهذا؟ يا «بوونوكوري» إنهم يريدون خداعي وأنا ميتة أيضاً...

فقدت مجدداً كل صلة لي بالواقع. أردت أن أفقدها. كان الأمر وكأني رحت في النوم لأغيبَ عن ذاك المكان، بل عن كل الأماكن.

حتى أصوات آلات الغيتار التي كانت بحوزة بعض الشباب، وكانت تصاحب غناء فتاة مجهولة كانت تنشد ترنيمة «يا ماريا المباركة» بطريقة غريبة لم أسمعها من قبل، فلم تفلح في إيقاظي كلياً. عقب العظة، ومن أعلى المنبر ذي المِقرأة الرخامية ونسر منحوت يرمز لنسر الإنجيليين، حاول شاب أن يقدم وصفاً لشخصية «مارشيلا»، ولنزواتها، وبما كانت تتسم به من حماسة نحو الآخرين. قال بأن الإنجيل يوصينا: أَحب قريبك مثلما تحب نفسك، ثم أضاف بنبرة قوية: ولكنها كانت تحبه أكثر من نفسها، بل أكثر بكثير.

لاحظتُ «روزاريا» بطرف عيني: كانت نظراتها مبللة بالدمع مثلها مثل أناس آخرين في تلك اللحظة. أحسب أنها تنبهت تماماً إلى أنني كنت أنظر إليها رغم أنها تظاهرت بأن شيئاً لم يحدث. حينئذ رحت أنظر إليها بصورة أكثر إلحاحاً، فقد كان يغمرني إحساس بالعرفان لها، والإعجاب بها، ولكن كيف كان لي أن أعبر لها عن هذا؟ كان بوسعي، على أقصى تقدير، أن أجعلها تفهم هذا، بافتراض أنه كان بمقدوري ذلك! ظل سلوكي لا غبار عليه إلى النهاية: قبّلت بحرارة وجنتي أم «مارشيلا»، وشددت على أيادٍ كثيرة، تحسست بأصابع حانية نعش الفتاة وكأنني كنت أبغي التشبث به حينما أمسكوه ليحملوه بعيداً. كانت «روزاريا» مفعمة بالشجاعة، والكرامة في كل لحظة بطريقة محسوبة، وظاهرة للغاية (فلتتعلم يا «بوونوكوري»! كان يبدو لي أن كل حركة تصدر عنها كانت تردد لي هذا. فلتتعلم كيف تتصرف في هذه الحياة!).

-33-

إن هذا الفصل يرغب أن يكون ختاماً، كنقش على قبر مكتوب بضمير الغائب. إن «بوونوكوري» يقول: «إن حكايتي تنتهي هنا»، ويحني كتفيه وكأنه يريد الاعتذار لي عن شيء مّا. ثم يضيف قائلاً: «أعتقد أنني رويت لك كل شيء، بل أكثر مما هو ضروري».

تبدو عليه المعاناة، بل وحتى قليل من الاشمئزاز. إننا في غرفة صغيرة منفصلة في الأرشيف ضيوف على «جينارو دانوبيو» في أحد لقاءاتنا الأخيرة الخاصة بالعمل. أحاول أن أبتسم له مشجعاً إياه، فعقب كل مسرحية يكون الممثل منهكاً، وكلما زَادَ من جهده، وأمعن في بذل روحه في التمثيل اشتد تعبه وإرهاقه، فيغدو خاوياً مستنفذاً. يقول: «الآن، عليّ فقط أن أعيد حياكة علاقتي مع «روزاريا»: فليس لديّ أي عمل آخر غير هذا. فبالنسبة إليّ، على الأقل، كل شيء قد حدث وانتهى، وكأنه لن يحدث أي شيء آخر بعد الآن».

إنه سيحال عما قريب إلى التقاعد نتيجة للقانون الذي يتناول حالة من تعرضوا لمادة «الأسبستوس»، والذي سيُنقص بضع سنوات من مدة بقائه في العمل. لعلهم سيطلبون منه أن يبقى بطريقة استثنائية لبعض الشهور أو السنين، أو ربما لا: لا يعرف جيداً، إن الشكوك تملأه. يعلق قائلاً: «إنه لأمر حقيقي فعلاً، وكأننا جميعاً داخل إحدى الروايات: إنك تدرك سريعاً حينما توشك على الانتهاء، فتقرأ السطور متلهفاً، ومتسائلاً إن كان في ما تقرأه يكمن مغزى عام أكثر عمقاً مما يبدو لأول وهلة...».

لا يبدو هذا سؤالاً، ولكنه هكذا بالفعل. أجيب قاطعاً: «كلا، لا يوجد أي مغزى». حينئذ يطلق نحوي إحدى نظراته الماكرة الساخرة. يقول: «حسناً...حسناً، ولكن الفرد منا يأمل دائماً، يفكر أن هذا المغزى قد ينكشف لي في اللحظة الأخيرة».

كلا يا عزيزي «فينشينسو»، لن ينكشف لك أي شيء في اللحظة الأخيرة، باستثناء أن الحياة ما هي إلا شبكة معقدة من التناقضات (ستفهم هذا!)، وأنها رواية عليها أن تحكي قصة فقدان شيء ما، وقصة شيء ما كان موجوداً ثم اختفى: أمل، وإحساس، وامرأة، ومهنة، ومصنع أيضاً، بل وعالم، وحضارة، وتراث، وعصر مضى وولّى. إن الروايات هي قوائم للأشياء الضائعة، وحيث إننا نُصاب بالألم حينما نفقد شيئاً ما، فهي عادة ما تكون قصصاً حزينة، ومؤلمة.

عند هذه النقطة بالذات أتخيل أنه ينبغي عليّ أن أقول شيئاً عن علاقتي بـ«بوونوكوري». فقد سارت الأمور بيننا في أغلب الأحوال على هذا النحو. في اليوم التالي على جنازة «مارشيلا» عاد الجميع ظاهرياً إلى حياتهم المعتادة. ذهب «بوونوكوري» كعادته إلى مكتبه، فأعطاه المهندس «بيلّو سغواردو» على الفور عملاً طارئاً ينبغي عليه أن ينفذه على عجالة، فقام بتنفيذه بجد، واجتهاد. حتى مشكلته مع «روزاريا» فقد نأت عن رأسه، أي أنه لم يفكر فيها حتى حلول المساء. بيد أنها داهمته في الصباح التالي حينما أخبرته «روزاريا»، للمرة الأولى، بنيتها في الابتعاد عن البيت لفترة حتى تفكر بهدوء في علاقتهما الزوجية، وفي مشاعرها نحوه.

شعر «بوونوكوري» بأنه قد تجمد، ولكنه لم ينطق بشيء. أصر بشدة

في يوم رحيل زوجته على أن يصطحبها إلى محطة السكك الحديدية المركزية. لم تكن ترغب هي في هذا، ولكنها لم تستطع منعه (بعد هذه المرة ابتعدت «روزاريا» عن البيت مرتين، وفي كليهما كان ابتعادها بهدف «الحصول على فترة للتفكير»، ولكن ذلك التفكير، حسب علمي، لم ينته أبداً باتخاذ قرار نهائي). كنت قد وصلت إلى «بانيولي» في ذلك الصيف، أي عقب شهور قليلة من هذا. لم أضع وقتاً، واقتنعتُ بأنه كان الشخص الذي كنت أبحث عنه. قلت له، ووافق هو على الفور أن يفتح لي قلبه، وأن يقص عليّ كل تفاصيل حياته. منذ ذلك الحين، قطعنا معاً، مرات لا حصر لها، تلك الساحة القفراء المغطاة بالجروح. كنت أسأله وابلاً من الأسئلة مرغماً إياه على أن يتحمل عبء شكوكي، وندمي، وأفكاري، وأحزاني. من ناحية أخرى، كنت أتحدث مع الجميع طالباً منهم أن يؤكدوا لي ما سمعته منه: كان زملاء «بوونوكوري» يتمتمون في أذنه قائلين: يا له من فضولي هذا الصديق! في الحقيقة، كانوا فقط غيورين منه. كان يشرح لي بينما تبدو عليه الخيلاء: «لن تتخيل كم هم مستعدون لأن يدفعوا حتى يكونوا في مكاني. ماذا يمكنهم أن يدفعوا لك لكي يستطيعوا أن يقصوا عليك حياتهم، ليقرأوها في ما بعد، في يوم من الأيام، وقد تحولت إلى رواية؟ فلتصدقني، إن صداقتك، وقربك مني قد ساعداني في اجتياز فترة صعبة للغاية».

أخيراً، ومنذ أيام -عقب سنتين ونصف السنة من تعارفنا- أعطيت لـ«بوونوكوري» روايته. كان كلانا يشعر بالحرج. اتسعت عيناه أمام جبل الورق الذي أمامه، سألني وهو يتظاهر بالهلع، الهلع السعيد في الحقيقة: «أأنا قلت كل هذا؟». حاولت سريعاً أن أوضح الأمر قليلاً: في

الحقيقة، فقد اختلقت أحداثاً أخرى قليلة؛ وإننا كنا قد اتفقنا على هذا وفق شروط محددة...

لم يتصل بي لمدة أسبوع. وأخيراً، تلقيت منه برقية أمس: «إن كل شيء على ما يرام. فلا أهمية للأكاذيب حينما تكون مشابهة للحقائق، إني أنتظرك».

حينما التقينا عانقني، وقال: «فلتصدقني، إنني رجل أكثر بساطة جداً مما أظهرتني. أأنا المسؤول عن هذا؟ أأنا تحدثت لك عن نفسي حقاً بكل هذا الإطراء الذاتي؟ من الأنسب لك، في هذه الحالة، أن تذهب، وتسأل زملائي في العمل عن رأيهم فيّ، وسترى أنهم سيضعون لك الأمور في نصابها، حتى أنهم ربما يتمادون، ويصفونني بالوغد القادر على فعل أي شيء: مَن؟ «بوونوكوري»؟ إني أُوصيك به، إن ذاك الرجل لقادر على أن يطأ جثمان أمه إن لزم الأمر ليُفسح الطريق لنفسه...».

خرجنا من مكتبه متجهين نحو الجسر الشمالي لنستمتع بمشهد الغروب المضطرم. قال لي بنبرة مازحة لا تحمل أي تهديد: «أريد أن أحدّثك عن أكاذيبك. في مجمل الأمر، فإن لديّ بعض الشك».

كان الخليج بأسره يشبه الحريق. في عرض البحر، أمام «نيسيدا»، كان ثمة سرب كبير من القوارب المشاركة في أحد السباقات تتقافز في البحر: كانت تشبه طيوراً حمراء ذات أجنحة مفرودة تحلق مشتعلة فوق سطح الماء.

مررنا بسيارته أمام قطار التصفيح الذي كان لا يزال قيد التفكيك. يبدو أن التايلنديين الذين اشتروه ليسوا في عجلة من أمرهم: يُقال إنهم ربما لا يمتلكون المال الكافي لتغطية كافة النفقات الخاصة بعملية النقل

الهائلة، حتى أنهم استدعوا عمالاً صينيين لكي يوفروا في التكاليف: يقول «بوونوكوري» إنهم رجال يعملون كالعبيد من أجل قدر زهيد من المال. كانت ساحة المصنع السابق تبدو أكثر من أي وقت مضى كساحة حرب تمتلئ بالأنقاض، وبالصمت. تغطي الأرض هنا وهناك بقع سوداء، لتبدو كفراغ شاسع، نادراً ما يقطع امتداده في الأفق بعض الهياكل المعدنية القديمة: بعض بقايا المفحمة وقد ملأتها شقوق عمودية كثيرة شبيهة بالقضبان المعدنية لمنفاخ آلة الأكورديون؛ ومدخنة عالية مهيبة؛ وطابية حربية نائية وحانقة.

سألني «بوونوكوري» بتعبيرات حزينة بينما كان يقود سيارته، وقال لي: أتصدق أنت أن فوق كل هذه الأراضي سيخرج للنور منتزه أخضر بمزهريات وورود، ومزوّد بتجهيزات للدراسة، وللثقافة، ولقضاء وقت الفراغ؟ أتصدق أنت هذا؟

وبما أن السؤال لم يكن بحاجة مُلزمة إلى إجابة، فلم أقل شيئاً. تركنا السيارة عند أول الجسر، ورحنا سيراً على الأقدام. كان خريفاً معتدل الطقس (لوقت طويل سيُذكر ذلك الاعتدال السيئ لخريف عام 2001) ويكاد يشبه الصيف: كان كل غروب أكثر اضطراماً من سابقه، وكانت نيران شتى تجثم على الأشياء، وعلى القلوب والعقول.

كان البحر بنفسجي اللون. جلسنا على حافة قضيب خشبي، سألته بحذر: «أترغب في التحدث عن أكاذيبي؟». هز رأسه: «كلاّ، لا أريد التحدث عنها، كنت أمزح في السابق، فإن كانت تروق لك فإنها تروق لي أيضاً».

«أتعتقد أنه ينبغي عليّ في نهاية الكتاب أن أذكرها صراحة: الأكذوبة

الأولى؛ الأكذوبة الثانية، الأكذوبة الثالثة...؟»). هز رأسه مجدداً: «لا أعتقد هذا، فليظن الناس ما يريدون ظنه، فليس علينا أن نبرر شيئاً لأحد. إن ضميرنا مرتاح».

أحسنت يا «بوونوكوري»! إننا لا ننوي الكشف عن أي سر لسبب بسيط هو أنه ليس لدينا أسرار نفشيها. ثمة حد فاصل وحيد بين الحقيقة والكذب وهو حد الأمانة. لقد روينا -ويمكننا أن نقسم على هذا- هذه الحكاية بكل ما تستحقه بقلب نقي، وبأمانة تامة.

تمت

الإقالة من الحياة

في تلك الأيام نشرت إحدى الجرائد إحصائيات، واستبيانات كانت تبرهن على أن الجيل الجديد في الحي كان يرغب في الرحيل للحياة في مكان آخر. كان يُنظر بضيق نفسي إلى «بانيولي» على أنها مكان تعمّه المشاكل، والأزمات، وعلى رأسها أزمة البطالة والجريمة.

أما بالنسبة إلى رجل مثلي قادم من قلب «نابولي» القديمة فـ«بانيولي» كانت أقرب إلى أن تكون قرية. لم تبد لي أبداً من قبل مختلفة، وبعيدة عن أن تكون مدينة مثل تلك اللحظة. بل إنها كانت بعيدة كل البعد عن أن تكون أي شيء، إنها شطر منعزل من الإنسانية، جزيرة دون راية. من ناحية أخرى، لم يكن ثمة داع للتعجب من هذا. كانت «بانيولي» قد توحّدت مع المصنع، فما لبث أن اختفى المصنع حتى تلاشت هي أيضاً، باتت عدماً، باتت بلا مستقبل. أيوجد شيء أكثر قدرة على التبخر من الأمل؟ لفترة طويلة كان الأمل يقطن بيت «بانيولي» بفضل المصنع ثم هجر فجأة المكان دون أن نعرف عنه شيئاً.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

9 789948 170204